تيسير التفسير

لقطب الأئمّة

الشيخ الحاج محمد بن يوسف أطفيّش

(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء السابع)

تحقيق وإخراج

الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي

بمساعدة لجنة من الأساتذة

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد ويازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى طلاي ومصطفى اشريفي



﴿ قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبّت الذين

ءامنوا وهدًى وبشرى للمسلمين ﴾ .

(سورة النحل ءاية ١٠٢)

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ

﴿جَٰثِمِينَ ۝٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ۝٩٥﴾

قصة شعيب عليه السلام ومراجعته لقومه

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ اسم لأولاد مدين، أو يقدر مضاف، أي أولاد مدين، أو المراد البلد، أي أهل مدين، وهو بلد بناه مدين بن إبراهيم، فسمِّي باسمه، فلإبراهيم أربعة أولاد: إسماعيل وإسحاق ومدين ومدَّان؛ وقيل: ثمانية؛ وقيل: أربعة عشر. ومن أولاده على قول بعضهم روم؛ وقيل: روم هو ابن ابنه، والمعوَّل عليه القول الأوَّل، إلاَّ أنَّ مدَّان غير مشهور، والجمهور على أنَّ مدين اسم البلد.

﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ يلقَّب خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته لقومه، وهو أخوهم في النسب إذ هو شعيب بن ميكائيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ﴿قَالَ: يَاقَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ﴾ خصُّوه بالعبادة ولا تعبدوا معه الأصنام، أو وحِّدوه ولا تشركوا به شيئا ﴿مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ,﴾ هكذا تبتدئ الأنبياء، بالأهمِّ فالأهمِّ، والتوحيد أعظم العبادات والاعتقاد فبدئ به.

ولَمَّا اعتاد أهل مدين البخس في الكيل والوزن نهاهم عنه بعدُ كما قال: ﴿وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ إذا كلتم من مالكم لغيركم، وهنا محذوف تقديره: ولا تزيدوهما، أي المكيال والميزان إذا كلتم لأنفسكم من مال غيركم، ويجوز أن يقدَّر الباء وحدها، أي لا تنقصوا مال الناس بنقص الكيل والوزن من مالكم لهم، أو بزيادتهما من مالهم لكم، إذا أذنوا لكم بكيل حقوقكم أو وزنها وكيلها من مالهم. وهما مصدران، أو بمعنى ما يكال أو يوزن، فأسند النقص للمحلِّ وهو آلة الوزن والكيل؛ أو هما آلتا الوزن والكيل، نهوا أن ينقصوا منهما خداعا، وقوله عز وجل في الأعراف [الآية: ٨٥] : ﴿فَأَوْفُواْ الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ يَدُلُّ على الأوَّل، فيرجع لفظ الميزان إلى الوزن، ويدلُّ له أيضا قوله عز وجل : ﴿أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾، فإنَّ المعنى

المصدريَّ فيه أظهر.

وعلَّل النهي بقوله: ﴿إِنِّيَ أَرَٰيكُم بِخَيۡرٍ﴾ أعلمكم ثابتين على خير، أو فيه، أو أراكم بعيني وجهي في خير، أو مع خير لظهور أموالكم وصحَّة أبدانكم لي، والمعنى: لا تنقصوا المكيال والميزان لأنَّكم في سعة من المال والبدن، تغنيكم عن التطفيف، فإنَّه حرام ولو مع ضيق، فكيف مع سعة؟ أو لأنَّكم في سعة، حقُّها أن تتفضَّلوا بالزيادة من أموالكم في الكيل والوزن وغيرهما على غيركم، وبالنقص من حقوقكم لهم، وبالهبة شكرا للنِّعمة، لا أن تنقصوا من حقوقهم، أو لأنَّكم في سعة، حقُّها أن تقيِّدوها بإيفاء الحقوق لغيركم والزيادة، لا أن تنفِّروها بالنقص.

﴿وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ لكفركم ونقصكم المكيال والميزان ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ مُّحِيطٍ﴾ بكم كلِّكم لا يخرج عنه أحد منكم، أو من الإحاطة بمعنى الإهلاك، كقوله تعالى: ﴿وأُحِيطَ بِثُمُرِهِ﴾ (سورة الكهف: ٤٢) وإسناد الإحاطة لليوم مجاز عقليٌّ، لأنَّها للعذاب لكنَّها في ذلك اليوم، فأسندت إليه لعلاقة الحلول. قالوا: ويجوز كون «مُحِيطٍ» نعتا لـ«عَذَابَ» فأصله النصب، وجرَّ لجوار المجرور، وفيه أنَّ هذا خلاف الأصل، وأنَّ إحاطة اليوم لأنَّه عامٌّ في الأماكن كلِّها، ومعناه الوقت أشدُّ من إحاطة العذاب، والعذاب في ذلك كلِّه عذاب الاستئصال أو عذاب القيامة، وقد يقال: شبَّه العذاب والمعذَّب به واشتماله عليه بهيئة منتزعة من المحيطِ والمحاطِ عليه، وإحاطته بكلِّ جزئ، بجامع عدم خروج جزء ما عن العموم. وعن ابن عَبَّاس: الخير: الرخص، والعذاب: الغلاء.

﴿وَيَاقَوۡمِ أَوۡفُواْ الۡمِكۡيَالَ وَالۡمِيزَانَ﴾ أي الكيل والوزن، ويليه التفسير بالمكِيل والموزون، ويبعد معنى الآلة هنا ﴿بِالۡقِسۡطِ﴾ بالعدل، وذلك تأكيد للنهي السابق، إذ صرَّح بالإيفاء بعد النهي عن النقص إشارة إلى أنَّه لا يكفي الكفُّ عن تعمُّد

التطفيف بل لا بدَّ من السعي أيضا في الإيفاء، ولو بزيادة مَّا مِمَّا يتيقَّن به الخروج عن النقص.

والإيفاء والنقص مضادَّان، والنهي عن ضدِّ الشيء مغاير للأمر بالشيء، ولو تلازما حتَّى إنَّهُ يعدُّ تكريرًا وتأكيدًا، أو النهي عن الفعل مبنيٌّ على أنَّ الفعل اختياريٌّ، فلا يشمل النقص بلا عمد، فجبر ذلك بالأمر بالإيفاء، وإذا اتَّفَقَ الجنس و لم يتحقَّق الإيفاء إلاَّ بالزيادة زاد زيادة يسيرة فقط، ومن خصَّ الربا بالنسيئة جازت الزيادة في النقد برضا صاحبها، ولو كثيرة، وينبغي تمييزها عن الواجب.

﴿وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ في الكيل والوزن، ومطلق البيع والشراء وغيرهما ولو بلا كيل ولا وزن، فهذا تعميم بعد تخصيص، والبخس يطلق على الظلم وكتم الحقِّ، وعلى النقص، وعلى المكس كأخذ العشر، قال زهير:

أفي كلِّ أسواق العراق إتاوة وفي كلِّ ما باع امرؤ بخسُ درهم

وروي: «مكس درهم». والآية صالحة لذلك كلِّه.

وقوله ﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ﴾ المضارع "يعثَى" بالألف حذفت للساكن بعدها، وهو الواو، وماضيه "عثِيَ" بكسر الثاء بعدها ياء، أو "عَثَى" بفتح الثاء بعدها ألف، والحمل على الأوَّل أولى لأنَّه على القياس، وفيه لغة ثالثة "عثَى" بفتح الثاء "يعثِي" بكسرها، والآية لا تقبل هذه لأنَّه يقال على هذه: «ولا تَعثُوا» بضمِّ الثاء وإسكان الواو ميِّتا. ﴿فِي الاَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أعمُّ مِمَّا ذكر لأنَّ ما مرَّ في الأموال، وهذا في الأموال والأبدان والأعراض، والظلم في الأموال يكون بالغصب والسرقة والتطفيف، والذمِّ والمدح بما لم يكن، والغشِّ والنسبة إلى ما لم يكن. و«مُفْسِدِينَ» حال مؤكِّدة، والعثوُّ: الإفساد؛ أو مؤسِّسة، والعثوُّ: الخروج عن اعتدال الأمر، بحيث يشمل الحلال والحرام؛

فيكون «مُفْسِدِينَ» مقيِّدا له بالحرام، فيكون احترازا عن الاعتدال، كقتل الخضر الغلام، وكسره السفينة، ومقابلته الظالم بفعله.

أو المراد بالعثوِّ الإفساد بالمال والبدن والعرض، وبالمفسدين سائر المعاصي الدِّينيَّة، أو المراد: مفسدين لدينكم وآخرتكم بذلك العثوِّ.

﴿بَقِيَّتُ اللهِ خَيْرٌ لَّكُم﴾ ما يبقى لكم عند الله وهو الجنَّة إن آمنتم واتَّبَعتم الحقَّ خير لكم مِمَّا تتمتَّعون به من الأموال الحرام بالتطفيف والبخس أو غيرهما، أو ما أبقى الله لكم من الحلال بعد الحرام خير لكم.

وعن ابن عَبَّاس: ﴿بَقِيَّةُ اللهِ﴾: رزق الله تعالى، وأضاف البقيَّة إلى الله تشريفا للحلال لا لكون الحرام ليس رزقا، فإنَّه رزق مؤاخذ عليه، لا كما قالت المعتزلة: إنَّه غير رزق، والبقيَّة اسم لِمَا يبقى كما رأيت، أو وصف في الأصل، أي قطعة أو حصَّة باقية.

ويجوز أن يكون البقية طاعة الله، كقوله تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ (سورة الكهف: ٤٦) سمِّيت باقيات لبقاء ثوابها، وقيل: ﴿بَقِيَّةُ اللهِ﴾: وَصِيَّة الله تعالى ﷻ، وعن الفرَّاء: مراقبة الله ﷻ، أي لازمها، وقال قتادة: ذخيرته، وقال الحسن: فرائضه.

﴿إِن كُنتُم مُّومِنِينَ﴾ مصدِّقين بما قلت لكم عن الله، من تحريم الشرك والتطفيف والبخس والإفساد، وذلك أنَّه لَمَّا لم يؤمنوا لم ينتفعوا بما لهم من الحلال، بل يحاسبون عليه حسابا عسيرا، لأنَّهم غير شاكرين ويتوصَّلون به إلى المعاصي. ﴿وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم من القبائح، وهذا أنسب بما سبق من زجرهم عن المعاصي، أو ما أحفظ عليكم أعمالكم لأجازيكم بها، وما عليَّ إلاَّ البلاغ وقد بلَّغت، أو لا أحفظ لكم نعم الله لأنَّها تزول بالكفر.

﴿قَالُواْ﴾ استهزاء به وبصلاته حين دعاهم للتوحيد، وكان كثير الصلاة

﴿يَاشُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَامُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأصنام. الاستفهام إنكار للياقة النهي عن عبادة الأصنام، وتوبيخ عن النهي عن عبادتها، وإنكار لأن يكون العقل ناهيا عن عبادة الأصنام، حتّى إنَّهُ إذا كان النهي عنها فما صدر إلاّ عن مناسبة جنس ما ابْتدَعْتَ من الصلاة ونحوها، وإنَّها كفعل المجانين.

إلاّ أنّه لَمَّا كانت صلاته كثيرة جمعوها واقتصروا عليها و لم يذكروا غيرها من ديانته، وكانت ضحكة لهم. وعن ابن عَبَّاس: اقتصروا عليها لأنّه يقول لهم الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الحسن: ما بعث الله نبيئا إلاّ فرض عليه الصلاة والزكاة. وفسَّر الأعمش الصلاة بالقراءة. وفسَّرها بعض بالدعاء، وهو أصل معناها في اللغة، وبعض بالدين، ولا جمع كثرة لها، فالمراد بجمع القِلّة وهو جمع المؤنّث السالم معنى الكثرة.

قال الأحنف بن قيس رحمه الله: كان أكثر الأنبياء صلاة، وكانوا إذا رأوه يصلّي يتغامزون ويتضاحكون. والترك فعل الكُفَّار، والرجل لا يؤمر بفعل غيره، فشعيب لا يؤمر أن يتركوا عبادة الأصنام، فيقدَّر مضاف أي تأمرك بتكليفك إيَّانا أن نترك، أو يقدَّر تأمرك بأن تأمرنا بأن نترك، وكأنّه قالوا: أوسواس صلواتك تأمرك؟ أي ما تولَّد من الوساويس منها، وقيل: لا حذف، والمعنى: أصلواتك تأمرك بما ليس في وسعك من فعل غيرك. قالوا ذلك تعريضا بركّة الرأي حاشاه. ودخول الهمزة على «صَلَوَاتُكَ» لا يأباه، لأنَّ المعنى: أصلواتك التي أعتنيت بها تأمرك بما لا يتصوَّر، ويزرأُ بك؟. والمضارع للتجدُّد بتجدُّد الصلوات، وقيل: المراد بالصلوات الدين لأنّها من أعظم شعائر الدين.

﴿أَوَ اَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَآءُ﴾ من التطفيف والبخس وقطع الدنانير

والدراهم عَمَّا اعتيدت، على أنَّهم فعلوا ونهاهم عنه، والقطع بالمقراض ونحوه[1]، أو النقص في الغالب. و«أو» للتنويع، والعطف على «ما»، فيدخل في حيِّز الترك، كأنَّه قيل: وأن نترك فعل ما نشاء في أموالنا، ولو عطف على أن نترك لكان المعنى تأمرك أن نفعل في أموالنا ما نشاء، وهو فاسد لأنَّه لا يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون مِمَّا لا يجوز، أي لا يليق أن تنهانا عن واحد من عبادة الأصنام، وفعل ما نشاء في أموالنا، فكيف تنهانا عنهما جميعا فهي لمنع الخلوِّ، أو بمعنى الواو.

﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ في سائر أحوالك فاستحضر عقلك تجد نهيك لنا عن ذلك غير لائق، وسامحنا فيما نفعل من عبادة الأصنام، وفعل ما نشاء في أموالنا، ولا يشقُّ عليك لأنَّك صبور، أو إنَّك لأنت الحليم الرشيد في زعمك.

أو قالوا ذلك استهزاء وسخرية، أو استعملوا ذلك في ضدِّه، كما روي عن ابن عبَّاس أنَّهم أرادوا السفيه الغاوي، استعمالا للشيء في ضدِّه، كقولهم للَّذيغ: سليم تفاؤلا بالسلامة، وقولهم للفلاة: مفازة تفاؤلا بالفوز بالنجاة، وكتسميتهم الذهاب بالرجوع إذا سمُّوا المسافرين مع دوابهم قافلة، وإنَّما هم قافلة إذا رجعوا.

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَآيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ علم وحجَّة ونبوءة ورسالة ﴿مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي﴾ أي ربِّي ﴿مِنْهُ﴾ من ربِّي ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ حلالا غير حرام كما تأخذونه بالتطفيف والبخس، أفأشوب الحلال الذي رزقني بالحرام؟ وأكفر نعمته؟! العقل الرشيد لا يقبل ذلك، وكيف أقابل النبوءة والعلم والرسالة بما يناقضهنَّ وأخون؟ كيف يليق بالحليم الرشيد أن يخالف أمر ربِّه ونهيه؟.

واحترز بالحسن عن القبيح وهو الحرام، فإنَّ الحرام قبيح فمن أكله فقد أكل رزقه، ويعاقب عليه إن كان مِمَّا يعرف بالعلم. وشمل الرزق الحسن ما بالكسب

١-وهي الطريقة المستعملة في القديم لصكِّ الدراهم والدنانير.

السهل وما بالكسب الكدِّ وما بلا كسب؛ وفسَّر بعضهم الرزق الحسن بما لا كدَّ فيه، وبعضٌ بالنبوءة والحكمة، لأنَّهما سبب تعاطي الحلال خاصَّة، وسبب العيشة الدائمة في الآخرة، فيكون ردًّا على قولهم: تعاطيت ما لا نفع فيه.

﴿**وَمَآ أُرِيدُ أَنُ اُخَالِفَكُمُ, إِلَىٰ مَآ أَنۡهَاكُمۡ عَنۡهُ**﴾ لا أفعل ما أنهاكم عنه فأكون أنهاكم عنه ليتخلَّص لي ولا تشاركوني فيه، وأكون قد ذهبت إليه خلفكم، أي بعد إعراضكم عنه، وأخلفكم فيه، فهو رباعيٌّ في معنى الثلاثي.

وحاصله: ما أريد أن أكون خلفا منكم فيما أنهاكم عنه، أو من المخالفة ضدُّ الموافقة، وإذا فعلت ما تَوَلّىَّ عنه قيل: خالفته إليه. وعدِّي بـ«إلَى» لتضمُّنه معنى الميل والسبق، كأنَّه قيل: ما أريد أن أخالفكم مائلا إلى ما أنهاكم عنه، كما قدَّره بعض. وإذا تركته وهو قاصد إليه قيل: خالفته فيه.

﴿**إِنُ اُرِيدُ إِلاَّ الاِصْلاَحَ**﴾ ما أريد بأمري لكم ونهيي لكم إلاَّ إصلاح حالكم بدين الله والنصح والوعظ ﴿**مَا اسْتَطَعْتُ**﴾ ما دمت أستطيع إصلاحكم، فلو وجدت ما أنتم عليه صلاحا لكم لم أنهكم عنه ولم أتخلَّف عنه.

ويجوز أن يكون «ما» اسما بدلا من الإصلاح كأنَّه قيل: إلاَّ المقدار الذي أستطيعه، فهو بدل كُلٍّ بأن يراد به الإصلاح المذكور، لأنَّه لا يوجد إلاَّ ما أطيق، أو الإصلاح إصلاح ما استطعته من الإصلاح، فهو بدل بعض باعتبار أنَّ مطلق الإصلاح بحسب مفهومه أعمُّ من ذلك المقدار، ولا يصحُّ هنا بدل الاشتمال فلا تهم.

[قلت:] يجب على العاقل أن يراعي من الدين الأهمَّ فالأهمَّ مِمَّا هو حقُّ الله وحقُّ النفس وحقُّ الناس، كما فعل شعيب. قوله: ﴿يَا قَوْمِ...﴾ في حقِّ الله، فإنَّ المراد: كيف أشوب الحلال بالحرام، وأكفر النعمة. وقدَّم التوحيد وهو أهمُّ. وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنُ اُخَالِفَكُم﴾ في حقِّ نفسه يصونها عمَّا يعيبها. وقوله: ﴿إِنُ اُرِيدُ...﴾ في حقِّهم.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيَ﴾ ما جنس توفيقي في إصلاحكم وفي كلِّ ما آتي وما أذر، أي لا فرد من أفراد توفيقي، والمصدر المضاف من صيغ العموم، فهو عامٌّ إلاَّ لدليل، مصدر من المبني للمفعول، أي ما كوني موفَّقا إلى الإصلاح المذكور وإصابة الحقِّ، وطاعة الله، وترك المعاصي ﴿إِلاَّ بِا للهِ﴾ إلاَّ بهداية الله تعالى. والتوفيق فعل الله تعالى، والباء لا تدخل على الفاعل، وإذا أكرمك زيد لم تقل إكرامي بزيد بل من زيد، فيقدَّر مضافا خروجا عن ذلك، أي إلاَّ بتأييد الله ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، ومنها أمركم فإنَّه القادر عليها وعلى غيرها، وهذا متضمِّنٌ للتوحيد إذ جعل غير الله عاجزا، وتهديدٌ بأنَّ الله ﷻ كاف معين لمن توكَّل عليه ينتقم له.

﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿أُنِيبُ﴾ أرجع في المصالح، ومنها إصلاحكم ودفع المضار، وبالبعث. [قلت:] وفي الآية الاستعانة بالله فيما يفعل وما يترك، وقطع أطماع الكفَّار عنه، وتهديد بالرجوع إلى الله بالجزاء.

﴿وَيَاقَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ جرم بمعنى أكسب، يتعدَّى لمفعولين: الأوَّل الكاف. ﴿شِقَاقِيَ﴾ فاعل يجرم مصدر شاقَّ ـ بفتح القاف مشدَّدة ـ بمعنى خالف، مضاف لمفعوله، أي شقاقكم إيَّاي، واللفظ نهيٌ للسبب الملزوم، والمراد نهي صاحبه، ولا يقال: نهى غير العاقل ليعلم بالأولى نهي العاقل، لأنَّا نقول إنَّما يتمُّ ذلك لو كان لغير العاقل إحساس بأن يكون حيوانا. والثاني هو قوله: ﴿أَنْ يُّصِيبَكُم﴾ أي لا يصيرنَّكم مشاقتي كاسبين إصابتكم بنصب إصابة ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ من الغرق ﴿اَوْ قَوْمَ هُودٍ﴾ من الريح ﴿اَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ من الصيحة والرجفة.

﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم﴾ منازل قوم لوط، أو زمان هلاكهم، وما هو قريب زمانا أشدُّ وعظا ﴿بِبَعِيدٍ﴾ أفرد لأنَّه بوزن المصدر من الفعل الثلاثي المفتوح، كالصهيل والدبيب. أو مراعاة للفظ قوم أو بشيء بعيد، أو ما إهلاك قوم لوط

ببعيد، إن لم تعتبروا بمن قدُم عهدا أو مكانا فاعتبروا بمن قرب مرأًى، والباء زائدة، أو ما هم في مكان بعيد أو زمان بعيد، فهي ظرفيَّة، فانظر ما مرَّ فإنَّه مثله.

فاعتبروا بهم إذ ترون في أسفاركم بَقِيَّة آثارهم أو أرضهم المقلوبة، بأن يتواتر إليكم أنَّ هذه الأرض باطن أرضهم المقلوبة. ويجوز أن يكون ما كُفْرُ قومِ لوط ومساوِئهم ببعيد منكم، فإنَّ كفركم مثل كفرهم، ولو زادوا بالفحش؛ أو ما هم ببعيد منكم في الكفر والمساوئ، فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد.

﴿**وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ**﴾ اسألوه غفران ذنوبكم، من الشرك والتطفيف وغيره ﴿**ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ**﴾ بالإقلاع عن ذلك وبالطاعة ﴿**إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ**﴾ عظيم الرحمة وكثيرها لمن تاب ﴿**وَدُودٌ**﴾ فاعل بالتائبين من الإحسان ما يفعل عَظِيمُ الحبِّ بمحبوبه.

وهذا تمثيل للإفهام، فإنَّ إحسان الله لا يماثله إحسان، وإنَّما فسَّرت «وَدُودٌ» بذلك لأنَّ الودَّ كَيفِيَّة نفسانيَّة انفعاليَّة، والله لا يتَّصف بذلك، فيحمل اللفظ على غاية معناه، فإنَّ غاية حبِّك للإنسان أن تحسن إليه، وإن شئت فقل: على لازم معناه أو مسبّبه.

ويجوز أن يكون كناية عند من لم يشترط إمكان المعنى الأصلي، ويجوز أن يكون «وَدُودٌ» بمعنى مودود، فيكون كالبرهان للإحسان، أي يودُّه كلُّ من علم به لإحسانه إلى كلِّ أحد.

﴿**قَالُواْ يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ**﴾ لأنَّه هذيان لا يفهم، أو ما نعلم أنَّه حقٌّ، أو ما نعلم حجَّته، وذلك كتحريم عبادة غير الله، وتحريم البخس في الكيل والوزن؛ أو قالوا ذلك احتقارا له كما تقول لغيرك: ما أدري ما تقول، وأنت فاهم له لكن تريد عدم قبوله حتَّى كأنَّك لم تفهمه، وهو إخبار لفظا ومعنى لا لفظا

فقط، إنشاء معنى كما قيل، وهو كناية أو استعارة تمثيلية.

أو المراد: إنّهم لم يفهموا معنى ما قال لشدَّة نفرتهم عنه، مع أنّه فصيح عالم بطرق الخطاب المؤثّرة في السامع، وفهموا الكثير الآخر مِمَّا يقول مِمَّا لا ينفرون عنه، وهو خطيب الأنبياء، فلا يصحُّ ما قيل: إنّهم قالوا ذلك لأنّه أَلْثَغُ، والحاصل أنّه لا وجه لدعوى أنّه ألثغ بلا دليل، مع أنَّ شأن الكفرة أن يقولوا مثل ذلك لكلِّ من جاء به، ولو أفصح الفصحاء، ومع أنَّ شأن الأنبياء أن يكونوا سالمين من منفّر، ولو جاز بعد التبليغ.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ عاجزا أعمى ذليلا، لا قوم لك يمنعونك عَمَّا نريد من مضرَّتك إن نرِدْها، وهذا المعنى لعمومه أولى من حمل الضعف على بعض معانيه فقط، وهو العمى، وأولى من حمله على ما وضع له في لغة اليمن، وهو العمى، كما يقال للأعمى: ضرير يقال له: ضعيف عندهم.

وأمَّا ما قيل من أنّه لا يصحُّ تفسيره بالعمى وحده، ولا بالعمى مع غيره، لأنَّ قولهم: «فِينَا» لا يناسبه لأنَّ الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم، وضعيف فيهم وفي غيرهم، فلا يصحُّ، لأنَّ المراد: إنّا لا نعتبرك فيما بيننا لضعفك بالعمى أو به وبغيره ولأنّا لسنا مثلك، بل أقوى وتريد العزَّة فينا ولا عزَّة لك فينا، والحاصل: إنّك لا تقاومنا، وأمَّا كونه كذلك في غيرهم فبمعزل عن الكلام ولا مدخل له هنا.

(أصول الدين) ومشهور المذهب أنَّ الأعمى لا يكون نبيئا، والجواب أنّه حدث إليه العمى بعد الوحي والبعثة، كما ابيضَّت عينا يعقوب بعد الوحي والبعثة.

وروي أنّه بكى من حبِّ الله تعالى حتّى عمي فردَّ الله عليه بصره، وأوحى إليه: ياشعيب ما هذا البكاء؟ أشوقا إلى الجنّة أو خوفا من النار؟ فقال: لا لكن لحبِّك، ورضيت بكلِّ ما تصنع بي، فقال الله تعالى: هنيئا لك ياشعيب لذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي.

وكذا قال جمهور قومنا: لا يكون الأعمى نبيئا، وأجازه بعضهم كالقاضي، ومنعه بعض المعتزلة قياسا على القضاء والشهادة، وفيه أنَّ القضاء والشهادة يحتاجان إلى تمييز من يقضى له أو عليه، أو يشهد له أو عليه.

﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ﴾ ناسك القليلون الثلاثة إلى العشرة، أو الثلاثة إلى التسعة، أو إلى السبعة، أو إلى الأربعين، أقوال. فإمَّا أن يكون قومه على شيء من ذلك، وإما أن يكون المراد التقليل ولو كانوا أكثر من العشرة، احترموا قومه ولو قلُّوا لأنَّهم على دينهم لا لكثرتهم أو شدَّتهم، لعدمهما. ولا يطلق الرهط على النساء.

﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ بالحجارة حتَّى تموت، والقتل بالحجارة من أسوإ قتل، أو الرجمُ استعارةٌ تشبيها للقتل بأصعب الوجوه: بالقتل بالحجارة، كالقرض بالمقاريض؛ أو كناية عن ذلك؛ أو استعارة للشتم وإغلاظ القول، كقوله تعالى: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (سورة مريم: ٤٦) أو أريد بالرجم الإخراج من أرضهم، والوجه الأوَّل أولى لأنَّه أظهر.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ بغالب أو بذي شأن واحترام، فيمنعنا ذلك عن رجمك، وإنَّما العزَّة عندنا لقومك لهم شأنٌ ـ عندنا مع قلَّتهم ـ واحترامٌ قائمٌ مقام الغلبة ولو لم تكن لهم غلبة، ولعزَّتهم لم نرجمك كما قال:

﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي﴾ إنكار وتوبيخ ﴿أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللهِ﴾ من جانب الله، أو دين الله، أو نبيء الله؟ ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ﴾ أي الله ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ قيل: المعنى إنَّ العزيز قومك لا أنت لكونهم في ديننا واختيارهم لنا عليك، ولهذا الحصر تلا حرفَ النفي ضميرُه، ولو قيل: ما عززت علينا لم يفد الحصر، ولولا أنَّ العبارة للحصر لم يجبهم بقوله: ﴿أَرَهْطِي...﴾. [قلت:] لا حصر بصيغة في العبارة ولا تحتاج إليها، لأنَّ المعنى: إنَّ الله موجود ورهطي موجود، وراعيتم رهطي فتركتم

قتلي، و لم تراعوا ا لله فتتركوا قتلي، لأجله وهذا حصر بلا صيغة.

(بلاغة) وكان الجواب باسم التفضيل لأنَّ لله عزَّة عندهم، وإن لم تكن عندهم فالآية كقول عليٍّ: لأن أصوم يوما من شعبان أحبُّ إليَّ من أن أفطر يوما من رمضان، ولا حبَّ له في إفطار يوم من رمضان، وكقول غيره: لأن أفطر يوما من رمضان أحبُّ إليَّ من أن أصوم يوما من شعبان، و المعنى: لو كان كذا محبوبا كان كذا أحبَّ، أو كقولهم: العسل أحلى من الخلِّ، أو الخلُّ أمرُّ من العسل، والصيف أحرُّ من الشتاء، والشتاء أبرد من الصيف، بمعنى أنَّ كذا في صفته أشدُّ من كذا في صفته، و لم يقل: أعزُّ عليكم منّي، لأنَّه لا عزَّة له عندهم، فلا يصحُّ ما قيل من أنَّ التقدير: أعزُّ عليكم من نبيء ا لله، أو ما قيل من أنَّه قال ذلك لأنَّ التهاون بالرسول تهاون با لله.

(لغة) والظِّهْرِيُّ بكسر الظاء من شذوذ النسب، كإمسِي بالكسر، ودُهري بالضمِّ نسب إلى أمس ودهر، والأصل في الكلِّ الفتح: الشيء المنبوذ وراء الظهر، يقول: الواجب عليكم أن ترعوا حقَّ ا لله وحقّي بالنسبة إليه بالرسالة، وبالنسبة إلى الرهط بالرحم، كذا قيل، وفيه أنَّه قد احترموه لرهطه فلم يرجموه، ويجاب أنَّه أراد أن يحترموه لله تعالى وللرحم. والكلام استعارة تمثيلية.

وعن مجاهد: الهاء للشرع المفهوم من المقام، وعن الزجَّاج: [الهاء] لأمر ا لله تعالى، ويكفي عن القولين قولنا: الهاء لله تعالى، وقيل: الضمير لله تعالى، والظِّهري المعين، والجملة حال على تقدير "قد" أو دونه، والمعنى: والحال أنَّكم تَتَّخِذُونه معتمدكم، وهذا على فرض أنَّهم اتَّخَذُوه معتمدا، وفي هذا الوجه من الحالية يجوز تقدير مضاف، والمعنى وَاتَّخَذتم عصيان ا لله معينا في عداوتي، وكذا أجيز عود الهاء للعصيان المعلوم من المقام فيتَّحد المعنى، والصحيح ما مرَّ، والعطف للفعلية على الإسميَّة جائز.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم به كلّه فلا يفوته عقابكم ﴿وَيَاقَوْمِ اعْمَلُواْ﴾ ما قدرتم عليه من المعاصي والتكذيب ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على قدر قوتكم كلّها وتمكُّنكم، ومن قبل كانوا يعملون ذلك لا بالغاية، فلا تحصيل حاصل، وعلى فرض أنَّهم من قبل يعملون بالغاية فالمعنى: دوموا على ذلك، فلا تحصيل حاصل؛ وذلك تهديد، كما يناسبه قوله: ﴿تَعْلَمُونَ﴾. ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على مكانتي بغاية جهدي في الطاعة والتصديق.

(لغة) يقال: مكن مكانة إذا تمكّن أبلغ تمكُّنٍ، والميم أصل والألف زائد، أو مكانتكم: الجهة التي هم عليها من المخالفة، فهي بمعنى المكان الذي استعير للحال من استعارة اسم العين للمعنى، وهي مخالفتهم الشبيهة بموضع القرار، استعارة محسوس لمعقول، والميم زائد والألف أصل لأنَّه من الكون، يقال: على مكانتك، ويقال: مكانك، أي أثبت على حالك، أي اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ قرن بالفاء في الأنعام [آية ١٣٥] مراعاة للوصل وتصريحا بأنَّ التمكُّن سبب للعقاب، لأنَّها سَبَبِيَّة، ولم يقرن هنا مراعاة للفصل على الاستئناف البياني من كونه جواب سؤال، والجواب لا يعطف على السؤال، وكأنَّه قيل: فماذا يكون إذا عملنا؟ فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وهو أبلغ في التهويل إذ بالغوا في الإهانة، وبَالَغَ لهم بتهديد صريح لا يحتاج إلى التفريع بالفاء لأنَّه ظاهر مستقل.

[قلت:] والقرآن يشتمل على البليغ والأبلغ على طريق العرب في التفنُّن، وقد يقال: ذكرت في الأنعام لأنَّ الأصل عدم الحذف ولأنَّها في النزول والترتيب قبل سورة هود، فيقال: إنَّما يقال: حذف الشيء إذا كان مقدَّرا، وليست الفاء مقدَّرة في الاستئناف البياني، وإلاَّ كان وصلا مع أنَّه فصل، ويقال أيضا: أوَّل الذكرين يقتضي المبالغة إذا قلت: الأوَّل أحقُّ بما هو الأصل، والأصل من هو كاذب ومن هو

صادق على أنَّ الكاذب هم والصادق هو، لكن لم يذكر الصادق لأنَّ مراد شعيب بكاذب نفسه، أي ومن هو كاذب في زعمكم وهو أنا.

(بلاغة) ومجاراة الخصم شائعة في كلام البلغاء كما هو وجه مرجوح في قوله تعالى: ﴿ءَامِنتُم مَّن فِي السَّمَآءِ﴾ (سورة الملك: ١٦) إذ قال: الكفار إنَّه تعالى في السماء، وأولى من ذلك أن تقول: الآية ليست على طريق تقدير الصادق بل على معنى إنَّهم أوعدوه العذاب بأيديهم ونسبوه إلى الكذب فأجابهم بأن ستعلمون من المعذَّب الكاذب أنا أم أنتم.

(نحو) و«تَعْلَمُ»: تعرف، و«مَنْ» موصولة في الموضعين مفعول، أو استفهامية، فالعرفان معلَّق عن الجملة نائبة عن مفعوله، وإن جعلناه متعدِّيا لاثنين فمعلَّق عنهما وقد يقال: قوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ متعلّق بقوله: ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ متعلّق بقوله: ﴿أَصَلَوَاتُكَ...﴾ لأنَّه تكذيب له، أو «مَنْ يَأْتِيهِ» متضمِّن لذكر جزائهم، و«مَنْ هُوَ كَاذِبٌ» متضمِّن لجرمهم الذي يجازون به.

﴿**وَارْتَقِبُواْ**﴾ انتظروا عاقبة أمركم، أو ما أقول لكم من العذاب ﴿**إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾ لذلك، ويضعف أن يقول: ارتقبوا العذاب إنِّي معكم منتظر للرحمة والنصر، إذ لا تلائمه المعيَّة، لأنَّها ظاهرة في الاتِّحاد ومنتظره غير منتظرهم، ولو جازت مع عدم الاتِّحاد.

(صرف) و«رَقِيبٌ» فعيل من الثلاثي، أو فعيل بمعنى المفاعل كالعشير بمعنى المعاشر، والجليس بمعنى المجالس، والعقيد بمعنى المعاقد، أو فعيل بمعنى المفتعل كالرفيع بمعنى المرتفع، أو بمعنى فاعل كالصريم بمعنى صارم، والمأصدق واحد، والأصل الأوَّل.

﴿**وَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا**﴾ عذابنا كما يدلُّ له قوله ﷻ: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أو وقته

كما يدلُّ له قوله عَجَلِّلَ : ﴿وَارْتَقِبُواْ...﴾ مثل ما مرَّ. ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ, بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وهي الإيمان الذي وفقناهم إليه، أو برحمة كائنة منا لهم، ذكره بالواو لا بالفاء هنا، وفي قصَّة هود إذ قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ امْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا...﴾ لأنَّه لم يتقدَّم ذكر وعيد يجري مجرى السبب المقتضي لفاء السببيَّة، فكان العطف بالواو المفيدة لمجرَّد عطف قصَّة على أخرى، بخلاف قصَّة صالح ولوط فإنَّه ذُكر فيهما وعيدٌ فجيء بالفاء، قال: في قصَّة صالح: ﴿فَعَقَرُوهَا...﴾ وفي قصَّة لوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فكان ما بعدُ فيهما بالفاء التفريعية.

وإن قلت: الوعيد مذكور في قصَّة شعيب أيضا وهو قوله: ﴿اعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمُ,﴾ فإنَّه تهديد، وفي قصَّة عاد إذا قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ اِلاَّ هُوَ ءَاخِذُ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (سورة هود: ٥٦)، قلت: لم يساقا مساق الوعيد، فروعي عدم سوقهما مساقه، فلم تكن الفاء ولو في معنى ذكر الوعيد الصريح، وهب أنَّ الوعيد الضمني كالصريح لكن السببيَّة قد توجد ولا تلاحظ، كما في آية الواو، وقد تلاحظ كما في آية الفاء كقوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾(سورة مريم: ٥) بالرفع لغير ملاحظتها وبالجزم لملاحظتها، فذكر بالفاء تارة وبالواو أخرى تفنُّنا.

وقيل: ذكر الفاء لقرب عذاب قوم صالح وقوم لوط، للوعد بثلاثة أيَّام بين قوم صالح وبين عذابهم، وبسويعات بين قوم لوط وعذابهم ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾، وليس قوم شعيب وقوم هود كذلك، وقيل: الفاء لتقدُّم الوعد وتركها وإن كان مع الوعد للإشارة إلى سوء حال القومين، ومزيد فظاعته لمجرَّد ظلمهم بلا تفرُّع، إذ رمى قومُ هود وقوم شعيب رسوليهما بما لم يشافِه به غيرُهما رسولاً، وفيه أنَّه قد شافه غيرهما في غير هذه السورة بنحو الجنون، إلاَّ أن يراعى السوق بحسب ما في السورة.

﴿وَأَخَذَتِ الذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ﴾ أي وأخذهم، لكن ذكرهم باسم الظلم

الموجب للصيحة، والصيحة على ظاهرها، وأجيز أن يكون نوعا من العذاب، والعرب تقول: صاح بهم العذاب إذا هلكوا «دَعْ عَنْكَ نَهْبًا صِيحَ فِي حَجَرَاتِـهِ»[1] وفي الأعراف: «الرجفة» أي الزلزلة، أو الرجفة الزلزلة في مبتدإ الصيحة صاح بهم جبريل الطَّيْكِلاً.

وعن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لم يعذّب الله أمّتين بعذاب واحد إلاّ قوم صالح وقوم شعيب عليهما الصلاة والسلام، وزيد قوم هود، أمَّا قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب من فوقهم، وقيل: من تحتهم، قيل: نشأت لهم سحابة وصارت لهم كالظلّة فيها ريح، و لم يعلموا أنّها عذاب فاجتمعوا تحتها، وقد اتّقدت عليهم مطامرهم ومظانٌّ البرد حرارةً، فخرجوا إليها فصيح فيهم وهم تحتها، فأخذهم عذاب يوم الظلّة.

﴿**فَأَصْبَحُواْ**﴾ بعد الليل، أو صاروا ﴿**فِي دِيَارِهِمْ جَـاثِمِينَ**﴾ ميّتين، وأصل الجثوم لزوم المكان، أو على الركبتين، والموت سبب للزوم المكان ﴿**كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَـآ**﴾ وفيما يليها، لم يلبثوا فيها، أو لم يعيشوا فيها، يقال: غني بالمكان: أقام فيه، وغني: عاش، وقدَّم تنجية شعيب ومن معه لعظم الرغبة فيها منهم، ولتقدُّم الرحمة على الغضب، والجملة خبر بعد خبر لـ«أَصْبَحَ» بمعنى صار، أو حال بعد حال على أنّه بمعنى: أصبحوا عن الليل.

١- البيت لامرئ القيس وتمامه:

دع عنك نهبا صيح في حجراته ولكن حديثا، ماحديث الرواحل

انظر اللسان لابن منظور، ج٣، ص٥٨، مَادَّة: «حجر».

﴿أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ شبَّههم بثمود في الهلاك لاشتراكهم في ما يوجب العذاب، مع أنَّه فيهما بالصيحة جميعا، وأنَّهم معا في الأمم السابقة، ولذلك لم يضمر لهم. وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنه: صيحة ثمود من تحت ومدين من فوق.

(لغة) والبُعد: الهلاك، يقال: بعُد بضمِّ العين في ضدِّ القرب، وبكسرها في الهلاك، والبُعْد بالضمِّ والسكون مصدر لهما، والبَعَد بفتحتين مصدر للمكسور بمعنى الهلاك، ويستعمل بعُد بضمِّ العين والبُعد بضمِّ الباء بمعنى الهلاك، ومضارع المكسور بفتح عينه، ويقال: بعُد بالضمِّ في الخير والشرِّ وبالكسر في الشرِّ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه

﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَا﴾ التي تتلى وهي الصحف أو الدلائل المعجزات، وأمَّا التوراة فنزلت بعد هلاك فرعون فلا تفسر بها الآيات إلاَّ إن يتعلَّق قوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ بقوله: ﴿سُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾. وخصَّ موسى لأنَّ هارون تبع له، والتوراة نزلت عليه لا على هارون، وقد يجمع بينهما للمشاركة في الدعاء إلى التوحيد والنبوءة والرسالة والأخوَّة.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ المعجزات القاهرة، كالعصا واليد البيضاء والدم والضفادع والقمَّل والطوفان، والنقص من الثمرات والأنفس، فهؤلاء كحجَّة واحدة سمَّاها

سلطانا لا مقام لهم معهنَّ، وذلك أنَّ العصا جاءت إلى فرعون على صورة أن تبلعه، أو السلطان العصا وحدها، وهي أبهر آياته، عطفت على عامٍّ، أو الآيات التسع.

أو السلطان المبين: هو الآيات، عطفا للصفة تنزيلا لها منزلة التغاير، أي ولقد أرسلنا موسى بما هو آيات وحجَّة قاطعة، كقولك: أكرم زيدا العالم والجواد والشجاع، أي أكرم زيدا الجامع بين العلم والجود والشجاعة، ومفهوم السلطان القُوَّة، ومفهوم المبين الظهور في نفسه، أو الإظهار لغيره كالنبوءة فإنَّه موضِّح لها، أو السلطان: ما في تضاعف دعوته حين قال: فرعون ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا...﴾ ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾(سورة طه: ٥٠) من الأجوبة المسكتة، أو السلطان: الغلبة، كقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾(سورة القصص: ٣٥).

وليس من الآيات المذكورة إظلال الجبل والغمام وفرق البحر لأنَّ ذلك بعد زوال تمكُّن فرعون، قال بعض: وكذلك نقص الأنفس والثمرات، وإنَّما ذلك لبني إسرائيل حين عصوا. وتدخل الصحف في الآيات أو تراد بها، لأنَّها نزلت ــ وهنَّ عشر ــ قبل التوراة.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيْهِ﴾ ولم يتَّبعوا أمر موسى وهو الحق من الله بل اتَّبعوا أمر فرعون وهو الباطل كما قال: ﴿فَاتَّبَعُواْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ لا أمر موسى مع أنَّه معجز واضح، أو الأمر: ضدُّ النهي، أي اتَّبعوا أمر فرعون لهم بالكفر، وعلى كلِّ حال لا حجَّة له وفساده لا يخفى، وتركوا ما لموسى بحجَّة وظهور، والمراد: استمرُّوا على أمر فرعون أو حدوث كفر لهم لأنَّ كفرهم بموسى اتِّباع لفرعون في كفره به غير كفرهم قبل بعثه.

﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ﴾ واحد الأمور، أو ضدُّ النهي إذ يأمرهم بالكفر، أو أمره: طريقه في الديانة، وهي أنَّه ينفي الصانع والمعاد، ويقول: لا إله للعالم، بل يجب على

أهل كلِّ بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم، وهذا شأن الدهريَّة فهو دهريٌّ، ولا يخفى أنَّ هذا مكابرة للدلائل والعقل، فنفى الله الرشد عنه وأكّد النفي بالباء في قوله: ﴿برَشِيدٍ﴾ بصواب.

(نحو) والأصل بذي رشد فهو للنسب لأنَّ فاعل الرشاد الذات، وليس أمر فرعون يفعل رشادا فينفى عنه، وإنَّما أسند إليه بتقدير مضاف كما رأيت، ولو فسَّرناه بمرشد ـ بكسر الشين أو فتحها ـ لاحتاج أيضا أن نقول: إسناد الإرشاد إليه مجاز من إسناد ما للذات إلى ملابسها، وهو الرشاد، بأن يقال على التجوُّز: ما أمره مرشدا لغيره، أو ما صيَّره غيره رشيدا، أو على كلِّ حال أمره سفه وضلال حيث ادَّعَى الأُلُوهِيَّة مع حدوثه وعجزه.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ,﴾ يتقدَّمهم ويسبقهم إلى النار كما تقدَّمهم إلى الكفر، قادهم إلى الكفر فيقودهم لذلك إليها أيضا ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أي يوردهم لكن عبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع بعد، فكأنَّه وقع أو أراد عذابهم في قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾(سورة غافر: ٤٦) فالماضي على ظاهره، على أنَّ البرزخ من الدنيا.

(بلاغة) شبَّه النار بالماء ورمز لذلك بلازم الماء وهو الورود، فإثبات الإيراد تخييل، والجامع مطلق الإحضار، أحضروا إلى النار كما تحضر الإبل العطاش إلى الماء، أو نزَّل التضادَّ منزلة التناسب بواسطة التهكُّم، فإنَّ الماء للتبريد للأكباد وتسكين العطش بخلاف النار، أو النار استعارة تهكُّمية للماء وإثبات الورود تخييل، أو شبَّه فرعون بمن سبق رفقته ليهيِّء لهم الماء أو مع النبات، وقومه بالواردة، ففيه استعارة بالكناية أيضا، وإثبات الورود تخييل، أو الاستعارة مركَّبة بأن تشبه بالمتقدِّم للماء والمرعى، والإتباع لهم النارَ وأهلها، أو شبَّه سوقه إيَّاهُم إلى النار بالإيراد،

وسوقه مجاز إذ لا يسوقهم لكن تسبَّب فيه، والسائق الملائكة، و"وَرَدَ" بلا همز يتعدَّى بنفسه لواحد وبالهمز ـ كما هنا ـ إلى اثنين، أي صيَّرهم واردين النار، أي حاضرين عندها داخليها.

﴿وَبِيسَ الْوِرْدُ﴾ أي الورود الذي تضمَّنه «أَوْرَدَهُم»، إذ المعنى: صيَّرهم ذوي وِرْدٍ، أو «الْوِرْدُ»: النار، أو موضع الورود على حذف مضاف، ولا مانع من قولك: بيس الورود، فكما يقال: بيس ما وردوا إليه، يقال: بيس ورودهم إليه، وبيس موضع الشرب، وبيس الشرب نفسه ﴿الْمَوْرُودُ﴾ نعت للوِرْدِ لجواز نعت فاعل باب نِعْمَ على الصحيح، لا مخصوص بالذم، فإنه محذوف تقديره هي. و﴿الْوِرْدُ﴾: النصيب مِمَّا يورد، وإن جعل مصدرا قدِّر المخصوص ورود النار، أي بيس الورد الذي ورَدُوه، لأنَّ الورد للتبريد والريِّ وهذا للإحراق والإعطاش.

ومَن شأنه هذا ليس أمره رشيدا إذ كانت عاقبته سوءا، وهذا بيان لبعض موجبات انتفاء الرشد، ومنها الغرق ومنها أصلها ادِّعاء الألوهيَّة ولو لم يكن لها عقاب وكيف وعقابها أشدُّ عقاب.

وقد قيل: المعنى أوردهم موجبات النار وهي أنواع الكفر، ويبعد هذا للعطف بالفاء، لأنَّ الموجبات قبل يوم القيامة لا بعده، كما يبعد أن يجعل الورد بمعنى الواردين، كقوله تعالى ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾(سورة مريم: ٨٦) للاحتياج إلى الحذف، والأصل الواردون المورود بهم فيكون الذمُّ للواردين لا للورود ولا لمكانه، ويكون المخصوص هم.

﴿وَأُتْبِعُواْ﴾ أي القوم أو الملأ ﴿فِي هَذِهِ لَعْنَةً﴾ أي في هذه الدار الدنيا أي القريبة الزوال، ولو ذكر الدنيا بهذا اللفظ وجعلناه بمعنى هذا الزمان السابق على الآخرة تعيَّن أنَّه عطف بيان أو بدل، ولم يجز النعت لأنَّ الدنيا حينئذ كالعلَم،

والعلم لا ينعت به، وذلك حيث ذكرت الدنيا مع هذه ﴿وَيَـوْمَ الْقِيَامَـةِ﴾ بـالنصب مع عطفه على المجرور لأنَّه مع نصبه هو في معنى: في يوم القيامة، أي يلعنون في الدنيا والآخرة، أي طردوا في الدنيا عن الرحمة بالهلاك، وبالخذلان قبله، وفي الآخرة بلعن الملائكة.

والعذاب أو اللعن في الدنيا لعن الخلائق لهم، والمراد: جعلت اللعنة تابعة لهم في الدنيا والآخرة، فـ«لَعْنَةً» مفعول أوَّل والواو ثان ناب عن المفعول، وجعَل اللعنةَ كشخص تابع لآخر ليقذفه في هوَّة وهو غافل عنه. والماضي تغليب لخذلان الدنيا، وإلاَّ فيوم القيامة مستقبل اللعنة، أو نزَّله منزلة الواقع، وعبَّر عنه مع الواقع بلفظ المضيِّ، وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز ﴿بِيسَ الرِّفْدُ﴾ العطاء ﴿الْمَرْفُودُ﴾ المعطى، والمراد اللعنة، سمِّيت عطاء تهكُّما بهم، ويطلق الرفد أيضا على العون، كأنَّه قيل: بيس العون المعان، فإنَّ لعنتهم في الدنيا أعينت بلعنتهم في الآخرة أو بالعكس، كما يسند الشيء على غيره تعميدا عليه.

وأصل الرفد ما يسند على غيره ليكون عمدة له، وأيضا زيادة السوء في أعمالهم إعانة لهم على ما سبق من السوء، وأيضا هلاكهم زيادة في ضلالهم بمناسبته لأعمالهم، واللعنة في الدنيا مدد لعذاب الآخرة، والمخصوص محذوف، أي بيس الرفد المرفود رفدهم أو لعنتهم.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

العبرة من قصص الأمم الظالمة في الدنيا

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من خبر شأن فرعون وقومه، وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح وغيرهم، والخطاب لرسول الله ﷺ ﴿مِنَ اَنبَآءِ الْقُرَىٰ﴾ أخبارها أي من أخبار القرى المهلكة، وهذا خبر المبتدإ أو حال من "ذا"، أو من الهاء بعده وقوله ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ خبر ثان أو خبر، أو المعنى نذكره لك تسلية لك، لأنَّ الله قادر على إهلاك قومك كما أهلك تلك القرى، وليكون ذلك إنذارا لقومك، وعظة بما وقع بمن قبلهم لكفرهم كما كفروا. والمقصود بالقرى أنفسها، أو أهلها الحالُّون بها تسمية للحالِّ باسم المحلِّ.

﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي منزل قائم أو أثر قائم بعد إهلاك أهله، ومنزل أو أثر حصيد مهلك غير باق، كالزرع المحصود، فهو متهدِّم مشاهد، أو ذاهب كزرع حصده أهله وذهبوا به، فما بقي من أثرها وجدرانها كالزرع القائم، وما عفا وتهدَّم وبقي كالزرع المحصود الباقي.

وعبارة بعض: القائم ما بقي جدرانه وسقط سقفه، والحصيد ما محي أثره؛ وقيل: القائم العامر، والحصيد ما محي أثره؛ وقيل: القائم العامر والحصيد الخراب؛ وقيل: المعنى منها باق نسله ومنها منقطع نسله، وذلك على كلِّ حال تشبيه بالزرع القائم والحصيد.

وحملنا «قَائِمٌ» على التشبيه بالزرع القائم لدلالة قوله: ﴿وَحَصِيدٌ﴾ وكأنَّه قيل: ما شأنها؟ فقال: منها قائم وحصيد، فالجملة استئناف بيانيٌّ لا حال من هاء «نَقُصُّهُ» لعدم الربط بالواو ولا بالضمير، ولا يقال: الضمير في «مِنْهَا» عائد إلى

اسم الإشارة المراد به النبأ. وأُنِّث باعتبار معنى القصَّة أو إرادة الجنس، كأنَّه قيل: تلك الأنباء، فتكون الجملة حالا والرابط «ها»، لأنَّا نقول: الأنباء لا توصف بالقائم والحصيد، ولا يلزم تقدير: "ومنها حصيد" لصحَّة المعنى بدونه.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بإهلاكهم بلا ذنب، فإنَّا أهلكناهم بذنوبهم، والضمير للقرى على أنَّه عبَّر بلفظ القرى عن "أهل" مجازًا أو حقيقة كما هو قول، أو للمضاف المحذوف، أي من أنباء أهل القرى، أو لِمَا دلَّ عليه القرى ولو بلا تقدير، أو على الاستخدام بأنَّ ذكر القرى مرادة بنفسها، وردَّ عليها الضمير بمعنى ساكنيها ﴿وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ إذ جرُّوا إليها الهلاك بشركهم وسائر معاصيهم.

﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ, ءَالِهَتُهُمُ﴾ عطف على محذوف، أي أهلكناهم فما أغنت، أي وجهنا الإهلاك إليها فما دفعته آلهتهم ﴿التِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اِ۬للَّهِ﴾ يعبدونها، أو يطلبون منها حوائجهم إذ عدُّوها آلهة ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي إغنَاء، أو مفعول به أي ما دفعت شيئا من العذاب، وهذا أولى من جعل «مَا» استفهاما إنكاريًّا، لأنَّه على الأصل المتبادر بلا داع إلى الصرف عنه، وعلى كلِّ حال «مِنْ» صلة. ﴿لَّمَّا جَآءَ﴾ جاءهم ﴿امْرُ رَبِّكَ﴾ أمر من أموره، وهو الإهلاك، وهذا أولى من أن يقال: أمره الملائكة بتوجيه العذاب على أنَّه ضدُّ النهي.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ زادتهم وعبَّر عنها بضمير الذكور العقلاء وهو الواو، لاعتقادهم فيها أنَّها بمنزلة الذكور العقلاء ﴿غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ تخسير، جاءتهم منها مضرَّة حين رجوها للنفع، ومجيء الشرِّ من حيث يطمع الخير أشدُّ في الخسران.

والتضعيف للتعدية أي تببتهم: أوقعتهم في التباب؛ أو للمبالغة، أي غير هلاكهم. ومعنى الزيادة أنَّهم يهلكون بإنكار الله أو الأنبياء والكتب ولو بلا عبادة أصنام، فزادتهم عبادتها هلاكا، أو زيادتها لهم إنكارها أن ترضى بالعبادة وتعذيبهم

بها في النار.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ﴾ والإشارة إلى أخذ غير أخذ القرى المذكور، وهو الأصل لأنَّ الله ﷻ لم يذكر لرسول الله ﷺ أخذ كُلِّ قرية أخذها، أو أراد ما ذكر في غير هذه السورة.

ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الأخذ المذكور بعد فتكون الكاف مقحمة للدلالة على فخامة شأن المشار إليه والتلويح إليه كأنّه مشاهد له، ففي الوجه الأَوَّل القرى غير المذكورة في السورة.

(نحو) وتنازع «أَخْذُ» و«أَخَذَ» في «الْقُرَى» وأعمل الأول في ضميرها، وحذف لأنّه فضلة عمل فيه المهمل، أي وكذلك أخْذُها ربُّك بإسكان الخاء وضمِّ الذال ورفع ربُّ على الفاعليَّة للأخذ، والاستقبال بـ«إِذَا» على فرض أنّه ﷺ سابق لأخذ البعض متأخّر عن أخذ البعض الآخر، أو «إِذَا» بمعنى إذ بإسكان الذال، أو أراد القرى التي تهلك على يد أمَّته بعده.

﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ حال، بيَّن الله ﷻ أنَّ عاقبة ظلم النفس بالمعاصي وظلم الخلق وخيمة في كلِّ عصر، فإن لم تظهر في الدنيا ظهرت في الآخرة. ولا يخفى أنَّ أخْذَ القرى وظلمَها أخذُ أهلها وظلمُهم على ما مرَّ ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ وجيع في نفسه على التجوُّز، أو موجع بفتح الجيم كذلك أو بكسرها ﴿شَدِيدٌ﴾: لعظمه ودوامه وحضوره، بحيث لا يرجى دفعه ولا الخلاص منه.

ولا يختصُّ ذلك بالأمم السابقة ولا بأهل الشرك كما قال أبو موسى عن رسول الله ﷺ : **«إنَّ الله ليملي على الظالم حتّى إذا أخذه لم يفلته»**[1] ثمَّ قرأ

١-رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٥) باب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ
=

ﷺ : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [قلت]: فنقول يجب على الظالم أن يقلع عن الظلم ويقضي التباعات.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَٰوَٰتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

العبرة في قصص القرآن بجزاء الآخرة

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذكره الله من القصص في هذه السورة، أو في كلِّ ما نزل عليهم في كلِّ عصر وما ينزل ﴿لَآيَةً﴾ اعتبارا، إذا قيل: آية على كذا فمعناه الدلالة، وإذا قيل: آية لكذا فمعناه العبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ يتّعظ به لعلمه بأنَّ ذلك مع شدَّته قليل من كثير وفان من دائم، وينزجر عن موجباته لعلمه بأنَّها من الله العزيز الجبَّار، الفاعل المختار، لا كمن نفى الله وفعل تلك الوقائع لأسباب نجومية اقتضت ذلك، لا لذنوبهم، وقد يقول بهذا بعض المشركين الذين يذكرون الله ﷻ.

=

ظَالِمَةٌ...﴾ رقم٤٦٨٦. والتبريزي في كتاب الآداب (٢١) باب الظلم، الفصل الأوَّل، رقم ٥١٢٤ (٢). من حديث أبي موسى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي يوم القيامة المذكور في قوله ﷻ: ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ المدلول عليه بقوله: ﴿عَذَابَ الآخِرَةِ﴾، ويسهل ذلك الإخبار عنه بقوله: ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ أو الإشارة إلى العذاب فيقدَّر المضاف قبله أي يوم ذلك العذاب يوم مجموع، أو قبل يوم، أي: ذلك العذاب عذاب يوم مجموع...الخ. و«النَّاسُ» نائب فاعل، وكأنَّه قيل: يجمع له الناس، ولكن غيَّر الفعل إلى الوصف لدلالة الوصف، وهو مجموع على الثبات ثبات الجمع لليوم، وأنَّ جمع الناس فيه أمر لا محالة فيه، وأنَّهم لا ينفكُّون عنه، وهو أشدُّ مبالغة وبلاغة من قوله: ﴿يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ (سورة التغابن: ٩) جيء بالفعل إذ لم تورد المبالغة.

والقرآن يشتمل على الأبلغ والبليغ لأنَّ كلام العرب كذلك، وصرَّح السعد وابن هشام بأنَّ اسم الفاعل أو اسم المفعول مجاز في الحال والاستقبال فـ«مَجْمُوعٌ» مستعار ليجمع، كاستعارة نادى لينادي، واللام على ظاهرها أي جمع له الناس ليكون يوما عظيما، أو بمعنى في، ومراد الجمع له أو فيه الحساب والجزاء.

﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ يوم عظيم يشهده الناس، والجنُّ والملائكة والحيوانات كلُّها، أو يشهد بعضهم بعضا فيه، وعلى كلٍّ يعظم، ولا يقال: «يَوْمٌ مَشْهُودٌ» إلاَّ ليوم جامع الناس لأمر عظيم أو غريب أو مهمٍّ فيه، ولو جعل اليوم مشهودا لذاته لم يكن عظيما، لكن مشهود لِمَا فيه، فامتاز كيوم العيد والجمعة وعرفة، وإلاَّ فكلُّ يوم قد حضره من هو فيه، ولا يختصُّ التعظيم بالزمان، قالت امرأة:

ومشهدٍ قد كُفيتُ الغائبين به في محفل من نواصي الخيل مشهود[1]

﴿وَمَا نُوَخِّرُهُ, إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ لوقت معلوم عند الله بأجزائه الدقيقة جدًّا لا يعلم دقّتها إلاّ الله وهو مُدَّة الدنيا المعلومة عند الله بذرّاتها من الزمان. واللام للتعليل، أي إلاّ لأجل انقضاء أجل معدود. والهاء للعذاب أي ما نؤخر العذاب المذكور.

وإن لم نقدِّر الانقضاء فلأجل آخر، جزء من الدنيا أو البرزخ، وهل هو من الدنيا؟ أقوال، ثالثها: لا منها ولا من الآخرة، إلاّ أنَّ الجزء المدقَّق الذي لا يقبل التجزيء من الزمان لا يقبل العدد، فلا يقال: إنّه معدود إلاّ باعتبار أنّه جزء من جملة، على أنّه اختلف في الواحد أهو عدد؟. ويجوز عود الهاء لليوم، أي قضينا أنَّ ذلك اليوم يأتي بعد مدَّة الدنيا.

﴿يَوْمَ يَاتِي﴾ متعلّق بـ«تَكَلَّمُ»، ولا صدر لـ«لاَ» النافية غير العاملة عمل إنَّ، أو مفعول لـ«اذكر» محذوف، أو متعلّق بالانقضاء المقدَّر، وعلى الوجهين ينقطع عنه قوله: ﴿لاَ تَكَلَّمُ﴾ فيكون مستأنفا بعده، وقد يقدَّر الضمير، أي لا تكلّم فيه نفس، فيتّصل المعنى.

وضمير «يَاتِي» للعذاب، أو لله أي يأتي أمره، أو عذابه، ولا يجوز عوده لـ«يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ» لأنَّ الزمان لا يكون في الزمان، إلاّ إن اعتبر زمان متّسع، وكأنّا نعتبر ما يلي الدنيا من البرزخ، أو من قرب القيامة جدًّا مع ما يكون بعدُ، فنجعل اليوم المشهود جزءا متأخّرا لا انتهاء له.

١- هي أم قُبيس الضبِّيَّة، ورواية اللسان: «من نواصي الناس»، والنصية من الناس: خيارهم. انظر: اللسان مَادَّة: نصا ـ ناصية.

أو اليوم المشهود: وقت الحساب، ووقت الحساب لا يخلو من عذاب القلوب، وقد صحَّ أن تقول يوم الجمعة في شهر كذا أو الساعة في يوم كذا وما أشبه ذلك، واليوم بمعنى حين، وورد في القرآن إتيان الساعة كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَاتِيَهُم بَغْتَةً﴾ (سورة القتال: ١٩) وإتيان الله ﷻ نحو: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَّاتِيَهُمُ اللهُ﴾ (سورة البقرة: ٢١٠) أي أمره، ثمَّ إذا رددنا الضمير لليوم صحَّ بوجه آخر أيضا، أي يوم يأتي اليوم المجموع له الناس، أي هول اليوم المجموع...الخ.

﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ اِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أي كلاما نافعا أو منجيا أو شفاعة، فلا ينافي ﴿يَوْمَ تَاتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ (سورة النحل: ١١١) ونحو قولهم: ﴿وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: ٣٢). يقال: خرس فلان عن حجَّته، ويقال: حضر فلان فلم يتكلَّم مع أنَّه ليس أخرس وقد تكلَّم إذ لم يأت بكلام نافع.

[قلت]: ولا يجوز أن يقدَّر لا تكلم كلاما باطلا من الأعذار الباطلة أو غيرها لأنَّ الله ﷻ يقول: ﴿إلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ والله لا يأذن بباطل، إلاَّ أن يقال: المراد يأذن له في الكلام مطلقا، أو في الكلام بحجَّة فينطق بباطل، والله عالم بأنَّه ينطق به قبل نطقه، أو يجعل الاستثناء منقطعا، ويجوز أن يقدَّر لا تكلَّم في موطن ﴿لاَ يَنطِقُونَ وَلاَ يُوذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (سورة المرسلات: ٣٦) وتتكلَّم في آخَر، ويوم الحشر مواطن، ومن التكلُّم في موطنٍ قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنَ اَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ (سورة النبأ: ٣٨) فمنه الآية.

﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾ سيِّء الحال في عذاب وتعب في النار بعمله لموجب الوعيد[1] ﴿وَسَعِيدٌ﴾ حسن الحال في نعمة وراحة في الجنَّة لعمله بفضل الله ﷻ ووعده،

١- في الطبعة العمانية: «العذاب».

أي ومنهم سعيد، ولا يلزم هذا التقدير، إذ المعنى بلا تقدير ثبت منهم شقي وسعيد، وكأنّه قيل: الشقي والسعيد ثابتان منهم.

(بلاغة) وقدَّم الشقيَّ لأنَّ المقام للإنذار، والمراد: فريق شقيٌّ وفريق سعيد، ولم يقل: أشقياء وسعداء، لأنَّ الإفراد أوفق بما قبل، وللإشارة إلى أنَّ السعداء كسعيد واحد، والأشقياء كشقيٍّ للاتِّفاق فيما به ذلك من الخذلان والتوفيق والأعمال، والجمع في ﴿فَأَمَّا الذِينَ شَقُواْ﴾ و﴿وَأَمَّا الذِينَ سَعِدُواْ﴾ لأنَّهم يدخلون النار والجنَّة زمرة، كما جاء القرآن والحديث بذلك.

الهاء للناس في قوله: ﴿مَجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ أو للنفس للعموم بتقدُّم السلب مع وجود التنكير، أو للناس المعلومين من ﴿لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، أو لأهل الموقف كما دلَّ عليه ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ والجنُّ تابعون للناس في شمول الكلام، والنفس شاملة لهم قطعا.

(أصول الدين) وأطفال المشركين والمنافقين من السعداء لقوله ﷺ: «**سألت ربِّي في اللاهين فأعطانيهم خدما لأهل الجنَّة**»[1] وأطفال المسلمين في درجات آبائهم لا خدم، جاءه ذلك من الله بعد أن توقَّف، وقال: الله أعلم بما كانوا عاملين.

(أصول الدين) والسعادة والشقاوة من الدنيا بحسب طبق القضاء الأزلي ولا يتخلَّف، [قلت:] والله يمنُّ بالرحمة ولا يظلم بالعذاب وقد منَّ الله على

١- أورده **ابن الجوزي** في العلل: ج٢، ص٤٤٤ بنفس المعنى. ورواه **ابن أبي شيبة والدراقطني** في الإفراد والضياء عن أنس، صحيح الجامع الصغير بدون الجملة الأخيرة.

الأطفال كما مرَّ آنفا، ولا يمنُّ على المصرِّ، ويوم القيامة ليس يوم عمل وتكليف. وأنا أذكر لك أحاديث وضعها الناس وأسندوها إلى رسول الله ﷺ وليست منه:

(أحاديث موضوعة) روى أحمد وإسحاق بن راهويه والبيهقي عن الأسود بن سريع عن النبيء ﷺ : «**أربعة يحتجُّون يوم القيامة: رجل أصمُّ لا يسمع، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فيقول الأصمُّ: ربِّ جاء الإسلام وما أسمع شيئا، والأحمق يقول: ربِّ جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، والهرم يقول: ربِّ جاء الإسلام وما أعقل شيئا، والذي مات في الفترة يقول: ربِّ ما أتاني لك رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنّه، يرسل إليهم أن ادخلوا النار، أي نارا ترفع لهم، فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها سحب إليها أي ودخل النار**».

وكذا روى أحمد وإسحاق وابن مردويه في تفسيره والبيهقي عن أبي هريرة، وروى البزار عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ : «**يؤتى بالهالك في الفترة والمعتوه والمولود، فيقول الهالك في الفترة: لم يأتني كتاب ولا رسول، ويقول المعتوه: أي ربِّي لم تجعل لي عقلا أعقل به خيرا ولا شرًّا، ويقول المولود: لم أدرك العمل. فترفع لهم نار، فيقال لهم: رِدُوها** -أو قال: ادخلوها- **فيدخلها من كان في علم الله سعيدا لو أدرك العمل، ويمسك عنها من كان في علم الله شقيًّا لو أدرك العمل، ويقول الله تبارك وتعالى: إيَّاي عصيتم فكيف برسلي في الغيب؟**» وفي إسناده ضعف بعطية العوفي، والترمذي يحسِّن حديثه، ولهذا أحاديث تقتضي حسنه، **إلاَّ أنَّها عندنا لا تصحُّ**.

وروى البزار وأبو يعلى عن أنس قال رسول الله ﷺ : «**يؤتى يوم القيامة**

بأربعة: بالمولود والمعتوه ومن مات في الفترة والشيخ الفاني، كلٌّ يتكلَّم بحجَّة، فيقول الله تبارك وتعالى لِعُنق من جهنم: ابرزي، فيقول: إنِّي كنت أبعث إلى عبادي رسلاً من أنفسهم، وإنِّي رسول نفسي إليكم، ادخلوا هذه النار، فيقول من كتب عليه الشقاء: يا ربِّ أَتُدْخِلْنَاها؟ ومنها كنا نفرق! ويقتحمها من كتبت له السعادة، فيقول الله: قد عصيتموني فأنتم أشدُّ لرسلي تكذيبا ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنَّة وهؤلاء النار».

وروى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن حاتم عن أبي هريرة موقوفا: **«إذا كان يوم القيامة جمع الله أهل الفترة والمعتوه والأصمَّ والأبكم والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام، ثمَّ أرسل إليهم رسولا أن ادخلوا النار فيقولون: كيف ولم تأتنا رسل؟»** ثمَّ قال: **«وأيمُ الله لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما، ويدخلها من يطيعه، اقرؤوا إن شئتم ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾** (سورة الإسراء: ١٥)».

وروى البزار والحاكم عن ثوبان أنَّ النبيء ﷺ قال: **«إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجَاهِلِيَّة يحملون أوثانهم على ظهورهم، فيسألهم ربُّهم فيقولون: ربَّنا لم ترسل إلينا رسولا ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولا لكنَّا أطوع عبادك، فيقول لهم ربُّهم: أرأيتكم إن أمرتكم بأمر تطيعونني؟، فيقولون: نعم، فيأمرهم أن يعمدوا إلى جهنَّم، وأن يدخلوها فينطلقون حتَّى إذا رأوها فرقوا ورجعوا، وقالوا ربَّنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها فيقول: ادخلوها داخرين»** فقال: النبيء ﷺ : **«لو دخلوها أوَّل مرَّة كانت عليهم بردا وسلامة»** وصحَّحه الحاكم.

وروى الطبري وأبو نعيم عن معاذ بن جبل عن النبيء ﷺ : **«يأتي يوم القيامة**

بالممسوخ عقلا، وبالهالك في الفترة، وبالهالك صغيرا، فيقول الممسوخ عقلا يا ربِّ لو آتيتني عقلا ما كان من آتيته عقلا بأسعد بعقله منّي»، وذكر في ميِّت الفترة والصغير نحو ذلك، «**فيقول الربُّ إنِّي آمركم بأمر أفتطيعونني؟ فيقولون نعم، فيقول اذهبوا فادخلوا النار، فلو دخلوها ما ضرَّتهم، فيخرج إليهم فرائص فيظنُّون أنَّها أهلكت ما خلق الله، فيرجعون سراعا ثمَّ يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الربُّ: قبل أن أخلقكم علمت بما أنتم عاملون، وعلى علمي خلقتم، وإلى علمي تصيرون، ضمِّيهم، فتأخذهم**».

[قلت:] **فانظر كيف يكذب الناس على الصحابة**، أمَّا الصبيُّ والمجنون من الطفولية فمعذوران بالحديث المتَّفق عليه، أنَّه رفع عنهما القلم[1]، وكذا الأصمُّ والأبكم اللذان لا يعقلان بالإشارة، ولا بالكتابة، وأهل الفترة معذرون في تفاصيل الشرع مقطوعو العذر في الإشراك، فمن وحَّد منهم ولم يجد من يقول له عُذِر، كيف يقال لهم: كذَّبتم، ولم يبلِّغ لهم مبلِّغ؟ وكيف يقول فيهم الله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ (سورة الذاريات: ٥٤) وكيف يقول الرسول ﷺ: قد بلَّغتهم، وكيف يقولون: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ (سورة الملك: ٩) ونحو ذلك مِمَّا يقول أهل النار؟!.

﴿فَأَمَّا الذِينَ شَقُواْ فَفِي النَّارِ﴾ يقدَّر الاستقرار مضارعا للاستقبال، ولو قدِّر وصفا للاستقبال لجاز للثبوت، ولو قدِّر ماضيا لتحقُّق الوقوع لصحَّ لكن لا دليل

١- ولفظه: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتَّى يبرأ، وعن النائم حتَّى يستيقظ، وعن الصبيِّ حتَّى يحتلم» رواه **أحمد** في مسنده كتاب العشرة المبشَّرين، رقم ١٢٥٨. ورواه **أبو داود** في كتاب الحدود رقم ٣٨٢٣. ورواه **الحاكم**. والحديث عن عليٍّ وابن عمر.

على تقديره.

(لغة) ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ إخراج النفَس مع مدِّه، مأخوذ من الزِّفر وهو الحمل الثقيل. ﴿وَشَهِيقٌ﴾ ردُّه مع المدِّ، أو الزفير: ترديد النفس في الصدر حتّى تنتفخ منه الأضلاع، والشهيق ردُّه في الصدر، أو الزفير للحمار والشهيق للبغل، وقيل: الشهيق الممتدُّ كما تقول: جبل شاهق، وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنه : الزفير الصوت الشديد، والشهيق الصوت الضعيف، أي دخولا أو خروجا سواء.

(بلاغة) أو أراد الشدَّة في الإخراج والضعف في الإدخال، شبَّه حالهم وهي شدَّة الغمِّ وانحصار أرواحهم في داخل قلوبهم، بحيث يحتاجون إلى إخراج النفس الكثير لإدخال الهواء الكثير البارد للترويح، بحال من كان كذلك في الدنيا لهموم استولت عليه. وأولى من هذا أنَّه شبَّه ضيق حالهم وشدَّتها في النار بمن حاله بانحصار الأرواح إلى آخر ما مرَّ، والزفير والشهيق تخييل، فـ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ مكنية وتخييلية، أو الزفير والشهيق استعارتان مفردتان لصراخهم فيها لشبهها بأصوات الحمر.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالاَرْضُ﴾ المراد: الخلود بلا غاية.

(لغة) والسماوات والأرض منقطعة، ولكن مثّل بدوامها على طريق العرب في التمثيل لِمَا لا انقطاع له بما له انقطاع بعيد، كما يمثّلون للإياس بالسبعين، ويقولون: لا أكلّمك ما دامت السماء والأرض وما حنت البنت، وما أطّت الإبل وما أورق الشجر، وما أينع التمر، وما سال سائل، وما جنَّ ليل، وما طلع فجر، وما لاح كوكب، وما طرق طارق، وما نطق ناطق، وما غنّت حمامة، ومرادهم أنّه لا يكون كذا أبدا.

والمعلوم أنَّهم لا يعيشون مدَّة بقاء السماء والأرض ولا مدَّة ما ذكر.

ولو أريد ظاهر الآية لم يبق إلاَّ المفهوم، إذ يفهم أنَّه إذا زالت السماوات والأرض خرجوا منها بل يبقون فيها إلى زوالهما، وبعد زوالهما لا يخرجون، للنصوص الدالة على الأبديَّة المبطلة لهذا المفهوم، فليس هذا المفهوم مرادا في الآية ثمَّ إنَّ السماوات والأرض تفنيان يوم القيامة فكيف يدومون في النار ما دامتا؟ فالمراد ـ والله أعلم ـ التمثيل لخلودهم فيها بمقدار بقائهما في الدنيا.

وقيل: المراد سماوات النار وأرضها وهما أبديَّتان، وسماواتها سقوفها كما قال: الله عَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الاَرْضُ غَيْرَ الاَرْضِ والسَّمَاوَاتُ﴾ (سورة إبراهيم: ٥٠)، وفي هذا أيضا أنَّ المخاطبين لا يعرفون ثبوت هذا ولا قيام الساعة، ويجاب عن هذا والذي قبله أنَّه لا مانع من خطابهم بما لم يعرفوا لفائدتين: إحداهما: الاحتجاج مثلا، والأخرى: الإخبار بذلك الشيء. وقيل: ما دامت السماوات والأرض قبل زوالهنَّ فإذا زالت أبدلهم الله خلودا.

﴿إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من مدَّة وهي ما بين قيام الساعة إلى دخول النار، فإنَّهم يعذَّبون في قبورهم بنار تارة، وتعذَّب أرواحهم في سجِّين تارة بها، والمستثنى منه هو المصدر الظرفيُّ، وهو دوام السماوات والأرض، لكن يبقى من يموت بقيام الساعة فإنَّه لم يعذَّب قبله، فإمَّا أن يحمل الكلام على الغالب لأنَّ من مات وعذِّب قبل قيامها أكثر، أو يحمل الاستثناء في جنابه على الاستثناء من أوَّل، ولا مانع من اختلاف أحوال المستثنى.

أو المدَّة المستثناة هي مدَّة كونهم في الزمهرير فإنَّهم تارة في النار وتارة في الزمهرير، أو المراد: ﴿إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ من الزيادة على قدر مدَّة دوام السماوات

والأرض، وهي زيادة لا منتهى لها، و«إلاّ» في هذا الوجه كالنعت أو البدل، أي مدَّة دوام السماوات والأرض التي هي غير ما يزداد بعدها، كقولك: لي عليك ألف غير الألف السابق، أو غير الألف الذي سيكون من جهة كذا، ذكر أوَّلاً ما يعرف من المدَّة، وزاد بعدها ما لا ينتهي.

ويجوز أن يكون المستثنى مدَّة لبثهم في الدنيا، وبرازخهم والموقف، وبرزخ كلِّ أحد ما بين موته إلى بعثه، كأنَّه قيل: هم أصحاب النار لا يخلون عنها إلاَّ ما سبق من المدَّة قبل وقت دخولها.

ويجوز الاستثناء من الزفير والشهيق، والمعنى: لهم فيها زفير وشهيق في جميع أوقاتها إلاَّ بعض الأحيان، فينقطع فيها زفيرهم وشهيقهم، إلاَّ أنَّ هذا يشكل بأنَّه ليس استثناء تاما لعدم ذكر المستثنى منه، ولا مفرَّغا لعدم السلب، وبعض النحاة يكتفي بالمقدَّر في ذلك كما رأيت.

والأَولى في هذا جعل الاستثناء منقطعا، وقيل: المعنى إلاَّ ما شاء ربُّك لو فرض أنَّه تعالى وعَجَلَّ يشاء إخراجهم فهو تعليق بالمحال، فيكون ذلك برهانا على الأبديَّة كقوله تعالى وعَجَلَّ : ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (سورة الأعراف: ٤٠) أو كقوله: لأضربنَّك إلاَّ إن أرى غير ذلك، وأنت لا ترى إلاَّ ضربه، وكأنَّه قيل: لا يخرجهم ولو شاء لأخرجهم.

وقيل: الاستثناء تعليم للاستثناء لمشيئة الله عَجَلَّ في الكلام والتبرُّك به، وهو في حكم الشرط كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ اللَّهُ﴾ (سورة الفتح: ٢٨).

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا رادَّ لفعله ولا معارض. ذكر الله وعيدهم

إنذارا لقومه ﷺ ، وتسلية له ﷺ ، وذكر السعادة له ولمن تبعه تنشيطا لهم وإرغاما للكفرة بقوله: ﴿**وَأَمَّا الذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالاَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ**﴾ غير مقطوع عنهم بفنائهم، أو مرضهم أو خروجهم، أو بعدم الانتفاع، كلٌّ ذلك لا يكون.

ونصب «عَطَآءً» على أنَّه مفعول مطلق، أي أعطوا ذلك عطاء، ومعنى جذّ العطاء إبطاله والرجوع فيه، فلا استثناء فيه بالنقص، كما استثنى في الكفار بالزيادة، و﴿مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾: مدَّة برزخ قيام الساعة وما بعدها إلى دخولها، أو **ما شاء ربُّك من الزيادة أي خالدين فيها قدر مدَّة الدنيا غير ما يزاد عليها، ولا ينتهي**، أو «إِلاَّ» في الموضعين كما قيل: في قوله تعالى ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾ (سورة النمل: ١١) بمعنى الواو العاطفة فهي عاطفة، وهو[1] وجه ضعيف، أو الاستثناء تبريك فليس متَّصلا ولا منفصلا كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَآءَ ا للَّهُ﴾ (سورة الفتح: ٢٧).

﴿**فَلاَ تَكُ**﴾ لا تكن يا محمَّد ﴿**فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَآءِ**﴾ على حذف مضافين، أي من عاقبة عبادة ما يعبد هؤلاء، أو في عاقبة عبادة ما يعبد هؤلاء، أو في ضياع عبادة ما يعبدون، أو من ضياع عبادة...الخ، أو «مَا» مَصدَرِيَّة، أي من عبادة هؤلاء أصنامهم، أي من عاقبة عبادتهم أو ضياعها، وإنَّما جاز أن تفسَّر «مِن» بـ«في» لتعلُّقها بـ«مرية» لا بما تعلَّقت به الأولى.

﴿**مَا يَعْبُدُونَ**﴾ أصنامهم ﴿**إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم**﴾ و«مَا» مَصدَرِيَّة أي إلاَّ كعبادة آبائهم ﴿**مِّن قَبْلُ**﴾ وقد أهلكوا إلى النار لعبادتها، فكذلك نهلك من عبد

١- أي ورود «إلاَّ» بمعنى الواو العاطفة.

وهم لم يُوَفُّوا حَقَّ أبي حيان إذ ردُّوا عليه نحو هذا، اللهمَّ إن اعتبرنا ما يجري بين الناس، من أن يقال: قضى فلان دينه إذا برأت ذمَّته، ولو بمسامحة في بعض، أو اعتبرنا ما يجري في كرم الله تعالى من المسامحة فتكون حالا مبيِّنة لدفع احتمال عدم الكمال، وأمَّا أن يكون كرمه قرينة لأنَّ كونه كريما في الجملة لا يوجب أن يكون قد سامح في هذه القصَّة.

وعنه ﷺ : «**السعيد من بطن أمِّه والشقيُّ من بطن أمِّه**»[1] ومعناه: يظهر سعادته وشقاوته للملك من حين كان في بطنها، حين كان نطفة، وإلاَّ فسعادته أو شقاوته معلومة لله سبحانه وتعالى بلا أوَّل، وقيل: الأمُّ الثبوت العلميُّ الأزليُّ، أي من جهة العلم الأزليِّ الذي كان كالخزانة للخارج، **وفيه عدم أدب**.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ ﴾

التذكير بعاقبة الاختلاف والشك

﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾ التوراة ﴿**فَاخْتُلِفَ**﴾ اختلف قومه ﴿**فِيهِ**﴾ نائب الفاعل، آمن بعض وكذَّب بعضهم، ولم يؤمنوا كلُّهم، فتسلَّ بذلك إذ كفر بعض قومك بالقرآن، ولم يؤمنوا كلُّهم، و«فِي» على ظاهرها، أو للسببيَّة، والهاء للكتاب، وإن جعلناها بمعنى "على" فالهاء لموسى، وقيل: له ولو أبقيت على ظاهرها، أي فيه من حيث النبوءة أو في نبوءته.

١- أورده **الهندي** في الكنز في كتاب الإيمان والإسلام في الفصل السادس في الإيمان بالقدر، ج١، ص١٠٧، رقم٤٩١. وقال: رواه الدراقطني من حديث أبي هريرة. ورواه **الربيع** في مراسيل جابر رقم ٨٠١ بلفظ: «إذا وقعت النطفة...».

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ﴾ أي قضاؤه ﴿سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير الموت إلى وقته والعذاب إلى وقته من الموت، ومن القيامة والحساب إليه ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ في الدنيا، حكم فيها بإهلاك المبطل وبحكم الآخرة.

والهاء لقوم موسى، فقومك يا مُحَمَّد مثلهم، أخّرنا القضاء بينهم للكلمة السابقة، أي بين المؤمنين والكافرين في الفريقين، أو بين قومك وقوم موسى كما قيل، وهو ضعيف، والوجه الأوَّل يناسبه قرب ذكر قوم موسى، والثاني يناسبه أنَّ الكلام في قومه ﷺ، وأمَّا ذكر قوم موسى فللتمثيل و التسلّي.

بقي أنَّ قوم موسى لم يكفروا بالتوراة، وفرعون وقومه ولو كانوا من قوم موسى لكنَّهم هلكوا قبل نزول التوراة، ومن كفر من بني إسرائيل بالتوراة قليل، فيعتبر هذا القليل، أو أريد بالكتاب الصحف على أنَّها أنزلت في حياة فرعون، وكفر بها، وقيل: بين قومك يا محمد.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي كفَّار قومك يا محمد ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من القرآن المفهوم من سوق الكلام ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، فإنَّ الشكَّ ليس نفس الإيقاع في الريبة، أو في شكٍّ ذي ريبة، أو الضمير عائد إلى قوم موسى مع عوده إليهم قبلُ، أو عائد إلى القومين، وهاء «منه» تابعة لذلك، بأن ترجع للكتاب أو للقرآن، وقيل: للوعيد المفهوم.

﴿وَإِن كُلاًّ﴾ كلُّ فرد من أفراد كلِّ فريق من الفريقين المؤمنين والكافرين، أو إنَّ كلَّ فريق من الفريقين، «إنْ» مخفَّفة بقيت على عمل المشدَّدة، وقال مقاتل: المراد كفَّار مكَّة.

(نحو) ﴿لَّمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ اللام الأولى للتأكيد في خبر «إن» المخفَّفة، كما تكون في خبر المشدَّدة، لا فارقة بين النافية والمخفَّفة، لأنَّ

(نحو) ﴿لَّمَا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ اللام الأولى للتأكيد في خبر «إن» المخفَّفة، كما تكون في خبر المشدَّدة، لا فارقة بين النافية والمخفَّفة، لأنَّ النصب بها فارق، لأنَّ النافية لا تنصب الاسم، و«ما» صلة فاصلة بين اللامين لكراهة تواليهما، والثانية للتأكيد في جواب القسم، والقسم وجوابه خبر لـ«إنْ» المخفَّفة، أو مفعول لقول محذوف، مخبر به عن «إن»، أي لمقول فيهم: وا لله لَيُوَفِّيَنَّهُمْ...، أو صلة «ما»، أو وصفتها واقعة على القولين بتقدير القول، أي للذين يقال فيهم: وا لله ليوفينَّهم، أو لقوم مقول فيهم: وا لله ليوفينَّهم.

أو اللام عند زيادة «ما» في جواب القسم كرِّرت تأكيدا كذا قيل، وفيه أنَّه لا يكرَّر الحرف الذي ليس حرف جواب إلاَّ مع مدخوله إلاَّ نادرا أو ضرورة، والقرآن لا يحمل على ذلك.

وتوجيه الأعمال إحضار الثواب للمؤمنين على طاعتهم، والعقاب للكافرين على معاصيهم، فذلك تبشير وإنذار في لفظ واحد، وسمَّى المسبَّب أو اللازم وهو الجزاء باسم السبب أو الملزوم وهو العمل، أو يقدَّر مضاف أي جزاء أعمالهم ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عليم بما جلَّ أو دقَّ ما في القلب وما في غيره.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

الأمر بالاستقامة على أوامر الله تعالى

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ هو ﷺ مستقيم لكن جاء الكلام إلهابا له، أو المراد: دُمْ على الاستقامة أو زد منها، وقيل: استفعل للطلب، والكاف بمعنى على، أي اطلب

(نحو) ولا حاجة إلى جعل «مَنْ» فاعلا لمحذوف، أي وليستقم من تاب معك، ففعل الأمر يرفع الظاهر بواسطة العطف، ولو كان لا يرفعه بدونها، والكاف بمعنى على، و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي استقم على أمري، أو اسم والمعنى: على ما أمرت به فحذف الرابط ولو لم يجرَّ الموصول بما جرَّ به، ولا اتَّفَقَ عاملهما، أو ضُمِّن «أُمِرْتَ» معنى أُلزمت.

أو الكاف على أصلها، أي استقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت، إمَّا على معنى استقم في الحال وبعدُ كما استقمت قبل، وإمَّا على أنَّ مطلوب الأمر كلّيٌّ والمأمور به جزئيٌّ على حدِّ: صلِّ ركعتين كما أمرت، ولا غرابة فيه. وإمَّا على أنَّ الشيء باعتبار الأمر به غيره باعتبار وقوعه فصحَّ التشبيه، وقد قيل: الآية كقولك: كن كما أنت، أي كما أنت عليه، وقيل: كقولك: مثلك لا يبخل.

والمراد: أداء الفرائض فعلا وتركا، كالقرآن والتوحيد والتبليغ هكذا. أو ذلك أمر في بيان اعتدال الإسلام لا إفراط ولا تفريط، ولا تشبيه ولا تعطيل، لا إسراف ولا إقتار، ولا جبن ولا تهوُّر، ولا تحمِّلوا على أنفسكم ما يضرُّها من الطاعات، بل ما تطيقه، ولا ما تضعف به أجسامكم من قطعها بالكُلِّيَّة عَمَّا يلذُّ، [قلت:] وزعم بعض المحقِّقين أنَّ الآية لا تشمل عمل القلب ونقول: هي أولى به ﴿**وَلاَ تَطْغَواْ**﴾ لا تتعدَّوا الحدود، وعلَّل «اسْتَقِمْ» و«لاَ تَطْغَوْا» بقوله: ﴿**إِنَّهُ, بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ يجازيكم عليه.

قال ﷺ : «**شيَّبتني هود وأخواتها**» وقال: «**شيَّبتني هود وأخواتها الواقعة والحاقَّة وإذا الشمس كوِّرت**» وقال: «**شيَّبتني هود والواقعة والمرسلات وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كوِّرت**» وقال: «**شيَّبتني هود وأخواتها قبل المشيب**» وقال: «**شيَّبتني هود وأخواتها من المفصَّل**» وقال: «**شيَّبتني سورة هود**

وأخواتها الواقعة والقارعة والحاقَّة وإذا الشمس كوِّرت وسال سائل» وقال: «**شيَّبتني هود وأخواتها وما فعل بالأمم قبلي**» وقال: «**شيَّبتني هود وأخواتها، وذِكْرُ يوم القيامة وقصص الأمم**»[١].

وروي أنَّه لَمَّا نزلت الآية قال: «**شمِّروا شمِّروا**» فما رئي ضاحكا بعدها. وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنه: ما نزلت عليه ﷺ آية أشدُّ من هذه، واستدلَّ بعض على أنَّ الاستقامة صعب بهذه الآية.

وفسَّر بعض الأَشعَرِيَّة الصراط الذي هو أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف في حديث الصراط[٢] على متن جهنَّم بالاستقامة، إخراجا له عن ظاهره ، [قلت:] كما كنت أقول قبل اطِّلاَعي عليه، ورأى أبو علي الششتري[٣] النبيء ﷺ في النوم فقال: ما شيَّبك من هود؟ أقصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ قال: «شيَّبتني ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾» والله أعلم بصحَّة الرؤيا، وتحقيقها لمنافاتها بعض الروايات كما رأيت.

﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مشركين أو موحِّدين **﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾** بركونكم إليهم.

(فقه) والركون شامل للحبِّ بالقلب إلاَّ ما كان عن ضرورة، وبالتزيِّي بزيِّهم في اللباس والمشي، وبالتكلُّم بنحو كلام اختصوا به وتعظيم ذكرهم

١- تقدَّم تخريج هذه الأحاديث وما يشابهها. انظر: تفسير سورة هود آية ١٠ ، ج٦، ص٢٩٨.

٢- يشير إلى قوله عليه السلام : «الصراط على جهنَّم مثل حدِّ السيف». انظر المنذري: كتاب الترغيب والترهب، ج٤، ص٤٢٩، رقم ٨٧.

٣- علي بن عبد الله النميري الششتري من أهل ششتر، ولد سنة ٦١٠هـ وتوفي سنة ٦٦٨هـ. متصوِّف فاضل أندلسي، تنقَّل في البلاد وتوفي بقرب دمياط ودفن فيها، من كتبه العروة الوثقى في بيان السنن وما يجب أن يفعله المسلم. قال الغبريني: شعره في غاية الانطباع والملاحة، وتواشيحه وزجله في غاية الحسن كذلك. الأعلام للزركلي، ج٤، ص٣٠٥.

ومداهنتهم، واختيارهم على غيرهم.

حكي عن الموفّق[1] أنّه صَلَّى خلف إمام فقرأ هذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: هذا فيمن ركن إلى ظالم فكيف بالظالم؟ وعن الحسن: «**جعل الله الدين بين لاءين: لا تطغوا ولا تركنوا**».

ولَمَّا خَالَطَ الزهري السلاطين كتب إليه أخ في الدين: « عافانا الله وإيّاك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن يعرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخا كبيرا، وقد أثقلتك نعم الله بما فهّمك من كتابه وعلّمك سنّة نبيئه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال: الله سبحانه ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٧) وأيسر ما ارتكبت وأخفَّ ما احتملت أنَّك آنست وحشة الظالم، وسهَّلْتَ سبل الغيِّ بدنوِّك إلى من لم يؤدِّ حَقًّا، و لم يترك باطلا حين أدناك وَاتَّخَذَك قطبا يدور عليك رحا باطلهم، وجسرا يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلّما يصعدون فيك إلى ضلالهم، يدخلون الشكَّ على العلماء، ويعتادون بك إلى قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمَّروا لك في جنب ما خرَّبوا عليك!، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك!، فما يؤمنك أن تكون مِمَّن قال: الله فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اَضَاعُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (سورة مريم: ٥٨) فإنّك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فدَاوِ دينك فقد دخله سقم، وَهَيِّء زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء».

١- هو موفق الدين عبد اللطيف البغدادي الشافعي نزيل حلب، ويعرف قديما بابن اللباد وابن نقطة، كان حسن الخلق جميل الأمر عالما بالنحو، له يد في الغريبين: غريب القرآن وغريب الحديث، وله مصنّفات كثيرة، ومعرفة بالفلسفة والطب وعلم النفس والتاريخ والبلدان والأدب. توفي ببغداد سنة ٦٢٩هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج٣، ص٢٢١. الأعلام للزركلي، ج٤، ص٦١.

وفي الأثر: ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا، والذباب على العذرة أحسن من قارئ على باب هؤلاء. قيل لسفيان: إنّي أخيط للظلمة فهل أنا من أعوانهم؟ قال: لا، أنت منهم، ومن يبع لك الإبرة من أعوانهم. ﴿**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنَ اَوْلِيَآءَ**﴾ يمنعونكم من العذاب على الركون، أو يصرفونه عنكم بعد وقوكم فيه، والواو للحال ﴿**ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ**﴾ لا ينصركم الله ولا غيره إن ركنتم، لقضائه بتعذيب الراكن، ولا يخلف وعيده كما لا يخلف وعده.

(نحو) و«ثمَّ» للتراخي في الاستبعاد، استبعاد النصرة لهم من الله، وليس هذا خارجا عن قولنا: ثمَّ لتراخي الرتبة. وعطف فِعلِيَّة على اسمِيَّة، أي نصركم بعيدٌ، أو هي بمعنى الواو، أو الفاء السَّبَبِيَّة الموصولة، وقد أكَّد الله الشأن في هذه الأحكام إذ صرفها إلى الخطاب لنبيئه ﷺ وأصحابه، أو إليه وإلى أمَّته.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

الأمر بالصلاة والدعوة إلى الصلاح والصبر

﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ**﴾ صلاة الفجر في الطرف الأوَّل من النهار وصلاة الظهر والعصر في الطرف الثاني منه، وأوَّله الزوال، كذا قيل، وفيه أنَّ صلاة

الظهر أوَّل النصف وهو لا يسمَّى طرفا، ولا وجه له إلاَّ أنَّه نصف آخر لا أوَّل. و«طَرَفَي» ظرف الزمان لإضافته إلى الزمان.

أمَره ﷺ بالصلاة لأنَّه إمام أمَّته فذلك أمر لهم أيضا، وخصَّ الصلاة من العبادات بالأمر لأنَّها أمُّ العبادة بعد التوحيد، ويجوز أن يكون الأمر لكلٍّ من يصلح.

﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ جمع زلفة، كغرفة وغرف، أي قطعة من قطع الليل، منصوب على الظرفيَّة، مِن زَلَفَ إليه بمعنى قرب، أي ساعات الليل قريبة من النهار، وهي وقت المغرب والعشاء باعتبار أوَّله، فأوَّله أفضل بعد أن كان التأخير أفضل على ما في كتب الحديث[1] والفقه.

فالصلاة التي أمره الله بإقامتها في الزلف صلاة المغرب والعشاء، أو طرفي النهار ووقت الفجر ووقت العصر، وزلفا من الليل وقت العشاء يقرب من وقت صلاة المغرب، وإن كان النهار من الفجر إلى الغروب، فالمغرب طرف مجازا للمجارة[2] وهو طرف الليل حقيقة، وإن كان من طلوع الشمس فالفجر والمغرب طرف مجازا، وأمَّا صلاة الظهر فمن الآية الأخرى، مثل: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ (سورة الروم: ١٦) ومثل: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ (سورة الإسراء: ٧٨). وعن ابن عبَّاس: صلاة الطرفين: الصبح والمغرب، وصلاة الزلف: العشاء [في] الثلث الأوَّل من الليل، ولم تذكر هنا الظهر والعصر ودخلت صلاة التهجُّد والوتر بقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً﴾ (سورة الإسراء: ٧٩).

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي جزاء السيِّئات، و«الـ» فيهما للحقيقة

١- من ذلك الحديث الذي رواه البخاري في كتاب المواقيت (١٧) باب وقت المغرب، رقم ٥٣٤، عن رافع بن خديج. وأوَّله قوله: «كُنَّا نصلِّي المغرب...».

٢- في الطبعة العمانية: «فالمغرب طرف للمحاورة». فلعل الصواب: للمجاورة. تأمَّل.

بحيث يراد مطلق الحسنات: صلاة الفرض والنفل، والصوم والزكاة، وسائر العبادات، وقيل: الصلوات المفروضات، وقيل: الفرائض فقط من الصلاة وغيرها، ومطلق السيِّئات، وقال ابن عَبَّاس: «الـ» في السيِّئات للحقيقة، أو للعهد الذي في الصغائر في غير هذه الآية كاللمم، وفي الحسنات للعهد القريب، وهو الصلوات الخمس يكفِّرن ما بينهنَّ من الصغائر.

وعن مجاهد: الحسنات قول العبد: «سُبْحَان ا لله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ ا لله، وا لله أكبر، ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ با لله العليِّ العظيم» والمراد بالسيِّئات الصغائر. قال ﷺ : «**الصلاة إلى الصلاة كفَّارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر**»[1] لقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (سورة النساء: ٣١) أي بالصلوات الخمس، أو بمطلق الأذكار، وقيل: بمجرَّد اجتناب الكبائر.

(سبب النزول) قيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري، وقيل: كعب بن مالك، وقيل: كعب بن عمرو، وكان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إنَّ في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته فضمَّها وقبَّلها، فقالت له: اتق ا لله، فتركها وندم، فأتى رسول ا لله ﷺ فأخبره بما فعل، فقال: «**أنتظر أمر ربِّي**» فلمَّا صلَّى صلاة العصر نزلت فقال: «**اذهب فإنَّها كفَّارة لِمَا فعلت**» وروي أنَّه أتى أبا بكر رضي الله عنه فأخبره فقال: «أستر على نفسك، وتب إلى ا لله»، فأتى عمر فقال: له مثل ذلك، ثمَّ أتى رسول ا لله ﷺ فنزلت، فقال عمر: «هذا له خَاصَّةً، أم للناس عَامَّة؟» قال: «**للناس عامَّة**»[2].

١- رواه **الحاكم** في كتاب التوبة والإنابة، ج٤، ص٢٨٨، رقم ٧٦٦٥(٦٥) مع زيادة في آخره. **وأحمد** في مسنده، ج٢، ص٢٢٩. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب التفسير، رقم٤٤١٧، من حديث ابن مسعود.

وروي أنَّه ﷺ قال له: «**توضأ وضوءا حسنا وصلِّ ركعتين فإنَّ الحسنات يذهبن السَّيِّئَات**» وعلى هذا نزلت الآية قبل فعله. وروي أنَّ أبا بكر قال له: «تب إلى ربِّك ولا تخبر أحدا» وكذا قال عمر، وأنَّه قال: فلم أصبر بعد قولهما حتَّى أتيت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال له: «**أخنت رجلا غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟**» وأطرق طويلا، حتَّى أوحي إليه ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ... ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ فقرأها رسول الله ﷺ فقلت: إليَّ هذا خاصَّة أم للناس عامَّة؟ فقال: «**بل للناس عَامَّة**».

وقيل: معنى ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ يمنعن من الإتيان بهنَّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٥) فيراد بالسيِّئات الكبائر، لأنَّ الصغائر لا يخلو عنهنَّ الإنسان، فليس الصلاة تمنعهنَّ البتَّة، وهو بعيد مخالف لتفسير الصحابة والتابعين، **والتفسير الأوَّل أولى بمعنى غفران السيِّئات** ولا يعارض بقوله ﷺ : «**إنَّ الصغائر تغتفر باجتناب الكبائر**» لجواز أن يكون المراد تغتفر بالصلوات الخمس، أو مطلق الأذكار مع اجتناب الكبائر.

ويدلُّ للأوَّل قوله ﷺ : « **الصلوات الخمس، والجمع، ورمضان، والوضوء كفَّارة لِمَا بينهنَّ ما اجتنبت الكبائر**»[1]، والمراد: تغفر ولو بذكر واحد أو صلاة واحدة لمن شاء الله، كما مرَّ من أنه صلَّى ذلك الرجل العصر فقال له ﷺ : «**كفَّر الله سيِّئتك بصلاتك هذه**».

وجاء: «**من أمَّن لتأمين الإمام ووافق تأمين الملائكة غفر له ما تقدَّم**»[2]،

١- رواه **مسلم** في كتاب الطهارة، (٥) باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة... رقم١٦ (...). **والسيوطي** في الجامع الصغير، رقم ٣٨٧٥. من حديث أبي هريرة.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الصلاة (٢٩) رقم ٧٤٧، من حديث أبي هريرة.

وجاء: «**من أكل طعاما وقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حول منّي ولا قُوَّة غفر له ما تقدَّم، ومن لبس ثوبا وقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قُوَّة غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر**»[1].

والجمهور على أنَّ السيِّئاتِ الصغائرُ، وأمَّا الكبائر فلا يكفِّرها إلاَّ التوبة ولا تكفَّر الصغائر المصَرُّ عليها بأن عنى أن يعود إلى مثلها، أو عنى أن لا يتوب مِمَّا صدر منه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأمر بالاستقامة والنهي عن الطغيان، والركون إلى الذين ظلموا والأمر بإقامة الصلاة، أو الإشارة إلى القرآن إلاَّ أنَّه لم يجر له ذكر، وَلَمَّا يتِمَّ نزوله لَكِنَّ بعض القرآن قرآن، وقيل: الإشارة إلى إقامة الصلاة بتأويل ما ذكر، أو إلى إقامة الصلاة، وقيل: إلى الإخبار بأنَّ الحسنات يذهبن السيِّئات، وقيل: إلى الأوامر والنواهي في السورة.

﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكير أي وعظ ﴿لِلذَّاكِرِينَ﴾ المتَّعظين، وخصَّهم لأنَّهم المنتفعون ﴿وَاصْبِرْ﴾ يا مُحَمَّد على تحمُّل ما ذكر من الأوامر والنواهي، وعلى تحمُّل الأذى من قومك، أو على مطلق فعل الطاعات وترك المعصيات، وشمل الصبر على البلاء، والصبر على صعوبة ردِّ النفس عمَّا تشتهي، وقيل: المراد الصبر على الصلاة وإقامتها، كما قال ﷻ: ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بالصَّلاَةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (سورة طه: ١٣١).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ مقتضى الظاهر: لا يضيع أجرهم، بالهاء

١- رواه **الحاكم** في كتاب الدعاء والتكبير والتهليل...: ج١، ص٦٨٧، رقم ١٨٧٠ (١). **والسيوطي** في الجامع الصغير، رقم٦٠٨٦ (٢٠١٥). من حديث أنس.

عائدة إلى «الذاكرين» وعبَّر عنهم بالمحسنين ليكون الكلام في صورة حجَّة لهم، وهي أنَّ أجرهم يثبت لإحسانهم، إذ تعليق الحكم بالمشتقِّ يؤذن بأنَّه علَّة، وليخبر بأنَّ الصلاة والصبر إحسان، وأنَّه لا يعتدُّ بهما دون إخلاص، إذ «**الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه**»[1] كما جاء في الحديث، وعبادتك الله كأنَّك تراه إخلاص، والمراد: الإحسان كَيفِيَّةً وكمِّيَّةً، ويجوز أن يراد كلُّ محسن من كلِّ أمَّة، والإحسان على العموم، وعن ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ المصلُّون.

﴿**فَلَوْلَا**﴾ تحضيض أو توبيخ أو نفي على ما يأتي إن شاء الله ﴿**كَانَ مِنَ الْقُرُونِ**﴾ الأمم الماضية. «مِنْ» للتبعيض ﴿**مِن قَبْلِكُمْ**﴾ «مِنْ» للابتداء تتعلَّق بمحذوف، حالٌ من القرون ﴿**أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ**﴾ أصحاب دين وفضل، أو عقل ورأي، إذ بهما يوصل إلى قبول الشرع، وإلى الاستنباط منه، وذلك أنَّ الإنسان يدَّخر أفضل ما يجد ويحافظ عليه، فيحضره إذا احتاج إليه، كما يقال: في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا.

وَبَقِيَّة القوم: خيارهم، والبقية بمعنى الصفة كناية عَمَّا أطلق عليه أنه خير وجيِّد من الخصال المرضية، ومن لوازم الخير أن يصان ويستبقى، وكأنَّه قيل: أولوا خصلة باقية، أي من شأنها أن تبقى ولا تضيع، وتغلَّبت عليه الاِسمِيَّة فخرج إلى معنى نفس الشيء الجيِّد، ولو لم يستشعر معنى البقاء.

ويجوز أن يكون مصدرا، أي أولوا إبقاء على أنفسهم أي نقص الشرِّ عن أنفسهم، وهو بمعنى الإبقاء، فهو اسم مصدر، يقال: أبقى عليه أي راقبه، وصرف الشرَّ عنه أو بعض الشرِّ، ويدلُّ لذلك قراءة «بَقْيَة» بفتح الباء وإسكان القاف

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج١، ص٢٢٦.

وتخفيف الياء، وقراءة « بُقْـيَة » بضمِّ الباء وإسكان القاف، والفعل بقاه يَبقيه كرماه يرميه، وأمَّا ضدُّ الفناء فبقِيَ يَبقَى كرضِيَ يرضَى.

﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الاَرْضِ﴾ بالشرك والمعاصي، وصلاح الأرض تركهما.

(نحو) و«كَانَ» لا خبر لها، فليس «يَنْهَوْنَ» خبرا لها بل حال من «أُوْلُوا» أو نعت له، وإذا جعلنا «لَوْلاَ» للتحضيض فقد اعتبرنا القرون كأنَّهم موجودون، فحضَّ أصحاب الرأي منهم على النهي، وكان بمعنى يكون، وإن جعلناها للتوبيخ فالماضي على ظاهره وتحضيض المفقود وتوبيخه كناية عن توبيخ الموجودين وتحضيضهم، والتحضيض على الشيء والتوبيخ يستلزمان أنَّه منتف يطلب تحصيله، أو متروك يعاتب على تركه، فلذلك الانتفاء صحَّ الاستثناء في قوله:

﴿إلاَّ قَلِيلاً﴾ وصحَّ النصب في التمام والنفي لجوازه فصيحا، تقول: ما قام القوم إلاَّ رجلا، بالنصب كما تقول بالرفع، وقوَّى النصبَ عدمُ التصريح بالنفي، وقد قيل: إنَّ "لَوْلاَ" حرف نفي، وكأنَّه قيل: ما فيهم خيار ينهون إلاَّ قليلا.

﴿مِّمَّنَ اَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ من الهلاك، نَهَوْا عن الفساد فنجوا. و«مِنْ» هذه للبيان أي إلاَّ قليلا هم من أنجينا كمن نجا مع هود، ومع صالح، ومع لوط بإيمانه، ﴿أَنجَيْنَا اَلذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ اِلسُّوءِ وَأَخَذْنَا الذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بِيسٍ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٥).

ويجوز كون الاستثناء منقطعا فرجح النصب أو تعيَّن ولو مع السلب، وأجيز أن تكون الآية من باب نفي الملزوم بانتفاء اللازم نحو: «ما كان أغنياؤهم يواسون الناس» تذمُّهم بأنَّهم فقراء، وبالغت بأنَّه لو كان فيهم أغنياء لم يواسوا الناس.

﴿وَاتَّبَعَ﴾ العطف على محذوف، أي فلم ينهوا واتَّبَعَ. ﴿الذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ جعلهم الله بخذلانه تابعين ما أترفهم الله فيه، أي ما وسَّع الله عليهم من النعم، ولذَّذهم فيه فاشتغلوا بالتلذُّذ بها، وأعرضوا عن دين الله، واشتغلوا عن النهي عن الفساد بتوفيرها واكتسابها، والمحافظة عليها لهواهم، ويجوز ـ على بُعد ـ أن يكون مِن أترفته النعم إذا أطغته.

﴿وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مذنبين ذنوبا عظاما من شرك وظلم، وترك النهي عن الفساد مع علمهم بما هو فساد مِمَّا يدرك بالعقل، وهم مؤاخذون على ذلك ولو لم يدركوا فكيف مع ما أدركوا.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى﴾ أنفسها أو أهلها أو إيَّاهُما ﴿بِظُلْمٍ﴾ منه أي إهلاكها بظلم منه منتف ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ مؤمنون، وإنَّما يهلكهم وهم مشركون، أو يهلكهم وهم موحِّدون، لأنَّهم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، وهذا أولى من أن يقال: المراد مصلحون فيما بينهم ولو كانوا مشركين لا يهلكهم وهم غير باغين بعض على بعض، وذلك جائز كما أنَّ حقَّ الله مؤخَّر عن حقِّ المخلوقات بفضل من الله وسعة رحمته.

(فقه) ألا ترى أنَّ الديون والتباعات قبل الوصايا بالكفارات والحجِّ والعمرة والزكاة، وشُهِرَ وشوهد أنَّ الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم، وجاء الحديث عن جابر بن عبد الله أنَّه ﷺ سئل عن تفسير ذلك فقال: «**وأهلها ينصف بعضهم بعضا**»[1] والواو للحال.

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣، ص٣٨٦. وقال: أخرجه ابن أبي حاتم والخرائطي في مساوئ الأخلاق عن جرير موقوفا.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ في دين الإسلام، وهذا كما قال: الله ﷻ : ﴿وَلَوْ شِئْنَا ءَلاَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ (سورة السجدة: ١٣) وهذا أولى مِمَّا قيل: على هدًى كلُّهم، أو على ضلال كلُّهم.

(أصول الدين) وأولى من أن يقال: المراد الاتِّحاد في الكفر كما قيل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (سورة البقرة: ٢١٣) لأجل السياق. والأمر غير الإرادة والمشيئة لأنَّه يتخلَّف بمعنى أنَّه يأمر العباد بشيء ولا يفعلونه، وهما لا يتخلَّفان، فمن أراد كفره كفر ولا بدَّ، أو إيمانه آمن لا محالة، والنهي كالأمر يتخلَّف، وكذا الحبُّ لأنَّ معنى "أحبَّ الله كذا": أمر به.

(نحو) ولَمَّا كان لو للامتناع صارت الجملة كجملة منفية، وكأنَّه قيل: ما كان الناس أمَّة واحدة بل اختلفوا، ولذلك عطف عليها بقوله: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ بعضهم مؤمن وبعضهم كافر، وقيل: مختلفين في أصول الديانة، وقيل: في الفروع والأصول لعدم مخصِّص، وهذا وما قبله لا ينافيان قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾ (سورة يونس: ١٩) لأنَّ هذا على عهد آدم قبل قتل هابيل، أو بعد الطوفان.

قال: أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ : «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون فرقة في النار وواحدة في الجنَّة**»، وعنه ﷺ : «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها في النار إلاَّ واحدة**»، وعنه ﷺ : «**افترقت المجوس على سبعين فرقة، وافترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق أمَّتي على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها هالكة إلاَّ**

واحدة»[1]، وروي أنَّه قال: «**الناجية هي التي على ما أنا عليه وأصحابي**» وشذَّت رواية: «**كلُّها ناجية ما خلا واحدة**».

﴿**إلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ**﴾ فلا يختلفون عن الحقِّ بل يتَّفقون عليه، والاستثناء متَّصل إذا أريد بمختلفين أنَّ بعضهم على الحقِّ وبعضهم على الباطل، فإنَّ أهل الحقِّ لا يختلفون، ولو اختلفوا في الفروع، ومنقطع إذا أريد الاختلاف في العقائد كذا قيل، والمستثنى منه واو «يزالون» أو المستتر في مختلفين.

﴿**وَلِذَٰلِكَ**﴾ الإشارة إلى الاختلاف أو له وللرحمة بتأويل ما ذكر، وقيل: الإشارة إلى كون الناس شقيًّا وسعيدا، وقيل: لجمع الناس ليوم مشهود، وقيل: لشهود ذلك اليوم أو حضوره، وقيل: للجنَّة والنار، وقيل: للعبادة بتأويل ما ذكر، والهاء في قوله: ﴿**خَلَقَهُمْ**﴾ للناس، أو الإشارة للرحمة بتأويل ما ذكر والهاء لـ«مَن» واللام للعاقبة إذ لو خلقهم لأجل الاختلاف لم يعذِّبهم عليه، إذ أطاعوه به، ويكون مخالفا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦) بل باعتبار أنَّ أفعاله لا تعلَّل بالأغراض تكون للعاقبة في حقِّ ا لله مطلقا، ولو جعلنا الإشارة للاختلاف والرحمة معا لأنَّهما معا عاقبة، ولو خلقهم لأجل أن يختلفوا لم يعاقبهم على الاختلاف.

قال عطاء عن ابن عَبَّاس في معنى الآية: إنَّ ا لله خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف، وخلق الجنَّة وخلق لها أهلها، وخلق النار وخلق لها أهلا، قال: الزجاج وَيَدُلُّ لهذا قوله ﷻ:

﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**﴾ أي من

---

١ - روايات متعدِّدة أوردها **الربيع** في مسنده عن ابن عَبَّاس رقم ٤١. **وابن ماجة** من طريق عوف بن مالك، والأربعة أيضا من طريق أبي هريرة.

كُفَّار الجنِّ وكفّار الإنس، وليس يبقى أحد من كفَّارهم بلا دخول، أو المراد أنَّها تعمر من الثقلين لا من غيرهم للتعذيب، فذلك عموم للأنواع لا عموم للأفراد.

والمراد أنَّها لا تملأ من الإنس فقط، ولا من الجنِّ فقط، بل منهما جميعا، وهذا معنى قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ بعضهم من الجنَّة وبعضهم من الناس، ولا يخفى ولو على العوامِّ أنَّ هذه العبارة ليس معناها أنَّ الجنَّة كلّهم فيها، وأنَّ الناس كلُّهم فيها.

(نحو) و«مِنْ» للابتداء، والابتداء من الشيء لا يدلُّ على استفراغه، تقول: لأملأنَّ الجراب من هذا البرِّ ومن هذا الشعير، فتملأ ويبقى قليل أو كثير. وتأكيد التثنية بـ«أَجْمَعِينَ» جائز على حدِّ ردِّ ضمير الجمع إليها أو إشارته، ولا سيما أنَّ كلَّ فريق منها هنا متضمِّن لأنواع وأفراد، وهما فريق الجنَّة وفريق الناس.

وقيل: المراد بالجنَّة والناس الكفار باعتبار العهد، كقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة ص: ٨٣) على أن لا يلزم من الابتداء من الشيء البقاء منه، ولا إشكال على هذا القول في التأكيد بـ«أَجْمَعِينَ». و﴿كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾: قضاؤه بالوعيد والخذلان، أو قوله للملائكة: سوقوهم إلى النار، فـ«لَأَمْلَأَنَّ» تفسير للكلمة، وإن شئت فقل: محكيٌّ بكلمة.

وليس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾(سورة يونس: ١٩) ما يَدُلُّ على العموم، فلا يخالف قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كذا قيل، وفيه أنَّه لا يخفى العموم، وإنَّما الجواب أنَّهم كانوا أمَّةً واحِدَة ثمَّ اختلفوا، ولا يزالون مختلفين، أو إلاَّ من رحم ربُّك فجعلهم أمَّة واحدة على الإيمان.

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا

عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالاَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الاَمْرُ كُلُّهُ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

الفائدة العمليَّة من قصص الأنبياء والأمر بالعبادة والتوكُّل على الله تعالى

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ «كُلاًّ» مفعول مطلق، أي كلَّ قصٍّ نقصُّ عليك، قدِّم على عامله بطريق الاهتمام في كلام العرب، أو للحصر و«مَا» مفعول به لـ«نَقُصُّ» ، والمعنى: نقصُّ عليك من أخبار الرسل ما نثبِّت به فؤادك كلَّ نوع من أنواع القصِّ. وإن جعلنا «كُلاًّ» مفعولا به فـ«مَا» بدلٌ من «كُلاًّ»، أو خبر لمحذوف، أي هو ما نثبِّت به فؤادك، أو منصوب بـ«أعني».

ومعنى تثبيت الفؤاد: زيادة ثبات، أو إزالة ما قد يعتريه من الضيق بأذى قومه، وذلك بالإخبار بأنَّ الرسل قبلك قد لقوا من أممهم المخالفة كما لقيت وتحمَّلوا، فاصبر كما صبر أولوا العزم، والبليَّة تخفُّ بالمشاركة فيها كما شهر: إنَّ المصيبة إذا عمَّت هانت.

﴿وَجَآءَكَ فِي هَذِهِ﴾ في هذه السورة، أو في هذه الدنيا، أو في هذه الأنباء، أو في هذه الآيات، وقيل: في هذه السورة ونظائرها، أو هذه السورة، وآياتها جمعت ما لم يجمعه غيرها من إهلاك الأمم وبيان أحوالهم. ﴿الْحَقُّ﴾ «الـ» للحقيقة، أو للعهد، وهو دلائل التوحيد والنبوءة ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى﴾ نكَّرهما تفخيما ﴿لِلْمُومِنِينَ﴾ تذكُّر للمؤمنين، فيكونون يزيدون نشاطا.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بنبوءتك، وتوحيد الله ﴿اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ جهدكم في الكفر ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ جهدنا في التوحيد والطاعة ﴿وَانتَظِرُواْ﴾ عاقبة أمركم من الهلاك، وهذا تهديد ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ عاقبة أمركم، أو عاقبة أمرنا من الفوز دنيا وأخرى، أو انتظروا الدوائر علينا إنَّا منتظرون الدوائر عليكم ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ﴾(سورة الفتح: ٦).

﴿وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ علم ما غاب فيهما عنكم، أو عنكم وعن غيركم، لا يخفى عنه شيء فيهما، فلا يفوته عقابكم ولا بعضه، كما قال: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُ الأَمْرُ﴾ أمر الخلق كلّهم ﴿كُلُّهُ﴾ فيعذّب العاصي ويثيب المطيع ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ فإنَّه كافيك، نعم المولى ونعم النصير، وإنّما ينفع التوكُّل العابدَ، والعبادة لا تنفع بلا توكُّل فردفها به، والتوكُّل لا ينفع بلا عبادة فقدَّمها عليه، وأيضا توكَّل عليه في العبادة وغيرها، ومنها التبليغ فبلِّغ ولا تبال بهم، والله حافظك.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يا محَمَّد وأمَّته، المطيعين والعاصين، فيثيب كلاًّ بما يستحقُّ، وليس تأخير عقابكم عجزا أو جهلا بعملكم، وإنَّما أخَّرهم لأجلهم الموعود، ولا يتخلَّف. قال كعب الأحبار: خاتمة التوراة خاتمة هود.

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم

تفسير سورة يوسف عليه السلام وآياتها ١١١

نهي عن تعليم النساء سورة يوسف لئلا يفتنَّ، ولذلك لم يتكرَّر ما فيها كما وقع تكرير غيره، ولتوفُّر الدواعي إلى ما فيها فإنَّ ما هو كذلك يرسخ في القلوب بلا تكرير، كما لم تتكرَّر لذلك قصَّة الذبيح وموسى مع الخضر وأصحاب الكهف وذي القرنين.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الٓر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ۝٣﴾

قصة يوسف ومنزلتها ضمن القصص القرآني

﴿أَلَر تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ «ألر» تعديد للحروف، أي تهيَّأ يا محمَّد لجنس ما يتركَّب من نحو هذه الحروف ينزل عليك، والإشارة إليها، أو اسم لهذه السورة والإشارة إليها، وعلى كلا الوجهين يحضر في ذهن سَيِّدنَا محمَّد ﷺ الآيات التي تتضمَّن السورة إجمالا، فصحَّت الإشارة لأنَّ الإشارة كما تكون إلى ما في الخارج تكون إلى ما في الذهن، والكتاب: السورة، كأنَّه قيل: آيات الكتاب [هي] آيات السورة، وتمَّت الفائدة بقوله: ﴿الْمُبِينِ﴾، كما تمَّت بقريشي من قولك: الرجل رجل قريشي.

والمعنى: الكتاب الواضح في نفسه معنى ولفظا، أو واضح الإعجاز، وذلك من "أبَانَ" اللازم، أو الكتاب المبين الحقَّ، أو المبين أنَّه من الله لمن تدبَّره.

(سبب النزول) أو المبين لليهود ما سألوا، كما روي أنَّ علماء اليهود قالوا لأكابر قريش: سلوا مُحَمَّدًا لم انتقل يعقوب وأهله من الشام إلى مصر؟ وعمَّروا فيها وتناسلوا وكثروا إلى عهد موسى؟ وعن قِصَّة يوسف.

«الْمُبِين» من "أَبَانَ" المتعدِّي كما رأيت مفعوله المقدَّر، وكذا إن جعلناه من المتعدِّي وجعلنا «الْكِتَاب» مطلق القرآن يكون التقدير: المبين الحلالَ والحرامَ، والحقَّ والباطل، وقصصَ الأوَّلين. وتحصُل الفائدةُ ولو لم يذكر «الْمُبِين»، على حدِّ قوله:

أنا أبو النجم وشعري شعري

أي أنا المعروف المشهور، وشعري أي شعري هو الذي عرف بالفصاحة والبلاغة لم أتغيَّر ولم يتغيَّر، أي تلك الآيات هي الآيات المعروفة بأنَّها لا كلام يعادلها.

وروى البيهقي بسنده إلى ابن عَبَّاس أنَّ حبرا سمع النبيء ﷺ يقرأ سورة يوسف فقال: من علَّمك؟ فقال: «الله تعالى»، فقال لليهود: سمعت مُحَمَّدًا يقرأ ما في التوراة، فجاء بنفر فدخلوا فسمعوا يقرأها وعرفوه بالصفة وخاتم النبوءة، فأسلموا. فإمَّا أن يسمعوا ما أدركوا منها أو كررها ﷺ.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ هذا يقوِّي أنَّ المراد بالكتاب القرآن مطلقا، لا خصوص السورة، إذ هذا العموم أولى من أن يقال: أنزلنا هذه السورة عَرَبِيَّة، نعم الخطاب في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يتقوَّى به التفسير بالسورة، على أنَّ المعنى: أنزلنا ما سألتم عنه يا أهل مَكَّة، بأمر اليهود من شأن يعقوب وأولاده ومن بعدهم، وشأن يوسف بلفظ عربيٍّ بلغتكم لا بلفظ العجمة لعلَّكم تفهمون معانيها.

ومع ذلك فتعميم القرآن أولى من السورة، لأنَّ خطابهم بتعقُّل الأوامر والنواهي أولى من خطابهم بتعقُّل يعقوب ويوسف وشأنهما، نعم يناسب جدًّا

أن يقال: أنزلنا السورة لتدركوا بعقولكم أنَّ من أتاكم بهذه القصص مع أنَّه لم يجاور من عرفها هو نبيء حقٌّ من الله ﷻ، أخبره بها. و«لَعَلَّ» بمعنى "كي"، استعارة تبعيَّة.

(أصول الدين) ولا دليل في الآية على أنَّ الله ﷻ أراد الإيمان مِمَّن لا يؤمن، تعالى الله عن أن تتخلَّف إرادته، وقبَّح الله المعتزلة إذ أجازوا ذلك.

القرآن كلُّه عربيٌّ بمعنى أنَّه نزل بما تتكلَّم به العرب من لغتها، وما يجري على ألسنتهم من ألفاظ يحكونها بيانا لها، ولو حكيت بلفظ آخر لم تفهم، كما ينادي العربيُّ من هو عجميٌّ باسمه في العجمة، ويخبر عنه باسمه، ولا يسمَّى ذلك خروجا عن العَرَبِيَّة، وأيضا قد يعرِّبون اللفظ العجميَّ، وقيل: اتَّفَقَت لغة العرب والعجم فيما شهر بالعجمة، كسجِّيل ومشكاة وإستبرق، ويردُّه منع الصرف في الأعلام التي هي مثل إبراهيم، وأجيب بأنَّها منعت مع العلَميَّة بصحَّة العجمة.

وعن سعيد بن جبير: لَمَّا نزل القرآن على رسول الله ﷺ فكان يتلوه على قومه، قالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فنزلت السورة فتلاها عليهم، فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا، فنزل قوله: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ (سورة الزمر: ٢٣) فقالوا: لو ذكَّرتنا فنزل: ﴿أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ (سورة الحديد: ١٦).

(نحو) و«قُرْءَانًا» حال من الهاء العائدة إلى الكتاب موطِّئة لقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ لأنَّ الفائدة منه تمَّت بقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾ ولا داعي إلى جعل الهاء مفعولا مطلقا، و«قُرْءَانا» مفعولا به، ولا إلى جعله بدلا من الهاء. و«عَرَبِيًّا» نعت لـ«قُرْءَانًا»، ولا حاجة إلى جعله حالا من ضمير «قُرْءَانا» على أنَّه بمعنى اسم مفعول، ولا إلى جعله حالا ثانيةً والأُولى «قُرْءَانًا».

والقرآن يطلق على الكلِّ، وعلى البعض، كما أنَّ بعض الزيت زيت وكلُّه زيت.

﴿نَحْنُ﴾ قدِّم للتقوِّي لا للحصر، لأنَّ المقام ليس له، ولو صحَّ في المعنى، اللهمَّ إلاَّ أن يعتبر: إنَّا لا غيرنا مِمَّن يدَّعي المفتري أنَّه أنزله من جنٍّ أو غيرهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ مفعول مطلق، أي القصص الأحسن، لإضافة النعت للمنعوت، أو للإضافة للمصدر الذي شأنه أن يكون مفعولا مطلقا، هكذا: نقصُّ عليك قصًّا، وفي ذلك تعريض بأنَّ قصَّ أهل الكتاب قبيح، لأنَّه كذب، فـ«أَحْسَنَ» خارج عن التفضيل إذا لا حسن في قصِّهم، اللهمَّ إلاَّ أن يعتبر خصوص ما قصُّوا به دون كذب.

ووجه الخروج [عن معنى التفضيل] أنَّ صِدقهم أفسده كذبهم، وأنَّه يرتاب فيه.

ووجه الأحسنيَّة اشتمالها على حاسد ومحسود، وعاشق ومعشوق، وشاهد ومشهود، وخصب وجدب، ووثاق وإطلاق، وفراق ووصال، وسقم وصحَّة، وحلٍّ وارتحال، وذلٍّ وعزٍّ.

﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي بما أوحيناه إليك من الكلام، أو «مَا» مَصدَرِيَّة، أي بإيحائنا إليك من الكلام ﴿هَذَا الْقُرْءَانَ﴾ مفعول «نَقُصُّ»، وتنازعه «أَوْحَيْنَا»؛ أو «أَحْسَنَ» مفعول به، أي ما نذكر لك، ونملي المقصوص الحسن، و«هَـذَا الْقُرْءَانَ» بدل من «أَحْسَنَ»؛ أو مفعول «أَوْحَيْنَا»، والإشارة إلى السورة. أو يُنزَّل «نَقُصُّ» أو نتلو منزلة اللازم.

﴿وَإِن﴾ إنَّك، أو الشأن ﴿كُنتَ مِن قَبْلِهِ﴾ قبل الإيحاء، أو القرآن ﴿لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يطلق على من علم شيئا وذهل عنه، ويطلق على من لم يعلمه، وهو المراد هنا لم يعلم ﷺ قصَّة يوسف و لم تخطر بباله.

(سبب النزول) قيل روي أنَّ اليهود فاخروا بأنَّ الله ﷻ بيَّن لهم قصَّة يوسف عليه السلام في التوراة، وهي غير مذكورة في القرآن، فنزلت هذه السورة على

أبدع طريق وأبلغ كلام بلغة العرب، فزال افتخار اليهود. وسمَّاها الله أحسن قصَّة لِمَا فيها من العبر والأحكام، ومصالح الملوك والعامَّة، وبيان مكر النساء، والصبر والعفو مع القدرة.

ويقال: إنَّ أهل الجنَّة يتفكَّهون بسورة مريم وسورة يوسف، وإنَّه لا يسمع سورة يوسف محزون إلاَّ استراح إليها، فيناسب أن يقال هذا لعلَّها نزلت بعد سورة هود التي شيَّبته ﷺ ليزول بها بعض همِّه، وفيها أيضا تسلية له بما لاقى يوسف مِمَّن هو أقرب إليه وهم إخوته، عَمَّا لقي من عمِّه وقرابته إليه ﷺ، وهي في قصص من تقدَّم [كما في سورة] هود[1]، إلاَّ أنَّ هذه سورة رحمة يستراح إليها.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾

رؤيا يوسف وتعبير يعقوب للرؤيا

﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ**﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. الكريمُ ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

(نحو) «إِذْ» قيل بدل من «أَحْسَنَ» بدل اشتمال إذا جعلنا «الْقَصَص» بمعنى المقصوص و«أَحْسَنَ» مفعولا به، وفيه أنه لا ضمير فيه يعود إلى

١- في الطبعة العمانية: وهي كقصص من تَقَدَّمَ كهود.

«أَحْسَنَ»، ويجاب بأنَّه إذا حصلت الملابسة معنىً اكتفي بها ربطا، ولا يعترض بأنَّ الوقت لا يقصُّ، لأنَّ المراد قصُّه بما وقع فيه فهو مقصوص باعتبار ما فيه، وليس يغني الاشتمال المعنويُّ؛ أو مفعول لـ«اذكر»، أي: اذكر وقت قول يوسف، لا متعلّق بـ«غَافِلِينَ» كما قيل، لأنّه ﷺ غير موجود في زمان يوسف فضلا عن أن يوصف بالغفلة فيه، فلا تهم.

(لغة) و«يُوسُفُ» عبريٌّ، فمنع من صرفه للعجمة والعَلَميَّة، لا لوزن الفعل والعَلَميَّة، إذ لا يوجد فعل مضارع مضموم الأوَّل والثالث، وكذلك منع إذا قرئ بفتح السين كالمبني للمفعول، أو كسرها كمضارع الرباعي لأنّه فيهما عجميٌّ أيضا بدليل قراءة ضمِّ الوسطى ولا مانع من كونه من معنى الأسف بمعنى الحزن مع أنَّه عبري، لأنَّ العبريَّة كثيرا ما تقارب العَرَبِيَّة، ويصرف العجميُّ الثلاثيُّ الساكن الوسط فُتح أوَّله أو كُسر أو ضُمَّ نحو شِيث، بكسر الشين وإسكان الياء وبعدها ثاء مثلّثة.

(قصص) عاش يوسف مائة وعشرين سنة، وأبوه يعقوب مائة وسبعا وأربعين، وجدُّه إسحاق مائة وثمانين، وجدُّه إبراهيم مائة وخمسا وسبعين، قال ﷺ : «**الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم**»[1] رواه البخاري، ووجه الكرم توالي الأنبياء نبيء وابن نبيء ونبيء وأبي نبيء.

(صرف) ﴿يَآ أَبَتِ﴾ التاء عوض عن ياء الإضافة، واختيرت التاء لأنّها للتأنيث، والياء في هذي وتفعلين وافعلي للتأنيث، مع أنَّ كلاًّ منهما زيادة في آخر الاسم، كغلامي وقائمة، وأمَّا أن يقتصر في التعليل على مجرَّد كونهما زائدتين في

١- رواه البخاري في كتاب الأنبياء، رقم ٣٢٠٢. من حديث ابن عمر.

آخر الاسم فلا، وأصل هذه التاء تاء التأنيث ولو كانت للتعويض، بدليل أنَّ ابن كثير وأبا عمرو ويعقوب يقفون عليها بالهاء، ومن لم يراع هذه الأصالة أو قال: إنَّها ليست أصلها التأنيث وقف بالتاء، **وبه العمل**. وحرِّكت قيل لأنَّها عوض عن اسمٍ، والاسم أصله الحركة، ولو كان هنا ضميرا أصله البناء على السكون، وكانت كسرة لمناسبة الياء التي عوِّضت هي عنها، فليقتصر على هذا أو يترك قولهم حرِّكت لكذا، بأن يقال حرِّكت بالكسرة لتناسب الكسرة ما عوضت هي عنه، ولو سكنت أو فتحت أو ضمَّت لم تناسب.

(صرف) أو يقال حرِّكت لأنَّها حرف صحيح فنزل منزلة الاسم، ككاف الخطاب، وقيل: كسرت بكسر ما قبل الياء وفتح ما قبلها، لأنَّ أصلها التأنيث، أو أشبهت تاء التأنيث، وما قبل تاء التأنيث يفتح تحقيقا أو حكما، وقيل هذه التاء عوض عن الألف المبدلة عن الياء، فبقيت الفتحة التي قبل الألف، والأصل يا أبا. وقال الكوفيون: هي تاء تأنيث غير عوض، والياء مقدَّرة بعدها، ورُدَّ بِنُدُور " يا أبتي ".

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ رأى هذه الرؤيا وهو ابن اثنتي عشرة سنة وقيل: سبع عشرة، وقيل: سبع، وبين هذه الرؤيا وتحقيقها باجتماعه مع أبويه وإخوته في مصر أربعون سنة عند الجمهور وابن عَبَّاس، وثمانون سنة عند الحسن البصري.

(قصص) روى الحاكم في مستدركه بسنده إلى جابر بن عبد الله أنَّ يهوديًّا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني يا مُحَمَّد عن النجوم التي رآهنَّ يوسف، فسكت، فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بهنَّ، فقال: «**إن أخبرتك تؤمن؟**» قال: نعم. قال ابن الجوزي: حديث موضوع، وقال زرعة: منكر موضوع، وذكروا أنَّ اسم اليهودي سنان أو بستان.

قال: «[الكواكب] هنَّ جرِيَّان بكسر الراء وشدِّ الياء وكسر الجيم أو فتحها، منقول من اسم طوق القميص، والطارق، والذُّبال بضمِّ الذال المعجمة بعدها موحدة، وقابس، وعمودان، والفيلق نجم منفرد، والمصبح، وهو ما يطلع قبل الفجر»، وذكر السهيلي عن الحرث بن أبي أسامة النطح بدل المصبح، والضروح بضاد معجمة وحاء مهملة، والفرغ بغين معجمة وهو عند الدلو، ووثّاب بالشدِّ، وذو الكتفين، وهو نجم عظيم.

وقدَّم النجوم هكذا لأنَّهن على ترتيبهنَّ في النزول هكذا، ثمَّ نزلت الشمس والقمر، ولذلك أخِّرت في الآية، وأيضا هما أبواه ليسا من جنس الأخوة المعبَّر عنها بالنجوم، وإخوته أنسب بالسجود له من أبويه لعظمهما، فأخِّرا لأنَّ سجودهما أبلغ، ولأنَّهما لم يجنيا عليه كإخوته، قال ﷺ لليهودي: «نزلت من السماء فسجدت له ونزلت الشمس والقمر فسجدا له»، فقال: وا لله إنَّها لأسماؤها، و لم يذكروا أنَّه أسلم، [قلت:] وضبط تلك الكواكب وتفسير ما فسّر منها ليس من الحديث.

وقدَّم الشمس لأنَّها أعظم جرما وضوءا وأكثر نفعا وأرفع مكانا، لأنَّها في السماء الرابعة، والقمر في الأولى، ولأنَّ نوره منها على ما شهر، وكذا قدِّمت في سائر القرآن، والشمس أبوه لتلك الفضائل، وقيل: أمُّه للتأنيث.

وكأنَّه قال يعقوب له: ما شأنهنَّ إذ رأيتهنَّ، فقال على الاستئناف البياني: ﴿**رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾ و لم يقل: رأيتهنَّ أو رأيتها، ولا ساجدات أو ساجدة أو سواجد لأنَّهنَّ منزَّلة منزلة الذكور العقلاء، لأنَّهنَّ الإخوة والأبوان، ولأنَّ السجود من فعل العاقل، والأب يغلب على الأمِّ لذكورته، وكذا الإخوة.

ويجوز أن يكون «رَأَيْتُهُمْ» تكريرا للأوَّل كرِّر للفصل ولتجديد العهد، وتطريته كما أعيد «أَنَّكُم» لذلك في قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ...﴾ الآية (سورة

المؤمنون: ٣٥)، وعلى هذا ليس من الاستئناف البياني. و«سَاجِدِينَ» حال للأوَّل، وعلى الاستئناف البياني لم يعمل «رَأَيْتُ» الأوَّل في حال، ولم يؤت له بحال، بل أجملت الرؤية وجيء بالحال للثاني. والسجود: الخضوع، أو حقيقةٌ لَكِنَّهُ لله، ويوسف قِبلة، وهذا خضوع أيضا، شبَّههنَّ بعقلاء ورمز للتشبيه بلازمهم وهو السجود، فذلك مكنيَّة، أو شبَّه أحوالها بأحوال الساجدين فذلك تمثيليَّة.

﴿قَالَ يَابُنَيِّ﴾ صغَّره لصغر سنِّه كما مرَّ، أو للترحُّم، أو لهما. ﴿لاَ تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ يحتالون في إهلاكك، ولذا عدِّي باللام كما يتعدَّى بها "يحتال"، وإلاَّ فـ"كَادَ" متعدٍّ كما قال ﷻ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ (سورة هود: ٥٥).

(أصول الدين) وقد فعلوا كبائر في شأن يوسف، والنبيء لا يفعل كبيرة ولا صغيرة قبل النبوءة ولا بعدها، فالحقُّ أنَّهم ليسوا أنبياء، ويناسبه أنَّه لم يذكر في القرآن أنَّ أهل مصر جاءهم نبيء قبل موسى غير يوسف، وهم ماتوا في مصر.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلاِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهر العداوة أو مظهرها، ولم يبال اتِّكالا على قوَّته، وإخوتك عارفون بتأويل رؤياك فتميل أنفسهم مع وسواس الشياطين لهم إلى إهلاكك.

(قصص) وقد رأيتَ أيضا قبل هذه الرؤيا ما يحسدونك به، إذ رأى وهو ابن سبع سنين، أو إحدى عشرة، عصا طويلة مركوزة في الأرض كدائرة، فإذا عصا صغيرة وثبت عليهنَّ فبلعتهنَّ، فذكر ذلك لأبيه، قال: إيَّاكَ أن تذكرها لإخوتك، ومع ذلك علموا بها، وقال له: النجوم إخوتك، والشمس أمُّك، والقمر أبوك، وهذا مناسب لذكورة القمر وأنوثة الشمس، ولو كان الأب أقوى من الأمِّ والشمس أقوى، وذلك قول ابن جريج.

وقال السدِّيُّ: الشمس أبوه والقمر خالته، لأنَّ أمَّه راحيل ماتت، أي في نفاس بنيامين، وقال قتادة: الشمس أبوه والقمر أمُّـه، وفيه مراعاة لقوَّة الأب على الأمِّ، ومخالفة في الذكورة والأنوثة، ووجهه أنَّه نبيء رسول فنوره الشرعيُّ أقوى، وأكثر المفسِّرين أنَّ الشمس خالته والقمر أبوه، وأنَّ أمَّه ماتت في نفاس بنيامين، وقيل: إنَّ الله ﷻ أحياها بعد موتها حتَّى تسجد ليوسف تحقيقا لرؤياه، وفي الحديث: **«الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله الرحمن الرحيم»**[1] والصحيح أنَّ الشمس خالته، وقال الحسن: إنَّ المراد أمُّه وأنَّها لم تمت.

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ كما اجتباك ربُّك لهذه الرؤيا، وكذا مثلها كرؤيا العصي يجتبيك للملك والنبوءة وتفسير الأحلام وغير ذلك من الأمور العظام، كالآراء السديدة. والاجتباء: الاختيار، ويجوز أن يتَّحد المشبَّه والمشبَّه به كأنَّه قيل: يجتبيك ربُّك هذا الاجتباء لهذه الرؤيا، كما تقول في الأمر المعظَّم: الأمر كذلك، ولست تشير إلى أمر آخر، وتطعم زيدا فتقول: كذلك أطعمته ولم تشر إلى إطعام آخر، ولا إلى غير زيد، كأنَّك تعتبر أنَّ ذلك الشيء غيره في الخارج.

والواضح أن يقال: المعنى ومثل ذلك الاجتباء، وذلك التعليم وإتمام النعمة، ويجتبيك ربُّك بغيرهما لقوله: **﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَاوِيلِ الاَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾** أو «يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ» خارجا عن التشبيه، أو يجعل إتمام النعمة اجتباء، ذَكرَه ليبيِّن أنَّ ذلك إتمام للنعمة، أو عطف عامٍّ على خاصٍّ.

(بلاغة) وقد قيل: كلٌّ من التعليم وإتمام النعمة خارج عن التشبيه، ولو دخل فيه لكان المعنى: ويعلِّمك تعليما مثل الاجتباء بمثل هذه الرؤيا، ولا يخفى عدم حسنه، لأنَّ الاجتباء وجه الشبه ولم يلاحظ ذلك في التعليم، ولو أمكن بأنَّ التعليم

١- رواه **البخاري** في كتاب التعبير، باب القيد في المنام، رقم ٦٦١٤. من حديث أبي هريرة.

نوع من الاجتباء، والنوع يشبَّه بالنوع، ولكن يدلُّ على أنَّ التعليم لم يلاحظ فيه الاجتباء عطفه عليه، إلاَّ أن يقال: عطف عامٍّ على خاصٍّ، وأيضا لا نسلِّم أنَّ الاجتباء وجه شبه بل مشبَّه.

وتأويل الأحاديث: تفسير ما خفي من كتب الله، وهي الصحف وسنن الأنبياء، وكلمات الحكماء وأفعالهم، أنبياء أو غيرهم، وأمَّا حكماء أمور الدنيا فحدَثوا بعد ذلك بطويل، ولو وجدوا على عهده لم يشتغل بتفسير كلامهم، وأمَّا تفسير الرؤيا فدخل قبل هذا، وإن لم يدخل فيما قبل دخل بتأويل الأحاديث، فتفسير الأحاديث بأحاديث الرؤيا، لأنَّها كلام ملك إن كانت حقًّا وكلام شيطان إن كانت باطلا، ويجوز أن يفسَّر «تأويل الأحاديث» بتفسير الرؤيا وتفسير الصحف والحكم والسنن.

والأحاديث: جمع أحدوثة، إلاَّ أنَّ الأحدوثة مختصٌّ بالحديث العظيم، وإمَّا باعتبار لفظ "حديث" فاسم جمع. وما ذكرت من أنَّ أفعولة كأحدوثة وأعجوبة وأنكوحة للأمر العظيم هو المشهور عند النحاة، وقال الرضي: للشيء الضعيف، وليس كذلك، ولا لِمَا سيكون كما قيل، وقيل: هو جمع لواحد غير ملفوظ به وهو أحدوثة، والذي يظهر لي أنَّ أحدوثة مسموع.

وإتمام النعمة يكون بالنبوءة على يوسف وسائر آل يعقوب وهم إخوته، وعلم يعقوب بذلك بكونهم في الرؤيا نجوما مضيئة كذا قيل، والصحيح أنَّهم أولياء تابوا لا أنبياء، لأنَّ الأنبياء لا يصدر منهم ما صدر منهم من الظلم، فإتمام النعمة عليهم إرشادهم للناس إلى الحقِّ، كما يرشد الضوء لعلمهم، فآل يعقوب هم ونسلهم، لوجود الخير فيهم علما ونبوءة، ومالا وجاها وسلطنة وأتباعا في كلِّ نسله، وقيل: إتمام النعمة الجمع لهم بين نعم الدنيا والدين ونعم الآخرة.

﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ بالعلم والنبوءة لهما، وبالخلَّة والنجاة من النار، ونجاة إسماعيل من الذبح لإبراهيم. و«عَلَى» متعلّق بـ«أَتَمَّ»، وهو يَدُلُّ على تعليق «عَلَيْكَ» بـ«يُتِمُّ»، وهو الظاهر ولو جاز تعليقه بـ«نعمة»، وزاد قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ تصريحا باتّصال النعم قبلُ وبعدُ، سواءً قلنا المراد: من قبلك أو من قبل هذا الوقت، والمأصدق واحد، ولم يذكر يعقوب نفسه تأدُّبا مع الأبوين أو هضما لنفسه، أو لكونه معروفا بالعيان لا بالإخبار والبيان، أو لأنَّ شرف من قبله ومن بعده شرف له.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بكونهم ذوي قُوَّة قدسيَّة، وفضائل روحانيَّة، من فضل الله ﷻ يستحقُّون بها الاجتباء بالنبوءة وما مرَّ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٤).

(أصول الدين) والحقُّ أنَّ النبوءة غير مكتسبة ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء في مواضعها، لا يسفه ولا يعبث، فقد وضع الاجتباء وإتمام النعم في أهل ذلك، ويعقوب جازم بالاجتباء وإتمام النعمة وتعليم التأويل، وأمَّا خوفه من أن يهلكه إخوته ومن أن يأكله الذئب، وقوله لعزرائيل: هل مات يوسف؟ فنسيان، أو من ضروريَّات البشر عند الشدَّة، أو توهَّمَ أنَّ لذلك شرطا لم يطَّلع عليه.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

اتّفاقهم على إلقائه في البئر

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ يهوذا وروبيل وشمعون ولاوي وريالون، ويشجر وبنيامين، ودان، ويفائلي وجاد وآشر، الستّة الأولى من بنت خالة يعقوب ليا وبنيامين ويوسف من أختها راحيل، تزوَّجها بعد موت أختها، أو لم يكن الجمع بين محرمتين حراما في شرعهم، والأربعة الباقون من سريَّتين اسمها: زلفى وبلهة، ومن لم يذكر بنيامين عدَّهم عشرة، نظرا إلى قصَّة الكيد إذ لم يحضرها بنيامين، وهؤلاء ذكور وله بنات.

وقيل في التوراة: روبيل وشِمعون بكسر الشين، ويهوذا ولاوي من لايا، ويوسف وبنيامين من راحيل، والستّة الباقون من الأمتين، يشجر وربالون ودينة ودان، وبغتالى وجاد.

والمعنى: لقد كان في قصَّة يوسف وإخوته أي اقتصاصها فحذف المضاف كما يدلُّ له: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ...﴾، والمراد بالإخوة هنا ما أريد به هنالك، وقيل: المراد هناك بنو العلاَّت، وجوِّز أن يراد بهم ما يشمل من كان من الأعيان لأنَّ لبنيامين أيضا حصَّة من القصَّة.

﴿ءايَاتٌ﴾ دلائل على نبوءتك يا محَمَّد، إذ أخبرت بقصَّتهم كما هي عندهم في التوراة، بلا نظر في كتاب ولا سماع من أحد، والجمع باعتبار أنَّ كلَّ أمر من تلك الأمور المقصوصة آية ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ وغير السائلين، وخصَّ السائلين لأنَّ المقام لجوابهم وهم اليهود كما مرَّ، وإن فسَّرنا الآيات بدلائل قدرة الله فالسائلون مطلق السائل، وذلك كقوله تعالى: ﴿تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ (سورة النحل: ٨١) أي والبرد، وقوله تعالى: ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (سورة فصلت: ١٠). وقيل: المراد الناس مطلقا ترغيبا في السؤال، وذلك أنَّهم سعوا في هلاكه فكان سعيهم سعيا في كونه ملكًا وأنَّه

أصغرهم ففاقهم إلاَّ بَنيامين ـ بفتح الباء وكسرها ـ فأصغر من يوسف، ولم يدخل في كيده، وأنَّ الرؤيا صدقت، وأنَّ يعقوب آل حزنه إلى فرح.

﴿إِذْ قَالُواْ﴾ أي إذ قال إخوة يوسف بعض لبعض إلاَّ بنيامين وقول بعض مع رضا الباقين قول للجميع، وقيل: قولة شمعون، وقيل: دان ورضي الآخرون، إلاَّ من قال: لا تقتلوا يوسف فإنَّه قال معهم، أو رضي إلاَّ القتل وطرحه أرضا فلم يقل بهما، خيَّروا بعضهم في قتله وطرحه أرضا. و«أَوْ» للتخيير، وقيل: قال بعض: اقتلوه، وبعض: اطرحوه أرضا، ولا دليل لمن قال: شاوروا غيرهم فخيَّرهم، وهو بعيد عن الآية، إلاَّ إن شاوروه فخيَّرهم فنطق به بعض لبعض، ويحتاج إلى رواية صحيحة.

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ من أبيه وأمِّه بنيامين، ولذلك أضافوه إليه خصوصا وذكروه بالأخوَّة لا باسمه، لأنَّ حبَّ يعقوب إيَّاهُ لأُخُوَّته ليوسف ﴿أَحَبُّ إِلَىآ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ الجملة حال من مجرور «مِنْ»، فالربط بالضمير وواو الحال، أو من ضمير «أَحَبُّ» فالربط بالواو.

(لغة) والعصبة: ما زاد على العشرة، وعن ابن عَبَّاس: ما بين العشرة إلى الأربعين، وقيل: العصبة عشرة فصاعدا، وقيل: ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وقيل: من سِتَّة، وقيل: من تسعة، ومادَّة "عصب" للإحاطة، لأنَّ قرابة الرجل يحيطون به دفعا عليه، ويتقوَّى بهم كعصابة الرأس، وعصابة البكرة السفلى.

[أي قالوا:] كيف يفضِّلهما علينا ونحن مجتمعون فينا قُوَّة ونفع ليس فيهما. وسمِّيت الجماعة عصبة لأنَّ الأمر يشدُّ بهم ويقوى، وكان زيادة حبِّه لِمَا رأى فيه من مخايل الخير، ولَمَّا رأى الرؤيا تضاعف حبُّه، وَمِمَّا زاده حبًّا صغرهما وموت أمِّهما.

قالت ابنة الحسن بن الإمام علي: «أَحبُّ بنيَّ إليَّ الصغير حَتّى يكبر، والغائب حتّى يحضر، والمريض حتّى يشفى»، قال الشاعر:

إنَّ البنان الخمس أكفاء معا   والحلي دون جميعها للخنصر
وإذا الفتى فقد الشباب سما له   حبُّ البنين ولا كحبٍّ الأصغر

وبنيامين أصغر من يوسف لكن زاد يوسف بفضائل، [قلت:] والحب ضروريٌّ لا عدالة فيه، وفيما يلتحق به ضرورة لا كسبا ولا تقصيرا.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ إعراض عن مصالحه، لأنّا نحن نقوم بدوابِّه، وحرثه ومصالحه لا هما، أو أرادوا بالضلال الجور في حبِّه لهما أكثر، نسبوا نبيئا إلى كبيرة لسفههم، وبعد ذلك تابوا، وليس ذلك إشراكا، ومن زعم أنَّهم أنبياء قال: عصمة الأنبياء من حين النبوءة لا قبلها، والحقُّ عصمتهم من أوَّل الأمر.

﴿اقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ وكان أحبَّ إلى يعقوب من بنيامين ومنهم لِمَا رأى فيه من مخايل الإسلام والأدب، ولَمَّا رأى الرؤيتين زاد حسدهم كما مرَّ، قال ﷺ: «**ثلاث لا ينجو منهنَّ أحد: الحسد والطيرة وسوء الظنِّ، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيَّرت فأمض، وإذا ظننت فلا تحقِّق**»[1] أي لا تفعل سوءً بسبب ذلك الظنِّ.

﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ بعيدة من العمران مهجورة مهلكة، وقال بعض: هي شاملة للبئر على نزع حرف الظرفيَّة مع أنَّه مكان، ولا ينصب من الأمكنة على الظرفيَّة إلاَّ ما ليس محدودا، لأنَّ المراد بها غير محدودة، كأنَّه قيل: اطرحوه حيث يهلك بسباع أو جوع أو عطش، أو مفعول ثان على تضمين «اطرح» معنى أنزل،

١- رواه **الربيع** في مسنده (٥١) باب جامع الآداب، رقم٧٠١. وأورده **الشوكاني** في الفوائد المجموعة، ٢٢٧. و**العلجوني** في كشف الخفاء، ٢/٢٦١..

كقوله تعالى: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا﴾ (سورة المؤمنون: ٢٩).

﴿يَخلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ يتمحَّض حبُّه لكم لا يشارككم فيه يوسف، فضلا عن أن يعرض به عنكم، وعبَّر بالوجه لأنَّ الحبَّ يظهر أثره فيه، والمراد الذات، عبَّر بالجزء عن الكلِّ، أو كنَّى بالوجه عن الإقبال، لأنَّ الإنسان إذا أقبل على الشيء أقبل عليه بوجهه، فذكر الملزوم وأراد اللازم ﴿وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ﴾ بعد قتله أو طرحه، أو بعد يوسف أي بعد الفراغ من أمره ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ اعترفوا أنَّ قتله أو طرحه فساد يتوبون منه، وذلك أنَّهم قطعوا الرحم وعصوا الوالدين، أو الوالد والخالة، وهي كالأمِّ، وقَلَّتْ رحمتهم بالصبيِّ الذي لا ذنب له، وغدر الأمانة وترك العهد والكذب.

وقصدوا [بالصلاح] التنصُّل والإخلاص، أو النجاة من العقوق بأن يرضى عنهم، ولو بأن يكذبوا له، والأوَّل أولى وعليه الأكثر، فالصلاح دينيٌّ، وعلى الثاني دينيٌّ غير خالص، لأنَّهم أرادوا مجرَّد الخلاص من العقوق لا التوبة، أو أرادوا صلاح دنياهم. وقيل: أرادوا بالصلاح صلاح حالهم مع أبيهم لا التوبة، ورجَّحه بعض.

وإذا قلتُ في لفظ عجميٍّ أنَّه بوزن كذا فمرادي الوزن الطبعي، أعني موازنة الفتحة بالفتحة، والكسرة بالكسرة، والضمَّة بالضمَّة، دون اعتبار أصالة الحروف وزيادتها، لذا ضبط في العجمة بذلك.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو يهوذا، وقال قتادة: روبيل، قيل: كان يهوذا أكبرهم سنًّا وأحسنهم رأيا في يوسف، وأقلّهم شرًّا؛ وقيل بذلك في روبيل، وقال مجاهد: شمعون، وقيل: دان، والصحيح أنَّه يهوذا وهو القائل: ﴿فَلَنَ اَبْرَحَ الاَرْضَ﴾ (سورة يوسف: ٨٠) و لم يذكر القائل باسمه سترا.

﴿لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ فإنَّ القتل أكبر الكبائر بعد الإشراك، ولا رجوع فيه إلى إصلاح، بخلاف سائر المضارِّ، أشار لهم القائل: «لاَ تَقتُلُوا» إلى هذا كلِّه، و لم يضمر

ليوسف استعطافا لهم عليه. ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾ في المواضع المظلمة من البئر، وهي أجزاء قعرها، إذ يغيب ما فيها عن الناظر من أعلاها، ولا سيما إن اتّسع أسفلها وضاق أعلاها، والغيابة: الموضع الذي يغيب ما فيه؛ أو في أسفل ذلك الجب خفايا في جوانبه.

(لغة) وسمِّيت البئر جبًّا لأنَّ الأرض تجبُّ لتحصيلها، أي تقطع، قيل: الجبُّ: البئر التي لم تطو بالحجارة أو الجذوع، ولا بغيرها، والمراد هنا البئر المطوية، والمراد بئر لثمود قديمة، وقيل: بئر بيت المقدس، وقيل: بئر بالأردن، وعن وهب بن منبِّه ومقاتل: هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، وقيل: بئر بين مدين ومصر، قصدوا بئرا مخصوصة. و«الـ» للعهد الذهني، والواضح أنَّهم أرادوا مطلق البئر وَاتَّفَقَ أنَّها إحدى الأبيار المذكورة، فـ«الـ» للجنس كـ«الـ» في «السيارة».

﴿يَلْتَقِطْهُ﴾ يأخذه على وجه الإصلاح، والأخذ من الطريق أو من حيث لا يحتسب: الْتِقَاطٌ، ومنه اللقطة، ﴿بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ كان على الطريق يَرِدُ عليه المسافرون فيأخذه منها بعض السائرين في السفر، والسيَّارة جمع سيَّار، الذي هو صفة مبالغة، فيكون من الجمع بالتاء، والمفرد بلا تاء، ككمأة للجمع، والكمأ للمفرد.

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ مريدين الفعل بمشورتي، أو مريدين التفريق بينه وبين أبيكم، وذلك أنَّه يأخذه بعض المسافرين فيذهب به إلى بلد آخر فيغيب عنكم فيه. أرادوا قتله فقال قائل منهم: إن كان ولا بدَّ من الشرِّ فيه فاقتصروا على إلقائه في الجبِّ، ولَمَّا أجمعوا أمرهم في الكيد به، وأرادوا تخليصه من أبيه

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ

﴿ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ١٤ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ١٥ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ١٦ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾

تنفيذ إخوة يوسف مؤامرتهم وموقف يعقوب من ذلك

﴿**قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ**﴾ تضرُّع مشعر بالمكر، خرج منهم بلا رويَّة، أو كانت مراودة قبل هذا، أو ظهر لهم منه خوفه عليهم أن يضيِّعوه، أو يهلكوه أو رأوا منه بلا تقدُّم مراودة وخوفه لشدَّة حبِّه، وما رأى فيهم من الحسد أو مخايله، وعن مقاتل: قالوا ذلك بعد قوله: ﴿إِنِّي لَيُحْزِنُنِيَ...﴾.

وقالوا له: ﴿**وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ**﴾ مانعوه عن المضرَّة جهدنا، وقائمون بمصالحه وإكرامه كأنَّه عندك.

قالوا له: أما تشتهي أن تخرج إلى مواشينا فتصيد وتستبق؟ قال: بلى، قالوا: فسل أباك، فقال: نعم، فدخلوا على أبيه فقالوا: يا أبانا يوسف أراد الخروج معنا، فقال: ما تقول يا بني؟ قال: نعم إنِّي رأيت منهم اللطف والرحمة.

والجملة حال من «نَا»، أو من ضمير «تَامَنْ»، أو معطوفة على ما بعدَ "قالوا"، وكأنَّه قيل: «وقالوا إنَّا له لناصحون».

والصحيح في ﴿تَامَنَّا﴾ النطق بنون بين ضمَّة وسكون فنُونٌ بعدها، هذا ما

أؤدِّي به، وأطلت الكلام فيه ـ كابن الجزري ـ في شرح نظمي المسمَّى "جامع حرف ورش"[1]، وأذكر بعضه مختصرا:

(قراءات) قرأ العَامَّة: «تامنا» بالإخفاء وهو عبارة عن تضعيف الصوت بالحركة، والفصل بين النونين لأنَّ النون تسكن رأسا، فذلك إخفاء لا إدغام، وقرئ بالإشمام الذي هو ضمُّ الشفتين إشارة إلى حركة الفعل مع الإدغام الصريح، وذلك إشارة إلى الضمَّة بعد الإدغام وقبل كماله، وقرأ أبو جعفر بالإدغام الصريح، وقرأ الحسن بضمِّ النون بلا إدغام ولا إشمام محافظة على حركة الإعراب، والجمهور على الإخفاء أو الإشمام.

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ أصله "غدو" بإسكان الدال، أو فتحها كَيَدٍ، حذفت لامه. ﴿يَرْتَعِ﴾ في الصحراء: يأكل الفواكه والثمار، كما ترعى الإبل، أو يلابسها في رعيها ويذهب معها للرعي، وهذا افتعال من الرعي للمطاوعة، أي نرعه فيرتع. ومن سكَّن العين جعله من الرتع، بمعنى يسع في أكل الفواكه ونحوها من الرتعة وهي الخصب، كأنَّه قيل: يعامل الخصب بالأكل والتمتُّع، ولعلَّهم كانوا في شدَّة وذلك مباح، ويقال: يرتع فلان في ماله [إذا] أنفقه في شهواته، ثمَّ تعارفته العرب في أكل البهائم من الخصب، ويستعار للإنسان إذا أريد التفسُّح في الأكل كأنَّه بهيمة شهوة بلا عقل يكفُّها.

﴿وَيَلْعَبْ﴾ يرمي الحجارة أو بالعصا أو بالسهام ليتعلَّمها، وبالمسابقة برجليه أو دَابَّة، والمراد ما يتدرَّب به لقتال العدوِّ، وإلاَّ لم يقرَّهم عليه يعقوب عليه السلام. سُمِّيَ التعلُّم لعبا للشبه، ويدلُّ للَّعب بالمسابقة قوله: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ لأنَّهم قالوا:

١- يشير الشيخ رحمه الله إلى كتاب له ضخم شرح فيه قصيدته «جامع حرف ورش» وسمَّاه: تلقين التالي لآيات المتعالي، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطا توجد منه نسخة في مكتبته ببني يزقن.

﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾، فهو لم يستبق معهم، فإن قام بالمسابقة فوحده لا معهم، واللعب فعل لم يقصد به مقصد صحيح. ﴿وَإِنَّا لَهُ, لَحَافِظُونَ﴾ عن الضرِّ، حال من ضمير «يَلْعَبْ»، أو من الهاء، أو معطوف مثل ما مرَّ.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيَ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ﴾ يحزنني ذهابكم به عنّي لشدَّة حبِّيه، فلا أقدر على فراقه ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَّاكُلَهُ الذِّيبُ﴾ لصغره، ولو كان ابن اثنتي عشرة سنة، أو لكبر ذئاب تلك الأرض وشدَّتها، وكانت أرضا كثيرة الذئاب، أو أراد بالذئب الذئاب.

وقيل: قال ذلك لأنَّه الطَّيْلا رأى في النوم ذئبا يشدُّ على يوسف ويوسف يأخذ حذره منه، ويقال: إنَّهُ الطَّيْلا رأى في نومه أنَّه على ذروة جبل ويوسف في بطن الوادي، فإذا عشرة ذئاب تريد أكله ودفع عنه واحد، فاتسعت الأرض فتوارى فيها ثلاثة، قلنا: كأنَّهنَّ أيَّامه في الجبِّ، والذئاب: إخوته.

(نحو) ومعنى إحزانه الذهابُ به: إنَّ ذِكْرَكُم الذهابَ به أَحْزَنَنِي في الحال تصوُّرُه قبلَ تحقُّق الذهاب، فالمضارع للحال كما هو مقتضى لام الابتداء الداخلة في خبر إنَّ، لكن لا نسلِّم أنَّ تلك اللام للحال لزوما، بل تجوز للحال والاستقبال، فمن الاستقبال قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(سورة النحل: ١٢٤) وكذا أخاف من الآن أن يأكله الذئب إن ذهبتم به، وأقرب من ذلك: إنَّكم إذا ذهبتم به حزنت لا الآن.

﴿وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ في شغلكم كائنا ما كان، لأنَّه لم يذكرهم بالارتعاء واللعب، بل ذكر بهما يوسف، وفي الواقع في زعمهم اشتغالهم بالاستباق كما ذكر بعدُ، نعم يقرب أن يقدَّر: يرتع ويلعب معنا. أو غافلون لقلَّة اهتمامكم به.

﴿قَالُواْ لَئِنَ اَكَلَهُ الذِّيبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ اِنَّآ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ جواب لقوله:

﴿وَأَخَافُ أَنْ يَّأكُلَهُ الذِّيبُ﴾، و لم يجيبوا قوله: ﴿لَيُحْزِنُنِيَ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ﴾ لقصر زمان الحزن من ذهابهم إلى رجوعهم، أو لأنَّ مرادهم إيقاعه في الحزن. قال بعض المتأخّرين: الأخير هو المتعيَّن، وفيه نظر، لأنّهم حينئذ ليسوا يتحرَّزون عن الكذب والإيهام حتّى يسكتوا عَمَّا يخالف اعتقادهم بل لم يجيبوه عن ذلك، لأنّهم رأوا أنَّ الحزن لا بدَّ واقع لا حيلة لهم في قطعه.

وجملة «نَحْنُ عُصْبَةٌ» حال من الهاء أو «الذِّئب». والخسران هنا العجز والضعف، استعارة من الخسران بمعنى الهلاك أو من نقص المال في التجر، أو المعنى: مستحقّون أن يدعى علينا بالخسران، بأن تضيع أموالنا ومواشينا لضعفنا عن القيام بها وهذا بعيد، وكان قيل: بين خروج يوسف عن أبيه إلى لقائه ثمانون سنة لم تجف فيها عينا يعقوب، وما على الأرض يومئذ أكرم على الله منه. قيل: لم يعلموا أنَّ الذئب يأكل الإنسان، ولَمَّا قال: «أخاف أن يأكله الذئب» تعلّموا منه الحيلة، فقالوا: «أكله الذئب»، والبلاء موكّل بالمنطق. قال ابن عمر عنه ﷺ: «**لا تلقّنوا الناس فيكذبوا، فإنَّ بني يعقوب لم يعلموا أنَّ الذئب يأكل الناس فلمَّا لقّنهم أبوهم قالوا: أكله الذئب**»[1] ويقال: «البلاء موكّل بالمنطق» قال:

الصمت من سعد السعود بمطلع ننجو به، والنطق سعد ذابح

﴿**فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ**﴾ أي أرسله معهم، أو خلاّه لهم، فذهبوا به، ولَمَّا ذهبوا به ﴿**وَأَجْمَعُواْ**﴾ عزموا ﴿**أَنْ يَّجْعَلُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ**﴾ جواب «لَمَّا» محذوف تقديره: ألقوه فيها، أي في غيابات الجبِّ، كما دلَّ عليه لفظ الآية، أو فعلوا به أمرا مهولا، فالحذف للتهويل، فإنّه حملوه على ظهورهم.

(قصص) ولَمَّا برزوا به ألقوه في الأرض وجعلوا يؤذونه ويضربونه، حتّى

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٤، ص٩.

كادوا يقتلونه فصار يصيح ويستغيث، وكلّما استغاث بواحد ضربه. ويقال: جلد به الأرض روبيل، وقام على صدره ليقتله، فقال: مهلا لا تقتلني، فقال له: يا ابن راحيل قل لرؤياك تخلصك، فقال يهوذا: أما عاهدتموني أن لا تقتلوه، فأتوا به إلى البئر فدلُّوه فيها فتعلّق بشفيرها فضربوا يديه، ونزعوا قميصه ليلطّخوه بدم ويحتالوا به على أبيهم، فقال: يا إخوتاه ردُّوا عليَّ قميصي لأتوارى به، فقالوا: أدع الأحد عشر كوكبا والشمس والقمر يلبسوك ويأنسوك.

روي أنَّ إبراهيم لَمَّا جرِّد من ثيابه ليلقى في النار ألبسه جبريل قميصا من حرير الجنّة فدفعها إبراهيم إلى إسحاق وإسحاق إلى يعقوب، فجعلها في تميمة ليوسف فألبسه جبريل إِيَّاهَا، ويقال جعلها يعقوب في قصبة من فضَّة وجعلها في عنق يوسف فألبسه إِيَّاهَا جبريل فأضاء له الجبَّ. ولَمَّا وصل نصف البئر مربوطا في حبل ألقوه مع الحبل ليموت، وقيل: قطعوه، وقيل: ألقوه بلا ربط، وعلى الربط حلَّه جبريل، وألبسه بعد وقوعه. ولا ماء في البئر وقيل بها ماء، وآوى إلى صخرة، فنادوه فأجابهم يظنُّ رحمتهم فأرادوا رضخه بصخرة، فمنعهم يهوذا، وروي أنّه كلّما استغاث من واحد إلى الآخر ضربه الآخر وأهانه.

(قصص) وروي أنّه لَمَّا ألقي في الجبِّ قال: «**ياشاهدا غير غائب، يا قريبا غير بعيد، يا غالبا غير مغلوب اجعل لي من أمري فرجا ومخرجا**»، ويقال: إنَّ الملك أخرج له الصخرة من البئر وقعد عليها ولَمَّا ألقي فيها عذب ماؤها فكان يغنيه عن الطعام والشراب، ويقال: مكث في الجبِّ ثلاثة أيَّام، وكان إخوته يرعون حوله ويأتيه يهوذا بالطعام، ودخل عليه جبريل يؤنسه فلمَّا أمسى نهض ليذهب فقال له يوسف: إذا خرجت عنّي استوحشت، فقال له: إذا رهبت شيئا فقل: «**يا صريخ المستصرخين، يا غوث المستغيثين، يا مفرِّج كرب المكروبين، قد ترى مكاني وتعلم حالي ولا يخفى عليك شيء من أمري**»، ولَمَّا قالها يوسف حفّته

الملائكة وآنس بهم.

(قصص) ويقال: نزل إليه جبريل عليه السلام فقال: يا غلام من ألقاك في هذا البئر؟ قال: إخوتي، قال: و لم؟، قال: لمودَّة أبي لي حسدوني، قال: أتريد الخروج من هنا؟ قال: ذاك إلى إله يعقوب، قال: قل: «**اللهمَّ إنِّي أسألك باسمك المخزون المكنون يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، أن تغفر لي وترحمني، وأن تجعل من أمري فرجا ومخرجا، وأن ترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب**»، فقالها، فجعل الله تعالى له من أمره فرجا ومخرجا ورزقه ملك مصر من حيث لا يحتسب.

(قصص) ويقال: لَمَّا وقع في البئر بكى فجاءه جبريل فآنسه. وروي أنَّ هوام البئر قال بعضها لبعض: لا تخرجن فإنَّ نبيئا نزل بساحتكنَّ فانجحرن، إلاَّ الأفاعي فدعى عليهنَّ جبريل بالصمم. ويقال: إنَّ جبريل علَّمه هذا الدعاء: «**اللهمَّ يا كاشف كلِّ كربة، ويا مجيب كلِّ دعوة، ويا جابر كلِّ كسير، ويا ميسِّر كلِّ عسير، ويا صاحب كلِّ غريب، ويا مؤنس كلِّ وحيد، لا إله إلاَّ أنت سبحانك، أسألك أن تجعل لي فرجا ومخرجا، وأن تقذف حبَّك في قلبي حتَّى لا يكون لي همٌّ ولا ذكر غيرك، وأن تحفظني وترحمني يا أرحم الراحمين**».

﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ**﴾ في البئر ابن اثنتي عشرة سنة، أو ابن سبع عشرة سنة، أو ابن ثماني عشر، أو ابن ستٍّ، قبل أوان الوحي وهو أربعون سنة، كما أوحي إلى عيسى قبل أوانه ليطمئنَّ قلبه بأنَّه سيخرج ﴿**لَتُنَبِّئَنَّهُم**﴾ بعد زمان ﴿**بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا**﴾ أي بما صنعوا ﴿**وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾ أنَّك يوسف لبعد العهد وتغيُّر البدن والأحوال، تقول لهم: «هل علمتم ما فعلتم بيوسف»؟ وتخبرهم ببعض ما فعلوا ولا يعلمون أنَّك يوسف حين الإخبار، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ

فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ, مُنكِرُونَ﴾ (سورة يوسف: ٥٨)، ويروى أنَّه الطَيِّلاً نقر الصواع فقال: إنَّ هذا الصواع يخبرني أنَّكم ألقيتم أخا لكم في الجبِّ اسمه يوسف، ولطَّختم قميصه بدم، وقلتم لأبيه: أكله الذئب، قال ابن عبَّاس ما نرى ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ نزلت إلاَّ في هذا.

﴿وَجَآءُواْ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ وقت الظلمة وقت صلاة العتمة، وقيل: من المغرب إلى صلاة العشاء، وذلك ليجترئوا على الكذب ولا يلحقهم حياء، وربَّما خافوا التضاحك أو التبسُّم، وفي الليل يتشدَّدون[1] عن ذلك، أو وصلوا في ذلك الوقت وهو عشاء يومهم الذي خرجوا فيه، وقيل: عشاءِ يوم آخر، عشاء اليوم الرابع لِمَا مرَّ أنَّهم رعوا حول البئر ثلاثة أيَّام، كذا قيل، ولَمَّا بلغوا منزل يعقوب بكوا وصرخوا ففزع فقال: سألتكم با لله هل أصابكم شيء؟ وأين يوسف؟.

﴿قَالُواْ يَآ أَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا﴾ ثيابنا وطعامنا وما صحبنا و لم نفرِّط فيه لأنَّه يتمتَّع به ولأنَّه قريب المسافة إلينا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّيبُ وَمَآ أَنتَ بِمُومِنٍ﴾ بمصدِّق ﴿لَّنا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ في كلامهم ما يشعر بخيانتهم، والمراد: ولو كُنَّا صادقين في قولنا: أكله الذئب، أو ولو كنا صادقين عندك في غير أمر يوسف فكيف لو كُنَّا نكذب معك في غير أمره؟ فبأولى تكذِّبنا في أمره، ولا سيما مع إفراطك في حبِّه وسوء ظنِّك بنا.

(لغة) و﴿نَسْتَبِقُ﴾ بمعنى نتسابق، كاجتوروا بمعنى تجاوروا، ويختلفون بمعنى يتخالفون، كلٌّ يريد أن يسبق الآخر في السرعة بالمشي على الأقدام للهروب

١- في الطبعة العمانية: يتستَّرون.

مِمَّا يحلُّ لنا الهروب منه، وللحوق ما فَرَّعَنَا[1] أو أردنا إدراكه، أو للتحرُّف لقتال، أو في الرمي بالسهام، أو في أعمال نتوزَّعها من سقي ورعي واحتطاب، أو في الصيد، أو في مدافعة الذئب الذي يأكله، وذلك كذب صريح. وقيل عرَّضوا بردِّ هاء «أَكَلَهُ» للمتاع، على أنه أكل متاعا تحقيقا وإلاَّ لم يخرجوا به عن الكذب، وأوهموا يعقوب ردَّه إلى يوسف، وليس كذلك، لأنَّهم في ذلك الحال لا يبالون بكذب ينفذ عنهم.

(نحو) ﴿وَجَآءُو عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أي ذي كَذِبٍ على أنَّه مصدر، أو بدم كاذب جدًّا على أنَّه صفة مبالغة، أو صفة للنسب، أو وصف بأنَّه نفس الكذب مبالغة، و«عَلَى قَمِيصِهِ» حال من «دَمٍ». أجاز بعضٌ تقديم الحال على صاحبها المجرور بحرف ولو كان الحرف غير زائد، وأجازه بعض بشرط أن يكون الحال ظرفا كما هنا، ولا يتعلَّق بـ«جَآءُو» لأنَّ المجيء ليس على القميص إنَّما يقال: جاء على الفرس مثلا، وذكر بعض أنَّه لا بأس بذلك، وأنَّ المعنى: أتوا به فوق القميص، وهو تخيُّل لا يصحُّ، فإنَّه في هذه العبارة للحال لأنَّهم لم يمشوا فوق القميص حقيقة ولا مجازا. ويجوز أن يتعلَّق بـ«جَآءُو» على معنى الاستواء. ومعنى كذبه أنَّه ليس دم يوسف مع أنَّه دم تحقيقا.

(قصص) روي أنَّهم ذبحوا سخلة، وقيل: ضبيا، ولطَّخوا القميص بدمها، وقالوا: هذا دم يوسف، وذهلوا على أن يخرقوا القميص، أو يثقبوه، ولم يوفَّقوا في كلِّ حيلاتهم إلى حيلة تصحُّ في النظر، ألا ترى كيف أنَّهم فتحوا باب الكذب في قولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُومِنٍ لَّنَا﴾، ولَمَّا جاءوا بالقميص ألقاه على وجهه وبكى حتَّى خضَّب وجهه بدم القميص، وقال إنكارا عليهم: ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم

١- في الطبعة العمانية: ما فزعنا.

من هذا، أكل ابني و لم يمزِّق عليه قميصه. ويروى أنَّهم أتوا بذئب وقالوا: هذا هو الذي أكله، فقال يعقوب عليه السلام: أيُّها الذئب أنت أكلت ولدي وثمرة فؤادي؟ فأنطقه ا لله عز وجل وأفهمه فقال: وا لله ما أكلت ولدك ولا رأيته قطُّ ولا يحلُّ لنا أن نأكل لحوم الأنبياء، فقال له: وكيف وقعت في أرض كنعان؟ فقال: جئت لصلة الرحم وهي قرابة لي فأخذوني وأتوا بي إليك، فأطلقه يعقوب، وفيه وعظ لهم في قطع الرحم وهم عقلاء، وقد وصلها الذئب من بعيد[1]، والذئب توهَّم أنَّهم أنبياء، أو أراد لحوم أولاد الأنبياء، أو لحوم الأنبياء يوسف والأنبياء قبله أو بعده.

﴿**قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمُ, أَنفُسُكُمُ,**﴾ زيَّنت أو سهَّلت، من التسويل بمعنى جعل الشيء مسترخيا أو تقدير الشيء في النفس مع الطمع في إتمامه والحرص ﴿**أَمْرًا**﴾ عظيما وهوَّنتموه لم يأكله الذئب ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾ أي فأمري صبر جميل أو فصبر جميل أمري، أو فصبر جميل أجمل، أو فالذي أفعله صبر جميل، أو عليَّ صبر جميل، وفي الحديث: «**الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه**»[2] أي لأحد غير ا لله ولا جزع، وأمَّا إلى ا لله على التضرُّع فجائز ولو بلغ من الرضى أن لا يشكو إليه عز وجل أو إلى أن يفرح به لكان أولى. ومراد يعقوب أن لا يشكو لأحد لا أن يشكو ولو إلى ا لله لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى ا للهِ﴾ (سورة يوسف: ٨٦).

(**قصص**) روي أنَّه سقط حاجباه على عينيه، فكان يرفعهما بعصابة، فقال له جبريل أو غيره: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان، فأوحى ا لله عز وجل إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ فقال: يا ربِّ؛ خطيئة فاغفرها لي. وروي أنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى ا للهِ﴾ قال له جبريل عليه السلام: ربُّك أعلم بك.

١- ولعلَّ لأجل هذه الموعظة أورد الشيخ هذه الأحجية الغريبة.

٢- أورده **السيوطي** في الدر، ج٤، ص١٢، وقال: أخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن بن علي.

﴿وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ المطلوب منه الإعانة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على تحمُّل ما تصفون، على ما تصفونه من موت يوسف، أو على وصفكم لموته، وذلك أنَّه جزع بتصوُّر وصفهم، لا بتحقيقه لأنَّه غير متحقِّق، وإنَّما جزع بتصوُّره، لأنَّه يتضمَّن تفريقا بينه وبين يوسف، والوصف تارة كاذب كما في الآية وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٨٠)، وتارة صادق. ومعنى استعانته با لله ﷻ: طلب إظهار كذبهم كما قال بعد قوله بعدُ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: ﴿عسَى ا للهُ أَن يَّاتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾. وقيل: الاستعانة على تحمُّل ما تصفون من موته.

﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

نجاة يوسف وإكرامه في بيت العزيز

﴿وَجَآءَتْ﴾ بعد ثلاثة أيَّام، وقيل: في اليوم الثاني ﴿سَيَّارَةٌ﴾ جماعة مسافرون سمُّوا سيَّارة لسيرهم في الأرض، ساروا من مدين إلى مصر أو من جهتها، وهي قريبة من مصر فأخطأوا الطريق، أو قصدوا الجبَّ ونزلوا قريبا من الجبِّ، واختير أنَّها على طريقهم وهي في قفراء بعيدة عن العمران، تردها المارَّة والرعاة، ولو كان ملحا لعزَّة الماء في القفار، ولَمَّا كان فيها يوسف عذُب.

﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ تذكير للمعنى، ولو قال: فأرسلت واردها لكان على اللفظ، والوارد: الذي يرد الماء ليستقي، أضيف إليهم لأنَّه منهم ويستسقي لهم وله، وهو مالك بن ذعر الخزاعي من أهل مدين. ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ أرسلها إلى أسفل

ليملأها ماء، فتعلّق بها يوسف أو بحبلها فأخرجه، وكان الحبل قويًّا أو ضعيفا والله قادر، وذلك ـ كما مرَّ ـ بعد ثلاثة أيـَّام، وبكت البئر وجدرانها وما فيها حين أخرج. فإمَّا أن يمتلئ الدلو فيرفع معها أو منعها من الامتلاء ﴿**قَالَ يَابُشْرَىٰيَ هَذَا غُلَامٌ**﴾ أحضري هذا أوان حضورك.

(بلاغة) نزَّلها منزلة العاقل، ورمز لذلك بلازم العاقل، وهو النداء، فذلك مكنيَّة وتخييليَّة وتجوز التمثيليَّة، والبشارة لنفسه أو له ولقومه، وقيل: بُشرى اسم لصاحبه أضافه لنفسه، أو خادم أو غلام له وناداه ليعينه على حمله، وهذا على أنَّه رآه قبل الرفع أو في حاله، وخاف أن يسقط أو يعجز، أو حين وصل فم البئر ليعينه على الرفع، وعلى الإخراج من فم البئر، وقيل: المنادى محذوف، أي يا قوم اسمعوا بشراي، يقول هذا ولو كانوا لا يسمعونه، ولا يحبُّ سماعهم، ويقوله ولو قولا خفيًّا كما أَسَرُّوه عن سائر الرفقة، والغلام بعد الحولين إلى البلوغ.

(قصص) وكان يوسف أحسن ما يكون من الغلمان أعطي شطر الحسن وورثه من جدَّته سارة، وقد أعطيت سدس الحسن، وعن محَمَّد بن إسحاق: ذهب يوسف وأمُّه بثلثي الحسن، وكان يشبه آدم عليه السلام قبل أن يأكل من الشجرة، فكان حسن الوجه والشعر ضخم العينين، مستوي الخلق أبيض اللون، غليظ الساعدين والعضدين والساقين، خميص البطن صغير السرَّة، إذا تبسَّم ظهر النور من ضواحكه، وإذا تكلَّم ظهر من ثناياه ولا يستطاع وصفه.

﴿**وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً**﴾ أسرَّه السيَّارة: مالك بن ذعر وأصحابه، أي أخفوه عن باقيهم، فإنَّه ليس كلُّ السيارة أسرُّوه، فالآية حكم على المجموع. و«بِضَاعَةً» حال لتضمُّن معنى مجلوب للتجر، أو مبضوعا أي مقطوعا للتجر، أو مفعول ثان لـ"جعل" محذوف، أي جاعليه بضاعة.

والمراد أنَّهم أخفوا أمره وقالوا لباقيهم: أعطاناه أهل الماء لنبيعه في مصر، والثمن لهم، وقالوا ذلك لأن لا يطلبوا منهم الشركة، وقيل: أخفوا ذات يوسف فلم يقولوا: وجدناه، ولو قالوا: رفعناه من البئر أو استبضعناه لطلبوا الشركة فيه. وعن ابن عباس: أَسَرَّه إخوته أي أخفوا أنَّه أخ لهم، أتاه يهوذا على عادته ليدلي إليه الطعام في البئر على عادته فوجده مع رافعه منها، أو وجده في الرفقة فأخبر إخوته، وقد رجعوا إلى الجبِّ يتفقَّدون حال يوسف، فجاءوا فقالوا هذا عبد أبق مِنَّا، فاشتراه السيَّارة، وعلى هذا يكون الواو للإخوة، ويعارضه قوله: «بضاعة» فإنَّ إخوته لم يجعلوه بضاعة، إلاَّ أن يقال: إنَّهم قالوا إنّه غلام لهم أتوا به بضاعة فأبق، و لم ينكر العبوديَّة لأنَّهم قالوا له بالعبرانية إن أنكرت العبودية قتلناك.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي بما يعمل السيَّارة من تملُّك الحرِّ وبيعه، أو بما يعمل إخوة يوسف من إلقائه في البئر ودعوى أنَّه عبد لهم، وبيعهم إيَّاهُ، وغير ذلك مِمَّا فعلوا بيوسف وأبيه، أو بما يعمل السيَّارة من دعوى عُبُودِيَّته، وما يعمل الإخوة من إلقائه في البئر وغير ذلك، أو بعاقبة ما عملوا كلُّهم، وهي ما يجري له في مصر مع زليخاء والسجن، وكونه ملكا يرحم الله به العباد والبلاد في قحط الإسلام والطعام.

﴿وَشَرَوْهُ﴾ باعوه عطف على «أَسَرُّوهُ»، والضمير للوارد ومن معه، باعوه في مصر أو اشتروه من إخوته، وعليه فالشراء مقابل البيع، أو للإخوة باعوه للوارد ومن معه، لَمَّا رأوه ضربوه وشتموه وقالوا: هذا عبد أبق مِنَّا، فاشتراه مالك بن ذعر ﴿بِثَمَنِۭ بَخْسٍ﴾ مبخوس لزيفه بنحاس مثلا، أو لنقصه وزنا أو لزيفه ونقصه معا، أو لكونه ثمن حرٍّ، وهو حرام والحرام بخس، أي ناقصة البركة. ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ بدل من «ثَمَنٍ»، ومعنى معدود قليلة، قيل: كانوا يزنون ما بلغ الأوقية، ويعدُّون ما

دونها، والأوقية أربعون درهما، قيل: كان عشرين درهما وقيل: اثنين وعشرين، وعلى كلٍّ حال هو مِمَّا يعدُّ لأنَّه دون الأوقية.

﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ «فِيهِ» متعلّق بـ«الزَّاهِدِينَ» ويناسبه القول بأنَّ «الـ» في الأوصاف حرف تعريف، ولو كانت موصولة لـلزم تقدُّم معمول الصلة عليها، ويجاب بأنَّ الظرف يتوسَّع فيه، أو يقدَّر: وكانوا زاهدين فيه من الزاهدين، أي من جملة الزاهدين، أو من الزاهدين فيه من الزاهدين، والثاني توكيد.

والزهد في الشيء وعنه: الإعراض عنه. فإن كان الضمير لإخوته فإعراضهم ظاهر، لأنَّهم أرادوا إهلاكه، فهو عندهم هيِّن يباع ببخس، ويقال: باعوه وقالوا لمشتريه: قيِّده إنَّه أبق فقيَّده، وإن كان للوارد ومن معه والشراء بمعنى البيع فزهدهم لأنَّهم التقطوه، والملتقط للشيء يبادر البيع بما وجد لِئَلاَّ ينتزع منه، وإن كان بمعنى الشراء ضدَّ البيع فالزهد فيه لقول إخوته البائعين له إِنَّهُ أبق فلا يحرصون في شرائه بثمن غال.

﴿وَقَالَ الَّذِے اِشْتَرَيٰهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِے مَثْوَيٰهُ عَسَيٰٓ أَنْ يَّنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۖ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِے اِ۬لَارْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَاوِيلِ اِ۬لَاحَادِيثِۖ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَيٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ اَ۬لنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَۖ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماً وَعِلْماًۖ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِے اِ۬لْمُحْسِنِينَۖ ﴿٢٢﴾﴾

يوسف عند ملك مصر وإيتاؤه النبوة

﴿وَقَالَ الذِي اشْتَرٰيهُ﴾ من بائعه الذي هو مالك بن ذعر، ومشتريه ملك مصر، التقطه مالك فاشتراه من إخوته فباعه في مصر فاشتراه ملك مصر، وهو

العزيز الذي على خزائن مصر، قطفير أو أطفير، والملك فوقه هو ريان بن الوليد العمليقي، آمن بيوسف ومات في حياته، وقيل: اشتراه خباز الملك وصاحب شرابه وسجنه، وملك بعد ريان المذكور قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإيمان فأبى.

﴿مِن مِّصْرَ﴾ أي من أهل مصر، أو في مصر لأنَّ السيَّارة جاءوا به إلى مصر فاشتراه بعض أهل مصر.

(قصص) روي أنَّه اشتراه وهو ابن سبعة عشر عاما، وقيل: ابن اثني عشر عاما، وقيل: ابن خمسة عشر، ولبث في منزل العزيز ثلاثة عشر عاما، وكان وزيرا للريان وهو ابن ثلاثين، وآتاه الله الحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين، ومات وهو ابن مائة وعشرين، ومدَّته في السجن سبع سنين، معدودة عند بعض من مدَّة لبثه عند العزيز. وقيل: فرعون موسى عاش إلى وقت موسى أربعمائة سنة وهو باطل، لأنَّ بين يوسف وموسى أكثر من ذلك، وعلى هذا القول يكون المراد في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ (سورة غافر: ٣٤) أنَّ يوسف بن يعقوب حيي إلى زمان فرعون موسى، وقيل: فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، وهذا الشراء بعشرين دينارا ونعلين، وثوبين أبيضين، وقيل: وزنه فضَّة، وقيل: ذهبا، وقيل: حريرا، وقيل: مسكا، وقيل: هذا الشراء هو الشراء الأوَّل بثمن بخس لا شراء آخر التقطه فباعه في مصر.

﴿لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ هي زليخاء بفتح فكسر أو بضم ففتح، وقيل: راعيل، ويقال: هما امرأة واحدة، وأحد اللفظين اسم لها وهو راعيل والآخر لقب وهو زليخاء، وقيل بالعكس، والمثوى: المقام، اجعلي مقامه حسنا بتعهُّده بالطعام الحسن واللباس الحسن، وعدم استخدامه، ﴿عَسَى أَنْ يَنفَعَنَآ﴾ بطريق العُبُودِيَّة، من الاستخدام للرعي والسقي والحرث وسائر المصالح.

﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ, وَلَدًا﴾ نصيِّره كولد نرفِّهه ولا نستخدمه، وذلك في مقابلة قوله: «يَنفَعَنَا» وإلاَّ فالولد ينفع والديه بالخدمة أيضا. و«أو» لمنع الخلوِّ، وهو الصحيح، وقيل: لمنع الجمع على معنى: عسى أن نبيعه وننتفع بثمنه، وإنَّما قال ذلك لِمَا تفرَّس فيه من الأدب والرشد مع شدَّة شوقه للولد، وكان عقيما، وروي أنَّه لا يشتهي النساء.

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة والحاكم وصحَّحه عن ابن مسعود موقوفا: «**أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر إذ عزم أن يتبنى يوسف، وابنة شعيب إذا قالت: يا أبت استأجره، أي لما رأت من قوَّته وورعه، وأبو بكر حين استخلف عمر**»[1]، وقوله عزم مراعاة لِمَا رأى من عاقبة الأمر، وهي التبنِّي وإلاَّ فالآية احتمال، ولعلَّه جعل «أَوْ» بمعنى بل.

(لغة) والفراسة: خاطر ينشأ من قُوَّة الإيمان يهجم على القلب فينفي ما يضادُّه، فإنَّ لقلب المؤمن نورا يدرك به ما هو باطن، لا دليل عليه، قال ﷺ : «**اتَّقوا فراسة المؤمن فإنَّه بنور الله يبصر**»[2]، كذلك قيل في تعريف الفراسة، وهو غير جامع، فإنَّ الفراسة لا تختصُّ بالمؤمن، كما أنَّ العزيز إذ ذاك غير مؤمن، فالأَولى أنَّ الفراسة التفطُّن الغامض، فالفراسة خاطر ينشأ من قُوَّة الفهم، وقيل: سأله مالك بن ذعر بعدما باعه من أنت؟ وابن من أنت؟ فأخبره، فقال: لو علمت لم أبعك، فسأله الدعاء فدعا له بالبركة، فحملت امرأته اثني عشر بطنا في كلِّ بطن غلامان.

١- رواه **الحاكم** في المستدرك كتاب التفسير (١٢) تفسير سورة يوسف عليه السلام رقم ٣٣٢٠ (٤٥٧). من حديث ابن مسعود.

٢- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٦، ص١٩٦.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما مكّنا محبّته في قلب العزيز بحيث لا يصبر عنه، أو كما مكّنا له في منزل العزيز بمعنى جعلنا له مأوى كريما في منزل العزيز، أو كما أنجيناه من كربة الجبّ، وعطفنا عليه قلب العزيز ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ وإنّما لم يقل: مكّنا له لأنّه لم يذكر يوسف في قوله: ﴿وَكَذَالِكَ﴾. ﴿فِي الأَرْضِ﴾ جعلنا له في سائر الأرض مَكَانَ قَبُولٍ ووجاهة وملك وتصرُّف ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ,﴾ عطف على محذوف، أي ليتصرَّف فيها بالعدل وَلِنُعَلِّمَهُ، أو لنملّكه ولنعلّمه، أو وفعلنا لنعلّمه ﴿مِن تَاوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ والواضح أنَّ اللام للعاقبة، أو يقدِّر: أصبنا يوسف بتلك المصايب لنعلّمه، أي لنثيبه عليها بالتعليم[1]، أو تجعل الكاف للتعليل. والإشارة لِمَا أصيب به يوسف، أي مكّنا له في الأرض لذلك الذي أصابه، وأصابه ذلك لنعلّمه، وأمّا ما مرَّ من جعل التعليم علّة للتمكين، فلا يظهر تقديم التمكين معلولا للتعليم بعده.

والمراد تأويل الرؤيا أو تفسير ما أدركه من كتب الله وكلام الأنبياء قبله، وليس المراد بـ«مِن» القِلَّة، بل المراد تعلُّمه جملا من التأويل، ولو كان «مِن» للتبعيض، وإن جعلت للقلَّة فالنسبة إلى سعة علم الله ﷻ، والمعنى: وليعلم من تأويل الأحاديث، لكن وَلَمَّا كان العلم لازما للتعليم ومسبِّبا له عَبَّرَ عنه بالتعليم، **فبعلمه يدبِّر مصالح العَامَّة والخاصَّة بالعدل،** ومن ذلك تفسيره الرؤيا بسبع سني القحط.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ﴾ على أمر الله لا يمنعه عنه شيء، ولا ينازعه فيه أحد، وذلك على الإطلاق، وشمل أمر يوسف، أو المراد: لا يرده أحد عَمَّا شاء في شأن يوسف من إعلاء منصبه، حتّى كان سعي إخوته في كيده سعيا في علوِّ شأنه، وعلى هذا فالهاء لله أو ليوسف ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله غالب على أمره لا شيء منه لأحد، فيتوهَّمون وقوع ما لم يرد وقوعه، كالمشركين

١- كذا في النسخ ولعلَّ الصواب: لنثبته عليها بالتعليم، والمصايب تكسب التجربة وحسن التصرُّف.

والمعتزلة، أو يقتصرون على ما يظهر لهم فيقصدونه ولا يعلمون ما يتولَّد منه، وما يصرفه الله إليه، وقليل من الناس علم ذلك، وقيل: ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ﴾: المشركون، وقيل: أهل مكة، وقيل: أهل مصر، وقيل: المراد بالأكثر الكلُّ، لكن على معنى أنَّه لا يُطلع أحدا على الغيب.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ زمان أشدِّه، والأشدُّ قُوَّة الجسم ما بين الثلاثين والأربعين، وقيل: سنُّ الشباب وأوَّله البلوغ، وقيل: ثلاثون سنة، وقيل: ثلاث وثلاثون، وقال القاضي النحوي محمد بن علي بن علي بن أبي طالب: خمس وثلاثون وتمامه أربعون، وقيل: سبعة عشر عاما إلى نحو أربعين، وقيل: ثلاث وعشرون، وقيل: إحدى وعشرون، وقيل: عشرون، وقيل: ثمان وثلاثون، وعن الحسن: أربعون، وقيل: أقصى الأشدِّ سِتُّونَ، وعن الحسن: يقف الجسم عند الأربعين، وقيل: يقف عن النموِّ بين الثلاثين والأربعين.

(صرف) والأشدُّ: مفرد على وزن الجمع بنقل الضمَّة من الدال المدغمة إلى الشين، وعن سيبويه: جمع شِدَّة، الجمع شاذٌّ، كنعمة وأنعم، قال الكسائي والفراء: جمع شَدٍّ، كصكٍّ وأصُكٍّ، فيجب تأنيثه على هذا، وعلى قول إنَّه جمع لا واحد له.

قال بعض المُتَأَخِّرين: لم يقل: "واستوى" كما قال في موسى لأنَّه بلغ الأربعين ولم يبلغها يوسف حينئذ.

﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ إيقان العلم وردُّ النفس عن هواها، وإتقان العمل، أو الحكم: النبوءة، **والعلم بلا عمل سفهٌ**، ولا منتهى للتعلم إلى الموت، خرج جابر بن زيد رحمه الله[1] يتَّكئ وهو ابن سبعين سنة، فقيل له: أين تذهب يا أبا الشعثاء؟ فقال: **أتعلَّم ديني**.

١- جابر بن زيد الأزدي البصري أبو الشعثاء، تابعي فقيه من الأيمة، من أهل البصرة أصله من =

أو المراد: الحكم بين الناس كان يقضي بين الخصوم، والأوَّل أولى لعدم ظهور إعطاء الحكم بين الناس في وقت شدَّة قوَّته، فإنَّ الأولى في هذا عدم التقييد بكمال القُوَّة.

﴿وَعِلْمًا﴾ تأويل الرؤيا، وتفسير كتب الله وكلام الأنبياء، والفقه في الدين، وعن ابن عَبَّاس: الحكم النبوءة، والعلم علم الشريعة، وقيل: الحكمة الحكم بين الناس، والعلم معرفة وجوه المصالح.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ يفيد أنَّ الله عَجَّلَّ أعطاه ذلك جزاء على إحسانه، أي نجزي المحسنين مثل ذلك الجزاء دون غيره، مِمَّا يضعف أو لا يعبأ به، وإحسانه عبادته وعصيان نفسه حين كان قويَّ الشباب، واجدًا لكلِّ ما يلتذُّ به، وهو شابٌّ نشأ في عبادة الله والورع، **ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**، كما قال الحسن: من أحسن عبادة الله تعالى في شبابه آتاه الله تعالى الحكمة في اكتهاله.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ

=

عُمان، صحب ابن عَبَّاس وغيره من الصحابة، وكان من بحور العلم، وصفه الشمَّاخي بأنَّه أصل المذهب وأسُّه الذي قامت عليه آطامه، نفاه الحجَّاج إلى عُمان. وفي كتاب الزهد للإمام أحمد: «لَمَّا مات جابر بن زيد قال قتادة: اليوم مات أعلم أهل العراق». توفِّي سنة ٩٣ هـ. الأعلام للزركلي، ج٢، ص١٤٠.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

يوسف وامرأة العزيز

﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ طالبته من راد يرود إذا جاء وذهب، أو رفق في طلب شيء.

(صرف) وكان بصيغة المفاعلة بين اثنين مع أنَّ يوسف لم يطلبها للمبالغة، أو عبَّر بصيغة المفاعلة بين اثنين تنزيلا للسبب ــ الذي هو جمال يوسف، وكونه مملوكا لها ولزوجها، وكونه في دارها ـ منزلة المسبَّب وهو الطلب، كمطالبة الدائن ومماطلة المدين فإنّه لا مطالبة للمدين، ولا مماطلة للدائن، ومداواة الطبيب للمريض فإنّه لا مداواة للمريض، لكن لَمَّا كانت دواع من المدين والدائن، والمريض، نُزِّلت منزلة المفاعلة؛ أو ذلك مراعاة لكونها طلبت منه الفعل، وطلب منها الترك؛ أو المعنى: لأيَنَته مخادعةً له ليطاوعها، والمفاعلة على بابها لأنّه أيضا لاينها في الامتناع منها إذ امتنع بلا ضرب لها؛ أو للمبالغة.

﴿التي هُوَ﴾ أي يوسف ﴿في بَيْتِهَا﴾ ولم يذكر اسمها كزليخاء أو راعيل سترا عليها، ولاستهجان ذكرها، ولكراهة جمع الزاي والخاء. وفي قوله: ﴿بَيْتِهَا﴾ إعلان عظيم بنزاهة يوسف وورعه، إذ كان في بيتها برضاها وخلوه بها مع أنَّها المطالبة له، ومع جمالها وملكها له ولم يوافقها، وأضاف البيت إليها مع أنّه للعزيز فيما يظهر لأنَّ النساء يلزمن البيت، ويقمن بمصالحه، كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ﴾ (سورة

الأحزاب: ٣٣) ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ عدَّى «رَاوَدَ» بـ«عَنْ» لتضمُّنه معنى المخادعة، بمعنى أنَّها طالبته بأن تنتقل عنه إليها نفسه الأمَّارة بالسوء، أو ذاته فيواقعها.

﴿وَغَلَّقَتِ الاَبْوَٰبَ﴾ التشديد للمبالغة بأن أغلقتها إغلاقا عظيما، أو للتكثير بأن أقفلتها بقفلين أو ثلاثة مثلا، أو أسندت إليها من داخل ما لا يطاق من خارج، أو لكثرة الأبواب، وقد قيل: إنَّها سبعة وأغلقتها كلَّها وذلك كثير، ولو كانت ثلاثة أو أكثر مِمَّا هو دون جمع القلَّة.

ولا يخفى أنَّ في جعل الأبواب بابا، أو أنَّ كلَّ جزء من الباب باب، ودعوى أنَّ إغلاقه بأقفال تنزيلا بمنزلة تعدُّد الباب تكلُّف، كتكلُّف من قال بزيادة الواو في ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾. وقيل: أغلقت باب الحجرة وباب الدار وهما في الحجرة، ووجه المبالغة بالتشديد أنَّه يجوز أغلقت الأبواب بالهمزة وعدِل عنه إلى التشديد، كذا قيل، ولا أسلِّم أنَّ ذلك مبالغة سوى أنَّه تشديد كتشديد المبالغة، وإن صحَّ أنَّ غَلَقت الباب بالتخفيف جائز فصيح فالمبالغة ظاهرة في التشديد، وإلاَّ فلا يحمل القرآن على اللغة الرديئة ببناء التشديد عليها.

﴿وَقَالَتْ هِيتَ﴾ اسم فعل بمعنى أقبل مبادرا، أو تهيأت، فعلى الأوَّل اسم فعل الأمر، وعلى الثاني اسم الفعل الماضي، أخبرت عن نفسها بأنِّي قد تهيَّأت لك، وهو لفظ عربيٌّ لا سريانيٌّ كما قيل عن ابن عبَّاس، ولا قبطيٌّ كما قيل عن السدِّيِّ. ﴿لَكَ﴾ اللام للبيان كأنَّه قيل: أمري بالإقبال هو لك، أو خُطايَ لك، أو هذا الكلام مقول لك، أو تهيُّئِي لك. وحرف الجر لا يتعلَّق باسم الفعل، وقيل: يتعلَّق، فيجوز أن يعلَّق «لَكَ» بـ«هِيتَ» فيجوز أن تقول: صه لي.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ﴾ مصدر ميميٌّ بمعنى عياذة الله، وأصله: أعوذ بالله معاذا، أي أعتصم به اعتصاما عن الزنى مطلقا، ولا سيما بزوج سيِّدي، وحذف الفعل

وناب عنه «مَعَاذَ»، وأخّر لفظ الجلالة وأضيف إليه. ﴿إِنَّـهُۥ﴾ أي العزيز زوجك، دلَّ عليه بالمقام، أو إنَّ الشأن، أو إنَّ الله ﴿رَبِّيَ﴾ خبر «إنَّ» على أنَّ الهاء للعزيز أو لله ﴿أَحْسَنَ مَثْوايَ﴾ خبر ثان، أو خبر «رَبِّي» بدل أو بيان، وعلى الشأن فـ«رَبِّي» مبتدأ، أحسن الله مقامي فلا أعصيه بالزنى، أو سيِّدي فلا أخونه في زوجه، وقد قال لها ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، وكذلك يقول أحسن الله مثواي بالعزيز، ويترجَّح ردُّ الهاء لله تعالى، لأنَّ المتبادر أنَّه الصَّلِيلاً لا يطلق على مخلوق أنَّه ربُّه ولو احتمل أنَّه أراد العزيز بمعنى السَّيِّد فإنَّه اشتراه.

﴿إِنَّهُۥ لاَ يُفْلِحُ الظَّـالِمُونَ﴾ لأنفسهم بالزنى، أو لأصحاب الأزواج بالزنى بأزواجهم، والمزنيُّ بها مظلومة في حقّها عند الله، ولو أباحته، ولو لم يكن لها زوج أو متسرٍّ، أو الظالمون مطلقا، فيدخل الظلم بالزنى بالأولى، ومن زنى بامرأة ولو مات زوجها عنها فقد ظلمه كرهت أو رضيت.

والإفلاح: الدخول في الفلاح، والفلاح دنيويٌّ وهو البقاء والغنى والعزُّ، وأخرويٌّ وهو البقاء والغنى والعزُّ والعلم الدائمات، ولذلك قيل: «**لا عيش إلا عيش الآخرة**»[1].

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ قصدت منه المباشرة بعزم قويٍّ، حتَّى إنَّهَا مدَّت يدها وقصدت المعانقة، ويوقف هنا ويبدأ بقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَـوْلَآ أَن رَّءا بُرْهَـانَ رَبِّـهِ﴾ فهو لم يهم بها لأنَّه رأى برهان ربِّه، ولولا للامتناع وهو نفي، كأنَّه قيل: لولا أن رأى برهان ربِّه لهمَّ بها، وربُّه الله.

١- رواه **البخاري** في كتاب مناقب الأنصار، (٩) باب دعاء النبيء ﷺ: «أصلح الأنصار والمهاجرة» رقم ٣٧٩٥. و**الطبراني** في الكبير، ج٦، ص١٦٦، رقم ٥٨٧٥.

وقوله: ﴿رَبِّيَ﴾ بمعنى الله فالمعرفة عين الأولى، وإن كان ﴿رَبِّيَ﴾ بمعنى العزيز زوج زليخاء فمن المعرفة المعادة مغايرة للأولى، إلاَّ أن يراد مطلق الملك والسيادة، ولو كانت لله حقيقة ولغيره توسُّعا، فالأولى أن يجعل ﴿رَبِّيَ﴾ بمعنى الله، لبعد أن يقرَّ نبيء الله بأنه عبد لمخلوق، أو تحت حكمه.

وقيل: إنَّ يوسف همَّ بها بالطبع، ولا يكلَّف عليه لأنَّه ضروريٌّ فلا عقاب عليه ولا ذمَّ، بل مدح لكونه عصى هذا الهمَّ لله ﷻ، أو شارف الهمَّ بها بأن يميل و لم يمل، كمن صام رمضان واشتدَّ عليه العطش، فنفسه يعجبها الشرب و لم يقصد أن يشرب، سمَّى ما ليس همًّا بهمٍّ للمشاكلة[1]، وعلى هذين فجواب «لَوْلاَ» محذوف لم يتقدَّم ما يغني عنه، أي لولا أن رأى برهان ربِّه لفعل، وعلى هذين يوقف على ﴿هَمَّ بِهَا﴾ لا على ﴿هَمَّتْ بِهِ﴾، وما ذكرته أولى.

(نحو) ولا يقال لو كان البدء بـ«هَمَّ بِهَا» لقرن بلام الجواب إذ كان مغنيا عن جوابها، لأنَّا نقول: إنَّما يقرن جوابها المتأخِّر لا مغن عنه متقدِّم، مع أنَّ قرن جوابها باللاَّم غير واجب، ولسنا نقول إنَّه جواب مقدَّم وجواب لولا لا يقدَّم، ولَمَّا كان مغنيا عن جوابها صحَّ الاستقبال له، كما تقول: قام زيد إن قمت، تريد يقوم زيد إن قمت.

وحرم ما قيل: إنَّه همَّ بها وحلَّ سراويله، وما قيل: إنَّه قعد بين رجليها، والقول بذاك في نبيء فسق، والحجَّة في ذلك عصمة الأنبياء قبل البعثة وبعدها، لا قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾ بل قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ لأنَّ ذلك سوء، وقوله: ﴿لَمَ اخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ (سورة يوسف: ٥٢)، لأنَّ ذلك خيانة، ولا قوله: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ...﴾ (سورة يوسف: ٥١)، ولا قوله: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ (سورة

١- وهذا الوجه يوافق ما جبلت عليه الطبيعة البشرية والأنبياء عليهم السلام بشر لا ملائكة.

يوسف: ٥١) لأنَّها قد لا تعد حلَّ السراويل والقعود بين الرجلين سوءا لأنَّه ترك ذلك.

وبرهان ربِّه أنَّه مثل له يعقوب فضرب بيده صدره فخرجت شهوته من أنامله، أو قال له: أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في الأنبياء؟ أو انفرج سقف البيت فرآه عاضًّا على إصبعيه، أو رأى مكتوبا في حائط: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٣٢)، أو إنَّها سترت حينئذ صنما لها فقال: لم؟ فقالت: حياء منه، فقال: أنا أحقُّ بالحياء من ربِّي، ففرَّ[1].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أريناه البرهان إراءة مثل ذلك، أو عصمناه مثل ذلك، وهي نفس ذلك، فهذا تأكيد، ويجوز في مثل ذلك أن يشبه شأن الإخبار بشأن ما عنه الإخبار، ويجوز أن يراد الأمر كذلك، أو العصمة كذلك، ويجوز كون الكاف في ذلك ونحوه صلة، أي الأمر ذلك أو أثبتنا ذلك أو جرت أفعالنا أو أقدارنا، والفعل أولى لأنَّه أشدُّ مناسبة لتعليق اللام به من قوله:

﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ﴾ والإشارة إلى الرأي مصدر "رأى"، وهو مذكَّر لا إلى الرؤية بتأويل ما ذكر، ولم يقل: «لنصرفه عن السوء» للدلالة على

١- وردت زيادة في نسخة (أ) سنوردها مرعاة لأمانة النقل: «أو نودي: أتواقعها؟ مثلك ما لم يواقعها كطائر في الجو لا يطاق، وكثور صعب لا يطاق، وإن واقعتها فكطائر على الارض مكسور الجناح لا يدفع عن نفسه، وكبقرة ذبحت لا تدفع عن نفسها، أو أنَّه رأى معصما بلا كف كتب عليه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فهرب ثمَّ رجع فعاد المعصم وعليه: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ فهرب، ثمَّ رجع فعاد المعصم وعليه: ﴿واتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ فهرب، ثمَّ رجع، فأوحى الله إلى جبريل: أدرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة، فانحطَّ جبريل عاضًّا على إصبعه يقول: يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب عند الله من الأنبياء؟ وقيل: انحطَّ فمسَّه بجناحه فخرجت شهوته من أنامله، وما ذكر من الذهاب إليها لا يصحُّ عندنا ولو عقبه الرجوع».

كمال عصمته عليه السلام، حيث لم يتوجَّه إلى السوء والفحشاء قطُّ، ولا تأهَّل للتوجه إليهما، أو للقرب إليهما، وإنَّما توجَّه إليه ذلك من خارج فصرف عنه، ولكن المتعارف الصرف عن العقلاء لا صرفهم عن غيرهم، غير أنَّه قد ورد مثل ذلك، كما يقال: كفَّه الله عن المعصية، وأخلصه منها.

والسوء: خيانة الزوج، والفحشاء: الزنى، أو السوء: مقدمات الزنى من النظر والقبلة والمس، وذلك مناسب للحال والمقام، ويجوز أن يراد مطلق السوء والفحشاء، فيدخل ما ذكر في العموم، أو هما واحد سمِّي سوءً من حيث إنَّه ضارٌّ، وفحشاء من حيث قبحه، ويناسب هذا قولها: ﴿بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾.

﴿إِنَّهُ﴾ تعليل جملي أي لأنَّه ﴿مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ الذين اصطفيناهم للعبادة على الإطلاق، وهو أيضا من ذرِّيَّة إبراهيم، ومن قوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة الحجر: ٤٠) ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُمْ﴾ (سورة ص: ٤٦).

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ تسابقا إليه، فهو من الافتعال المراد به التفاعل، أرادت السبق لتجبذه وتمنعه من الخروج وفتح الباب، وأراد السبق للفتح والخروج. وعُدِّي لتضمُّن معنى قَصَدَا وبادَرَا، ويقدَّر "إلى"، والمراد الباب الواحد، لأنَّه قال: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ فبقي أن يقال: كيف يلفى لدى الباب الأوَّل إلى جهة البيت مع أنَّه أغلقت أبوابا أو بابين بعده، ولعلَّه كان لها مفاتح من خارج وداخل ففتحها من خارج، حتَّى وصل بابا يلي البيت فألفياه عنده، أو الأبواب واحد سمِّي أبوابا لتعدُّد أقفاله مجازا، أو فتحها كلَّها لقوَّة الرجوليَّة، وإعانة الله حتَّى لم يبق إلاَّ الأخير فألفاه عنده، أو كلُّ باب في جهة لا مترادفة، وعن كعب رحمه الله: لَمَّا هرب يوسف عليه السلام تناثر أقفال الأبواب له. والجملة عطفت على «هَمَّتْ بِهِ».

(لغة) ﴿وَقَدَّتْ﴾ قطعت بإمساكها وجذبه نفسه. ويقال القدُّ: القطع طولا، والقطُّ القطع عرضا، وقيل: هما سواء عرضا وطولا، ويدلُّ له قراءة بعض:

﴿وَقَطَّتْ قَمِيصَهُ﴾، وكذا وجد في مصحف المفضل بن حرب، وأمَّا قول بعض في الإمام علي: «إذا اعتلى قدَّ وإذا اعترض قطَّ» فلا حجَّة فيه لاحتمال أن يكون قائله مِمَّن لا يحتجُّ بكلامه في العَرَبِيَّة.

﴿قَمِيصَهُ, مِن دُبُرٍ﴾ من خلفه، والقفا إلى العقب دبر، وصادفت القدَّ من خلفه لأنَّه أدبر عنها وفرَّ، وغلبها وخرج وخرجت خلفه ﴿وَأَلْفَيَا﴾ وجدا ﴿سَيِّدَهَا﴾ زوجها وهو العزيز قطفير، لم يقل الله ﷻ : «سيِّدهما» لأنَّ يوسف حرٌّ لم يجر عليه قيام أحد، وذكره بالسَّيِّد لا بالزوج يشير إلى أنَّه سيِّد لها لا له، وهي أيضا حرَّة إلاَّ أنَّ عرفهم أنَّ الزوج سيِّد زوجته.

﴿لَدَا الْبَابِ﴾ عند الباب مقابلا يريد الدخول، أو قاعدا جانبا، كلُّ ذلك مع ابن عمِّها أو ابن عمٍّ له، أو منصتا لِمَا يكون من كلام أو صوت هروب وتجاذب في الجري، وخافت التهمة فسبقت بالشكوى كاذبة كما قال الله ﷻ : ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنَ ارَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ زنى، ولم تقل: هذا أو يوسف أراد الزنى بي، إكراما له، وإبقاء عليه لشدَّة حبِّها إيَّاهُ، وأيضا قد يصعب عليها بالطبع أن تصرِّح به مع بعده من السوء عند الناس، كما عندها وكمال عفَّته، أو أراد ضربها دفعا لها فعدَّت الضرب سوءً.

﴿إِلاَّ أَن يُّسْجَنَ﴾ مدَّة يسيرة في حبس في بيتها أو في غيره يوما أو يومين أو ساعة أو دقائق، ولو أرادت طول السجن لقالت: إلاَّ أن يكون من المسجونين كما قال فرعون[1].

﴿أَوْ عَذَابٌ الِيمٌ﴾ ضرب موجع، وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنه : قيد. وبدأت بالسجن لأنَّ المحبَّ لا يحبُّ إيلام حبيبه، وبادرت بما يعاقب به أنَّه السجن أو

١- في سورة الشعراء: آية ٢٩.

الضرب، وعيَّنته لئلاَّ يقتله، تحرَّزت عن قتله بذكر غيره.

(نحو) و«عَذَابٌ» معطوف على مصدر «يُسْجَنَ»، أي إلاَّ سَجنه ـ بفتح السين ـ أو عذاب أليم، وأمَّا بالكسر فموضع الحبس. و«مَا» نافية، أو استفهاميَّة إنكاريَّة. و«مَنْ» اسم موصول أو نكرة موصوفة.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ هذه عبارة تخصيص، وكأنَّها حصر، والمعنى: هي راودتني و لم أراودها، وذلك لوجود إسنادين أقوى من قوله: «رَاوَدَتْنِي». وقال ذلك تبرئة لنفسه عمَّا لوَّثت به عرضه، ولئلاَّ يسجن أو يعذَّب، و لم يكن ليقول ذلك أوَّلاً لولا أنَّها قالت لم يقل، ومع ذلك أيضا تأدَّب معها إذ لم يقل: هذه أو أنتِ استحياء عن لفظ الحضور.

(نحو) والغيبة في اصطلاح النحاة: ما ليس بخطاب أو تكلُّم ولو مع حضور، فلم ينصفوا ابن مالك إذ ردُّوا عليه قوله:

فما لذي غيبة أو حضور كأنت وهو سمٍّ بالضمير

بقوله تعالى: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾، وقوله تعالى: ﴿يآ أَبَتِ اسْتَاجِرْهُ﴾ (سورة القصص: ٢٦) قالته وموسى عليه السلام حاضر.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنَ اهْلِهَآ﴾ ابن عمِّها أو ابن خالها، أو ابن عمِّه، وروي شيخ كبير حكيم، كان مع الملك حينئذ، وَاتَّفَقَ أنَّه أراد الدخول عليها فقال: قد سمعنا الجلبة من رواء الباب وصوت شقِّ القميص، إلاَّ أنَّا لا ندري أيُّكما قدَّام صاحبه، لكن إن كان قميصه...الخ، وفي كونه من أهلها زيادة تبرئة لجانب يوسف، إذ شهد على قريبته لا عليه، وأيضا يبعد بسط المملوك يده إلى زوج سيِّده، وأيضا شاهدوا أنَّه هرب والطالب لا يهرب في بدء أمره، وأيضا أنَّها تزيَّنت بأكمل زينة، وأيضا ما

رأوا منه قبل ذلك ما يريبه.

(قصص) وقيل: كان في المهد صبيًّا ابن خالها، وقيل: هذا الصبي ابن أختها، وكانت هي وزوجها يحبَّان الصبيان لأنَّهما لا ولد لهما، أنطقه الله لهما، قال ﷺ: «**تكلَّم أربعة صغار: ابن ماشطة فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى بن مريم**»[1]. وفي حديث آخر: «**ثلاثة عيسى، وصاحب جريج، وصبيٌّ كان يرضع فمرَّ راكب فقالت أمُّه: اللَّهُمَّ اجعله مثل هذا، فترك الثدي وقال: اللهمَّ لا تجعلني مثله**» والعدد لا يفيد الحصر، قال بعض:

تكلَّم في المهد النبيء محمد ويحي وعيسى والخليل ومريم
ومبري جريج ثمَّ شاهد يوسف وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مرَّ بالأمة التي يقال لها زنت ولا تتكلَّم
وماشطة في عهد فرعون طفلها وفي زمن الهادي المبارك يختم

وجعل الله الشاهد من أهلها إلزاما للحجَّة، ويجوز أن يكون الشاهد معهما في الدار في موضع آخر منها أو هناك، ولم تشعر به. وفسَّر مجاهد الشاهد بالحكم.

وجملة قوله: ﴿**إِن كَانَ قَمِيصُهُ, قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ, قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ مفعول به لـ«شَهِدَ» محكيَّة به، لأنَّه بمعنى قال، وأمَّا أن يقدَّر: «وشهد شاهد فقال إِن كَانَ...» فلا، لأنَّه يقال فبم شهد؟. وإن كان الفاء تفصيلا عادت الشهادة إلى معنى القول، فمن أوَّل الأمر تفسَّر بالقول. أو شبَّه الحكم بصدقها على فرض قدِّ القبل وبكذبها على فرض قدِّ الدبر بشهادته على يوسف بالصدق لجامع إثبات الصدق، فهو بذلك

١- أورده **الحاكم** في المستدرك كتاب التفسير (٦٦) تفسير سورة التحريم، رقم ٣٨٣٥ (٩٧٢). **والسيوطي** في الدر، ج٤، ص١٥. من حديث ابن عبَّاس.

الفرض كشاهد بصدقه.

(نحو) وحذف «قد» أو المبتدأ، والتقدير: فهي صدقت، أو فقد صدقت أو فهي كذبت، أو فقد كذبت، لأنَّ صَدَق وكَذَبَ يصلحان شرطا فلا يقعان جوابا بالفاء، والمراد ظهر صدقها وظهر كذبها، أو يفسِّر ﴿كَانَ﴾ بـ«تبيَّن»، وبه يصحُّ الاستقبال.

ووجه القدِّ من قُبُل أن يُقبل عليها فتدفعه عنها فينقدُّ قميصه بضربها إيَّاهُ، أو بجبذه جانبا عنها دفعا له عنها، فالقدُّ فعلها، أو تهرب عنه ويتبعها فينقدُّ لعثوره بذيله فالقدُّ فعله، وهروبها سببه، ووجه القدِّ من دبر أن تمسكه بعد ذهابه، ويبعد أن تمسكه من خلفه، فينقدُّ من قدَّامه، وبالعكس. والقائل: «إن كَانَ قَمِيصُهُ» هو الشاهد ولو صبيًّا هناك في المهد أنطقه الله بذلك، أو المعنى: حضر حاضر من أهلها قائلا: «إن كَانَ قَمِيصُهُ».

﴿فَلَمَّا رَءا﴾ زوجها ﴿قَمِيصَهُ, قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ,﴾ أي إنَّ هذا القدَّ أو إنَّ قولك: «مَا جَزَاءُ...»، أو إنَّ السوء اللازم للاحتيال، أو إنَّ الأمر وهو الطمع في يوسف اللازم للاحتيال ﴿مِن كَيْدِكُنَّ﴾ أسند ما للواحدة إليهنَّ لأنَّ النساء في الجملة صواحب حيل ومكر، لتواطئهنَّ على المكر أو رضاهنَّ بما تفعل إحداهنَّ. أو المراد: إنَّ هذا من جملة ما تفعل النساء مثله، والخطاب لها ولهنَّ، أو لهنَّ داخلة هي فيهنَّ، وذلك شامل لها ولجواريها وسائر النساء، وقيل: لها ولجواريها، والصحيح العموم فيدخلن.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ قال بعض العلماء: أخاف من النساء أكثر مِمَّا أخاف من الشيطان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ وقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء: ٧٦) وذلك على إطلاقهنَّ في المكر، ولو كان الرجل أقوى في بعض الأحوال من النساء.

وأيضا كلامهنَّ يؤثِّر في قلب الرجل ويسمعه بأذنه، وكيد الشيطان وسوسة بلا مواجهة، أو عظيم في أمر الجماع، والإنسان مطلقا ضعيف، الرجال والنساء بالنسبة إلى ما هو أقوى منه كالملائكة والجبال، كما قال: ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء: ٢٨) أي بالنسبة. ولعظم كيد النساء اتَّخذهنَّ إبليس أعاذنا الله منه وسائل لإغواء من صعب عليه، وفي الخبر: «ما أيس الشيطان من أحد إلاَّ أتاه من جهة النساء».

وهل الاستدلال بالقدِّ حجَّة؟ وكذا في كون مكرهنَّ أعظم من مكر إبليس على حدِّ ما مرَّ؟ فقيل كذلك، لأنَّ الله تعالى ذكره عن قائله ولم ينكره، وقيل: لا لأنَّه قد يذكر الشيء ولا ينكره مع أنَّه لا يثبته، فقد يكون القدُّ من قدَّامه وهي الجاذبة من خلف، وقد يكون من خلف وهي الجاذبة من قدَّام، لضعفه من قدَّام أو خلف.

﴿**يُوسُفُ**﴾ يا يوسف، ناداه باسمه لطفا وإزالة لخوفه ﴿**أَعْرِضْ عَنْ هَذَا**﴾ الأمر واكتمه ولا تظهره وأنت صادق، و[اعتبره] كأنَّه غير واقع. وحذف حرف النداء لأنَّ المقام مقام خفَّة أو خفاء مع قرب يوسف وتفطُّنه، والنداء من العزيز، وزعم بعض أنَّه من الشاهد، وروي هذا عن ابن عبَّاس.

والاستغفار المذكور: طلب العفو والصفح من العزيز، أو من الله لأنَّهم يقرُّون بالله تعالى، ويعتقدون أنَّ للقبائح عاقبة سوء من الله تعالى إن لم يغفرها، وقد قلن: ﴿حَاشَ لِلهِ﴾، ويؤمنون بالملائكة إذ قلن: ﴿إِن هَذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. ﴿**وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ**﴾ يا زليخاء أو راعيل ﴿**إِنَّكِ كُنتِ**﴾ في طلب الفاحشة من يوسف، أو نسبة طلبها إليه ﴿**مِنَ الْخَاطِئِينَ**﴾ ولم يقل: من الخاطئات تغليبا، وهو أقوى من قوله: إنَّك خاطئة. والخطأ: الذنب.

قال أبو حيَّان إذ طال مقامه في مصر وهو غريب أندلسيٌّ: إنَّ العزيز كان قليل الغيرة وإنَّ تربة مصر تقتضي قلَّة الغيرة، ولهذا لا ينشأ فيها الأسد ولو دخل لا يبقى

[والعهدة عليه]، وَمِمَّا قال في شأن مصر:

أقمنا بمصر نحو عشرين حجَّـة يشاهدنا ذو أمرهـم ونشـاهده
وَلَمَّا ننل منهم مدى الدهر طائلا وَلَمَّا نجد منهم صديقـا نـوادده

ومصر تطلق على مصر القاهرة وعلى أسوان ورشيد وما بينهما.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾

انتشار الخبر بين نسوة المدينة وما انجرَّ عن ذلك

وشهر أمر يوسف وزليخاء بين الرجال والنساء وتحدَّثوا به كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ خمس: امرأة صاحب الملك، وامرأة صاحب دوابِّه، وامرأة خازنه، وامرأة ساقيه، وامرأة صاحب سجنه.

(صرف) وهو اسم جمع، قال الرضي: جمع يقدَّر له مفرد، كَفِتْية وصِبْية

بكسر أوَّلهما وإسكان ثانيهما، وتأنيثه غير حقيقيٍّ، لأنَّ المراد الجنس أو الفريق، فلم يقرن الفعل بالتاء، ويقال: هنَّ زوج الحاجب وزوج الساقي وزوج الخبَّاز وزوج السجَّان وزوج صاحب الدوابِّ، والحاجب هو البوَّاب، وقال الكلبي: إنَّهنَّ أربع بإسقاط امرأة الحاجب.

﴿فِي الْمَدِينَةِ﴾ مصر متعلّق بـ«قَالَ»، أو نعت لـ«نِسْوَةٌ»، وذكر المدينة لأنَّ قول نسائها أشدُّ إغاظة من نساء مدينة أخرى، أو نساء البدو ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ هو بلسان العرب الملك، ولو لم يكن عظيما، فإنّه هنا قطفير وهو وزير الريان ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ عبدها الكنعاني يوسف.

(صرف) وألف «فتى» عن ياء لقولهم فتيان، وقولهم: الفتوة شاذٌّ، والأصل الفُتُية بوزن الفتوة، وقيل: عن واو، وقيل: لغتان أحدهما عن واو والأخرى عن ياء، ويردُّه أنَّه لم يسمع فتوان بالواو، وفي الحديث: «**لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي**»[1] وذلك ندب لا تحريم، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ (سورة النور: ٣٢).

﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ وهو يمتنع منها، والمضارع للتكرير، أي اعتادت مراودته عن نفسه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تمييز عن الفاعل أي شغفها حبُّه، أي وصل شغاف قلبها، أي شقَّه، وهو جلدة تغطّي القلب، ويقال لها: لسان القلب، والأَولى أن يقال: أصاب حبُّها شغاف قلبها، لأنَّه لو شقَّ الشغاف لماتت، فالمراد: فرط الحبِّ، ويقال: دخل وسط قلبها، وذلك من اشتقاق الفعل من اسم الشيء لإصابته، كركبته أصبت ركبته، ورأأته أصبت رِئته، وكبدته

١- رواه **البخاري** في كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق... رقم ٢٤١٤. ورواه **مسلم** في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، رقم ٤١٧٧. من حديث أبي هريرة.

أصبت كبده، ورأسته أصبت رأسه.

أو المراد أنَّ حبَّها دار بقلبها وصار لها حجابا مانعا لها من غيره، فلا يخطر بقلبها سواه، كما دارت الجلدة على القلب، وقيل: الشغاف جلدة رقيقة على القلب غير محيطة به كلّه، وقيل: الشغاف داء يصل القلب من فرط الحبِّ، أي وصلت هذه المرتبة من الحبِّ، وقيل: الشغاف رأس القلب عند معلّق النياط، وقيل: سويداء القلب كما قيل عن الحسن إنّه باطنه، وعن الفارسي إنّه وسطه، وقيل: شغفها قتلها، وقيل: أجنّها.

(لغة) وأوَّل مراتب الحبِّ: الهوى، فالعلاقة وهي الحبُّ اللازم للقلب، فالكلف وهو شدَّة الحبِّ، فالعشق وهو ما فضل عن المقدار المسمَّى بالحبِّ، فالشعف بعين مهملة وهو احتراق القلب مع لذّة يجدها، وكذا اللوعة واللاعج، فالشغف بإعجام وهو أن يبلغ شغاف القلب، فالجوى وهو الهوى الباطن، فالتيم وهو أن يستعبده الحبُّ، فالتبل هو أن يسقمه الحبُّ، فالدَّلّه وهو ذهاب العقل من الحبِّ، فالهيام وهو أن يذهب على وجهه لغلبة الهوى.

﴿**إِنَّا لَنَرٰيهَا**﴾ نعلمها يقينا لا مجازفة ﴿**فِي ضَلاَلٍ**﴾ عن الصواب أو الدين ﴿**مُّبِينٍ**﴾ ظاهر، أو مظهر شأنها إذ تركت ما يتعيَّن على أمثالها من العفاف لرتبتها ورتبة زوجها حتّى دعت هي لنفسها خادمها.

﴿**فَلَمَّا سَمِعَتْ**﴾ سمعت امرأة العزيز ﴿**بِمَكْرِهِنَّ**﴾ بمكر النسوة وهو ذكرهنَّ لها بسوء على وجه الخفاء، وَلَمَّا كان على وجه الخفاء سمِّي مكرا، كما أنَّ الاحتيال في الخداع مكر.

أو ذكرت لهنَّ القصَّة على أن لا يذكرنها لأحد فأفشينها خيانة وإرادة لإغضابها، فيكون مشاكلة إذ ذكر ذلك باسم المكر لوقوعه في صحبة ذكر الحيلة

منها في يوسف والكيد، كقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ا للهِ﴾ (سورة البقرة: ١٣٨) أي دين ا لله، سمَّاه ا لله صبغة لأنه في مقابلة صبغة النصارى لأولادهم في الماء الأصفر.

أو سمَّاه مكرا لأنَّ المراد به التدرُّج إلى رؤية يوسف بإراءتها[1] لهنَّ، وهذا يشبه المكر إذ لا مكر فيه في عادة، وكان قد وُصف لهنَّ بالجمال الكامل. ﴿أَرْسَلَتِ اِلَيْهِنَّ﴾ من يدعوهنَّ أن يجئن إليها، ويقال: أرسلت إلى أربعين امرأة منهنَّ الخمس أو الأربع المذكورات، ولا يتمُّ هذا لأنَّ الضمير إلى النسوة وهنَّ دون الأربعين، إلاَّ أن يكون استخدام بأن ردَّ الضمير إلى النسوة المذكورة لا على معناهنَّ، بل على معنى الجنس[2].

ولعدد الأربعين استظهار على الأعداء اللائمين قال ا لله ﷻ : ﴿يآ أَيُّهَا النَّبِيءُ حَسْبُكَ ا للهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ (سورة الأنفال: ٦٤) وهم يومئذ أربعون بعمر ﷺ تمَّ به العدد. أو كان إرسالها إليهنَّ على صورة الضيافة ومرادها إقامة عذرها، ولا دليل على غير الخمس أو الأربع فهنَّ المراد فقط.

﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ أحضرت، أصوله العين والتاء والدال، والهمزة زائدة كهمزة "أكرم" ﴿لَهُنَّ مُتَّكَئاً﴾ موضع اتّكاء، وهو فراش واحد يفي بهنَّ، أو المراد أعتدت لكلِّ واحدة متّكأ، والاتّكاء: القعود على اطمئنان، ولا يشرط فيه الميل جانبا ولو شُهر الميل جانبا.

١- لَعَلَّ صواب العبارة: بإراءته. يتأمل.

٢- وردت زيادة في نسخة (أ) سنوردها مراعاة لأمانة النقل: «ولا مانع من أن يراد بـ«نِسْوَةٌ» الأربعون لا خمس أو أربع، وهنَّ من أشراف المدينة بأن تكون الأربعون عيَّرنها، أو أصل العيرة من الخمس وفشا منهنَّ في البواقي من الأربعين، والخمس سبب لدعوى من سواهنَّ، واختارت الكثرة لتلين عريكته وليجيب ما يرمنه ولإسكات الخمس ولإشاعة عذرها».

وعن ابن عَبَّاس: المتَّكأ مجلس الطعام لأنَّهم يتَّكئون له كما هو عادة المترفين، وجاء النهي في الحديث عن الأكل مع اتِّكاء[1]. وقيل: المتَّكأ الطعام، قال العتبي: يقال اتَّكأنا عند فلان أي أكلنا، ومنه بيت الإيضاح[2] لجميل:

فضللنا بنعمة واتَّكأنا وشربنا الحلال من قُلَلِه[3]

أي وأكلنا وشربنا.

﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ بلا طعام أو لحم أو فاكهة يقطع بها، وهي الموسى الصغيرة ﴿وَقَالَتُ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وقد زيَّنته أكمل زينة، وقالت: أطعني اليوم فيما آمرك به، واعصني أبدا، فتركها لمرادها من التزيُّن والخروج عليهنَّ، فخرج عليهنَّ وبهتن فيه، وشغلن عن أنفسهنَّ فتقع السكين على يد كلٍّ واحدة تقطع بها ولا تشعر، وكان السكاكين في غاية من الحدَّة، وكان هو في جمال لا تصبر النساء عنه، فأبكتتهن به فيندمن من العيرة[4] واللوم فيعذرنها، وذلك قصدها، وقد تريد مع ذلك أن يسلِّم عليهنَّ أو يخدمهنَّ.

وقد ألبسته يومئذ ثيابا بيضاء، والجميل أحسن ما يكون في البياض، وقد أباح الله تعالى أن يخلو بهنَّ، وأن يرضى بتزيينها إيَّاهُ، ولعلَّ التزيين لم يكن إذ لم يذكره الله تعالى، فهنَّ يكبرنه بلا تزيين، فإنَّ فضله في الجمال كفضل القمر ليلة البدر على الكواكب كما رآه ﷺ ليلة الإسراء.

١- لقوله ﷺ: «أمَّا أنا فلا آكل متَّكئا». رواه **الترمذي** في كتاب الأطعمة (٨) باب ما جاء في كراهيَّة الأكل متَّكئا، رقم ١٨٣٠. **وأبو داود** في كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الأكل متَّكئا، رقم ٣٧٦٩.

٢- للشيخ عامر بن علي الشَّمَّاخِي: الإيضاح، ج١، ص٩٦.

٣- راجع ابن منظور، لسان العرب: ج١١ ص٢٨٨، مادة قلل.

٤- في الطبعة العمانية: فبكتتهن عَلَى تفنيدهنَّ من الغيرة.

(بلاغة) ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ**﴾ وفي الآية حذف، أي أرسلت إليهنَّ فجئن وجلسن، وقالت: اخرج عليهنَّ فخرج فرأينه، ولَمَّا رَأَيْنَهُ... والحذف للدلالة على مسارعته بها فيما يحلُّ، وذلك كلُّه أحلَّه الله له، وتسمَّى هذه الفاء أو الواو فاء الفصاحة، أو واو الفصاحة لإفصاحها عن المحذوف، كقوله تعالى ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٠). ﴿**أَكْبَرْنَهُ**﴾ عظَّمنه لجماله الفائق.

(لغة) وزعم بعض أنَّ المعنى: حضن له. وحذف اللام أي أكبرن لأجله، والهاء للإكبار أي أكبرن الإكبار كقمت القيام، والإكبار: الحيض بمعنى الدخول في الكبر، وذلك أنَّ الحيض يجيء بعد الصغر، كأمسى دخل في المساء، وأعرق دخل العراق، والمراد أنَّهنَّ يسلن دما من شدَّة اشتهائه، كقول أبي الطَّيِّب:

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت حاضت في الخدور العواتق

وأبو الطيب لا يحتجُّ بشعره كما لا يحتجُّ بأبي نواس ولو قاربا من يحتجُّ به، وأما قول القائل:

يأتي النساء على أطهارهنَّ ولا يأتي النساء إذا أكبرن إكبارا

فأظنُّه مصنوعا ولا يصحُّ عن ابن عَبَّاس ذلك.

﴿**وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ قطَّعت كلُّ واحدة منهنَّ يدها قطعا عظيما أو كثيرا أو كثر القطع بكثرة القاطعات، ولا يصحُّ ما قيل بظاهر الآية: إنَّه فصلن أيديهنَّ بالقطع، فإنَّه يقال قطعت اللحمَّ فقطَّعت يدي، وما قطع إلاَّ بعضها مع أنَّ المراد الجرح، والتشديد للمبالغة، كَيفِيَّةً أو كَمِّيَّةً، وهذا مرادها، **وقيل: القطع اتِّفاقًا لا قصدا إلاَّ أنَّها لَمَّا حضرن أطعمتهنَّ**، وزعم بعض أنَّها خوَّفته نساء في أيديهنَّ خناجر لعلَّه يطيعها، و يعلم أنَّ لها شوكة.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا هَذَا بَشَرًا اِنْ هَذَآ اِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قال ﷺ : «**رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر**»[1]، ورواه ابن جرير والحاكم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري، ولا بُعد في أن يكون التشبيه مقلوبا أي يشبهه البدر، وكان يرى لوجهه لمعان في الجدار.

وقيل: المتّكأ طعام يجزُّ بالسكّين، قيل: هو الأترج على الحذف والإيصال، بمعنى أنّه يتّكئ عليه، أو الآكل بالسكّين فهو اسم مفعول، فيكون رمن أن يقطعن الطعام فيقطعن أيديهنَّ، لأنَّ في يدٍ موسى وفي أخرى ذلك الطعام، وذلك لفرط دهشتهنَّ، وقيل: أترجا وموزا أو بطّيخا، وقيل: الرقاق الملفوف باللحم وغيره، وقيل: اللحم، وكانوا يأكلونه جزًّا بالسكاكين، وعنه ﷺ : «**أدن العظم من فيك فإنّه أذهب للقرم**»[2].

وفي الآية إنّهنَّ آمنَّ بالملائكة واعتقدن جمال الملائكة، وأنَّ هذا الجمال لا يكون في البشر، وإنّما أردن التشبيه لا الحقيقة، لأنّهنَّ عرفنه بشرا، والملك لا يكون لحما وشعرا، أو خطأن في صفة الملك، والأوّل أولى، فقد آمنَّ با لله لقولهنَّ: ﴿حَاشَ لِلهِ﴾ وحاش حرف تنزيه.

واللام بعدها للبيان كسقيا لك، أو فعل ماض واللام صلة، وأيضا وصفن الملائكة بالجمال مع العصمة، وذلك كرم عند ا لله، والاستثناء للعظمة إذ لم يذكر هنا سوء، وقال الفارسيُّ هو فعل، وإنَّ المعنى حاش يوسف المعصية، أي جانبها

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ تماما فيما عندنا من المراجع، وأورد ما يقاربه **الهندي** في الكنز: ج١١، رقم ٣٢٤٠٩: «...فإذا أنا برجل راعني حسنه، شاب فضل على الناس بالحسن».

٢- رواه **أبو داود** في كتاب الأطعمة، باب في أكل اللحم، رقم ٣٧٧٩ مع تغيير في آخره. **والهندي** في الكنز، ج١٥، رقم ٤٠٧٣٠.

لأجل الله، وهو تفسير ضعيف، لأنَّه خالف ما شهر من معنى حاشى، لأنَّها للاستثناء، أو للتعجُّب.

وكأنَّه قيل: فماذا ؟ فقيل: ﴿قَالَتْ﴾ أي امرأة العزيز ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ الإشارة إلى يوسف، وقيل: إلى الحبِّ، وإشارة البعد مع قرب يوسف للتعظيم، وقيل: لأنَّه وقت اللوم غير حاضر، وعند هذا الكلام حاضر فالإشارة باعتبار زمان اللوم على أصلها، وباعتبار هذا الكلام للتعظيم، أو لبعده عنهنَّ عند هذا الكلام لِئَلاَّ يزدن قطعا ودهشا.

﴿الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ إن تعجَّبتنَّ من مراودتيه فاعذرنني فيه.

وقال مجاهد: ما أحسسن إلاَّ بالدم، وعن قتادة: فصلن أيديهنَّ حتَّى كانت كلُّ واحدة بلا شمال، والأصحُّ أنَّه قطع بلا فصل، وعن وهب: مات منهنَّ جماعة. وروي أنَّهنَّ قلن له: «أطع مولاتك»، وذلك أنَّ جماله فاق جمال البشر فإن كان أحد فوقه في الجمال أو مساويا له فما هو إلاَّ ملك، والجمع بين هذا الجمال الفائق والكفِّ عن المعاصي غاية الكفِّ من خواصِّ الملائكة.

(قصص) ويقال: زيَّنت المحلَّ بالفرش وألوان الأطعمة وزيَّنت يوسف أحسن زينة، ولم يمل إليهنَّ ولا إلى دعواهنَّ له، ولا إلى ألوان الطعام، وروي أنَّه ورث الجمال من جدَّته سارة، ويقال: إنَّه ورث حسن آدم يوم خلقه الله عَجَلَ وقبل أن يخرج من الجنَّة، وقيل: قبل أن يصيب المعصية كما مرَّ، وهو أولى، ويقال: إنَّه أكبرنه لأنَّهنَّ رأين عليه نور النبوءة وسيما الرسالة وآثار الخضوع والهيبة، ولم يعتذر لهنَّ ولم يمل لنكاح أو طعام وكأنَّه ملك.

(نحو) وإشارة البعد لعلوِّ المرتبة لا المسافة، لأنَّه قريب منهنَّ. و«ذَا» مبتدأ، و«الذِي» خبر، أو «ذَا» خبر لمحذوف، و«الذِي» نعته، أي هذا الذي رأيتنَّ

هو ذلك العبد الكنعانيُّ الذي لمتنَّني فيه هو هذا، أو مبتدأ محذوف الخبر أي ذلكنَّ الذي لمتنَّني فيه هو هذا، فعلتنَّ ما فعلتنَّ من الدهش والتقطيع في ساعة به، فكيف بي وأنا معه كلَّ وقت! والمراد: لمتنني في حبِّه ومراودتيه.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَاسْتَعْصَمَ﴾ بالغ في الامتناع مثل اعتصم، لَمَّا شاهدنه وفعلن أكثر مِمَّا فعلت، وعرفت أنهنَّ يعذرنها أقرَّت ليعنَّها على مطاوعته لها ويعذرنها ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي ما آمره به من الوقاع.

(نحو) والمقام للتعريف، فـ«مَا» اسم موصول لا نكرة موصوفة، فحذف العائد و لم يجرَّ الموصول بمثل ما جرَّ به ويتَّحد المتعلَّق، وقد قيل: إذا دلَّ عليه دليل جاز حذفه مطلقا، ومَن شرط اتِّحاد الجارِّ والمتعلَّق قدَّر النصب على نزع الجارِّ، فيكون مدخوله منصوبا على المفعوليَّة، مع أنَّ النصب على نزع الجارِّ ينبغي أن لا يفسَّر به القرآن؛ أو «مَا» مَصدَرِيَّة، أي ولئن لم يفعل أمري أي موجب أمري أو مضمون أمري. أو هاء «ءَامُرُهُ» لـ«مَا»، أي ما أوجبه فهو الرابط، ضمِّن «آمُرُ» معنى أوجب فعدِّي بنفسه، أو يقدَّر لفظ «عليه» أي ما أوجبه عليه.

﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلِّين، والفعل صغِر بالكسر، ونون التوكيد الخفيفة تكتب ألفا لأنَّه يوقف عليها بإبدالها ألفا عند الكوفيِّين، والبصريُّون يكتبونها نونا ويقفون بالألف، كذلك قيل.

(بلاغة) أكَّد السجن بالنون المشدَّدة لتحقُّقه، والكون من الصاغرين بالخفيفة لعدم تحقُّقه عندها، ويبحث بأنَّ كلامها ليس عربيًّا، ويجاب بأنَّ الله ﷻ ذكر كلامها بحسب التشديد وما يليه في لغتها، وكذا تقول في سائر ما ذكر الله ﷻ عن العجم، وقيل: لأنَّ الكون من الصاغرين تبع للسجن فاكتفي عن التشديد فيه.

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يارب ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ من الزنى، كلُّ واحدة دعته إلى الزنى وللزيارة تصريحا، أو تحويلا، أو رسالة على لسان، أو كتابة، وحالهنَّ قريب من هذا وهو ظاهر الآية. ويجوز أن يكون الدعاء مسندا إليهنَّ لأنَّهنَّ أمرنه بفعل ما تريد امرأة العزيز، إذ قلن: أطع مولاتك وخوَّفنه من مخالفتها، والآمر كالفاعل. والواو لام الكلمة، والفاعل هو النون الأولى.

قال بعض لو لم يقل: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ لم يبتل بالسجن، قال ﷺ: «**سلوا ا لله العافية ولا تسئلوه البلاء فتعجزوا، وإذا ابتليتم فاصبروا**» وردَّ ﷺ على من يسأل الصبر مستشعرا بالمصائب، سمع ﷺ رجلا يقول: «اللهمَّ إنِّي أسألك الصبر» فقال: «**سألت ا لله البلاء، فاسأل ا لله تعالى العافية**»[1] رواه الترمذي عن معاذ. وفي الأثر: لَمَّا قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ...﴾ أوحى ا لله تعالى إليه ـــ لا وحي نبيء لأنَّه لَمَّا يكن نبيئا ـ : يا يوسف أنت جنيت على نفسك، هلاَّ قلت: العافية أحبُّ إِليَّ فتعافى؟. وفي الأثر في عبارات قومنا ما روي عن التابعين ومن يليهم أو عن الصحابة بلا رفع إليه ﷺ وفي كتب أصحابنا ما في [تلك] الكتب لهم أو لقومنا.

والمعنى: ملاقاة السجن أو صاحبه للإدخال فيه، أو مقاساة أمر السجن أحبُّ إليَّ مِمَّا يدعونني إليه من الخلوة والزنى، لأنَّ فيه غضب ا لله ، ولا شيء في قلبه من حبِّ السجن ولا من حبِّ الزنى فضلا عن أن يكون أحدهما أحبَّ من الآخر، والجواب أنَّ المراد بالحبِّ الإيثار بلا تفضيل ولا ثبوت لأصل الإيثار في

١- رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات، رقم ٣٤٥٠. ورواه **التبريزي** في كتاب الدعوات الباب السابع الفصل الثاني، رقم ٢٤٣٢ (١٧). وأوَّل الحديث عندهما: سمع النبيء رجلا يدعو ويقول: اللهمَّ إنِّي أسألك تمام النعمة. فقال: «أي شيء تمام النعمة؟» قال: دعوة أرجو بها خيرا. فقال «إنَّ من تمام النعمة دخول الجَنَّة...».

جانب الزنى، فالمعنى اقتصر على السجن دونه، و لم يقل ربِّ السجن والكون من الصاغرين أحبُّ...الخ، لأنَّ الصغار تابع للسجن، ولوفاء السجن بالغرض وهو قطع طمعها عن أن يطاوعها. وفي «أَحَبُّ» بناء اسم التفضيل من المبنيِّ للمفعول.

﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي**﴾ بالتثبيت على ترك المعصية ﴿**كَيْدَهُنَّ**﴾ سعيهنَّ في هلاكي بأمرهنَّ إيَّاي على موافقتها ﴿**أَصْبُ**﴾ أمِلْ ﴿**إِلَيْهِنَّ**﴾ إلى وقاعهنَّ أو إلى جانبهنَّ، أو إلى مطاوعتهنَّ، أو إلى أنفسهنَّ لذلك بالطبع البشري ﴿**وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ أي من السفهاء **والذنب سفه**، أو من الذين لا يعلمون الحلال والحرام لأنَّ **من علم ولم يعمل مثل الجاهل** في عدم العمل.

التجأ إلى ا لله ﷻ على عادة الأنبياء والأولياء في الاعتراف بالعجز عن الحول وَالقُوَّة إن لم يعنهم ا لله، والعبد لا ينصرف عن المعصية إلاَّ إن صرفه ا لله تعالى عنها، ومراد يوسف الدعاء بأن يجعله غالبا لهواه.

﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ**﴾ دعاءه، والدعاء في قوله: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي...﴾ لأنَّه إخبار لفظا إنشاء تضرُّعا ودعاء معنى، وقد علم ا لله صدقه إذ قال: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أي من الزنى، وذلك أنَّ النكاح محبوب بالطبع ولكن السجن أحبُّ إليه، لأنَّ فيه نجاة من غضب ا لله وفوزا بالجنَّة والثواب، أو «أَحَبُّ» بمعنى محبوب بلا تفضيل، أو «مِنْ» بمعنى "عن"، و«أَحَبُّ» خارج عن التفضيل.

﴿**فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ**﴾ بالتثبيت على ترك العصيان المحبوب بالطبع ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**﴾ العليم بالأصوات والدعاء ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ بالأفعال والنيات وذات الصدور والأحوال.

ومكثت زمانا بعد ذلك تراوده طمعا لأمر النساء له بمطاوعتها، وَلَمَّا[١] أيست منه مع انتشار [خبر] مراودتها له طلبت من زوجها إمَّا أن تخرج للناس فتعتذر إليهنَّ ببراءتها

مِمَّا شهر، وتعاقب من يذكر ذلك، وإمَّا أن يسجنه تقوية في أنَّه هو الذي راودها، فظهر أن يسجنه كما قال ﷻ : ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ فاعل «بَدَا» ضمير «السجن» المدلول عليه بقوله: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ أي بدا لهم سَجنه بفتح السين، كقولك: قال تعالى، أي قال ا لله بدليل "تعالى"، وكقولك: قال ﷺ أي قال النبيء ﷺ بدليل "ﷺ"، أو ضمير عائد إلى البداء، وهو ضعيف، أو إلى الرأي لتبادره في المقام.

وهاء «لَهُمْ» للعزيز وزوجه وأهلهما، و«ثُمَّ» لتراخي الزمان بعد تقطيع النسوة، وقبل بدوِّ السَّجن، لأنَّ زوجها قد رأى صدقه وكذبها فتراخى، واحتالت له حتَّى طاوعها، وزمامه في يدها، ظلما له عمدا، وإعراضا عمَّا رأى من الآيات.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الاَيَاتِ﴾ دلائل صدقه وكذبها، كقدِّ القميص من دبر، وشهادة الصبيِّ في المهد بأنَّه بريء، وإعراضه عن النسوة وقد أظهرن أنَّهنَّ دعونه إلى أنفسهنَّ فأعرض عنهنَّ، وكقطع النساء أيديهنَّ فإنَّ فتنتهنَّ به في وقت واحد يَدُلُّ على أنَّها فتنت تحقيقا لكثرة أوقاتها معه، فتكون قد بهتته كأثرها في جسده عند ابن عَبَّاس، وكحاله معه في الصدق في جميع أحواله، ومشاهدة عبادته لله ﷻ . ويجوز أن تكون آيات عند ا لله ﷻ لم يذكرها، ومثل ذلك واقع في القرآن.

﴿لَيَسْجُنُنَّهُ﴾ أي قائلين وا لله ليسجننَّه ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مدَّة مَّا طويلة أو قصيرة بحسب ما يظهر للناس أنَّه أجرم، أو يقرُّ لهم بأنَّه الذي راودها، وذلك مراد لها وللعزيز، وزادت ـ قيل ـ الطمعَ في أن ينقاد لها خوفا من السجن لحضوره ولو اختاره قبلُ، وطمعا في موافقة أمر النساء له بالمطاوعة، ويبحث ببعد ردِّه عن السجن بعد أمر العزيز به، ويجاب بإمكان أن يطاوعها في ردِّه عن السجن إن أحبَّت ردَّه.

والحين في اللغة زمان قصير أو طويل، ولا تعيين في الآية، وكان بعض يحمله على ستَّة أشهر، لقوله تعالى: ﴿تُوتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ (سورة إبراهيم: ٢٥) ولا يلزم

ذلك، لأنَّ الآية جاءت على بعض ما يطلق عليه الحين، وقيل: خمس سنين، وقيل: سبع، وقال مقاتل: اثنا عشر.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآءِيٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يوسف في السجن ودعوته إلى الدين الحقّ

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ أي فسجنوه فدخل معه السجن فتيان شرابي الملك الأكبر ريان، وخبّازه، قيل: رشاهما قوم من أهل مصر على أن يسُمّاه فألقى الخبّاز السمَّ في الطعام وقبل الرشوة، وندم الساقي ولم يقبلها ولم يلق السمَّ في الشراب، وأخبر الملك أو اتهمهما فأحضر الخبّاز الطعام فقال له الساقي: لا تأكله أيُّها الملك إنّه مسموم، وأحضر الساقي الشراب فقال الخبّاز: لا تشرب إنّه مسموم، فقال له الملك اشرب فشرب، وقال للخبّاز: كل من الطعام فأبى،

فأطعمت منه دَابَّة فماتت فحبسهما الملك حين حبس العزيز يوسف، والفتى: الغلام الطارُّ الشارب، والكهل ضدُّه، قيل: أو من حين يولد إلى أن يشيب.

أركب يوسف على حمار وضرب عليه الطبل في أسواق مصر: إنَّ يوسف العبراني راود سيِّدته فهذا جزاؤه، وكلَّما ذكر ابن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا بكى. و«مَعَ» للمقارنة في زمان الفعل، فوقت دخول الثلاثة السجن واحد، وهذا أصل معنى «مَعَ» حقيقةً حتَّى يقوم الدليل على الانفصال، مثل: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ (سورة النمل: ٤٤)، ﴿وَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ (سورة الصافَّات: ١٠٢)، ويجوز إبقاؤهما على الأصل لأنَّ الإسلام والسعي يتجدَّدان فيعلَّق معه بالسعي.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيَ أَرَىٰنِيَ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ وهو الساقي. والخمر: العنب، أشدُّ عليه فيخرج ماؤه، أو إخراج الخمر أي العصير والخمر: العنب أو ماؤه، وفسَّره أُبي وابن مسعود بالعنب سمَّاه خمرا لأنَّه يصير خمرا، يسمَّى الشيء باسم ما يؤول إليه إذا تعيَّن أن يؤول إليه، أو ترجَّح أو كثر أوْلُه إليه أو اعتيد.

وقيل: العنب من أوَّل الأمر خمر بلغة أزد عمان وغسَّان، قال المعتمر: قلت لأعرابيٍّ حمل عنبا: ما تحمل؟ قال: خمرا، ويحتمل أنَّه رأى أنَّه يخرج نفس الخمر من العنب لا مجرَّد مائه، فهو حقيقة لا مجاز، كما هو حقيقة في لغة أزد عمان وغسَّان في نفس العنب.

وقرأ أُبي وعبد الله: «أَعْصِرُ عِنَبًا»، وذكر البخاري عن عبد الله أنَّه قال: والله لقد أخذتها من رسول الله ﷺ هكذا، قلت: لعلَّه ﷺ قرأ بذلك تفسيرا، وهذا تأويل قريب جدًّا لشهرة ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ عنه ﷺ باتِّفَاق. قال: رأيت في النوم أنِّي في بستان فيه شجرة عنب عليها ثلاثة عناقيد وفي يدي كأس الملك عصرتها فيه، وسقيته وشرب، فسمَّى العصير خمرا، ولو كان لا يؤول إلى الخمر

لأنّه عصير نوم لا حقيق، ولا يشترط في مجاز الأوْل أن يتحقّق أن يؤول بل يكفي الإمكان مع ما مرَّ من ترجيح وغيره، [قلت:] بل ولو تيقّن أنّه لا يؤول لكن من عادته مثلا أن يؤول يجوز التسمية باسم المآل فلا تهم.

﴿وَقَالَ الاَخَرُ﴾ صاحب الطعام واسمه مجلث، وقيل: الساقي راشان والخبّاز مرطش، وقيل: الساقي سبرهم والخبّاز شرهم ﴿إِنِّيَ أَرَانِيَ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا﴾ في ثلاث سلل بعض فوق بعض مع ألوان الطعام فيهنَّ ﴿تَاكُلُ الطَّيْرُ﴾ سباع الطير ﴿مِنْهُ﴾ من الخبز الذي في السلّة العليا.

(نحو) وفاعل «أَرَى» والياء في الموضعين لواحد، وجاز ذلك مع اتّصال الضمير لجواز ذلك في باب ظنَّ وعلم ورأى الحُلمية، وفقد وعدم، ولا يجوز ذلك في غيرهنَّ مطلقا، [قلت:] وعندي يجوز في غيرهنَّ إن جرَّ الثاني بحرف جرٍّ، وأنَّه لا حاجة إلى تقدير مضاف، وأنَّه مقيس لكثرته، نحو: ﴿وَاضْمُمِ اِلَيْكَ﴾ (سورة القصص: ٣٢) و﴿تُئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ (سورة الأحزاب: ٥١)[1] و﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٠) و﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ﴾ (سورة الأحزاب: ٥٩) و﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٧) و﴿هُزِّي إِلَيْكِ﴾ (سورة مريم: ٢٥).

﴿نَبِّئْنَا﴾ أخبرنا ﴿بِتَاوِيلِهِ﴾ تأويل ما ذكر وهو ما ذكراه جميعا، أو قال الأوَّل أيضا نبِّئنا بتأويله فحذف ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في تفسير الرؤيا، فأحسن إلينا بتأويل ما رأينا، وكان يعبِّر لأهل السجن مرائيهم بوجه صادق وفي تسلية المحزونين في السجن وفي قوله: «اصبروا يثيبكم الله ﷻ»، وفي عيادة مرضاهم، والتصدُّق بما وجد عليه، والتوسيع لمن ضاق موضعه، وصوم اليوم وقيام الليل، ويجمع للمحتاج ما يحتاج إليه.

١- نسخة (ب) اقتصرت على هذه الآية.

قيل: رأيا ذلك في النوم تحقيقا، وقيل: كذبا و لم يريا شيئا في النوم فهما تحلّما وما حلما، ولبثا في السجن ثلاثة أيّام عدد العناقيد والسلل.

﴿قَالَ لاَ يَاتِيكُمَا طَعَامٌ﴾ وقوله: ﴿تُرْزَقَانِهِ﴾ نعت «طَعَامٌ»، وذلك طعام اليقظة أو النوم، وتفسير ابن مسعود الطعام بالثريد تمثيل لأنّه يأتيهما ثريد وغيره، إلاّ إن أراد أنّه لا يأتيكما طعام في تلك الرؤيا كائنا ما كان، ولو كان في نفس الأمر الثريد ﴿إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا﴾ أخبرتكما ﴿بِتَاوِيلِهِ﴾ بردّه إلى ما آل إليه في نفس الأمر، من قلّة أو كثرة وجودة ورداءة، وكونه تمرا أو خبزا مثلا، وبطئ وعجل ونحو ذلك، وذلك استعارة من التأويل الذي هو تفسير المشكل، والجامع إيضاح المبهم.

﴿قَبْلَ أَنْ يَّاتِيَكُمَا﴾ أي قبل أن يأتيكما الطعام، أو قبل أن يأتيكما تأويله، كما هو شأن الأنبياء والصالحين والراغبين في الدعاء إلى الدين يقدّمون في كلامهم تمهيدا لِمَا يريدون من الإرشاد إليه، كإخبار الأنبياء بالغيب ليتوصّلوا به إلى تصديق الناس.

فيوسف عليه السلام أراد أن يرشدهما إلى التوحيد والإيمان، من يموت منهما ومن يحيى، فقال: إنّي أعرف بإذن الله وإعلامه ما يغيب فيستوثقان بتفسيره، وبدعائه إلى الدين، وصف نفسه بذلك وبكونه ذرّيّة أنبياء ليصل إلى أمر دينيٍّ، لا رئاءً، كما وصف نفسه بأنّه حفيظ عليم لذلك، وليصل إلى نفع الخلق، [قلت:] وجائز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من أمر حسن لذلك، كما يصف الطبيب نفسه في الطبِّ ليرغب فيه.

وروي أنّهما قالا: من أين لك هذا العلم ولست منجّما أو كاهنا؟ وقيل: قالا: إنّك كاهن أو منجّم، وعلى كلٍّ أجابهما بقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ ما ذكر من التنبئة بما يأتيكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيَ﴾ بالوحي، أو الإلهام، لا بكهانة أو تنجيم، وهذا كما

قال عيسى عليه السلام : ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (سورة آل عمران: ٤٩). ذكر تعليم الله له تعريضا لهما بأن يؤمنا بالله عز وجل، وقوّى هذا التعريض بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ «هُمْ» تأكيد للأوّل ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَائِي﴾ المؤمنين بالله تعالى واليوم الآخر ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ...﴾ هو علّة للتعليم، أي مِمَّا علّمنيه ربِّي بوحي أو إلهام، وقد قيل: إنَّه نبيء من صغره حين يعقل.

والمراد: لأنّي تركت ملّة من لا يؤمن بالله والبعث، واتّبعت شرع آبائي الأنبياء المرسلين في سائر أمر الدين، وقيل: علّة لمحذوف، أي علّمنيه لأنّي تركت، وذكره ذلك أوّلاً قبل التفسير من شدّة رغبته في التوحيد وتوابعه، حتّى إنَّهُ يريد أن يموت الخبّاز موحّدا.

لَمَّا دخل السجن وجد قوما اشتدَّ بلاؤهم وانقطع رجاؤهم فجعل يسلّيهم، ويقول: اصبروا وأبشروا، فيقولون: بارك الله فيك يا فتى ما أحسن وجهك وخلقك وحديثك! لقد بورك لنا في جوارك، فمن أنت؟ قال: أنا يوسف بن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحاق ابن خليل الله إبراهيم، فقال له صاحب السجن: يا فتى والله لو استطعت لخلّيت سبيلك، ولكن سأرفق بك وأحسن جوارك، واختر أيَّ بيوت السجن أحببت.

(قصص) ويروى أنه لَمَّا رآه الفتيان قالا: إنَّا أحببناك منذ رأيناك، فقال: أنشدكما بالله لا تحبَّاني فوالله ما أحبَّني أحد إلاَّ دخل عليَّ من حبّه بلاء، لقد أحبَّتني عمَّتي فدخل عليَّ بلاء، وأحبَّني أبي فأُلقِيت في الجبِّ، وأحبَّتني امرأة العزيز فحبست، وَلَمَّا ألقيا عليه الرؤيا أخّر تأويلها لأنَّ فيها قتل أحدهما وصلبه، وألهاه عنها بما هو أهمُّ وهو الإيمان، ويأتي أنَّ عمَّته أسرقته

شيئا من مالها لتملكه في شرعهم.

[قلت:] وكون إسحاق هو الذبيح ليس بالصحيح ونسبته ليوسف لا تصحُّ.

وكان آباؤه المذكورون مشهورين بالرسالة والخير والكرامة، ولذلك ذكرهم، وقد قيل: إِنَّهُ نبِّئ في السجن، ومعنى ﴿تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ إنِّي أعرضت عنها، ولم أدخلها قطُّ، والمراد بالقوم المشركون مطلقا، أو أهل مصر، ولا عبرة بإيمان مع عبادة الصنم.

﴿**مَا كَانَ لَنَآ**﴾ معشر أهل هذا البيت أو معشر الأنبياء على أنَّه نبِّئ في حينه، أو على التغليب أي لا يصدر منَّا الإشراك لوفور عناية الله ﷻ بنا، ولو كان يصدر من السعداء غيرنا ويتوبون، أو ما كان لنا معشر المكلَّفين، لكن فيه تفكيك الضمائر لأنَّ الضمير في «عَلَيْنَا» بعد لأهل البيت، أو للأنبياء، وقد يجاب بأن «الناس» بعد ذلك المؤمنون، وذلك بعيد ﴿**أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن**﴾ صلة للتأكيد في النفي والعموم، داخلة على المفعول به وهو قوله: ﴿**شَيْءٍ**﴾ صنم أو ملك أو جنِّي، أو شيء بمعنى إشراك مفعول مطلق، والمفعول به محذوف أي غير الله من جنٍّ أو إنس أو ملك أو صنم، **والمراد** أنَّا معشر الأنبياء لا يصدر مِنَّا إشراك كما يصدر من غيرنا، وليس المراد مطلق التحريم فإنَّه محرَّم على كلِّ أحد.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ التوحيد كما هو ظاهر، أو العلم بتأويل الرؤيا وغيرها، فإنَّه منفعة لهم وللناس، ويبعد ما قيل: إنَّ الإشارة إلى ما قصد من النبوءة ﴿**مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا**﴾ من جملة إنعامه علينا ﴿**وَعَلَى النَّاسِ**﴾ المشركين بأن يوحِّدوا الله ﷻ بسببنا، لأنَّ إنعامه علينا به إنعام على الناس بإرشادنا إيَّاهُم إليه، فيفوزون بالتوحيد وثمراته، وينجون من النار، أو التوحيد حصل لنا ولغيرنا، ومن أراد حصله بتفضُّل الله علينا بنصب الدلائل، ويجوز أن يراد بالناس الموحِّدون.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ وهم المشركون لا يوحِّدون، فإنَّ التوحيد نفسه شكر وداع إلى سائر الشكر وموجب له، أو لا يشكرون الإنعام عليهم ببعث الأنبياء المرشدين لهم إلى مصالحهم دنيا وأخرى، أو أعرضوا عن الدلائل فلا يشكرون بل يكفرون، أو هم يلغون الدلائل فلا يعدُّونها نعمة لهم تشكر.

وقال بعض: إنَّ معنى ذلك التوحيد من فضل الله تعالى علينا حيث أعطانا عقولا فاستعملناها في الدلائل، وأكثر الناس لا يشكرون لا يستعملونها في الدلائل، ومقتضى الظاهر: «وَلَكِنَّ أكثرهم» وأظهر لزيادة البيان، قيل: ولئلاَّ يتوهَّم رجوع الهاء إلى مجموع الناس وإلى ما عاد عليه ضمير «عَلَيْنَا».

وعلينا أن نشكر الله على توفيقه إيَّانا إلى الإيمان بقصدنا، وعلى خلقه الإيمان منَّا وأفعالنا خلق من الله، وذلك معنى الآية، والله شكر إيماننا بحسب قصدنا وكسبنا، ﴿فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (سورة الإسراء: ١٩).

عرَّض لهما بالإيمان في قوله: ﴿لاَ يَاتِيكُمَا...﴾ ثمَّ قوَّاه بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ...يَشْكُرُونَ﴾ ثمَّ دعاهم إلى الإيمان بقوله:

﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَارْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ امِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجَّة **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** وإضافة صاحبي بمعنى في، أي يا من صحب كلٌّ منهما الآخر في السجن، أو يا من صحباني في السجن، أو إضافة للمفعول أي يا من صحبا السجن والتزماه، أو إضافة لشبه المفعول أي يا ساكني السجن، كأصحاب الجنَّة وأصحاب النار، واختار نداءهما بذلك حثًّا على الإقرار بالحقِّ إذ كانا في شدَّة لا ينبغي أن يزاغ عن الحقِّ معها.

[قلت:] وتفرُّق الأرباب كون أحدهما من فضَّة وبعض من ذهب وبعض من حجر وبعض من خشب، وبعض إنسانا وبعض جنًّا، وبعض ملكا وبعض بقرا، وغير ذلك وهذا أولى من تفسير التفرُّق بالتعدُّد، **والإله الحقُّ لا تعدُّد له** فضلا عن التفرُّق، لا أجزاء له ولا إله معه، وهو القهَّار لكلِّ ما يشاء، وغيره مقهور بالانتقام والآفات والموت، وما تحصَّلتم إلاَّ على أسماء معانيها غير موجودة، تقولون لشيء إنَّه ربٌّ وليس له معنى الرُّبُوبيَّة، وإله وليس له معنى الأُلُوهِيَّة، وهكذا ما أنزل الله حجَّة أنَّها أرباب، بل كلُّ جسم أو عرض يشهد أنَّها مربوبة مألوهة، ولا حكم لها من قضاء وقدر، وإيجاد وإعدام، وحَصْرُ العبادة له هو الدين المستقيم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أكثر أهل الأرض جهلة ومشركون لا يعلمون الثواب والعقاب لإنكارهم البعث، فمن منكر ومن جاهل، ومن مقرٍّ غير عامل كأنَّه منكر؛ أو لا يعلمون أنَّ ذلك هو الدين القيِّم. وقدَّر بعض: أعبادة أرباب؟ وعدم التقدير أولى ليشمل اللفظ أنواع المنافع ودفع المضارِّ، كما يشمل العبادة، ويناسب ذلك ذكر القهار وذكر الحكم.

﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢)﴾

تأويل يوسف لرؤيا صاحبيه في السجن ووصيته للناجي منهما

وَلَمَّا فرغ من دعوتهما إلى الإسلام شرع في تفسير رؤياهما فقال: **﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾** وهو الساقي فيرجع إلى منزلته من سقي الملك **﴿فَيَسْقِي**

رَبَّهُۥ سيِّده الريان ﴿**خَمْرًا**﴾ كعادته قبل أن يخرج بعد ثلاثة أيَّام بعدد العناقيد، وقدَّمه لأنَّه خير يعجَّل في التبشير به.

﴿**وَأَمَّا الآخَرُ**﴾ الخبَّاز فيخرج بعد ثلاثة أيَّام بعدد السلال ﴿**فَيُصْلَبُ فَتَاكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ**﴾ كما أكلت من الخبز على رأسه في حلمه أو تحلُّمه، هذا تأويل رؤياكما، فقالا: ما رأينا شيئا لكن تحلَّمنا تجريبا لك، وكذبا بل حلما، وقيل: صدقا في أنَّهما ما رأيا حلما ولكن تحلَّما.

﴿**قُضِيَ الاَمْرُ الذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾ وهو مجموع الرؤيتين، أو ﴿**الاَمْرُ**﴾: التعبير، أو ما أتُّهما به على حذف مضاف، أي عاقبة الأمر، ويجوز أن يراد ما يؤول إليه أمر الرؤيتين، أو أمر التعبير، تقول: أفتني في حكم تارك الصلاة بمعنى أخبرني بحكمه، وذلك الأمر قضاه الله بالوحي أو بأمر يثبته لي، أو ضمن به التعبير، أو بحسب الاجتهاد كما فسَّرت لكما حلمتما أو تحلَّمتما.

دخل يوسف السجن ونشر فيه علم تعبير الرؤيا وعبَّرها، ووصف نفسه بتعبيرها، فقال أحد الفتيين ـ وكأنَّ البلاء موكل بالمنطق ـ للآخر: نجرِّبه برؤيا نفتريها، قاله ابن مسعود، وقال الشعبي: رأيا فاهتمَّا، فقال: ما شانكما؟ فقالا: إنَّا غلامان للملك رأينا رؤيا، فقال: قصَّاها عليَّ، فقصَّاها، فعبَّرها بما ذكر.

﴿**وَقَالَ**﴾ في اليوم الثالث عند الباب وقت خروج الساقي ﴿**لِلذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا**﴾ وهو الساقي وهو أحدهما، فـ«مِنْ» للتبعيض، و«مِنْ» الابتدائية محذوفة أي ناج من القتل. والظنُّ بمعنى اليقين، مثل: ﴿وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ (سورة التوبة: ١١٨).

ونجاة الساقي وقتل الخبَّاز علمهما بالوحي، أو بأمر من الله له لا يتخلَّف

كإلهام، وعلى كلٍّ حال هو قطعيٌّ، وعبَّر بالظنِّ إرخاء للعنان وتأدُّبا مع ا لله تعالى، ولا بأس بهذا التأدُّب مع أنَّه جازم، لأنَّ السامع لا يعلم أنَّه وحي من ا لله، فيقول له: كيف لا تجزم مع أنَّه من ا لله ﷻ؟ وإمَّا بحسب الاجتهاد في التعبير فالظنُّ على بابه. وضمير «ظَنَّ» ليوسف لا للَّذي.

(نحو) وكنت أستدلُّ به على عدم وجوب الإبراز إذا جرَّت الصلة أو الصفة أو الحال أو الخبر على غير ما هو له، وحكم هؤلاء واحد، وإن رددنا الضمير إلى أحدهما وهو الساقي جرَّت الصلة على ما هي له. ووجه ظنِّ الساقي أنَّه ناج أنَّه لم يخن وأنَّه هو الساقي قبل، مع قول يوسف: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ, خَمْرًا﴾.

﴿**اذْكُرْنِي**﴾ اذكر حالي ﴿**عِندَ رَبِّكَ**﴾ سيِّدك الريان الملك، وقل له: إنَّ في السجن رجلا مسجونا ظلما اسمه يوسف ﴿**فَأَنسَاهُ**﴾ أي أنسى الساقي الناجي ﴿**الشَّيْطَانُ**﴾ تسبَّب له في النسيان أو في الترك بأن زيَّن له عدم ذكر يوسف للملك، والمُنسي حقيقةً هو ا لله ﷻ. ﴿**ذِكْرَ رَبِّهِ**﴾ ذكر يوسف لربِّه أي لسيِّده وهو الريان، والهاء للناجي، وأضاف الذكر إلى ربِّه للملابسة، فإنَّ المراد أنساه الشيطان ذكر يوسف إلى ربِّه الريان وهو ربُّ الساقي، أي سيِّده فالمعرفة عين الأولى كما هو الغالب.

أو الهاءان ليوسف وهو قول الجمهور، فالمعرفة غير الأولى فالربُّ في ذكر ربِّه هو ا لله، ومعنى إنساء الشيطان يوسف ذكر ا لله تسبُّبه في ذهوله عن ذكر ا لله إلى ذكر الريان بن الوليد، حتَّى ابتغى الفرج من مخلوق ذهولا، وغفلة في تلك الحال المهولة من السجن، وليس في قلبه أن يكون شيء بغير ا لله، فنقول: ركن إلى ا لله وحده وتسبَّب بالمخلوق، وكره ا لله منه ذلك لعلوِّ مقامه، وأطال حبسه في السجن لذلك، وذلك قضاء أزليٌّ ولكنَّه خالق الأسباب والمسبَّبات.

﴿**فَلَبِثَ**﴾ الفاء للسببيَّة، لأنَّ توصيته عليه السلام المتضمِّنة للاستعانة بغيره سبحانه

وتعالى باعثة لإنسائه، قال ا لله ﷻ : «من استنقذك من قتل إخوتك؟» قال: أنت يا ربِّ، قال: «فمن استنقذك من الجبِّ؟» قال: أنت يا ربِّ، قال: «فمن استنقذك من المرأة إذ همَّت بك؟» قال أنت يا ربِّ، قال: «فما بالك نسيتني وذكرت آدميًّا؟» قال: يا ربِّ، كلمة تكلَّم بها لساني، قال ﷻ : «وعزَّتي لأخلِّدنَّك في السجن بضع سنين» ﴿**فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾ قطعة من السنين.

يقال: بضعت الشيء قطعته، قيل عن ابن عَبَّاس: لبث اثنتي عشرة سنة، ويردُّه أنَّ البضع كالنيِّف ما لم يستكمل عقدا، وقد شهر أنَّه من الثلاث إلى التسع، وقيل: إلى السبع، ونسب لمجاهد، وقيل: إلى العشر، إلاَّ أنَّه روى عبد ا لله بن راشد البصري عن سعيد بن أبي عروبة أنَّ البضع ما بين الخمس إلى الاثني عشر، وقيل: لبث سبع سنين خمسا منها قبل قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ واثنتان بعد ذلك، وصحِّحَ، وتقدَّم أنَّهما دخلا مع يوسف السجن في وقت واحد، فيكون الحلم أو التحالم آخر الخمس أو أوَّل الاثنتين، فقوله لهما: تخرجان بعد ثلاث بمعنى بعد ثلاث من حين التعبير، وعلى قول الاثنتي عشرة يكون اللبث قبل قوله: «اذكرني» خمسا وبعده سبعا.

وفي رواية عن النبيء ﷺ : «**رحم ا لله أخي يوسف لو لم يقل " اذكرني عند ربِّك" لم يلبث في السجن سبعا بعد الخمس**» وهو حجَّة للقول بأنَّه لبث اثنتي عشرة، إلاَّ أنَّ الحديث لم يَصِحَّ، وإنَّما الثابت ما لبث في السجن طول ما لبث، [ولا يشبه هذا] ما روي[1] أنَّه ﷺ لم يأخذه النوم ليلة، وكان يطلب من يحرسه حتَّى جاء سعد فسمع غطيطه، وأقام الحرس حتَّى نزلت آية الأمن: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (سورة المائدة: ٦٧) فقال: «**انصرفوا**». وأقام الرماة يوم بدر ويوم أحد وليس من ذلك شيءٌ كقول يوسف: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾.

١- في الطبعة العمانية: وروي.

والمشهور أنّه لبث سبعا، وأنّ الرؤيا من أوّل السبع، وبه قال ابن جريج وقتادة. قال وهب بن منبه: حبس يوسف في السجن سبع سنين، وهو أكثر الأقوال، ومكث أيوب في البلاء سبع سنين، وعذّب بخت نصر بالمسخ سبع سنين، ويزاد ابتلاء الناس بسني يوسف السبع، والمشهور أنّ الممسوخ لا يبقى أكثر من ثلاثة أيَّام، وقيل: لبث في السجن أربع عشرة سنة، وبه قال الضحاك فقد لبث بعد الخمسة تسعا، كما لبث بعدها سبعا في قول اللبث اثنتي عشرة، قال بعض: البضع مدَّة العقوبة لا مدَّة الحبس كلّه.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

تأويل يوسف رؤيا الملك

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ ملك مصر الريان بن الوليد العمليقي حين قرب خروج يوسف من السجن بتمام العدد المذكور.

(فقه) وفي الآية جواز تسمية المشرك ملكا وهو المذكور في أخبار، وليس في كتبه ﷺ إلى هرقل بلفظ عظيم الروم دون ملك الروم ما يمنع من ذلك، وإلاَّ فلا أكثر من أنَّه تنزيه لا تحريم، قيل: ووجهه أنَّه لا يتوهَّم استحقاقه للملك، ويعارض بأنَّه يلزم استحقاق اسم العظمة، وما تسميته ملكهم إلاَّ معنى أنَّه كبيرهم.

﴿إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ بلحم وشحم والواحدة سمينة ككريمة وكرام ﴿يَأْكُلُهُنَّ﴾ المضارع لحكاية الحال ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ﴾ وأرى سبع ﴿سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ﴾ سبعا أخر ﴿يَابِسَاتٍ﴾ رأى في منامه سبع بقرات خرجن من البحر سمان، وخرج بعدهنَّ سبع بقرات في غاية من الهزال، فابتلعت العجاف السمان، ولم تسمن العجاف بهنَّ ولا انتفخن، ورأى سبع سنبلات خضر ممتلآت، ورأى سبعا يابسات مدركات التوين على الخضر فزالت خضرتهنَّ، ولم تخضر اليابسات، فخاف مِمَّا رأى من تغلُّب الضعيف على القويِّ، فجمع المنجِّمين والكهَّان والسحرة لذلك فقال ما ذكره الله عنه:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ هذا أفصح من لغة التشديد، فلم يوفِّقهم الله إلى العبر، فيعبرها يوسف، وعبره سبب لخروجه من السجن بإذن الله مسبِّب الأسباب.

(نحو) و«أُخَرَ» نعت لـ«سَبْع» محذوفا فهو منصوب، أي وسبعا أخر يابسات، وإن عطف على «سُنبُلَاتٍ» فالفتح جرٌّ، وكونهنَّ سبعا يعلم من كون المعطوف عليه أضيف إليه «سَبْع»، وأمَّا أن يعطف على «سَبْع»، ويعلم أنَّهنَّ سبع بدليل لفظ «سَبْع»، فتكلُّف لا فائدة فيه إذ لا دليل في كون العجاف سبعا، على كون السنبلات سبعا، نعم يأكلهنَّ دلالة على أنَّ اليابسات مسلَّطة على الخضر بالالتواء عليهنَّ، وإزالة خضرتهنَّ، كما سلِّطت السبع العجاف على السمان بالأكل. والعجف: الهزال، وقياسه: عُجْف بضمٍّ فإسكان جمع عجفاء كحمراء

وحمر، ولكن جيء به مشاكلة لوزن سمان، وفيه أنَّه قد جاء بعد هذا بهذا اللفظ بلا مجاورة سمان، ويجاب بأنه تبع للأوَّل.

و«الرُّؤْيَا» مفعول لـ«تَعْبُرُونَ» جرَّ باللام لضعف «تَعْبُرُونَ» في العمل بتقديم المعمول، أو ضمِّن «تَعْبُرُ» معنى فعل لازم مثل تنهض، والعبرة التنقُّل عن شيء لشيء، أي تنقلون من صورة الرؤيا إلى ما هو المقصود بها، فتخبروني به. وجواب «إِنْ» أغنى عنه «أَفْتُونِي» فلا حاجة إلى تقدير: إن كنتم للرؤيا تعبرون فاعبروها.

﴿قَالُواْ﴾ أي الملأ ﴿أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ﴾ هذه أضغاث أحلام.

(لغة) أي أحلام شبيهة بالضغث، قيل: أصغر من الحزمة وأكبر من القبضة، ويردُّه قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ (سورة ص: ٤٤) والحقُّ أنَّه يطلق على ما جمع من النبات قلَّ أو كثر، وهو النبات الدقيق المجموع من جنس أو أجناس، وشرط بعض أن يكون من جنسين فصاعدا، ويردُّه قوله:

خود كأنَّ فراشها وضعت به أضغاث ريحان غداة شمال

ويجاب باحتمال أنَّ المراد بريحان أنواع مِمَّا له رائحة ووجه الشبه عدم الفائدة، فأضيف المشبَّه به إلى المشبَّه وجمع.

أو يقدَّر أضغاث من أحلام على الاستعارة لا إرادة الجنس، وإلاَّ فالحلم واحدة، كما تقول فلان يركب الخيل، ولو ركب فرسا واحدا، أو لاعتبار أنَّ كلَّ جزء منها حلم، ولا يمنع من هذا كون مثل ذلك في العرف رؤيا واحدة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الاَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ﴾ باء «بِتَاوِيلِ» صلة، أو إلصاق في معمول «عَالِمِينَ» قدِّم للفاصلة، وباء «بِعَالِمِينَ» صلة. والحلم يطلق على الرؤيا الصادقة والكاذبة والباطلة في اللغة، والمراد هنا الباطلة عندهم، إذ عجزوا عن بيانها،

وهي في نفس الأمر صادقة كما عبَّرها يوسف عليه السلام.

وقال ﷺ : «**الرؤيا من ا لله والحلم من الشيطان**»[1] وهذه تفرقة من الشارع بأنَّ الرؤيا في الخير والحلم في الكذب، وأصل اللغة استعمال كلٍّ منهما في الصدق والكذب، والحديث على الغالب، ويجوز أن يراد بالأحلام هنا مطلق الرؤيا أي ما نعلم تأويل الرؤيا الحقَّة والباطلة، وهذا كبرى من الشكل الأوَّل ـ اعتذروا به إليه في أن جهلوا تأويلها ـ هكذا: هذه أضغاث أحلام، وكلُّ أضغاث أحلام لا تأويل لها فهذه لا تأويل لها.

والمراد بنفي العلم نفي المعلوم بطريق الكناية، أي لا معنى لها فضلا عن أن يعلم، كأنَّه قيل هذه أضغاث أحلام، وكلُّ ما كان هكذا لا تأويل له، إذ لو كان له تأويل لعلمناه، وأيضا السالبة تصدق بنفي الموضوع، كقوله:

على لاحب لا يهتدي بمناره

أي لا منار له فضلا عن أن يهتدى به.

﴿**وَقَالَ الذِي نَجَا مِنْهُمَا**﴾ عطف على «قَالُوا»، والهاء لصاحبي السجن، و«مِنْ» للتبعيض ﴿**وَادَّكَرَ**﴾ أي وتذكَّر، أبدلت التاء دالا مهملة، وهذه الدال المعجمة أبدلت مهملة وأدغمت فيها الأولى، فجيء بهمز الوصل، والمراد: تفكَّر ما نسيه من قول يوسف: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ وهذا يناسب تفسير إنساء الشيطان بظاهره من الإزالة من الحافظة بالاحتيال، بإقدار ا لله ﷻ على ذلك، وعلى تفسيره بمعنى الترك يكون معنى ﴿وَادَّكَرَ﴾: تراجع إلى موافقته في ذكره عند ربِّه.

١- رواه **مسلم** في كتاب الرؤيا، رقم ١ (٢٢٦١) ورقم ٢. **والترمذي** في كتاب الرؤيا (٥) باب إذا رأى في المنام ما يكرهه ما يصنع، رقم ٢٢٧٧، مع زيادة في آخره. من حديث أبي قتادة. ورواه **الربيع** في: باب في الرؤيا، رقم ٥٢ مع زيادة في آخره.

﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ قطعة من الزمان، قيل: سنتان، وقيل: سبع، وقيل: تسع، وهي من معنى الأمَّة بمعنى الجماعة، والغالب استعماله في الناس، وقد استعمل في غيرهم، كقوله عَجَلَّ : ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الاَرْضِ وَلاَ طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ اَمْثَالُكُم﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) وتفسيره بمدَّة ضعيف لغةً، وإنَّما نظر فيه إلى المعنى ﴿أَنَآ أُنَبِّئُكُم بِتَاوِيلِهِ﴾ أخبركم بتأويله عن غيري، لا من تلقاء نفسي، قيل: ولذا لم يقل: أفتيكم، ولو قال أفتيكم لكان من عنده كما طلب الملك، وقال: ﴿افْتُونِي﴾ أي من عندكم، فإنَّه لا يخفى أنَّ الإفتاء يتبادر أنَّه من عند الناطق به بخلاف الإخبار بكذا، فإنَّه لا يتبادر منه ذلك فلا ضعف في هذا القول فلا تهم، وغاية ما فيه جواز التنبئة فيما من عند إنسان، كما عبَّر يوسف وفيما من عند غيره، كما قال: ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ خطاب للملك بخطاب الجماعة تعظيما له أو خطاب له مع أكابره.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ تقدير الكلام: فأرسلوني إلى من يعبرها و لم تعلموه، فأرسلوه فجاء إلى يوسف، وقال: يا يوسف أَيُّهَا الصديق، وصفه بالمبالغة في الصدق لِمَا رأى من خصاله الحسنة في السجن كما مرَّ، وصدقه في تعبير رؤياه إذ قال: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا...﴾ و لم يقل: أرسلون إلى يوسف خوفا من أن يعرفوا أنَّ يوسف يعبر فيرسلون إليه غيره، ليفوز بمبهم[1] خصَّ بمعرفته، سمع قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَاوِيلِ الاَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ﴾ فجثا بين يدي الملك وقال: إنَّ في السجن رجلا يعبر الرؤيا فابعثوني إليه، فبعثوه، والسجن في غير مدينة الملك عند ابن عَبَّاس، وقيل: فيها، ويقال: هو على النيل بينه وبين الفسطاط ثمانية أميال.

﴿أَفْتِنَا﴾ لم يقل: أفتني مع أنَّه السائل وحده، لأنَّ الرؤيا ليست له بل لغيره مِمَّن له ملابسة بأمر العَامَّة ﴿فِي سَبْعِ﴾ شأن سبع ﴿بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَاكُلُهُنَّ سَبْعٌ

١- في الطبعة العمانية: بحبهم.

عِجَافٌ وَسَبْعِ﴾ وفي سبع ﴿سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ ملتوية عليهن مزيلات لخضرتهنَّ ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ﴾ بالتأويل ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ العَامَّة مطلقا مع الملك، أو الملك والسحرة والكهَّان والمنجِّمين بحضرة الملك، سواء كان السجن في بلد الملك أو في بلد آخر، يسير إليه ذلك الناجي فيرجع إلى الملك.

(بلاغة) ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ تأويلها أو فضلك، أو كليهما، وصيغة الترجِّي أوَّلا جاءت على أسلوب العظماء، إذ يأتون بصيغة الترجِّي في مقام الجزم، فإنَّه جازم، وكان عظيم الشأن تحت السلطان الريان، أو على أسلوب البلغاء ولو بلا تعاظم، أو صيغة الترجِّي لخوف أن لا يصل إلى الناس بالموت أو النسيان أو بكم أو جنون أو مانع، وصيغة الترجِّي ثانيا لذلك، أو لكونهم قد لا يصدِّقونه عن يوسف وقد لا يفهمون، وقد لا يعتدُّون بتعبير يوسف، أو «لَعَلَّ» في الموضعين للأدب.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ الخطاب للملك ومن معه ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ هذا جواب سؤال كأنَّه قيل: فماذا قال يوسف؟ فقيل: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ أي اللائق برؤياكم أن تزرعوا سبع سنين دأبا، أي عادة، مفعول مطلق، أي زرع دأب، أي زرع عادتكم، ولو زاد بقدرة الله حتَّى تقع الحبَّة في تراب قليل وندى قليل فتنبت الثمرة، أو تَدْأَبُون دأبا أو ذوي دأب، أو دائبين، والمراد التعب، يقال: دأب أي كدَّ في العمل ونقل إلى معنى العادة.

والجملة إخبار بالغيب أنَّهم يزرعون دأبا...الخ، أو بمعنى الأمر فيكون جيء به في صيغة الخبر مبالغة، كأنَّه أمرهم بالزرع فوقع فهو يخبر به.

(نحو) ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾...الخ عطف طلب على طلب، إذا قلنا: «تَزْرَعُونَ» بمعنى ازرعوا، وطلب على خبر إن قلنا: «تَزْرَعُونَ» إخبار بالغيب. وإنَّما قلت: «مَا حَصَدْتُمْ...» طلب على خبر لأنَّ جواب الشرط طلب وهو

«ذَرُوهُ» وما الشرط إلاَّ قيد له، لا ما قيل: إنَّ جملة الشرط والجزاء خبريَّة ولو كان الجزاء طلبا، ليت شعري أيُّ شيء أخبر وهو يقول: افعَلْ كذا، أو لا تفعل، ولا مانع من أن يقال: جواب شرط محذوف، أي إن تزرعوا فما حصدتم...الخ، على أنَّ «تَزْرَعُونَ» مراد به أمر، وأمَّا على الإخبار بالغيب فلا يصحُّ " إن تزرعوا فما حصدتم " إلاَّ بالتوسُّع.

﴿فَذَرُوهُ﴾ اتركوه ﴿فِي سُنبُلِهِ﴾ لِئَلاَّ يأكله الدود، الذي يأكل الثمار المنزوعة عن تبنها في مصر ونواحيها، لا تبقى عامين أو أكثر إلاَّ باحتيال، والمراد بالذات الأمر بتركه في سنبله، وأمَّا الزرع فهم يزرعون بلا أمر منه كذا قيل، وهو مبنيٌّ على أنَّ المعنى: تزرعون على عادتكم، ولا يتعيَّن لجواز أن يكون المعنى جدُّوا في الزرع، وبالغوا كما مرَّ التلويح.

وحينئذ يناسب أنَّ المعنى: ازرعوا سبع سنين باجتهاد، وذروا ما حصدتم في سنبله، إلاَّ أنَّ كون تزرعون بمعنى الإخبار كلفظه هو المناسب، لكون ذلك تفسيرا للرؤيا، ولو لم يخل الأمر عن مناسبة، كأنَّه قيل: افعلوا كذا يحصل تأويلها.

﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَاكُلُونَ﴾ مثل أن تنزعوا عن التبن ما يكفي يوما أو أسبوعا أو شهرا وهكذا إلى تمام سبع السنين الخصيبة، وفي ذلك حرز التبن أيضا للدواب، وكان الْتَلِيُّلاِ بعد ما أخبرهم يتوقَّع الشدَّة، وكان يصنع لرجل طعام اثنين فيقرِّبه للرجل فيأكل نصفه، ولَمَّا قربت الشدَّة أكل الرجل طعام اثنين فقال: هذا أوَّل يوم من الشداد.

﴿ثُمَّ يَاتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد ما ذكر من سبع سني الخصب، واختار هذا عن أن يقال ثمَّ يأتي من بعدهنَّ ليلوِّح إلى وصفهنَّ، والبعد باللام لعلوِّ شأن الخصب ﴿سَبْعٌ﴾ سبع سنين ﴿شِدَادٌ﴾ صعبة بالقحط والجوع. وعَطْفُ «يَاتِي»

على «تَزْرَعُونَ» يُضعِف كون «تَزْرَعُونَ» بمعنى ازرع، لأنَّ «يَاتِي» إخبار لا أمر، إلاَّ أن يقدَّر محذوف هكذا: تزرعون ثُمَّ يأتي من بعد ذلك سبع شداد.

﴿يَاكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ في سبع سني الخصب، واللام للتعليل أو للاستحقاق. وإسناد الأكل للسنين مجاز عقليٌّ لعلاقة الحلول، لأنَّ الآكلين حالُّون فيهنَّ، والأكل مجاز مرسل لتلك العلاقة، وليس في تفسير الأكل بالإفناء تخلُّص عن المجاز، بل هو مجاز على حدٍّ ما مرَّ، لأنَّ المنفيَّ هو الذين يأكلون، ومثل ذلك قولك: أَكَل السفر أو أكل السير لحم الناقة، وفي ذلك تطبيق بين الآكلين وتشبيه لأكل البقرات العجاف للسمان بأكل سني القحط لِمَا ادُّخر في سني الخصب.

(بلاغة) وشبَّه أعوام القحط بالبقرات العجاف، وأعوام الخصب بالسمان، وشبَّه أكل أهل زمان القحط ما ادُّخر في زمان الخصب بأكل البقرات العجاف للبقرات السمان، وَلَمَّا كان الأكل في طرف المشبَّه به البقرَ جعل الأكل في طرف المشبَّه السنةَ لينطبق الأكلان، ويتناسب المعبَّر الذي هو البقرات السبع العجاف، والمعبَّر به الذي هو أعوام القحط السبع، في إسناد الأكل إليهما، ولو قدِّر مضاف هكذا: يأكل أهلهنَّ لفات التطابق، وفي الآية المشاكلة.

﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ القِلَّة بالنسبة إلى المأكول ولو حصلت الكثرة، والقليل المستثنى بالنسبة إلى الأقدم، فالأقدم يبدأ في سني الجدب بالمدَّخر الأقدم في سني الخصب، فيؤكل ذلك المدَّخر الأقدم إلاَّ قليلا للحرث ﴿مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ تحرزون للحرث بعد سني القحط.

﴿ثُمَّ يَاتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما ذكر من سني القحط، والبعد للتفخيم، والإشارة تلويح للوصف ﴿عَامٌ فِيهِ﴾ قدِّم للاهتمام، أو للحصر بالنسبة إلى السنين الشداد ﴿يُغَاثُ﴾ مضارع غاث الثلاثي متعدٍّ، يقال غاثنا المطر: أصابنا، وغاثنا الله

بالمطر، والألف عن ياء، قالت أعرابيَّة: غُثنا ماشيتنا، بضمِّ الغين وكسرها مبنيًّا للمفعول وماشية بدل اشتمال.

﴿النَّاسُ﴾ المعهودون ببلاء القحط، أو «الـ» للاستغراق العرفيِّ، وقد ذكر في بعض الأخبار أنَّ القحط في تلك السنين القحطية عمَّ الدنيا كلَّها، وأنَّه مات فيه أهل مدن كثيرة، فتكون «الـ» للاستغراق الحقيقيِّ، وَيَدُلُّ له ما يتبادر من الغيث من أنَّه المطر، وأهل مصر والنيل لا ينتفعون بالمطر، إلاَّ أنَّه على هذا يبقى أهل مصر غير مذكورين، فلعلَّ الغيث على عمومه بعضَ الأقاليم بالمطر وبعضها بالنيل، وقد يقتصر على المطر لأنَّ مَادَّة النيل الإمطار في أعاليه.

أو المراد الغوث من القحط والغوث بمعنى الإغاثة وهو رباعيٌّ واويٌّ، والتنجية يعمُّ كلَّ ذلك في كلِّ موضع قصد ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ قدِّم فيه للاهتمام، وأمَّا الحصر فلا إلاَّ باعتبار سني القحط، وأيضا قدِّم للفاصلة ولم يوت بمفعول «يَعْصِرُونَ» للعموم، بحيث ينطلق على ما يصلح عصره على الإطلاق، من زيت وماء عنب، وسكَّر وسمسم وغير ذلك مِمَّا يعصر من النبات والثمار، وكأنَّه قيل: يعصرون الزيت وماء العنب ونحو ذلك.

وقيل: ﴿يَعْصِرُونَ﴾ ينجون أي من القحط كما قال أبو زبيد في الإمام عثمان:

صاديا يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود[1]

أي منجاة المنجود، وقيل: ﴿يَعْصِرُونَ﴾: ينالون المطر، وقيل: ﴿يَعْصِرُونَ﴾: يحلبون الضروع، **ولا مانع من كلِّ ذلك.**

١- أورد صاحب اللسان البيت ونسبه إلى أبي زبيد حرملة بن المنذر وقال عنه: يرثي ابن أخته الذي مات عطشا في طريق مَكَّة، ولا يبعد ما قاله القطب في أنَّ البيت في حقِّ عثمان لأنَّ الشاعر حسب ما قيل عنه إنَّهُ من الخائضين في فتنة الصحابة وبني أميَّة، وتوفي سنة ٦٠ هـ.

ولا مدخل لقوله: ﴿ثُمَّ يَاتِي... وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ لتعبير الرؤيا، فإنّه خارج عنها، بل علم ذلك بالوحي، أو الإلهام، أو بانتهاء الجدب بالخصب، أو بأنَّ عادة الله التوسعة بعد الضيق.

إذا حل أمر فانتظر وقع ضدَّه كعسر ويسر والقُحُوطة والخصب[1]

واعترض بأنه لو كان كذلك لأجمل في البشارة، وأنَّ حصر الجدب يقتضي تغييره بخصب مَّا، لا على ما ذكره، وهو بشارة بشَّرهم بها تعقب تمام تأويل الرؤيا بالسنين المخصبة، في مقابلة البقرات السمان، والسنبلات الخضر، وبسني الجدب في مقابلة البقرات العجاف والسنبلات اليابسة، وقد كان يكفي البقرات السمان أو السنابل الخضر مع البقرات العجاف أو السنابل اليابسات، لكن جمع ذلك لكمال السعة والشدَّة.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱيْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

١- البيت للشيخ أبي نصر فتح بن نوح الملوشائي النفوسي من علماء القرن السابع الهجري، من قصيدته البائية في الأخلاق والحكم ومطلعها:

رحيلي من الدنيا بغير تباعة إلى رحمة المولى تمام المُنى، حسبي

خروج يوسف من السجن وبراءته

﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ**﴾ الريان لَمَّا أخبره الساقي بتأويل الرؤيا عن يوسف ﴿**ايتُونِي بِهِ**﴾ أي بيوسف، بهذا المعبِّر لرؤياي تعبيرا لائقا غريبا لعلمه وفضله ﴿**فَلَمَّا جَآءَهُ**﴾ أي يوسف ﴿**الرَّسُولُ**﴾ ليخرجه من السجن إلى الملك، وقال: اخرج بإذن الملك الريان وائتِه وهو الذي استفتاه وهو الساقي، وفي الكلام حذف هكذا: فجاءه ليأتي به إلى الملك، فَلَمَّا جاءه...الخ ﴿**قَالَ ارْجِعِ اِلَى رَبِّكَ**﴾ سيِّدك الريان ﴿**فَاسْئَلْهُ مَا بَالُ**﴾ شأن ﴿**النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ**﴾ لأنه إذا أقررن بما علمن من شأنه معهنَّ ومع امرأة العزيز المقرَّة باستعصامه تحقَّق على المعتاد عنده أنَّه بريء.

وفي الآية حثٌّ الإنسان على نفي التهم عنه. روي أنَّ رجلا مرَّ على رسول الله ﷺ ومعه امرأة فقال: «**هذه زوجي**»، وفي رواية: «**هذه زوجي فلانة**» فقال الرجل: كلُّ من أظن به لا أظن بك، فقال ﷺ: «**إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»[1] يعني فقد يمكن أن تظنَّ بي. وكان الزمخشري يقضي بين الناس، وكلَّ بلد دخله قاضيا أخبرهم أنَّ رجله سقطت لثلج في سفر لا لجناية، وكان يمشي بخشبة.

وقوله: ﴿فَاسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ أوكد من قوله: فاسأله أن يفتِّش عن حالهنَّ، لأنَّه إن قال: اسأله أن يفتِّش كان ذلك حكما عليه، فقد يأنف ويلغيه بخلاف السؤال عن حالهنَّ فقد يحرِّكه للبحث بلا أنفة، لأنَّ النفس تحبُّ الاطِّلاَع على ما خفي، ولأنَّه يأنف أن يمسك عن شيء جاهلا له مع أنَّه قد طلب بمعرفته، ولم

١- رواه **البخاري** في كتاب الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه. ورواه **مسلم** في كتاب السلام، رقم ٤٠٤٠. من حديث عليٍّ بن الحسين.

يتعرَّض لامرأة العزيز مع أنَّها السبب في تلك الشدائد تأدُّبا معها، وإكراما لها، ولأنَّها قد أقرَّت وافتضحت، ولأنَّه خاف أن تزيد فيه مكرا آخر، وهو يراها على ضلالها القديم، ولذلك التأدُّب قابلته بإقرارها بنزاهته، واستعمل الجميل مع النسوة إذ اقتصر على ذكر التقطيع والكيد دون ذكر المراودة.

﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الله، وزعم بعض أنَّ المراد: إنَّ سيِّدي الريان، وهو عالم بأمرهنَّ مع يوسف ﴿بِكَيْدِهِنَّ﴾ قولهنَّ: أطع مولاتك، ومراودتهنَّ له إلى أنفسهنَّ، وقيل: الضمير للنساء مطلقا على طريق الاستخدام، فتدخل هؤلاء النسوة بالأولى والبرهان، والأوَّل أولى ﴿عَلِيمٌ﴾ استعظم كيدهنَّ فاستشهد عليه بعلم الله وعلى براءته من ذلك، وفي ذلك تضمُّن الوعيد لهنَّ عند الله، فإنَّ الصحيح ﴿إِنَّ رَبِّي﴾: بمعنى الله، ولو جاز أن يكون الريان على أنَّ لفظ "رب" يقال للملك، أو باعتبار ما يقال في العَامَّة له من أنَّه ربٌّ لهم، أي سيِّد، أو باعتبار أنَّ يوسف مرميٌّ بالعُبُودِيَّة، وما يقال: لأنَّه ربَّاه لا يظهر، لأنَّه ربَّاه العزيز، إلاَّ أن يقال: مال العزيز من الملك، أو متسبّب منه.

ولم يعجِّل بالخروج ليبرئ ساحته أوَّلاً، فلا يجد أحد إليه سبيلا بالريبة والتهمة أو البهتان، على أنَّه علم بالوحي أو الإلهام أنَّهنَّ يقررن فلا ينظر إليه الملك بالعين الأولى، قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله أخي يوسف لو دعيت من السجن لأعجلت الخروج**»[1] ولفظ الطبراني وابن راهويه وابن مردويه عن ابن عَبَّاس وابن مسعود رضي الله عنهم: «**لو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت**

١- أورده **الهندي** في الكنز، ج١١، ص٥١٤، رقم٣٢٤٠٢، وقال: رواه أحمد في الزهد وابن المنذر عن الحسن مرسلا.

الإجابة»[١]، وفي رواية: «**لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره، وا لله يغفر لـه: حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتّى يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربِّك، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث لأسرعت الإجابة وبادرتهم الباب، ولَمَا ابتغيت العذر أنْ كان لَحليما ذا أناة»**[٢] قال ﷺ ذلك تواضعا، وإلاَّ فحلمه وصبره ليس دون يوسف، وقوله: «يغفر ا لله له»، توقير كما يقال: عفا ا لله عنك ما جوابك، أو قال: «غفر ا لله له» لاشتغاله بإظهاره براءة نفسه عن تبليغ التوحيد، وفيه أنَّ الاشتغال بذلك شهيد لقبول قوله، لأنَّ الأنبياء مبرَّأون عمَّا يتَّهمون به، أو قال ﷺ : «لو كنت...»الخ تعليما لباب انتهاز الفرصة، فقد يظهر للملك أمر يمنع من إخراجه حين تأخُّره عن الخروج، «أو ذلك جري على مقتضى سعة رحمة ا لله أكثر من وسعها على غيرها»[٣].

﴿**قَالَ**﴾ الملك ﴿**مَا خَطْبُكُنَّ**﴾ الخطب: الأمر العظيم الذي يحقُّ أن يخاطب في شأنه أو لأجله صاحبه، ويخطب فيه الناس، ولذا قال الجوهري: الخطب سبب الأمر. ﴿**إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ**﴾ أراد زليخاء أو راعيل، والاسمان لامرأة العزيز، وهي التي راودته وحدها وخاطبهنَّ بالمراودة كلَّهنَّ سترا عليها، وهي في جملتهنَّ حاضرة، فذلك حكم على المجموع كلٌّ لا كلِّيَّة.

وقيل: راودنه كلُّهنَّ، وقيل: عدَّ قولهنَّ: أطع مولاتك مراودةً، لأنَّ قولهنَّ

١- أورد نحوه الهندي في الكنز، ج١١، ص٥١٤، رقم٣٢٤٠١، وقال: رواه ابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة.

٢- رواه **الطبراني** في الكبير، ج١١، ص١٩٩. **والهندي** في الكنز، ج١١، ص٥١٤، رقم٣٢٤٠٣. من حديث ابن عبَّاس.

٣- زيادة انفردت بها نسخة (أ).

تحصيل لمراودته زليخاء، وكذا يوسف إذ قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ ولم يقل: ما بال زليخاء فعلت ما فعلت إبقاء عليها، وأدبا معها، ومراعاة لِمَا سبق من إكرامها إيَّاهُ. و«إِذْ» متعلّق بـ«خَطْب»، إذ المعنى: ما فعلتنَّ إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه هل وجدتنَّ منه ميلا إليكنَّ ؟.

﴿قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ زنى أو إشارة إليه، أو خيانة أو ذنبا، وذلك تعجُّبٌ من قدرة الله تعالى على خلق عفَّة يوسف مع وجود الملاذ، وذلك بعد إطلاعهنَّ على براءته. وسمِّي الذنب سوءا لأنَّ القلب يغتمُّ به.

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ تَبَيَّنَ بعد خفاء، قاله الخليل بن أحمد رحمه الله[1]، أو بانت حصَّة الحقِّ من حصَّة الباطل وتميَّزت، وهو راجع إلى ما قال الخليل، وقيل: معناه ثبت ورسخ كما يقال: حصص البعير إذا ألقى مباركه ليناخ.

(صرف) قال في شرح التسهيل: "الآن" هنا بمعنى القرب مجازا فيصحُّ مع الماضي والمستقبل، وهو اسم، لدخول «الـ» وحرف الجرِّ، يقال: إلى الآن، ومن الآن، بفتح النون مع دخول الجارِّ، فهو مبنيٌّ، لأنَّه اسم إشارة، والإشارة إنشاء كهلاَّ وهل ولعلَّ، وضع من أوَّل الأمر على «الـ» لمعنى الإشارة، فلا يعترض بأنَّ اسم الإشارة لا يدخله «الـ»، وألفه عن واو لأنَّه يفسَّر بالأوان، أو عن ياء من آن بئين: قرب، واعترض بأنَّه ليس بمعنى القرب.

﴿أَنَا رَاوَدْتُّهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ لا هو راودني، ومثل هذا اختصاص وهو كالحصر،

١- الخليل بن أحمَد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي من أيمَّة اللغة والأدب وواضع علم العروض، أخذه من الموسيقى، وكان عارفا بها، وهو أستاذ سيبويه في النحو، ولد ومات في البصرة، وعاش زاهدا فقيرا صابرا، مغمورا في الناس لا يعرف، قال النضر بن شميل: ما رأى الراؤون مثل الخليل، له عدَّة كتب رائدة، ولد سنة ١٠٠ هـ ومات سنة ١٧٠ هـ. الأعلام للزركلي ج٢، ص٣١٤.

كقوله: أنا فعلت، أي لا غيري ﴿وَإِنَّهُ, لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في قوله: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي﴾ هذا أولى من قولها: إِنَّهُ لصادق، لأنّه كالبرهان، قالت ذلك لَمَّا رأت منه الستر عليها، ومراعاة الأدب معها، إذ قال: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ﴾ و لم يذكرها مع أنَّ الفتنة كلَّها من جهتها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي قال يوسف طلب إظهار البراءة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ أي العزيز وقد بعُد ذكره لكن دلَّ عليه قوله: ﴿أَنِّي لَمَ اَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي في أهله، والباء ظرفيَّة متعلّقة بـ«أَخُنْهُ»، أي في مكان الغيب عن وجهه، أو زمان الغيب عنه، أو متعلّق بمحذوف حال من الهاء، أو ضمير «أَخُنْ»، وقيل: ضمير «يَعْلَمَ»، وهاء «أَخُنْ» لله ﷻ، والصحيح الأوَّل.

﴿وَأَنَّ ا للهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَآئِنِينَ﴾ أي لا ينفذه فهو زائل، وهداية الكيد مجاز عن إنفاذه، بعلاقة اللزوم، والتنفيذ لازم للهداية، أو استعارة تبعيَّة إذ التنفيذ كالهداية في وصول المطلوب، أو لا يهدي الخائنين بكيدهم، فالمجاز في الإيقاع.

والهداية على حقيقتها أوقعت على الكيد، لكونها سببا لعدم الهداية، وإذا عدم السبب عدم مسبِّبه بالأولى، وفيه تعريض لزليخاء أو راعيل أنَّها خانت العزيز. وقد يقال: ضمير «يَعْلَمَ» للملك، أي ليعلم الملك، أنِّي لم أخنه في وزيره العزيز، لأنَّ خيانة الوزير خيانة للملك، وفي ذلك أيضا تاكيد لأمانته، أي لو كنت خائنا لم يهد ا لله كيدي، وسمَّى ثباته كيدًا للمشاكلة، أو استعارة، وصاحب الفعلة السيِّئة لا يذكر صاحبها بسوء، ولا يدعو عليهم لأنَّ ذلك ذكر لنفسه ودعاء عليها ولكونه تأكيدا عقَّبه متواضعا بقوله:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيَ إِنَّ اَ۬لنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِالسُّوٓءِ اِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٥٣﴾

النفس أمّارة بالسوء

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيَ﴾ عن السوء من حيث هي هي، بل من حيث عصمة الله إنعاما عليَّ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (سورة الضحى: ١١) ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ فتستخدم الجوارح في المعصية، تميل بالطبع إلى الشهوات وتعرض عن الطاعات، سواء أنفس الأبرار وأنفس الفجّار، لا يمكن دفعها في بدء الأمر، وإنّما المعتبر ثاني الحال، فيُقدم إليها من لم يقارنه التوفيق، فيجوز أن يكون المعنى: وما في وسعي أن أبرِّئ نفسي عن الهمِّ بما تشتهي، وإنّما دفعته ببرهان.

(أصول الدين) وروي أنّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَآئِنِينَ﴾ أو إذ قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ أو إذ قال: ﴿لَمَ اَخُنْهُ﴾ قالت هي أو جبريل: ولا حين هممت؟[1]. وأجاز بعضهم الصغيرة على الأنبياء قبل النبوءة، وأنت خبير بأنّه لم يَصِحَّ حلُّ السراويل ولا الهمُّ إلاَّ الخطور، بل مطلق ما بالطبع لا يدخل تحت التكليف، فأجابهما بقوله: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيَ﴾ في أحوالها وليس هذا إقرارا اللهمَّ إلاَّ أن يقرَّ لجبريل عليه السلام بالهمِّ الطبعي، الذي لا يدخل تحت التكليف، وليس قصدا إليها فيكون جبريل قابله بما هو طبعي تنبيها وزيادة في اتّضاعه.

﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ «ما» مَصدَرِيَّة، والاستثناء منقطع، والمعنى: لكن رحمة ربِّي هي المعتبرة، أو الصارفة عن السوء، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ (سورة يس: ٤٢)؛ أو اسم واقع على النفس، والاستثناء من النفس، أو من المستتر في «أَمَّارَةٌ» متّصل، أي إلاَّ ما رحم ربِّي من النفوس، كنفوس الملائكة والأنبياء فلا تأمر بالسوء.

١- في الطبعة العمانية زيادة: «أو قالت: ولا حين حللت السراويل».

والنفس غير عاقل فصحَّت له «ما»، فهو أولى من إيقاع «ما» على الأنبياء، لأنَّهم عاقلون، قيل: أو «ما» مَصدَرِيَّة والمصدر ظرف، أي إلاَّ رحمة ربِّي، أي وقت رحمة ربِّي، فإنَّها لا تأمر بالسوء، وفيه التفريغ في الإثبات، والمعنى لأمَّارة بالسوء في جميع الأوقات إلاَّ وقت رحمة ربِّي، والمراد جنس النفس لا الاستغراق، فلا تدخل نفس يوسف والأنبياء مع أنَّ أكثر الأوقات لا تأمر فيه أنفسهم بالسوء.

وقيل: الآية إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ من قول زليخاء فتكون داخلة في قوله: ﴿قَالَتِ اِمْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ فيكون المعنى: [كان مِنِّي] ذلك الاعتراف ليعلم يوسف أنِّي لم أخنه بنسبة المراودة إليه، والافتراء عليه في غيبته، كما نسبناها إليه في حضوره، والجمهور على أنَّ ذلك من كلام يوسف.

قال أبو حيَّان لا يبعد وصل كلام إنسان بكلام إنسان آخر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً...﴾ وصل بكلام بلقيس قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾(سورة النمل: ٢٤) وليس منه، هذا وجه.

والنفس: البدن والقلب، والنفس: العقل، والنفس: شيء كالعقل إذا دعا للمعصية فالأمَّارة بالسوء، وإذا امتنعت فاللوَّامة، وإذا أمرت بالطاعة فالمطمئنَّة، و﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ﴾ لمن استغفر من ذنبه بعينه، أو من ذنوبه عموما، و لم يقصد الإصرار على واحد منها، وذلك من كلام المرأة خال عن الإشكال، وعلى أنَّه من كلام يوسف غير اعتراف بأنَّه همَّ ولا خان، لكن جاء به عموما أو هضما لنفسه بأن عدَّ الهمَّ الذي هو ضروريٌّ لا يدخل تحت التكليف ذنبا، أو أراد غفران ذنب زليخاء وهي راعيل.

﴿وَقَالَ اَلْمَلِكُ اُيتُونِے بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ اَلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ اَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ اَجْعَلْنِے عَلَيٰ خَزَآئِنِ اِلَارْضِ إِنِّے حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِے

فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

الفصل التاسع من قصَّة يوسف:

يوسف في رئاسة الحكم ووزارة المالية

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ من شأن الملوك أن يوثروا أنفسهم بما هو نفيس، كأرض في الربيع زاهرة، وجوهرة لا يوجد مثلها، ووزير عظيم الشأن، وعالم ماهر، فاختار يوسف مختصًّا به لكماله صبرا وعلما وإحسانا وأدبا وتعبيرا وورعا. وهذا جواب محذوف، أي لَمَّا عبَّر الرؤيا قال: ﴿ايتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فيكون قال: إيتوني به مرَّتين، قال أوَّلاً: إيتوني به لأنَّه عبَّر الرؤيا، وقال ثانيا: إيتوني به أختصُّ به لأمانته وفوائده.

(قصص) فعاد الرسول الأوَّل إلى يوسف في السجن بعد التعبير وهو في السجن، وقال: أجب الملك في الحين، واطرح ثياب السجن والبس ثيابا حسنة جددا واغتسل، فقام وودَّع أهل السجن ودعا لهم ولأهل السجن مطلقا: «اللهمَّ عطِّف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعم عليهم الأخبار»، قيل فمن ذلك يوجد في السجن من الأخبار ما لا يوجد في غيرها، ثمَّ اغتسل ولبس ثيابا حسانا، وكتب على باب السجن من خارج: «هذا بيت البلوى، وقبر الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء» ودخل على الملك فكلَّمه وشاهد منه الملك الرشد.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ وشاهد منه ما يوجب الرغبة فيه. والضمير في «كلَّم» ليوسف، والهاء للملك، سلَّم عليه بالعَرَبِيَّةِ فقال الملك: ما هذا اللسان؟ قال: لسان عمِّي إسماعيل، ودعا له بالعبرانيَّة، فقال له: وما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي.

وكان الملك يتكلَّم بلغات ولا يعرف العَرَبِيَّة والعبرانيَّة، وكلَّما كلَّمه بلسان أجابه بما تكلَّم به، وزاد بِالعَرَبِيَّةِ والعبرانيَّة، فأعجبه أمره مع صغر سنِّه ــ ابن ثلاثين سنة ــ فأجلسه إلى جنبه.

وقيل: الضمير في «كَلَّمَ» للملك، والهاء ليوسف، لأنَّ الملوك هي التي تبدأ بالكلام، والصحيح ما تقدَّم، فإنَّه عهد أن يبدأ الداخل بالسلام والثناء فكذا فعل يوسف.

وقد روي أنَّه لَمَّا أراد الدخول قال: «حسبي آخرتي من دنياي وحسبي ربِّي من خلقه، عزَّ جارك وجلَّ ثناؤك، ولا إله غيرك» ولَمَّا دخل على الملك قال: «اللهمَّ إنِّي أسألك من خيره وأعوذ بعزَّتك وقدرتك من شرِّه»، ولكن هذا قد يقوله سرًّا أو حيث لا يسمعه الملك. ويقدَّر فأتوا به ودخل على الملك فكلَّمه، فلمَّا كلَّمه، والحذف للدلالة على سرعة الإتيان به كأنَّه اتَّصل بقوله: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾.

وروي أنَّه قال له: أحبُّ أيُّها الصدِّيق أن أسمع تفسير رؤياي من لسانك، ففسَّرها كما ذكرها عنه الرسول بلا نقص ولا زيادة، ولا تقديم ولا تأخير، ولم يكن حاضرا مع النسوة في المجلس، وزعم بعض أنَّه حاضر وأنَّ معنى: ﴿ايتُونِي بِهِ﴾ قرِّبوه إليَّ.

﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ الظرفان متعلِّقان بـ«مَكِينٌ»، والمراد باليوم عصري ذو تمكُّن ورسوخ في قلوبنا وملكنا والجاه، ﴿أَمِينٌ﴾ أمين على أموالنا وأحوالنا، من أمور السلطنة والوزارة، وقيل: أمين من كلِّ مكروه لا تخاف ممَّا مرَّ عليك، فماذا ترى أيُّها الصديق في أمر السبع المخصبة والسبع المجدبة؟[1]، فقال:

١- في نسخة (أ) زيادة: «قيل: ابتلاهم الله بالسبع المجدبة لأنَّه أقام في السجن سبعا وهو مظلوم».

اجمع الطعام وأكثر الحرث في السنين المخصبة، واخزن الحبوب للناس، والتبن والقصب أيضا للدواب، وتأمر الناس أن يرفعوا الخمس من زروعهم فيكفيك لأهل مصر ومن حولها، ويأتيك الناس من سائر النواحي للميرة فيجتمع عندك من الكنوز ما لم يجتمع لأحد قطُّ، ولو زرعت على حجر لأنبت وأثمر، وذلك من ا لله ﷻ.

وروي أنّه لَمَّا قال: أحبُّ أن أسمع منك، قال: رأيت سبع بقرات سمان خرجن من النيل يقطرن لبنا، ونظرت إليهنَّ معجبا، فغار النيل فخرج من طينه سبع عجاف بأنياب وأضراس وأكف الكلاب وخراطيم السباع، فأكلن لحوم السمان، ومخّهنَّ، وأنت تنظر معجبا إذ لم يسمنَّ، ورأيت سبع سنابل خضرا وسبعا يابسات في منبت واحد ماء وثرى، وأنت تتعجَّب في اختلافهنَّ مع اتحاد المنبت، فهبَّت ريح أضرمت اليابسات على الخضر فنتبهت مذعورا، فقال: وا لله ما أخطأت فيما رأيت في المنام، وما رؤياي بأعجب من علمك بها، كأنّك الرائي ومن تفسيرها.

ولَمَّا قال: اجمع الطعام فتأتيك أهل النواحي للميرة، قال: من لي بذلك الحرث والخزائن وذلك التصرُّفات؟، وأهل مصر كلُّهم لو جمعتهم ما أطاقوا ذلك، وليسوا مأمونين على ذلك فمن يكفيني ذلك؟ فقال يوسف ما قال ا لله ﷻ عنه: ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ الاَرْضِ**﴾ خزائن الطعام والأموال، خزائن أرض مصر التي تحت يدك، وقال الربيع بن أنس: اجعلني على خزائن خراج مصر، فأجلسه على السرير وفوَّض الأمر إليه، وذلك كلُّه بعد عبر الرؤيا، وزعم بعض أنّه قبل عبرها، قيل: جعله وزيرا، وقيل: أسلم السلطنة إليه.

(قصص) وروي أنّه توفّي قطفير زوج زليخاء أو راعيل في تلك الليالي فجعله في مرتبته فزوَّجه زليخاء أو راعيل فوجدها عذراء، وكان قطفير عنّينا، فيما قيل، وولدت له إفرائم وميشا والد رحمة زوج أيُّوب في قول، ويقال: ميشا جدُّ يوشع، وقيل: رحمة زوج أيُّوب هي بنت يوسف، وقيل: لم يلد يوسف، وقيل: لم

يلد نبيئا، وتزوَّجها بلا عدَّة لجواز ذلك في دين يوسف فيما قيل، والمشهور أنَّه تزوَّجها بعد مدَّة طويلة، وبه قال القرطبي.

وروي أنَّه أصابتها حاجة فقيل لها: لو أتيت يوسف؟ فقيل لها: لا تفعلي نخافه عليك، قالت: **لا أخاف مِمَّن خاف الله تعالى**، فأدخلت عليه، وقالت: الحمد لله الذي جعل العبيد ملوكا لطاعته، والملوك عبيدا بمعصيته، فقضى حاجتها وتزوَّجها، وقيل: قالت له ذلك في الطريق فعرفها وقضى لها، وتزوَّجها، وَلَمَّا أذاه قطفير وهو العزيز أورثه منصبه وزوجه، وقيل: عزله وولَّى يوسف ولم يتزوَّجها إلاَّ بعد موته، وبحث فيه بأنَّ المؤذي زوجه، قلت: كلاهما لأنَّ زوجها وافقها، ويقال **لَمَّا تنزَّه عن السوء أنعم الله عليه بذلك.**

﴿**إِنِّي حَفِيظٌ**﴾ للخزائن في السنين المخصبة والمجدبة بحساب لا أضيِّعها، ولا تضيع لمحافظتي عليها بإذن الله ﴿**عَلِيمٌ**﴾ بمصالحها، وبالكتابة وبوقت الجوع، وبلغات من يأتيني وبأمر الدين، فقال الملك: ومن أحقُّ بذلك منك؟ فجعله عليها وقد كان الملك يعرف عنه أنَّه من أهل دين الله، ولكن لا يعرف أنَّه من أهل العلم بأمر الدنيا أيضا، فقال له يوسف: إنِّي عارف بهما جميعا.

(فقه) وإنَّما طلب الجعل على خزائن الأرض ليقوم بمصالح العباد، وهذا الطلب واجب عليه لأنَّه يجب على الأنبياء القيام بمصالح الأمم دينا ودنيا[1]، ولولا ذلك الطلب لماتت أمم بالجوع. ووصف نفسه بالحفظ والعلم ليتوصَّل إلى مصالح العباد والقيام بالدين لا ترفُّعا، ووصْفُ النفس بذلك لغرضٍ جائزٌ شرعا، أو واجب غير مكروه ولا محرَّم، بل هو من الشرع، ويجب حيث يجب، فلا يشكل على ذلك

١- وكذلك على من يستطيع من غيرهم قال الشيخ السالمي رحمه الله:

والاهتمام بمصالح الورى فرض على كلِّ امرئ ما قدرا

قوله ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «**لا تسأل الإمارة، فإنّك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها**»[١] لأنَّ الحديث في طلبها لغرض النفس من مال أو فخر.

وعن مجاهد: إنَّ الملك أسلم على يد يوسف قبل هذا الطلب، مع أنَّا لا نسلّم أنَّ طلب الولاية من مشرك أو موحِّد جائز لإقامة الدين أو مصالح الخلق ممنوع، إذا كان غرض الطالب ذلك، ولا يتبعه في جوره أو ديانته، وإلاَّ فحرام، كبعض قضاة العصر يطلبونها أو يقبلونها، ويتَّبعون أحكامهم، ويوفِّرون مصالحهم[٢]، ويقصدون جمع الأموال، ويحكمون تارة بالجهل وتارة بالجور عمدا، قال ابن عَبَّاس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «**رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكنّه أخّر ذلك سنة**» رواه البغوي ولا أعرف أنّه صحيح.

﴿**وَكَذَٰلِكَ**﴾ أي كما أنجيناه من السجن، أو كما مكّناه من عبر الرؤيا، أو تأكيد لَمَّا بعدُ. ﴿**مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الاَرْضِ**﴾ أرض مصر، وهي أربعون فرسخا في أربعين فرسخا، فـ«الـ» للعهد، والمراد مكَّنَّا الأمور أو مكَّنَّا يوسف على زيادة اللام. ﴿**يَتَبَوَّأُ**﴾ ينزل ﴿**مِنْهَا**﴾ أي في بعضها فـ«مِنْ» تبعيضيَّة، أو فيها، ويضعف أن يكون المعنى: يتّخذ بعضها منزلا. ﴿**حَيْثُ**﴾ متعلّق بـ«يَتَبَوَّأُ» وزعم بعض أنّه مفعول لـ«مَكَّنَّا» ﴿**يَشَآءُ**﴾ أي هو يوسف، وهو الظاهر، أو الله على طريق

١- رواه **البخاري** في كتاب الأيمان والنذور، باب قوله تعالى: ﴿لاَ يُوَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ...﴾، رقم ٦٢٤٨. ورواه **مسلم** في كتاب الأيمان، رقم ٣١٢٠. ورواه **الترمذي** في كتاب النذور والأيمان. من حديث عبد الرحمن بن سمرة.

٢- الضمير يعود للمشركين والحكّام الجورة.

الالتفات، كما قرئ: «نَشَآءُ» بالنون، وهي قراءة غير قراءتنا عن نافع، وكما يناسبه قوله: ﴿نُصِيبُ﴾ بالنون.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ في الدنيا المؤمن والكافر، وقيل: المراد الكافر، والمراد التوسيع وإلاَّ فكلُّ حيٍّ في نعمة من الله ولو في أضيق عيش، قال الله ﷻ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ, فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ (سورة الإسراء: ١٨) أي نوسِّع له وهو كافر، فالنعمة تصيب الكافر ولا يشكرها، ولا وجه لقولك: لا نعمة على كافر، إلاَّ [على] معنى أنَّه يزيد بها كفرا فينتقم منه.

﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في الدنيا ولا في الآخرة، وقد يوفِّر للمحسن للآخرة وليس التوفير تضييعا.

قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والكافر يعجَّل له في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية، والحكم أكثريٌّ لا كلِّيٌّ، وفي الحديث: «**أشدُّ الناس بلاء الأنبياء ثمَّ الأمثل فالأمثل**»[1]. وأيضا قيَّد المشيئة بالنسبة إلى مجموع الدنيا والآخرة.

(قصص) أعطاه الملك تاجه وسيفه وخاتمه، وسريره الذي هو مذهَّب مكلَّل باليواقيت في طول ثلاثين ذراعا وعرض عشرة، وثلاثين فراشا وستِّين نمرقة، وحلَّة من استبرق فأمره أن يطلع السرير فخرج إليه بالتاج، ووجهه كالقمر يرى فيه الوجه من صفائه، ودانت له الملوك.

وقيل قال: أَشُدُّ بالسرير ملكك وأدبِّر أمرك بالخاتم، ولا أقبل التاج، فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال الملك: تركته إجلالا لك، ودخل يوسف على زليخاء

١- رواه الترمذي في كتاب الزهد (٥٦) باب ما جاء في الصبر والبلاء، رقم ٢٣٩٨. وأورده الهندي في الكنز، ج٣، ص٦٧٧٨. من حديث مصعب بن سعد.

أو راعيل ووجدها عذراء ناعمة فقال لها: أليس هذا الحلال أولى؟ فقالت: لا تلمني أيُّها الصدِّيق فإنّي ناعمة وزوجي لا يشتهي النساء وأنت في جمالك الفائق[1].

(قصص) وروي أنَّه أحبَّها أضعاف حبِّها فقال: ما شأن حبِّك لي نقص؟ فقالت: لشغل قلبي بحبِّ الله، وروي أنَّها تصلِّي فجذبها فقدَّ قميصها من دبر، قال جبريل: قد انقدَّ.

(قصص) واشتغل يوسف ببناء البيوت للطعام، ويقال: إنَّه كان يعطي الملك وحاشيته مرَّة نصف النهار، قيل: وأوَّل من أصاب الجوع الملك نصف الليل فنادى: يا يوسف الجوع الجوع، فقال يوسف: هذا أوَّل وقت القحط، وكان يوسف لا يشبع فقيل له: بيدك خزائن الطعام! فقال: أخاف نسيان الجائع إن شبعت، وأمر أن يطبخ للملك نصف النهار لئلاَّ ينسى الملك من جاع، فكانت عادة الملوك الأكل نصف النهار، وفي أوَّل المجدبة قال الله عز وجل لجبريل: «ألاَ ترى كيف يأكل عبادي رزقي ويعبدون غيري؟ اهبط عليهم بالجوع» فنادى ليلا: يا أهل مصر جوعوا سبع سنين فانتبهوا جائعين، قيل: فلا مطر ولا نبات ولا ريح، ولا نهر يجري ولا حمار ينهق، ولا ثور يصيح، ولا دَابَّة تحمل، ولا طائر يفرِّخ للضعف بالجوع، هلك في الأولى كلُّ ما أعدُّوه، وباع لهم بالنقود وفي الثانية بالحليِّ والجواهر، وفي الثالثة بالدوابِّ، وفي الرابعة بالعبيد والجواري، وفي الخامسة بالضياع، وفي السادسة

١- وردت زيادة في نسخة (أ) وفي الطبعة العمانية نصُّها: «وشهر أنَّه تزوَّجها بعد عماها وكبرها وفقرها، وكانت تتكفَّف فتعطى أو تمنع، فقيل لها: لو تعرَّضت ليوسف إذا خرج، وكان يخرج في مائة ألف من عظماء قومه كلَّ أسبوع، ففعلت، فقالت: سبحان من جعل العبيد ملوكا بالطاعة والملوك عبيدا بالمعصية، فقال: ما هذا فعرفها وبكى شديدا وتزوَّجها، وزفَّت إليه فصلَّت وراءه ودعا الله أن يردَّ بصرها وشبابها وجمالها. وروي أنَّه قال لها لَمَّا تعرَّضت له: هل بقي من حبِّك شيء؟ فقالت: خذ طرف عكَّازي، فكان يندفع في يده متَّصلا بصدرها».

بأولادهم، وفي السابعة برقابهم، فقال للملك كيف رأيت صنع الله ربّنا فيما أعطاني؟ فقال: لك الرأي ونحن تبع لك، فقال: أشهد الله وأشهدك أنّي أعتقتهم ورددت لهم أموالهم.

وعن مجاهد لم يزل يلطف بالملك حتّى أسلم وأسلم معه كثير، ومات في حياة يوسف، ولم يثبت إيمان العزيز. قيل: أصاب القحط أهل الدنيا، وقيل: مصر والشام وكنعان.

﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِّلذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ لا ينفع التوحيد بلا تقوى، ومقتضى الظاهر: «خير لهم» بردِّ الضمير إلى المحسنين، ولكن أظهر ليصفهم بالتوحيد والتقوى بعد وصفهم بالإحسان، وكان لا يبيع لأحد أكثر من حمل بعير ليكفي الباقين.

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قدوم أولاد يعقوب للامتيار

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ العشرة دون بنيامين من ثغور الشام من فلسطين، أهل بادية وإبل وشياه إلى مصر ليشتروا الطعام لَمَّا سمعوا هم وأبوهم بملك في مصر، حسن السيرة يبيع الطعام، أو أخبرهم أبوهم عليه السلام. ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ بأوّل نظرة بدليل فاء ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾، كما قال ابن عبَّاس ومجاهد، كما دلَّت عليه

الفاء، و لم يؤثّر فيه بُعد عهدهـم لبقـاء الشـكل وتشـابه أحوالهـم بـأحوالهم السـابقة، ولكونه مهتمًّا بهم، وبالاطّلاع على أحوالهم، ولا سيما وقت القحط، وكان مترقّبا لتأويل رؤياه، وليس كما قيل إنّهم انتسبوا له: نحن بنو فلان، حين أرادوا الدخـول، وتردُّه الفاء الثانية، فمعرفته بعد دخولهم، إلاّ بتـأويل «دَخَلُوا» بـإرادة الدخـول ولا دليل له، حيث لا معتمد على صحَّة أنسابهم عند إرادة الدخول.

وقال الحسن: لم يعرفهم حتَّى تعرَّفوا إليه وتـردُّه الفـاء الدَّالـَّة علـى الاتـِّصَال، والتأويل يحتاج لدليل صحيح. ﴿**وَهُمْ لَهُ, مُنكِرُونَ**﴾ لا يعرفونه لبعد العهد، وظنّهم أنَّه مات في بريَّة، أو في عُبُودِيَّة، فارقوه منذ أربعين سنة، وأيضا رأوه على السـرير في زي الملوك متوَّجا، حتَّى إنَّه لو قيل: هذا يوسف لأنكـروه، ولذلـك وا لله أعلـم قال: وهم إِيَّاهُ لا يعرفون، وقيل كلَّمهم من بعيد أو من وراء ستر، أو بالواسطة مع السـتر أو البعـد، أو ا لله منعهـم مـن معرفتـه مـع المقابلـة، كمـا وعـده ا لله ﷻ أنَّـه ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُـمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ (سورة يوسف: ١٥) فذلـك معجـزة، وصرَّحوا ليوسف أنَّه مات في برِّيَّة فيما روي أنَّهم كلَّموه بالعبريَّة.

(قصص) فقال زاجرا: لم جئتم؟ قالوا: للميرة، فقال: لعلّكم عيـون؟ قـالوا: معاذ ا لله، قال: من أين؟ قـالوا: مـن كنعـان وأبونـا يعقـوب نبيء ا لله، قـال: كـم أولاده؟ قالوا اثنا عشر هلـك أصغرنـا وأحبـُّنا إليـه في البرِّيـَّة، وأبقـى شـقيقه عنـده ليتسلّى به، فأنزلهم وأكرمهم، وقال: من يشهد؟ قالوا: نحن في بلدك غريبون، قـال: فأتوني بأخيكم إن صدقتم، واتركوا أحدكم هنا، فوقعت القرعة على شمعون، وقـد أبى من إلقائه في الجبِّ وخالفوه، وقيل: اختاره بلا قرعة لأنَّه أحسن إليه.

ويقال: قال لهم لعلّكم عيون تنظرون عورة بلـدي، قـالوا: لا، نحـن أولاد نـبيء ا لله تعالى، قال: إيتوا بمن يشهد لكم لستم عيونا، قالوا: نحن غربـاء لا يعرفنـا أحـد، قال: فدعوا عندي أحدا رهنا، و لم يجزم بـأنَّهم عيـون فـلا بهـت لأنَّـه قـال: لعلّكـم

عيون، و لم يقل أنتم عيون، فيكون أباح ا لله هذا القدر، وَلَمَّا قـالوا: أولاد يعقـوب طلب أخاهم.

ورجع الباقون إلى الشام بالميرة كما قال: ﴿**وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ**﴾ هيَّأ لهم مـا يحتاجون إليه في رجوعهم من الكيل الذي جاءوا لأجله وزيـادة، أعطى كـلَّ واحـد بعيرا من الطعام، وأَمَّـا البيع فلا يـبيع لأحد إلاَّ حمل بعير، فلعلَّه عدَّ لكلٍّ واحـد بـيع حمل بعير، ويقال: إنَّه يعطي كلَّ إنسان جـاء حمـلا، وطلبـوا حمـلا لـلأخ البـاقي عنـد أبـيهم بارتهان أحدهم، ليرجعوا به، وليثبت لهم الحمل الذي أعطاهم من أجله.

﴿**قَالَ ايتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنَ اَبِيكُمُ,**﴾ لأرى صدقكم، ولأبيع لكم مرَّة أخـرى إذا جئتم، وهو بنيامين، لم يقل: بأخيكم من أبـيكم، لأنَّ هـذا يناسـب أنـه عـارف به، وهو لا يريد أن يعرفوا أنَّه عرفه، فناسب أن يقـول: ﴿بِأَخٍ لَّكُم﴾ وهـذا ولـو كان لا يلزم لكن التفسير به هنا صحيح، ولا يعطِّله قوله: ﴿مِّنَ اَبِيكُمُ,﴾ فإنَّه يصحُّ إخفاء أنَّه عارف به، ولو من أبيكم، كما تقول في التـنكير: جـيء بغـلام لـك مـن قريش، فتكون تريد بعض بـيان مع بقاء التنكير، وذلك إطناب كقولـه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ا للهِ﴾ (سورة آل عمران: ١٥) .

﴿**أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّيَ أُوفِي الْكَيْلَ**﴾ المضـارع للاستمرار، فهـم رأوه أوفـى لهـم ولغيرهم، وسمعوا بإيفاءه، وأيضا رأوه أوفى لكلٍّ واحد وهم عشرة، وللحادي عشر الغائب بنيامين. وحذفت ياء «أوفِ الكيـل» في الخـطِّ[1] كمـا حذفـت في اللفـظ، لالتقاء السـاكنين رجوعا إلى الأصل في بعض المواضـع بـأن تحـذف في الخـطِّ كمـا

١- يبدو أنَّ هَذَا توهُّم من الشيخ رَحِمَهُ ا للهُ لأنَّ الياء لم تحذف خطًّا كما في الرسم العثماني.

حذفت في النطق.

﴿وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ للأضياف كما رأيتم فعلي معكم ومع غيركم، وكما سمعتم، أحسن إلى الضيف بالمنزل والإكرام، أو أرادهم خاصَّة في الجملتين، وإنَّما قال ذلك جلبا وحثًّا على ما أمرهم به لا امتنانا.

﴿فَإِن لَّمْ تَاتُونِي بِهِ﴾ إذا رجعتم لفكِّ الرهن شمعون وللميرة مرَّة أخرى ﴿فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ ولا أردُّ لكم شمعون، وإذا لم يكن منه كيل فأولى أن لا يكون لهم كيل من غيره، إذ بيوت الطعام بيده بإذن الله عَجَلَّ . ﴿وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ لا تقربوا من بلادي فضلا عن أن أكيل لكم، أو أحسن إليكم، ولهم قصد في الامتيار مرَّة أخرى بعد الامتيار الأوَّل، وأباح الله له ذلك مع أنَّ أباه في شدَّة من الجوع زيادة في امتحانه وزيادة في أجره.

ولا يصحُّ جعل «لاَ» نافية لأنَّه بعد جعلها نافية تحتاج إلى التأويل بالنهي، فاجعلها ناهية من أوَّل، اللهمَّ إلاَّ على معنى: وإن لم تأتوني به لم يثبت لكم قربي، وفيه عطف الخبر على الخبر، والفعليَّة على الاِسميَّة في إبقائها على معنى النفي، وعطف الإنشاء على الخبر والفعليَّضة على الاِسميَّة في غير ذلك.

﴿قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ في إتياننا به إليك. ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ كأنَّه قيل: سنراود عنه أباه سنراود عنه أباه، كقولك قام زيد قام زيد، أو المعنى: لا نقصِّر في المراودة، ولا نتوانى فيها، أو المعنى: سنأتي به باحتيال، أو المعنى: لقادرون على المراودة وعلى الإتيان به باحتيال، فمن شأننا فعل ما نريد، ولا يغلبنا أبونا عليه فإمَّا برضاه أو بحيلة.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ﴾ جمع قلَّة بمعنى الكثرة، غلمانه الكيالين للناس، وقد وكَّل بكلِّ رحل غلاما لكثرة المماليك وسعة ملكه، والاهتمام بالحفظ، وقابل الجمع

بالجمع في قوله: ﴿اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ﴾ ما جاءوا بـه للشراء ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ وقد وكَّل بكلِّ رحل غلاما يضع فيه بضاعة، كـلُّ رحـل ببضاعـة صاحبـه، وإن كـانت واحدة جعل بضاعة مطلقا في رحل مطلقا، وكانت نعالا وأدمـا. وأصـل البضاعـة: قطعة من المال تجمع للتجر بها، وهي هنا ثمن مـا اشـتروه. والرحـل: مـا علـى ظهـر المركوب، أو ما يفرش للراكب، أو ما يُوقَّى به ظهر المركوب.

وإنَّما ردَّ بضاعتهم ليعرفوا سخاءه فيرجعوا بأخيهم بنيامين إليـه، وهـو شـقيقه، فهو محتال في الإتيان به إليه، وليجدوا ما يرجعـون للمـيرة ثانيـا بـه إذ ذاك في زمـان فقر، ولأنَّ في أخذ الثمن عنهم وعن أبيهم لؤما لشدَّة الحاجة، وليحسن إليهـم بـلا استحياء منهم، ولعلمه أنَّهم لا يخونون، فإذا وجدوها رجعوا بها، ويناسب الرجوع استصحاب أخيهم بنيامين إليه، وذلك كلُّه مقبول في قوله:

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ تـرجٍّ أو تعليـل ﴿يَعْرِفُونَهَآ﴾ أنَّهـا مـالهم ردَّ إليهـم، وقيـل: لعلَّهـم يعرفون حقَّ ردِّها، وقيل: ذلـك تعليـل، أي ليعرفوهـا، ولا مـانع مـن تقديـر: لكـي يعرفوها ﴿إِذَا انقَلَبُواْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِـمْ﴾ وفرَّغـوا رحـالهم، فـإنَّ مـن لازم الرجـوع مـن السفر تفريغ الأوعية التي جيء بها من السفر، ولا سيما زمان الشدَّة.

﴿لَعَلَّهُـمْ يَرْجِعُونَ﴾ لمعرفتهـم أنَّهـا مـالهم ردَّ إليهـم، أو لتوهُّمهـم أنَّهـا وَهِـمَ فيردُّونها لديانـتهم بتحريـم مـال النـاس، أو لظـنٍّ أنَّـه اختـبرهم وجرَّبهـم، فـالمعنى: يرجوعون إليه بها، أو يرجعونها أي يردُّونها، من رجع اللازم أو المعتدِّي.

وقيل: ردَّها تكرُّما على أبيه وإخوته وهو من أولاد الكرام، حتَّـى زعـم بعـض أنَّه وجب عليه ردُّها إليهم للشدَّة والصلة، ويعارضه قوله: ﴿لَعَلَّهُـمْ يَرْجِعُونَ﴾ ولا سيما إن فسِّر بالتعليل، وقيل: ذلك توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعدُ، والتعبية ظاهرة في أنَّ ذلك بطريق التفضُّل، وقيل: منع من أن يكيل لبنيـامين وردَّ بعـيره غـير محمَّل على أنه لم يعطه وسقا.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٦٣ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٦٦ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨ ﴾

طلب أبناء يعقوب إرسال أخيهم معهم ووصيته لهم

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ﴾ وصلوا، كما يطلق على أوّل الانقلاب ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ﴾ وهم تسعة لأنَّ شمعون ارْتُهنَ عند يوسف، على أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم وهو بنيامين ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ مرَّة أخرى إن لم ترسل أخانا معنا إلى الكيل أو قالوا إلى العزيز سلطان مصر، لا زوج زليخاء، وجائر مصر فرعون، وَعَدنا الكيل لنا وله إن أتينا به، أو منع مِنَّا الكيل مطلقا إن لم نأت به، فالممنوع كيل معهود، أو مطلق، بمعنى سيمنعنا منه دون الناس ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ بنيامين ﴿نَكۡتَلۡ﴾ لم نمنع من الكيل، ويكون لكلٍّ واحد مِنَّا حمل بعير، وذلك أحد عشر حملا.

(صرف) والكلام متعلّق بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَاتُونِي بِهِ﴾ إلى قوله: ﴿أَبَاهُ﴾ وهو نفتعل من الكيل، والأصل نكتال حذفت الألف لسكون اللام، وأصل نكتال نكتَيِل بفتح المثنّاة وكسر الياء آخر الحروف، قلبت ألفا لتحرّكها بعد فتح.

﴿وَإِنَّا لَهُ, لَحَافِظُونَ﴾ عمَّا يكره، علموا أنّه عليه السلام خائف من تضييعه كما ضيَّعوا يوسف قبله، فسبقوا إلى ذكر الحفظ ﴿قَالَ﴾ أبوهم يعقوب وقد قال: ما لكم سلّمتم عليَّ سلاما ضعيفا؟ وما لي لم أسمع فيكم صوت شمعون ﴿هَلَ ـ امَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف، قال بعض المتأخّرين لا يؤتى لـ«هل» بمعادل، لا يقال: هل كان كذا أو لم يكن، وهل قام زيد أو قعد، إلاَّ إن كانت بمعنى الهمزة، أو للإضراب ﴿مِن قَبْلُ﴾ ما أمني لكم عليه إلاَّ كأمني لكم على يوسف من كونه واقعا على خداع منكم وخطر، رجع إلى إضرار، ومع هذا فإنّي أرسله معكم توكُّلا على الله عَجَلَ، بشرط أن تردُّوه عليَّ ﴿إِلاَّ أَنْ يُّحَاطَ بِكُمْ﴾ كما يأتي، ولَمَّا توكّل عليه قال الله له: لأَرُدَّنَّهما عليك إذ توكّلت عليَّ، ودلَّ على إرساله بقوله: ﴿فَا للهُ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو رحمته، وهو من كلام يعقوب.

قال: أرجو أن لا يجمع عليَّ مصيبتين: مصيبة بيوسف، وأخرى ببنيامين، أو ثلاثا بشمعون، إذ قال ذلك بعد إخبارهم ببقاء شمعون، ودعاه إلى إرساله معهم ـ مع فعلهم بيوسف [ما فعلوا] ـ شدَّةُ الزمان بالقحط، مع أنّه رأى منهم إحسانا بعد يوسف إليه، وأنّه لم ير من حسدهم لبنيامين مثل ما رأى منهم من الحسد ليوسف.

﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ﴾ غرائرهم وفرَّغوها، إذ التفريغ من لازم الفتح، على أنَّ البضاعات مدخلة في الحبوب مخفاة فيه، أو يراد مطلق الفتح على أنَّ البضاعات في أفواه الغرائر بلا إخفاء في الحبوب، فإن كانت دراهم خفي الأمر، وإن كانت

جلودا فكيف تخفى في أفواهها؟ إلاّ لطفا من ا لله وإكراما ليوسف، وهذا الكلام وقع قبل قولهم: ﴿يَآ أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ والواو لا ترتّب، ولا مانع من أنّهم قالوه بعد الفتح، وقيل: المتاع الطعام، ومعنى فتحه إظهاره فإنَّ المتاع ما ينتفع به مأكولا أو غيره.

﴿وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتِ اِلَيْهِمْ﴾ في داخل غرائرهم، وهي الأثمان التي اشتروا بها، الإضافة للاستغراق كلّها أو للحقيقة فالبضاعة بضائع، أو عدَّها كلُّها بضاعة واحدة، لم تتفرَّق على أنّه يكيل بعدد الرؤوس، ولو اجتمعوا على بضاعة واحدة.

﴿قَالُواْ يَآ أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ «مَا» نافية، والمعنى: ما نتعدَّى الحدَّ ونظلم الملك بكفر نعمته، لأنّه أحسن ضيافتنا وأوفى الكيل وردَّ علينا الثمن، أو استفهاميَّة مفعول لـ«نَبْغِي»، بمعنى أي شيء نطلب بعد هذا الإحسان؟ لو كان هذا الملك رجلا من أولاد يعقوب ما أكرمنا هذا الإكرام، وهو خير رجل أنزلنا وأكرمنا، لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا إكرامه، وهو أعظم الناس ملكا ولم نر مثله علما وحكما وخشوعا وسكينة ووقارًا، وإن كان لك شبيه فهو يشبهك، فقال لهم يعقوب: إذا رجعتم إلى مصر فأقرئوه مِنِّي السلام، وقولوا له: إنَّ أبانا يصلّي عليك ويدعو عليك بما أوليتنا، وقال لهم: أين شمعون؟ وقالوا: ارتهنه ملك مصر لنأتيه بينيامين.

وأيّ دليل على إحسانه إلينا نطلب بعد هذا الإحسان؟ وهو أنّه ردَّ لنا بضاعتنا بعدما أوفانا الكيل كما قال: ﴿هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتِ اِلَيْنَا﴾ وقد فتحوا متاعهم بحضرته وأروه البضاعة مردودة ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نرجع إليه بأخينا معها فيظهر له صدقنا معه بإتيانه بأخينا، ونأتي بالميرة إلى أهلنا، وهو الطعام مستعينين بالبضاعة الأولى، مع ما نضمُّ إليها مِمَّا يكون ثمنا لأخينا بنيامين.

(فقه) وإنفاق الأهل واجب ولو غاب الزوج، واستدانت زوجه فيما

يجب لها عليه بلا إسراف وجب عليه قضاء ذلك الدين، وينقص عنه ما أسرفت به، ولو أنفقت من مالها لم تدرك عليه في الحكم إلاَّ إن أشهدت على الإدراك.

﴿**وَنَحْفَظُ أَخَانَا**﴾ بنيامين ﴿**وَنَزْدَادُ**﴾ لأجله ﴿**كَيْلَ بَعِيرٍ**﴾ زيادة على ما لنا ولشمعون من الكيل ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الكيل لكلّنا الذي نرجوه بعد ﴿**كَيْلٌ يَسِيرٌ**﴾ سهل عند الملك لسعة ماله مع سخائه، استدلُّوا بإحسان سابق على إحسان مستقبل، كما شهر التوسُّل بإحسان سابق إلى إحسان لاحق.

أو ذلك الكيل الذي جئنا به يسير لا يكفينا فلا بدَّ من الرجوع للكيل لكن لا نجده إلاَّ بالذهاب بأخينا إليه، أو ذلك المذكور من ازدياد كيل بعير بأخينا سهل عند الملك، أو ذلك كيل يسير من كلام يعقوب خلط بكلامهم لجواز ذلك في الجملة، كما نصَّ عليه أبو حيَّان، والمعنى أنَّه لم يبلغ أن يخاطر فيه بالولد، لكن لا دليل عليه هنا فلا يرتكب.

﴿**قَالَ لَنُ ارْسِلَهُ, مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُوتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ا للهِ**﴾ عهدا مؤكَّدا باليمين أو بإشهاد ا لله، أو بالخروج من الدين، أو بالتزام ما يصعب كاعتكاف ثلاثة أشهر، ولكن الأخيران **بعيدان**، والثالث أبعد عن يعقوب ﷺ.

﴿**لَتَاتُنَّنِي بِهِ**﴾ جواب القسم وهو موثقا، لأنَّ المعنى حتَّى تؤتوني يمينا با لله لتأتنَّني به ﴿**إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ**﴾ أي على كلِّ حال إلاَّ حال الإحاطة بكم.

فالمصدر منصوب على الظرفيَّة، ومن منع هذا في مصدر غير صريح قدَّر مضافا أي وقت أن يحاط بكم، أو على معنى لا تمتنعون من الإتيان به لعلَّة مَّا إلاَّ لعلَّة الإحاطة بكم، وفي ذلك حذف العموم قبل الاستثناء في الإثبات، وهو وارد في كلام العرب، والغالب عند حذف المستثنى منه تقدُّم السلب، ولعلَّ «تَاتُنَّنِي» مضمَّنة معنى لا تتركون الإتيان به إلاَّ أن يحاط بكم، والإحاطة بفلان عبارة عن

هلاكه أو قرب هلاكه، وكأنّه قال: إلاّ أن تموتوا، أو لم يبق لكم طاقة بلا جبن ولا تقصير، ويجوز أن يكون الاستثناء منفصلا.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ قال لهم: قولوا: «والله رَبِّ محَمَّد، لنأتينّك به إلاّ أن يحاط بنا» وعن ابن عَبَّاس: طلب منهم أن يحلفوا بمحمّد ﷺ خاتم النبيئين وسيّد المرسلين، واستظهر بعض المحقّقين **أنّه لم يَصحّ**، [قلت:] وفيه الحلف بغير الله وغير فعله، وهو لا يجوز إلاّ لله ﷻ.

﴿قَالَ﴾ يعقوب ﴿اللهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أنا وأنتم من طلبي المَوْثِقَ، وإعطائكموه إيّاي ﴿وَكِيلٌ﴾ وكّلت الأمر إليه فيحفظه، ويردّه سالما، أو رقيب، لأنّ الوكيل بالأمر يراقبه، فأرسلَه معهم.

﴿وَقَالَ﴾ لهم ﴿يَـٰبَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ﴾ مصر ﴿مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنَ اَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لِئَلاّ تصابوا بالعين، فقد جمع السَّلَيْكُلا بين التوكّل مقدّما له، والحذر المأمور به شرعا، كما قال ﷺ: «**اِعقلها وتوكّل**»[1] وكما ظاهر بدرعين وقد توكّل، وقال الله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ (سورة النساء: ٧١ و١٠٢) ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (سورة البقرة: ١٩٤).

قال ﷺ: العين حقٌّ، وقال ﷺ: «**لو كان شيء يسبق القدر لقلت العين**»[2]. وروي: «لسبقته العين»، «**وإذا استغسلْتم فاغتسلوا**»[3] أي إذا طلب مِمَّن خيف منه العين فليغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره، وهو

١- أورده **أبو نعيم** في الحلية، ج٨، ص٣٩٠. **والهيثمي** في الموارد، رقم ٢٥٤٩. من حديث أنس.

٢- أورده **القطب** في جامع الشمل، رقم٢١٩٧ وقال: رواه أحمد ومسلم عن ابن عَبَّاس.

٣- رواه **مسلم** في كتاب السلام (١٦) باب الطب والمرض والرقى، رقم ٤٢ (٢١٨٨). ورواه **الترمذي** في كتاب الطب (١٧) باب ما جاء في الرقية من العين، رقم ٢٠٥٩. من حديث أسماء بنت عميس.

ما يلي جسده من الإزار، وقيل: وركيه، وقيل: مذاكيره، ويصبُّ ماء ذلك على رأس المعين يحكم عليه بذلك، و كان ﷺ يعوذ الحسن والحسين بقوله: **«أعوذ بكلمات ا لله التَّامَّة، من كلِّ شيطان وهامَّة، ومن كلِّ عين لامَّة»** ويقول: **«كان أبوكما يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق»**[1].

(أصول الدين) والعين يضرُّ بـ[ـإذن] ا لله تعالى، ومن قال يضرُّ استقلالا أشرك، ولا نعتقد أنَّ شيئا ينفصل من عين العائن إلى المعين فيضرُّه كما قيل، والرقيا من العين جائزة، ومن عرف بالعين حبس عن الناس، ورزق من بيت المال إن كان فقيرا. ويروى أنَّ نبيئا استكثر قومه فمات في ليلة مائة ألف، فشكا إلى ا لله سبحانه، فقال ا لله سبحانه: إنَّك استكثرتهم فعينتَهم، هلاَّ حصنتهم إذ استكثرتهم، قال: يا ربِّ كيف أحصِّنهم؟ قال: تقول: «حصَّنتكم بالحيِّ القيُّوم الذي لا يموت أبدا، ودفعت عنكم السوء بألف ألف لا حول ولا قوة إلاَّ با لله». قال ﷺ : **«اللهمَّ إنِّي أعوذ بكلماتك التامَّة من كلِّ هامَّة، ومن كلِّ عين لامَّة»** والهامَّة بالشدِّ واحدة الهوامِّ: الحيَّة وكلُّ ذي سمٍّ، والعين اللامَّة: الجامعة للشرِّ على من يصاب بالعين.

وكانوا طوالا سمانا ذوي جمال ومهابة، مشهورين بالكرامة عند الملك، وكانوا بني أب واحد، ولم يوصهم بذلك في المرَّة الأولى لأنَّهم مجهولون أوَّلاً، أو لمزيد خوفه على بنيامين. قيل: المراد بالدخول من أبواب متفرِّقة [عدم] الدخول جملة واحدة، فلو دخلوا واحدا واحدا لا بمرَّة لجاز، فالوحدة اعتباريَّة، والأبواب أربعة فيما قيل، فكأنَّه لمصر أحد عشر بابا على عددهم، أو أكثر من أحد عشر،

١- رواه **ابن ماجة** في كتاب الطب (٣٦) باب ما عوَّذ به النبيء ﷺ وما عوِّذ به، رقم ٣٥٢٥. **وأبو نعيم** في الحلية، ج٤، ص٧٩. من حديث ابن عبَّاس.

والدخول من اثنين أو ثلاثة محتمل للمحذور أيضا، وأمَّا الدخول من أربعة فلا محيد عنه إذ لم يكن لمصر أكثر من أربعة.

﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ا للهِ﴾ من قضاء ا لله ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لا أغني عنكم شيئا أي إغناء، أو لا أدفع عنكم شيئا، أو أي إغناء أغني عنكم ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ عليه قدِّم على متعلَّقه وهو «يَتوكَّلُ»، ولا صدر للام الأمر، والفاء للسببيَّة فإنَّ التوكُّل من يعقوب موجب [لهم]، وسبب لتوكُّل غيره، لأنَّه نبيء من ا لله يجب اتِّبَاعه فيما لم ينسخ، ولَمَّا قدَّم قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عن قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ كان فاصلا بين الواو والفاء فساغت الواو لمطلق الجمع. والفاء للسببيَّة، ويجوز تقدير معطوف بالواو، أي: عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ الآن ـ كما قيل ـ وأتوكَّل بعدُ؛ أو توكَّلت قبل تكلُّمي هذا وأتوكَّلُ الآن، وإنَّما ساغ تقديم ما بعد الفاء على الفاء لأنَّها هنا لمجرَّد السببيَّة دون العطف.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ مصر ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم﴾ أي من أبواب متفرِّقة ثلاث أو رباع أو مثنى أو آحاد وهو المتبادر. و«حَيْثُ» بمعنى المكان وهو هنا أربعة أبواب مصر. وجواب «لَمَّا» هو قوله: ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ا للهِ مِن شَيْءٍ﴾.

وقيل: محذوف، أي امتثلوا أو قضوا حاجة أبيهم، وفيه أنَّه لا فائدة في هذا الجواب وهي حرف، إذ لو كانت ظرفا لم يوجد لها متعلَّق، لأنَّ «مَا» النافية لها الصدر فلا يتعلَّق فيما بعدها، فيجاب بأنَّا لا نسلِّم أنَّ لها الصدر، وإن كان لها صدر فالظرف الشرطيُّ يخرقه، كما قيل في "إذا"؛ أو محذوف، أي قصدوا الملك أو حاجة أبيهم.

وقيل: جوابها: «ءَاوَى» وهو أيضا جواب لـ«لَمَّا» الثانية، لأنَّ دخولهم على يوسف عقب دخولهم مصر، كما تقول: لَمَّا جئتني ولَمَّا كلَّمتني أجبتك، وما بينها معترض؛ أو الجملة حال من واو «دَخَلُوا»، وضمير «كَانَ» عائد إلى

يعقوب، أو إلى رأيه، أو إلى دخولهم من حيث أمرهم أبوهم، وهو اتِّبَاعهم رأيه، **والمأصدق واحد.**

والمعنى: ما أغني عنهم في رفع العين بل رفعها ا لله، ولا يقال: إنَّه لم يغن عنهم ذلك إمساك أخيهم بنيامين، لأنَّه أمسكه يوسف، لأنَّا نقول: الكلام في الإغناء بدفع العين خَاصَّةً، بدليل الأمر بالدخول من أبواب، إذ لا يخفى أنَّ الدخول من أبواب لا يكون سببا لدفع إمساك بنيامين، وأيضا لا شعور ليعقوب بإمساكه حين أمرهم بالدخول من أبواب، وأيضا "شيء" نكرة في سياق السلب تعمُّ، وقد وقاهم ا لله من إصابة العين وهي شيء، وقد يقال: إنَّ إمساكه من جملة إصابة العين، لأنَّ إصابتها لا تختصُّ بموت أو ضرٍّ في البدن، وذكر بعض أنَّ المراد السوء مطلقا، وخصَّت العين لظهورها.

وحاصل الآية أنَّه لا يغني عنهم من قضاء ا لله شيءٌ، بل ا لله هو الدافع لِمَا دفع من العين، وما أغنى شيءٌ مِمَّا قضى ا لله من نسبتهم إلى السرقة، ومن إمساك بنيامين. ويجوز أن لا ضمير في «كَانَ» لِمَا مرَّ بل للشأن. والضمير في «يُغْنِي» لِمَا مرَّ وأن يكون «شيء» فاعل «يُغْنِي».

﴿**إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا**﴾ يعقوب، وهي دفع العين، أشفق أن تصيبهم. ومعنى ﴿قَضَاهَا﴾: أرادها أو أظهرها، وأعلم بها أولاده، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ (سورة الإسراء: ٤) والاستثناء منقطع، ويجوز أن يكون متَّصلا من باب قوله:

ولا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فلول من قراع الكتائب[1]

١- البيت للنابغة في مدح عمرو بن الحرث الغساني.

فالمعنى: ما أغنى عنهم ما وصَّاهم بـه أبوهـم إلاَّ شـفقة، ومـن المعلـوم أنَّ شفقة الأب مع قدرة الله هباء فما أغنى عنهم شيئا قطُّ، وقيل: فاعل «قَضَى» ضمير الدخول.

﴿وَإِنَّهُ, لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ بالوحي ونصب الحجـج ولذلـك لم يغـتر بتدبـيره بل فوَّض الأمر إلى الله ﷻ . و«مَا» مَصدَريـَّة، أي لتعليمناه، أو اسم [موصول]، أي الذي علَّمناه إيَّاهُ، وأَنَّ العلمَ الحفظُ والمراقبةُ. ﴿وَلَكِـنَّ أَكْـثَرَ النَّاسِ﴾ وهم المشركون ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ سـرَّ القـدر أنـه لا يغـني عنـه الحـذر، فيقصـر نظرهـم علـى الأسـباب، أو لا يعلمـون إلهـام الله ﷻ لأوليائـه، أو لا يعلمون وجـوب الحـذر، ورُدَّ بأنـه يأبـاه تخلُّـف المطلـوب مـن المبـادئ، أو لا يعلمون أنَّ يعقوب بهذه المثابة.

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ۝٧٣ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن

نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾

معرفة يوسف أخاه بنيامين وتحايله لإبقائه عنده

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في مجلس حكمه ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ ضمَّ ﴿إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ بعد أن قالوا له في مجلسه: هذا أخونا الذي أمرتنا أن نأتيك به، فقال: أحسنتم وسأجازيكم.

(قصص) فأنزلهم وأكرمهم، وأجلسهم على موائد مثنى وأفرد بنيامين فبكى، وقال: لو كان أخي يوسف حيًّا لجلست معه، وقالوا له: كان له أخ مات، فقال: فأنا أجلسه معي، وجعل لكلِّ اثنين فراشا وجعل بنيامين كذلك معه في فراشه، ولَمَّا أصبح قال: يكون هذا الرجل معي في منزلي، وأجرى لهم الطعام كذلك، ولَمَّا خلا به يوسف قال: ما اسمك؟ قال: بنيامين، قال: هل لك من ولد؟ قال: عشرة، وهل لك شقيق؟ قال: مات، قال: أتحبُّ أن أكونه؟ قال: ومن يجد مثلك أخا؟ لكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل، فبكى يوسف وعانقه، وقال: أنا شقيقك أخوك يوسف، فقال: لا أفارقك، فقال: يزداد أبونا غمًّا بحبسك، لكن أدسُّ الصاع في رحلك فتشتهر بالسرقة فأقبضك، وذلك أنَّ إمساكه لحدث أقلُّ ضررا على يعقوب بالنسبة إلى غير حدث، قال: افعل هذا وما شئت مِمَّا يسوء ولا أبالي، كما قال الله ﷻ:

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ الشقيق ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ لا يظهر عليك أثر الحزن كالنحول والصفرة وعدم الانبساط، وهذا معنى الابتئاس، والمراد ملزومه وسببه، فكأنَّه قيل: لا تحزن ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فينا من المضارِّ حسدا لنا، وأمره أن لا يخبرهم بأنَّه يوسف وبدسِّ الصاع.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ أصلح لهم عدَّتهم، وأوقر ركائبهم، وذلك تأكيد،

كقولك: نطقت بلساني، أو تجريد بالباء للمبالغة، كأنَّهم انتزع من جهازهم لكماله جهازا آخر. والفاء لسببيَّة الإيواء، لجعل السقاية، فهي داخلة على «جَعَلَ»، ولعدم السبب في لفظ التجهيز الأوَّل كان بالواو لا بالفاء، وفي الفاء تلويح بسرعة الرجوع، ولذلك لم يكن الأوَّل بالفاء أيضا، فإنَّ الأوَّل بطول مدَّة الإقامة ليتعرَّف الملك أحوالهم.

﴿جَعَلَ﴾ يوسف، وقيل غيره، لكن أسند الجعل إليه لأنَّه آمر ﴿السِّقَايَةَ﴾ وعاء من ذهب مرصَّع بالجواهر، وعن عكرمة من فضَّة مرصَّعة بالجواهر، وقيل: مموَّهة بالذهب، وقيل: من ذهب كان مشربا له، ثمَّ جعله مكيالا لعزَّة الطعام الذي يكال به، قيل: كانت مستطيلة تشبه المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه، وقيل: من فضَّة تسقي الدوابُّ بها ويكال بها ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ﴾ نادى ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ بعد مدَّة طويلة مثل أن ينفصلوا عن البلد أو عمرانه، أو دخلوا بلدة أخرى كما قيل: وصلوا بلبيس، ومعنى ﴿مُؤَذِّنٌ﴾ مَن شأنه أن يؤذِّن، أو رجل معروف بالنداء، ولعلَّه كرَّر النداء بدليل التشديد.

﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ العير هنا الناس الراجعون من السفر مع إبلهم الحاملة للميرة، وأصله الإبل الحاملة لها، لأنَّها تعير، أي تجيء وتذهب، ثمَّ صارت حقيقة عرفيَّة لها مع الذين معها، ولكن المراد هنا أهلها الذين معها للخطاب بالسرقة، أو الآية على الأصل المذكور، لكن سمِّي أهلها باسمها لعلاقة الجوار بالسير والمكث، وبالحمل لهم وعليها، وبالملك لها والرعي والسقي والإطعام، أو يقدَّر مضاف، أي يا أهل العير.

(لغة) ويطلق العير أيضا على كلِّ ما يحمل عليه من إبل وحمير وبغال، سمِّي [بذلك] لأنَّه يعير، أي يجيء ويذهب، وقيل: المراد هنا الحمير وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقيل: جمع عَير بفتح والعَير بفتحها: الحمار، فتكون القافلة حمرا

في هذا القول. وقد تطلق القافلة على المسافرين تفاؤلا بالرجوع.

والخطاب في الآية مثله في قوله ﷺ: «**يا خيل الله اركبي**»[1] رواه سعيد بن جبير. وعن قتادة بن النعمان: بعث ﷺ مناديا ينادي يوم الأحزاب: «يا خيل الله اركبي». وروي أنَّ أنس بن حارثة بن النعمان قال: يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة، فدعا له، فنودي يوما: يا خيل الله اركبي، وكان أوَّل راكب، وأوَّل فارس استشهد، فأطلق الخيل على أصحابها للجوار المذكور.

(صرف) وإذا قيل: جمع عَير بالفتح فأصله عُور بضمٍّ العين كسرت لتسلم الياء من قلبها واوا، وذلك كسقف بضمٍّ فإسكان جمع سقف بفتح فإسكان، وذلك شبيه بباب فُعْل بضمٍّ فإسكان في جمع أفعل وفعلاء، في الألوان والعيوب من معل العين كبيض في جمع أبيض وبيضاء، وإنَّما قال: «اركبي» لتأويل الفرسان بالجماعة.

[قلت:] ولا ظلم في خطاب الجماعة بالسرقة مع أنَّهم لم يسرقوا، لأنَّ الله ﷻ أباح له ذلك الخطاب، كما أباح له ما يزيد به حزن أبيه يعقوب، وكما أباح له نسبة السرقة إليهم بمعرضة لمصلحة، وَأَمَّا بلا إباحة من الله فيبحث فيه بأنَّ المعرضة تضرُّهم فلا تكون جوابا، وقيل: إنَّهم لا يتضرَّرون بذلك لظهور أنَّ ذلك حكم على المجموع، أي فيكم سارق فإنَّهم تعدَّدوا، وأيضا معهم غيرهم، بدليل قوله: ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وبنيامين متَّفق في ذلك مع يوسف راض كما مرَّ.

وَسَمَّى ذلك سرقة تجوُّزا للمشابهة، وأمَّا ما قيل: إنَّه أريد لسارقون يوسف من أبيه بأن شبَّه احتيالهم في أخذه بالسرقة، فيردُّه قوله: ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾

١- أورده **ابن كثير** في تفسيره، ج٣، ص٥٨. و**الطبري** أيضا في تفسيره، ج٦، ص١٣٣.

ويجاب بأنه أخفى أوَّلاً المسروق ليخرج عن الكذب، وأظهر ثانيا المراد وهو الصواع، ويجوز ـ على ضعف ـ أن يكون على حذف الاستفهام، أي أينَّكم لسارقون؟ أو قال المنادي ذلك بلا أمر من يوسف لَمَّا فقد الصواع شرع في البحث والنداء فيهم، لأنَّهم آخر من اكتال في ذلك اليوم، ولم يخبره يوسف بأنَّه هو أخفاه، ولا ظلم في عدم إخباره بأنَّه أخفاه لِمَا مرَّ.

﴿قَالُواْ﴾ أي أصحاب العير ﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ عطف الواو السابق على اللاحق، لأنَّ الإقبال متقدِّم على القول، أو الواو للحال، أي قالوا وقد أقبلوا، والضمير في «أَقْبَلُوا» على كلِّ حال لأصحاب العير كَوَاو «قَالُوا» ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ أي ما تفقدون، أو ما الذي تفقدونه، والهاء في «عَلَيْهِمْ» وواو «تَفْقِدُونَ» راجعان للمؤذِّن ومن معه من الرسل. لَمَّا وصلوا إلى إخوة يوسف قالوا: ألم نحسن ضيافتكم ونوفِّ كيلكم وأكرمناكم بما لم نكرم به غيركم؟ قالوا: بلى، فماذا؟ قالوا: فقدنا صواع الملك ولا نتَّهم غيركم، كما قال الله ﷻ:

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ صاعه، وهو السقاية المذكورة، والقول للرسل ولو كان من واحد فقط، وخصَّ المؤذِّن منهم نفسه بقوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جُعلا للمجيء به، ولو جاء به السارق. ولا جهالة في حمل بعير لأنَّه قدر معلوم، فيحلُّ عقدها للجاعل، ولا يحلُّ أخذها للسارق ﴿وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ﴾ كفيل من مالي، أو من مال الملك، أي ضامن، وإنَّما الكفالة تكون في الالتزام عن الغير ولا واجب على يوسف، فقد يجوز أن يكون المراد أنَّ ذلك لزم يوسف، وأنا أؤدِّي عنه من ماله أو مالي. أو ذلك من المجموع، إلاَّ قوله: ﴿وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ﴾ فمن المؤذِّن. ويترجَّح أنَّ الضمير في «قَالُوا» للمجموع، ولكن صدر من المؤذِّن إلى قوله: ﴿زَعِيمٌ﴾.

(فقه) وفي الآية جواز الجعل قبل الشروع في العمل وقبل الفراغ، وأنا

أختار أنَّ شرع من قبلنا شرع لنا، إذا لم يجئ ما ينقضه من القرآن أو السنَّة أو الإجماع، أو حجَّة ترجع إلى شيء من ذلك.

﴿قَالُواْ تَا للهِ﴾ قيل: قسم فيه معنى التعجُّب، كما تعجَّبوا في قولهم: ﴿تَا للهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾، ولا دليل على التعجُّب إلاَّ من خارج، كما ظهر من أحوالهم ما يدلُّ على صدقهم، من مواضبتهم على الصلاح حتَّى يسدُّوا أفواه دوابِّهم عن زروع الناس، وردُّوا البضاعة إذ ظنُّوا أَنَّهَا لم توضع في رحالهم بإذن الملك، كذا قيل، وفيه أنَّهم عرفوا من يوسف أنَّها عطيَّة، ألا ترى أنَّهم عدُّوها نعمة، إذ قالوا: ﴿مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتِ إِلَيْنَا﴾. وتاء القسم أصل برأسها، وقيل: بدلٌ عن واو القسم، كُتراث أصله وُراث، وذلك بدل صرفي، وقيل: بدل عن الباء أي عوض عنها في المعنى، فليس بدلا صرفيًّا.

﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا﴾ أرضكم ﴿لِنُفْسِدَ فِي الاَرْضِ﴾ أرضكم ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ما سرقنا قطُّ، وجملة «لَقَدْ...» جواب «تَا للهِ» لا قسم آخر مؤكِّد للأوَّل فلا تهم. نفوا الإفساد عن أنفسهم أوَّلا وهو أعمُّ من السرقة، ونفوا السرقة مع ذلك تأكيدا، وخصُّوها لأنَّ المقام لها وبها اتُّهموا.

﴿قَالُواْ﴾ أي المؤذِّن وأصحابه ﴿فَمَا جَزَآؤُهُ,﴾ أي جزاء الصواع أي ما العقاب الذي ترتَّب على سرقته، أو ما جزاء سرقته على حذف مضاف، أو ما جزاء السرق، أو ما جزاء السارق ﴿إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾ في قولكم «مَا كُنَّا سَارِقِينَ»، وحصول السرقة إفساد أيضا، وكأنَّه قيل: ما جزاؤه إن وجد فيكم؟. والفاء عاطفة لكلام المؤذِّن ومن معه على كلام إخوة يوسف.

﴿قَالُواْ﴾ أي إخوة يوسف ﴿جَزَآؤُهُ, مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ «مَنْ» مبتدأ شرطيَّة، وجوابها قوله: ﴿فَهُوَ جَزَآؤُهُ,﴾ والجملة خبر «جَزَآؤُهُ» والرابط كونها نفس المبتدأ في المعنى، وإعادته بلفظه أيضا، أو «مَنْ» موصولة خبر «جَزَآءُهُ»،

وجملة «هُوَ جَزَآؤُهُ» جواب لمحذوف، أي إذا وجد في رحل أحد فهو جزاؤه، أي فاسترقاقه جزاؤه؛ أو جزاء بمعنى ما يجزى به، والمجموع تأكيد لِمَا قبل، مقرون بالفاء، كأحد الأوجه في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ (سورة البقرة: ٣٩).

حكموا بشرعهم في أنَّ السارق عبد للمسروق منه. وأعاد الظاهر موضع المضمر، ولم يقل: فهو هو للإيضاح، والعرب إذا فخّمت شيئا أعادت لفظه بعينه.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ تقدَّم الكلام في مثل هذا التشبيه، والمراد بالظلم السرقة لأنَّها المذكورة هنا، ولأنَّ الاسترقاق جزاء لها لا لغيرها ﴿فَبَدَأَ﴾ المؤذّن ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ أوعية إخوة يوسف من جملة القافلة، وقيل الضمير في «بَدَأَ» ليوسف لقوله: ﴿ثُمَّ اَسْتَخْرَجَهَا مِن وِّعَآءِ اَخِيهِ﴾ لأنَّ الأخ أخ ليوسف لا للمؤذّن، وليس كذلك فإنَّ الهاء ليوسف قطعا، لكن لا مانع من ردِّ ضمير بدأ للمؤذّن، مع ردِّ الهاء ليوسف فإنَّ الكلام قبل للمؤذّن تارة وله مع من معه أخرى، وهو المقصود بالذات، فضمير «بَدَأَ» له لا ليوسف، وأيضا البدء للمؤذّن حقيق وليوسف مجاز، إذ لا يباشر البدء وكذا الاستخراج، والحقيقة أولى من المجاز، وعلى القول بردِّه إلى يوسف يكون التفتيش بردِّهم إلى مصر، وعلى كلٍّ العطف على محذوف تقديره أرادوا التفتيش، أو أريد التفتيش أو ردُّوا إلى مصر، فبدأ تفتيش أوعيتهم. والهاء لغير بنيامين من إخوة يوسف لقوله: ﴿قَبْلَ وِعَآءِ اَخِيهِ﴾ وهو تأكيد لِمَا فهم من قوله: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ وبيان لكون الضمير لإخوة بنيامين، ولا مانع من اعتبار أهل الرفقة كلِّهم في التفتيش، فبدأ منهم بإخوة يوسف.

﴿ثُمَّ اَسْتَخْرَجَهَا مِن وِّعَآءِ اَخِيهِ﴾ بنيامين زيادة في الإخفاء، ولو بدأ به لَتُوُهِّم الاتِّفَاق، وهذا على أنَّ المؤذّن عالم بالوضع، أو المفتّش يوسف لَمَّا أقرَّ إخوة يوسف بأنَّ السارق يسترقُّه صاحب المال في شرعهم، قال المؤذّن ومن معه: لا بدَّ من أن تفتّشوا واحدا بعد واحد.

[قلت:] ولا يقبل ما قيل من أنَّ يوسف لا ينظر في رحل أحدهم إلاَّ استغفر الله ﷻ مِمَّا قذفهم به لأنَّه غير قاذف، حتّى لم يبق إلاَّ بنيامين قال: ما أظنُّ هذا أخذ شيئا، وصدق أنَّه لم يأخذ لأنَّه ليس آخذا للصواع، بل جعله في رحله غيره، قال إخوة يوسف والله لا نتركك حتّى تنظر في رحله، فإنَّه أطيب لنفسك وأنفسنا، ففتح فوجد فيه.

وهاء «اسْتَخْرَجَهَا» عائد للصواع، لأنَّه يذكَّر ويؤنَّث، أو يذكَّر لكن أنِّث هنا لتأويل السقاية، أو عائد إلى السقاية، وهي نفس الصواع، وكأنَّه قيل: ثمَّ استخرج السقاية المجعولة في رحله التي ذكرت في قولنا: ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ وردَّ بعضهم الضمير إلى السرقة وهو ضعيف، لأنَّ إيقاع الاستخراج عليها مجاز مستغنى عنه، وإن أوِّل بمعنى المسروق فمجاز أيضا، قال له إخوته: كيف سرقت هذا يا ابن راحيل؟ فرفع رأسه إلى السماء فقال: والله ما سرقت، فقالوا: فمن جعلها في رحلك؟ قال: الذي جعل البضاعة في رحالكم.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا﴾ احتلنا ﴿لِيُوسُفَ﴾ كدنا له مثل ذلك الكيد العظيم، أو شبَّه ما يفهم من معاني الألفاظ بما هو الواقع المتشخِّص في نفس الأمر، وهذا وجه غريب تستحضره في مثل هذا المقام، وكذا يجوز جعل الكاف صلة للتأكيد، ويجوز عود الإشارة إلى حكم إخوة يوسف باسترقاق السارق.

وَلَمَّا أخرجوا الصواع من رحله نكَّس إخوته رؤوسهم من الحياء، وأقبلوا عليه يلومونه، ويقولون: فضحتنا وسوَّدت وجوهنا، يا بني راحيل ما زال لنا منكم بلاء متى أخذت هذا الصواع، فقال: بل بنو راحيل مازال عليهم بلاء منكم، ذهبتم بأخي فأهلكتموه في البرية، وضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع البضاعة في رحالكم، فاسترقَّ بنيامين. واللام للاستحقاق أو بمعنى في، أي في شأن يوسف، أو للتعليل.

﴿مَا كَانَ﴾ يوسف ﴿لِيَاخُذَ أَخَاهُ﴾ بنيامين ﴿فِي دِينِ﴾ في حكم ﴿الْمَلِكِ﴾ ملك مصر الريان مثلا، بل دينه ضرب السارق وتغريمه ما سرق، أو ردُّه مع الضرب إن كان موجودا لا استرقاق السارق، وقيل: الضرب ومثلان للمسروق، ويوسف في ظاهر الأمر هو من الملوك المتداولة على مصر من أهلها، فليس يعلم شرع يعقوب في السرقة وهو في الحقيقة عالم به، وقد استرقّته عمَّته إذ كان طفلا بدسِّها متاعا في لباسه، ولذلك دسَّ الصواع فيأخذ من هو في رحله.

﴿إِلاَّ أَن يَّشَآءَ ا للهُ﴾ أي إلاَّ بأن يشاء ا لله، ألهمه سؤال إخوته بنفسه أو بواسطة المؤذّن وهو يشاء جوابهم بسنَّتهم.

ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا، والمعنى: لكن شاء ا لله أخذه بغير دين الملك، على أنَّ يوسف لم يعلم ذلك أو علمه، وبحسب كونه غير ولد يعقوب في الظاهر لا يحكم بالأخذ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتِ مَن نَّشَآءُ﴾ رفع درجته كيوسف على إخوته ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ لا عالم في الخلق إلاَّ وفوقه أعلم منه، وا لله أعلم مِمَّن انتهى إليه العلم منهم.

(أصول الدين) أو فوق كلِّ عالم من الخلق عالم هو ا لله ﷻ، وعلمه ذاتيٌّ، ومن زعم أنَّ علمه بصفة زائدة على الذات حالَّة فيه أو مقترنة به، فقد شبَّه ا لله بخلقه، إذ عدَّد القدماء وجعله محتاجا إلى ما يعلم به، أو جعله محلاًّ للصفة.

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن

نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

نقاش حاد في السرقة المزعومة وحزن يعقوب ممّا حدث

﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ﴾ الصواع ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ وذلك منهم فجور، زلّوا به وليسوا أنبياء في الحال ولا قبل ولا بعد، والأخ هو يوسف، وهو وبنيامين أمُّهما واحدة هي راحيل من شأنهما السرقة، ولسنا نحن من أمِّهما فلم نأخذ طريقتهم في السرقة، وقالوا: «إِنْ يَّسْرِقْ»، بلفظ الشكِّ لعدم تحقُّق سرقته عندهم باستخراج من رحله، ولا ينافي هذا قولهم: «إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ» لأنَّ المقصود إنَّ ابنك سرق باعتبار

ما قيل، وبمجرَّد وجود الصاع في رحله. والمضارع لحكاية الحال الماضية، فإنَّ مقتضى الظاهر أن يقولوا: إن سرق فقد سرق أخ له من قبل صنما أو ثمثالا من ذهب من أبي أمِّه، سرقه فكسره وألقاه في الطريق، أو الجيف، أو تمثالا من الكنيسة فكسره وألقاه في ذلك، أو أعطاه سائلا، وقيل: دجاجة، أو عناقا، أو أخذ بيضة من البيت فأعطاها السائل، أو خبَّأ الطعام من المائدة ليعطيه الفقراء.

أو حضنته بعد موت أمِّه عمته وأحبَّته واحتالت في أن شدَّت على وسطه منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، وهي أكبر أولاده فتفقَّدتها فوجدوها على يوسف، وقال لها أبوه: إن كان ذلك فخذيه، والسارق في دينهم عبد لصاحب المال، وكان لا يقدر على مفارقته ساعة.

أو أرادوا **بالأخ مطلق أحد من بني آدم**، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ لأنَّ يوسف يظنُّ أنَّهم عنوه بالأخ وهم لم يعنوه. **﴿فَأَسَرَّهَا﴾** أسرَّ السرقة **﴿يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾** المنسوبة إليه لم يذكرها ولم يعاتبهم على نسبتها إليه، أو أسرَّ الحزازة، أو أسرَّ الإجابة، أو الكلمة وهي أعمُّ من الإجابة لصلوح أن يتكلَّم بدون أن يكون كلامه جوابا لهم، ولا إشكال في الإجابة لأنَّها حضرت في قلبه ولم يصرِّح بها، كما لا إشكال في الكلمة لأنَّه حضرت في قلبه ولم ينطق بها، أو أسرَّ نسبة السرقة إليه، وقد لا ينافيه قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنَّه ولو كان إظهارا لكن ليس فيه تصريح بأنَّ نسبتكم السرقة إليَّ بهتان، أو **أسرَّ الحجَّة عليهم**.

أو أسرَّ ما يفسِّره قوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ فإنَّ في قلبه قولا أسرَّه وهو أنَّه قال في قلبه: «أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا» أي أسرَّ القولة التي في قلبه، ولم ينطق بها، وهي قوله فيه: «أَنتُمْ شَرٌّ...» وأكَّد ذلك بقوله: **﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾** أي لم يظهرها لهم، وأبدل منه بدلا مطابقا قوله: **﴿قَالَ﴾** في قلبه أو بلسانه بعد أن قال في قلبه: **﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾** سمَّى ذلك كلَّه كلمة لجواز إطلاقها على

الجمل، والمعنى أنتم قبيحون منزلة عند الله فشرٌّ خارج عن التفضيل، ويجوز بقاؤه أي أنتم شرٌّ مكانا مِمَّن رميتموه بالسرقة لو صحَّت، لأنَّهم عقُّوا أباهم وأخاهم بالتفريق والإلقاء في الجبِّ والبيع والبهت والكذب والحسد، والله أعلم بما تصفونه في حقِّي، أو بوصفكم إيَّاي. و﴿أَعْلَمُ﴾: بمعنى عليم، أو باق على التفضيل على أنَّ لهم علما في السرقة غير محقَّق، مثل أن يسمعوا عمَّتهم أو غيرها تقول سرق، والله يعلم أنَّ الأمر ليس كما تقولون.

﴿قَالُواْ يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ هو هنا وصف، ولذلك تبع به أيُّها وليس علما، ولا يقال يا أَيُّهَا الحارث ويراد به رجل يسمَّى حارثا، فكأنَّه قيل: يا أَيُّهَا الملك العزيز الشأن ﴿إِنَّ لَهُ,﴾ لأخينا الذي أخذته ﴿أَبًا شَيْخًا﴾ نعت لـ«أَبًا» ﴿كَبِيرًا﴾ هرما كبير السنِّ، فإنَّ الشيخ من حين شاب أو دخل الخمسين، ولا يهرم من فوق الخمسين إلاَّ إن عمّر كثيرا، أو **كبير القدر** عند الله لأنَّه نبيء ابن نبيء ابن نبيء، أو أرادوا كبر السنِّ والقدر ﴿فَخُذَ اَحَدَنَا مَكَانَهُ,﴾ بدله واستعبده، وإنَّما كان المكان بمعنى البدل، لأنَّ بدل الشيء يكون مكانه، ويتمكَّن فيه، فكنَّى به عن البدل ﴿إِنَّا نَرٰيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ شهدنا إحسانك معنا ومع غيرنا، وعلمناه، وهذا من التوسُّل في الإحسان بالإحسان السابق، أو نراك من المحسنين بردِّك إِيَّاهُ لنا إن رددته، وهذا لا يتبادر.

(قصص) وزعموا أنَّ أقواهم روبيل، وقيل: شمعون، وكان إذا صاح ألقت كلُّ حامل حملها إذا سمعت صوته، وإذا غضب قام شعره حتَّى ينفذ ثوبه، لَمَّا أخذ يوسف بنيامين بالصاع قال: أردده إلينا وإلاَّ صحت فتضع الحوامل، واشتدَّ غضبه، وقال لإخوته: اكفوني الملك وأكفيكم أهل مصر، أو أكفيكموه واكفونيهم، وكانوا إذا مسَّهم يعقوب أو ولده ذلُّوا واتَّضعوا، فأمر يوسف بنيامين أن يقوم قريبا منه فيمسَّه، ففعل ففتر، وقال: من مسَّني منكم إنَّ هنا أحدا من أولاد يعقوب، ثمَّ

عاود فتقدَّم إليه يوسف فقبض يده وضربه برجله، فوقع على الأرض وقال ذليلا: ﴿يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ, أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ اَحَدَنَا مَكَانَهُ,...﴾ والقائل واحد وأسند القول لهم على طريق الكلِّ لا الكلّية، أو لرضى الباقين.

﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ ا للهِ أَن نَّاخُذَ﴾ نعوذ با لله عوذا أن نأخذ، وهذا في معنى النفي، ولهذا صحَّ التفريغ بقوله: ﴿إِلاَّ مَن وَّجَدْنَا مَتَاعَنَا﴾ أي الصواع، لم يقل: إلاَّ من سرق متاعنا مع أنَّه أقلُّ لفظا لأنَّه ذكر في الاستفتاء ذكر المتاع، أو للاحتراز عن الكذب ﴿عِندَهُ,﴾ وهو بنيامين ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إذا أخذنا غيره على فرض أنَّا أخذنا غيره ومضى الأخذ، أو إذا أخذنا غيره كما طلبتم منّا ﴿لَظَالِمُونَ﴾ لأنفسنا بتبديل الدين، وللمأخوذ بأخذ غير الفاعل مكان الفاعل، و لم يقل: إلاَّ من سرق متاعنا تحرُّزا عن الكذب، وقد مرَّ تخلُّصه من الكذب في كلِّ موضع يوهم الكذب، وبقي أن يقال: كيف يسوغ له أن لا يخبر يعقوب بأنِّي في مصر؟ وكيف يأخذ بنيامين ونحو ذلك مِمَّا يغمُّ يعقوب؟ الجواب: إنَّ ا لله ﷻ أمره بذلك فيعظم أجرهما.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُواْ مِنْهُ﴾ أيسوا يأسا عظيما من العزيز يوسف أن يردَّ إليهم بنيامين، أو مِن بنيامين، أو مِن أن يأخذ أحدهم مكانه، والإيَّاس من الذات أشدُّ مبالغة من الردِّ أو الأخذ، ويجوز أن يكون ا لله قد قضى بخلاصه ﴿خَلَصُواْ﴾ خلُّوا عن يوسف ومن معه بالانفراد عنهم وترك الخلطة ﴿نَجِيًّا﴾ حال مقارنة بأن يتناجوا حال الذهاب عنهم، أو مقدَّرة أي ناوين التناجي، بمعنى التكلُّم سرًّا من بعض مع بعض مشاورة.

(صرف) وهو فعيل بمعنى مفاعل بضمِّ الميم كالعشير بمعنى معاشر، والخليط بمعنى مخالط، وأفرد لأنَّه بوزن المصدر كالصهيل والمصدر يجوز إطلاقه على الواحد وغيره، وقيل: هو اسم موضوع لِمَا فوق الواحد، كقوم للثلاثة فصاعدا، وهو

مصدر للمبالغة كأنَّهم نفس النجوى، أو يقدَّر ذوي نجيٍ وهو حال.

وكأنه قيل: بم تناجوا؟ فقال: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ سنًّا روبيل أو كبيرهم رأيا يهوذا أو كبيرهم رئاسة شمعون ﴿أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدَ اَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ عظيما كما مرَّ ﴿مِنَ ا للهِ﴾ في ردِّ أخيكم إليه، لكن قال: ﴿إِلاَّ أَن يُّحَاطَ بِكُمْ﴾ ولم يعدُّوا إمساك الملك إحاطة بهم، لأنَّهم يرجون حيلة تخلّصه منه، أو عدُّوه إحاطة لكن تفاوضوا في الكلام، وعدُّوا الموثق من ا لله مع أنَّه منهم لأنه بخلقه وأمره ولأنَّ الحلف به.

﴿وَمِن قَبْلُ﴾ خبر ﴿مَا فَرَّطْتُمْ﴾ «مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر مبتدأ، أي وتفريطكم ثابت من قبل أن تأتوا ببنيامين، أو من قبل أن يمسكه العزيز، أو «مَا» صلة و«مِن قَبْلُ» يتعلّق بـ«فَرَّطْتُّمْ» أي وفرطتم من قبل، وقد جاز جعل الظرف المقطوع حالا وخبرا، ونعتا عند بعض، ولا سيما إذا كان المضاف إليه معلوما.

﴿فِي يُوسُفَ﴾ أي في شأنه، أو «مَا» مَصدَرِيَّة والمصدر معطوف على مفعول «تَعْلَمُوا» وهو مفرد كما أنَّ «أَبَاكُم...» في تأويل المفرد، وجاز لأَنَّ «تعلم» بمعنى تعرف، أو لاشتمال الكلام على المسند والمسند إليه، أو عطف معمولين على معمولين، أي وإن من قبل تفريطا.

﴿فَلَنَ اَبْرَحَ الاَرْضَ حَتَّىٰ يَاذَنَ لِي أَبِيَ أَوْ يَحْكُمَ ا للهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ عدِّي «أبرح» للمفعول به لتضمُّن معنى أفارق، أي لن أفارق أرض مصر حتَّى يأذن لي أبي في الرجوع إليه، أو يحكم ا لله لي بخلاص أخي، أو بالموت أو بالمقابلة مع الملك وهو أعدل الحاكمين.

﴿ارْجِعُواْ إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ﴾...الخ هذا من كلام كبيرهم، ويبعد ما قيل: إنَّه من كلام يوسف، أي قولوا معتذرين ﴿يَآ أَبَانَآ إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ الصواع

فأمسكه الملك و لم نقدر على المجيء بـه فجئـنا بدونـه، كمـا قلـتَ: «إلاَّ أَنْ يُّحَـاطَ بِكُمْ» فلا تـتَّهمنا به كما اتَّـهمتـنا بيوسف، يعنون أنَّه سرق في ظاهر الأمر لوجـود الصاع في رحله.

وا لله أعلم بحقيقة الحال كما قال: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ بظـاهر حالـه من وجود الصاع في رحله، والشهادة هنا الإخبار ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ بـل ا لله يعلم هل سرق، فلعلَّ أحدا أراد الانتـقام منه فدسَّه في رحلـه، أو أراد الملـك أخذه بنفسه فدسَّ، أو كان في رحله خطأ، وأيضا قال: وضع الصاع فيه من وضـع البضائع في رحالكم.

والغيب: ما غاب عَنَّا، أو غيـب يوسف في ليله ونهـاره، ومجيئـه وذهابـه، أو الغيب كونه يسرق، لو علمنا أنَّه سيسرق، ولو علمنا ما ذهبنا به، أو لـو علمنـا أنَّـه تصاب به. واللام للتقوية.

ويبعد ما قيل: إنَّ الغيب الليل من لغة حمير، أي لم نحفظ الليل على ما يقع فيـه فلعلَّه سرق فيه، أو دلَّس عليه مكرا فاللام للتقوية أيضا، وكون الليل محفوظـا مجـاز، أو بمعنى في، [قلت:] **ولا داعي إلى أن يفسَّر القرآن بمـا لا يتـبادر ولا بغير لغة قريش.** وإنَّما أعطيناك الموثق، وقلنا: «نَحْفَظُ أَخَانَا» على مـا لنـا إليـه سبـيل، قـال رسول ﷺ : «**إذا علمت مثل الشمس فاشهد**»[1].

﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ اسأل أهل القرية التي كُنَّا فيهـا، وهـي مصـر، على أنَّهم ردُّوا إليها للتفتيش، أو قرية بعدها على أنَّهم لم يردُّوا إليها، وتطلق القريـة أيضا على أهلها مجازا أو حقيقة، وسمِّيت القرية قرية لأنَّها تقري الناس، أي تجمعهم،

١- أورده **الزيلعي** في نصب الراية، ج٤، ص٨٢. **والعلجوني** في الكشف، ج٢، ص٩٣.

يقال: قريت الماء في الحوض جمعته.

والأولى أنَّ المراد مصر لأنَّ قوله: ﴿كُنَّا فِيهَا﴾ يناسبه أشدَّ المناسبة، لطول الكون فيها، ولأنَّ الكون فيها مقصود بالذات، وأمَّا القرية الأخرى فلم يطل مكثهم فيها، وما معنى الكون فيها إلاَّ كونهم فيها حين استخراج الصاع على هذا القول، ومعنى قولهم: «اسأل القرية» أرسل إلى أهلها يجيبوك، لأنَّ يعقوب في الشام لا في مصر وأعمالها، والمراد اسألهم عن القصَّة.

﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ أهل العير التي أقبلنا فيها أو العير التي أقبلنا فيها، كلُّه اسم للناس، وهم غيرنا جمعنا سفر واحد، بل الظرفية تدلُّ على أنَّ الأكثر غيرهم، أو «في» بمعنى مع، فيكون المتبوع هو الأصل فهم تابعون، فيتبادر أنَّهم أقلُّ والأصل الظرفيَّة.

﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ إنَّا قوم عادتنا الصدق فما يكون ما أخبرناك به إلاَّ حقًّا، وقيل: إنَّا لصادقون في قولنا: إنَّه سرق بحسب الظاهر، ويدلُّ له قوله ﴿بَلْ سَوَّلَتْ...﴾ وقيل: **المراد** اسأل القرية والعير على ظاهرهما بناء على أنَّ الأمر ظاهر حتَّى لا يخفى عن الجماد والإبل، كقوله:

واسأل نجوم الليل هل زار الكرى جفني ....[1]

وهذا أيضا مجاز.

هذا آخر كلام كبيرهم الذي أمرهم أن يقولوه لأبيهم، إذا رجعوا إليه، فقالوا له: نعم نقوله، فرجعوا إليه، وقالوه له، فأجابهم بما قال الله عنه في قوله:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ ليس الأمر كما قلتم بل زيَّنت وسهَّلت، أو خيَّلت أنَّه

١- في الطبعة العمانية زيادة: «وكيف يزور من لم يعرف».

سرق وما سرق، والإضراب بـ«بَلْ» عن دعواهم الصدق، أي لم تصدقوا بل سوَّلت، بمعنى أنَّ ما شاهدتم ولو صدقتم فيه غير خال عن تضمُّن ما ينقضه، أو الإضراب عَمَّا يتضمَّنه من البراءة عن التسبُّب فيما نزل بأخيهم، كما أفتوا باسترقاق السارق، وليس من دين الملك، وفي معنى ذلك تقدير المحذوف أي ليس حقيقة كما أخبرتم بل سوَّلت، أو الإضراب عَمَّا طمعوا فيه من الخروج عن التهمة لذلك الإفتاء، وما فعلوا بيوسف، أو إضراب عن جعلهم وجود الصواع في رحله سرقة مجزوما بها.

﴿لَكُمُ, أَنفُسُكُمُ, أَمْرًا﴾ فعلتموه كيدا في إهلاكه، أو تغييبه، وهب أنَّه سرق فمن أدرى الملك أنَّ السارق يسترقُّ بسرقته؟ وإنَّما يعلم ذلك من جهتكم، قيل: وكان استرقاق السارق شرعا ليعقوب والأنبياء قبله، وقد علمه من قولهم: ﴿جَـزَآؤُهُ, مَن وُّجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ وإنَّما سعى في أن لا يخبروه لأنَّه يظنُّ أنَّ الملك مشرك حاشاه، والمشرك لا يملك موحِّدا كما أنَّ دماء المشركين والموحِّدين لا تتكافأ.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فأمري صبر جميل، أو فصبر جميل أحسن، أو فالواجب صبر جميل، أو فعَلَيَّ صبر جميل.

[قلت:] **من الصبر الجميل أن لا تتحدَّث بمصيبتك، ولا تزكِّي نفسك.**

اتَّهمهم لِمَا رأى منهم في يوسف، ولعلم الملك بالاسترقاق، واستفيد أنَّ الظنَّ ولو قويت أماراته وكان من أفاضل الناس لا يؤمن كذبه، فهذا يعقوب صفيُّ الله ظنَّ وأخطأ في هذا الظنِّ، لأنَّه لا كيد لهم في إمساك بنيامين.

﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَّاتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يكمل لي إتيانهم جميعا فقد جاء واحد وهو كبيرهم، رجع بعد ما قال: «فَلَنَ اَبْرَحَ الاَرْضَ» وبقي اثنان يقدر الله أن يَأتِيَانِي فيكون قد أتوني جميعا، أو الهاء لاثنين: بنيامين ويوسف، أو لهما وللكبير، على أنَّه لم يرجع إلى أبيه.

و«عَسَى» منه السَّلام جزم لعلمه بحياة يوسف، وبأنَّه سيجتمعون من الوحي، أو ترجٍّ على احتمال أنَّ لاجتماعهم شرطا اختلَّ، أو تملُّق إلى ا لله وتضرُّع، ولو جزم، أو خاف لعلَّ اجتماعهم بعد موته، وكذلك قال لعزرائيل: هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا، وقد يخشى قبضه بعد قوله: لا، **إذا تناهت الشدَّة أتى الفرج**، وأيضا قال يوسف: إذا أتيتم أباكم فاقرؤوا له السلام وقولوا له: إنَّ ملك مصر يدعو أن لا تموت حتَّى ترى ولدك يوسف، فيعلم أنَّ في مصر صديقا.

﴿**إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ**﴾ بحالي وحالهم وبكلِّ شيء ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ في تدبير الأشياء وأحوالها ﴿**وَتَوَلَّى**﴾ أعرض ﴿**عَنْهُمْ**﴾ لأنَّه لم ير منهم ما يسرُّه، في شأن يوسف وأخيه أو أخويه، وترك خطابهم إذ لا يفيده.

﴿**وَقَالَ**﴾ إذ بلغ جهده بيوسف ﴿**يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ**﴾ ياحزني الشديد أحضر، فهذا أوانك، هذا ظاهر اللفظ، والمراد الكناية على التحسُّر، فإنَّه معلوم أنَّ غير الحيوان لا ينادى، فنداؤه استعارة مكنيَّة، هيَّج حزنه على يوسف بحدوث موجب لحزن آخر، كان يتسلَّى بعض تسلٍّ عنه ببنيامين إذ كانا من أمٍّ، وَلَمَّا غاب عنه زاد حزنه، وكان حبُّه يوسف أعظم من حبِّه بنيامين وهو القاعدة في حزنه حتَّى إنَّ حزنه غضٌّ طريٌّ ولو قدم.

وأيضا هو واثق بحياة روبيل وبنيامين دون يوسف، وهذا قبل أن يقول له عزرائيل: إنَّ يوسف حيٌّ، أو بعده وخاف أنَّه مات. وألف «أَسَفَى» ضمير جرٍّ للمتكلِّم قلبت الياء ولو ساكنة ألفا بعد فتحة ولا يشترط تحرُّكها للقلب، لأنَّ ذلك شرط في الياء التي هي حرف من الكلمة لا في ياء المتكلِّم فلا تهم، وقيل: الألف للندبة وهاؤها مقدَّرة، وذلك شكوى إلى ا لله لا إلى غيره، ولا جَزَعٌ، كأنَّه قال: يا أرحم الراحمين اشتدَّ حزني.

روى الطبراني وابن مردويه والبيهقي عن سعيد بن جبير عنه ﷺ: «**لم تعط**

أمَّة من الأمم: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصيبة إلاَّ أمَّة محمَّد ﷺ»[1] ألا ترى إلى قول يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع، وقال: «يَآ أَسَفَىٰ»، وفيه مع لفظ يوسف تجنيس.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ لكثرة بكائه، فالحزن سبب بعيد لبياض العين، وكثرة البكاء سبب قريب، فأقيم سبب السبب مقام السبب تنبيها على كمال السَّببيَّة البعيدة، كأنَّه محق الدموع سواد عينيه لاستمراره ولا ضعف لبصره، وهذا هو الراجح فيما قيل، ولا يعارضه ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فإنَّه معناه زوال تلك الدموع التي صار بها كالأعمى، وقيل: زال نظره وعمي، كما هو ظاهر قوله: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾.

[قلت:] ولا مانع من حدوث العمى أو الجذام ونحو ذلك للأنبياء بعد التبليغ بالحجج والمعجزات، وقيل: ضعف بصره تحقيقا ثمَّ ارتدَّ بصيرا كامل البصر. ويروى: فارق يوسف يعقوب ثمانين سنة ودموعه تجري فيها حتَّى ذهب بصره، وما على الأرض يومئذ أكرم على الله تعالى منه، ويروى أنَّ جبريل دخل على يوسف في السجن فقال: هل لك علم بيعقوب وحاله؟ فقال: ابيضَّت عيناه من الحزن عليك حزن سبعين مثكلة وله على ذلك أجر مائة شهيد.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مكظوم مملوء من الهمِّ كقربة مملوءة شدَّ على فيها، لم يزله أو بعضه بالشكوى إلى الخلق أو بالجزع، ففي ذلك استعارة مكنيَّة شبَّه بالقربة ورمز إليها بلازمها وهو الكظم، ولم يمنعه ذلك عن ذكر الله، وعبادته ومناجاته، وانشراح صدره، أو هو كظيم بمعنى كاظم، أي شادٌّ على نفسه من أن تجزع، أو

١- ذكره الشيخ في الجزء الثاني ص٣٢٠ بلفظ: «ما أعطي الاسترجاع لأحد قبل أمَّتي» وقد غفلنا عن تخريجه، أورده **المنذري** في الترغيب، كتاب الجنائز، باب في كلمات يقولهنَّ من مات له ميِّت، من حديث ابن عبَّاس.

تشكو لغير ا لله ﷻ، فيجوز أن يكون من كظم البعير جرَّته إذا ردَّها إلى بطنه، فذلك استعارة مكنيَّة أيضا.

(فقه) والتأسُّف والحزن والبكاء غير حرام ما لم يكن جزع أو صياح أو نياحة، ولطم الخدِّ والصدر وشقُّ الجيب، وربَّما لم يدخل تحت التكليف، ولَمَّا مات ولد رسول ا لله ﷺ إبراهيم بكى، وقال: «**القلب يجزع، والعين تدمع، وأنا لا أقول ما يسخط الربَّ، وإنَّا عليك يا إبراهيم لمحزونون**»[1]. ورفع إليه ولد لبعض بناته يجود بنفسه ووضعه في حجره ففاضت عيناه ﷺ، وقال له سعد: ما هذا يا رسول ا لله؟ فقال: «هذه رحمة جعلها ا لله فيمن شاء من عباده، وإنَّما يرحم ا لله من عباده الرحماء». ﴿**قَالُواْ**﴾ تسلية له الطِّيلا ولذلك أجابهم بأنِّي لست أشكو إليكم ولا إلى غيركم، بل إلى ا لله ﷻ، قال ﷺ: «**من كنوز البرِّ كتمان الصدقة والمصائب والأمراض**»[2].

﴿**تَا للهِ تَفْتَؤُاْ**﴾ لا تفتأ أي لا تزال ﴿**تَذْكُرُ يُوسُفَ**﴾ بالتوجُّع عليه، وإنَّما حذف لا النافية للعلم بالنفي من المقام، فإنَّه لا يناسب أنَّ تا لله تترك ذكر يوسف، ولأنَّه لو لم تقدر لأكِّد الفعل بالنون واللام على حدِّ ﴿تَا للهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾، وذلك كثير حتَّى إنَّه لو قيل: تا لله أحبُّك، لكان المعنى: لا أحبُّك بالنفي، ولو أريد الإثبات لقيل: لأحبنَّك، قال شاعر:

فقلت لها: تا لله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي[3]

١- أورده **ابن حجر** في كتابه الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف، ص٩٠.

٢- أورده **الشوكاني** في الفوائد، ص٢٦٣، رقم ٨١٧ (١٧٠) بلفظ مقارب.

٣- البيت من قصيدة لامرئ القيس مطلعها:

ألا عم صباحا أيها الطلل البالي

=

فالآية من التورية إذا أريد المعنى البعيد، وهو تقدير النفي لا القريب الذي هو إبقاء الكلام على ظاهره من الإثبات، وإنّما حلفوا على حسب ما ظهر لهم من الأمر الغالب، والداعي إلى الحلف قصد تسلّيه عن يوسف.

﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضا مشرفا على الهلاك، أو الحرض الذي أذابه همٌّ أو مرض، وأصله مصدر وصار يطلق على الذات المفردة وما فوقها ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ الموتى، و«أَوْ» لمنع الخلو لا لمنع الجمع، لجواز أن يكون مشرفا على الموت ويموت بعد، نعم باعتبار حالة واحدة لمنع الجمع لأنّه حال الحرض غير ميِّت، وحين الموت خرج عن الحرض.

ويقال: «أَوْ» بمعنى إلى، أو بمعنى بل، قال بعض المحقّقين: فلا يردُّ عليه أنَّ حقَّ هذا التقديم على «حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا» وأنَّه إن كانت للترديد فهي لمنع الخلوِّ، والتقديم على ترتيب الوجود كقوله تعالى: ﴿لاَ تَاخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٥) أو لأنّه أكثر وقوعا.

﴿قَالَ﴾ مجيبا لهم بأنّه لا يذكر يوسف مُهْمَلاً أو جزعا، بل يذكره تضرُّعا إلى الله ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيَ إِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره. البثُّ: تفريق الشيء وإظهاره منتشرا، كبثِّ الريح التراب، واستعمل فيما لا يطاق ففرِّق على متعدِّد، فهو بمعنى مفعول واستعارة تصريحيَّة، أو بمعنى فاعل أي الغمُّ الذي فرَّق الفكر وهو أشدُّ الحزن، فكأنَّه قال: أشكوا حزني الشديد، وحزني الذي دونه إلى الله لا إلى غيره، لأنَّ غيره لا قدرة له على إزالته فلا يخيب داعيه.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ من رحمته، ومن حياة يوسف، زاره

=

وذكر في أوضح المسالك بلفظ: «فقلت يمين الله» عوض «فقلت لها تا لله».

عزرائيل فقال له: أَيُّهَا الملك الطيِّب ريحه، الحسن صورته الكريم على ربِّه، هل قبضت روح ابني يوسف؟ قال: لا، فطابت نفسه، ولذلك قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ وأيضا علم برؤيا يوسف إنَّ إخوته يسجدون له، وأيضا لَمَّا أخبر بحسن سيرة ملك مصر وديانته رجا أنَّه يوسف، وعلم أنَّه حيٌّ ولا يدري أين هو؟ قال رسول الله ﷺ: «**كان ليعقوب أخ في الله، فقال له: ما الذي أذهب بصرك؟ قال: البكاء على يوسف، وما قوَّس ظهرك؟ قال: الحزن على بنيامين، وقال له جبريل: إنَّ الله يقرئك السلام، ويقول لك: أما تستحي تشكو إلى غيري؟ فقال: إنَّما أشكو بثِّي وحزني إلى الله، فقال جبريل: ربُّك أعلم منك**»[1]، أو الله أعلم بما تشكو.

كأنَّه أشار إلى ما قد لا يخلو عنه البشر طبعا، أو كره الله منه أن يقول بحضرة الناس: «يا أسفي على يوسف»، مع أنَّه لم يَشْكُ إليهم.

وأخرج ابن أبي حاتم عن النضر أنَّه قال: بلغني أنَّ يعقوب عليه السلام مكث أربعة وعشرين عاما لا يدري أيوسف حيٌّ أم ميِّت؟ حتَّى تمثَّل له ملك الموت، فقال: من أنت؟ قال: أنا ملك الموت، فقال: أنشدك بإله يعقوب عليه السلام هل قبضت روح يوسف؟ قال: لا، فعند ذلك قال ما في قوله تعالى:

﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَاْيْئَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ, لاَ يَاْيْئَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾ وقوله: لا يدري أيوسف حيٌّ مخالف لِمَا علم من رؤيا يوسف، فإنَّه علم بها أنَّهم سيجتمعون معه، ويسجدون له، وكذا يعقوب وخالة يوسف، وبكلام عزرائيل، وبفتور روبيل

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٤، ص٣٦، من حديث أنس. وقال: رواه ابن أبي حاتم و الطبراني في الأوسط، ج٧، ص٦٢، رقم ٦١٠١. وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الشعب مع زيادة.

بمسٍّ بنيامين، و لم يأمرهم بالذهاب إلى موضع معيَّن، ولعلَّه أمرهم بالذهاب إلى مصر لعلمه بأنَّ فيها بنيامين وروبيل، ولأنَّ فيها الملك المحسن فلعلَّه يعينهم على البحث عنهما.

وقد روي عن عبد ا لله بن يزيد بن أبي فروة أنَّ يعقوب الطَّيْلاً كتب إلى يوسف الطَّيْلاً : «من يعقوب عبد ا لله بن إسحاق ذبيح ا لله، ابن إبراهيم خليل ا لله، إلى ملك مصر، أما بعد: فإنَّا أهل بيت البلاء ألقي جدِّي إبراهيم في النار مشدود اليدين والرجلين، وعمِّي إسماعيل اغترب في مكَّة، وأبي إسحاق أمر بذبحه فصبروا لأمر ا لله عَجَلَّ، ولي ابن أحبُّ أولادي إليَّ وأتلفه إخوته، وقالوا: أكله الذئب، فذهبت عيناي، وله أخ شقيق أتسلَّى به، وحبستَه وزعمتَ أنَّه سرق، فإنَّا أهل بيت لا نسرق، فإن لم تردده دعوت عليك دعوة تلحق السابع من ولدك»، فذهبوا بالكتاب إلى يوسف في مصر متحسِّسين عنه، فقيل: بكى لَمَّا قرأ الكتاب وكتب إليه: «اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا».

(لغة) والتحسُّس: البحث بالحاسَّة عن الشيء كالتجسُّس بالجيم، كما قرئ به، لكنَّ الغالب في الجيم البحث عن السوء، وبالمهملة على السواء، وقيل: غالبها الخير كما هنا، ومن خصَّه بالسوء ردَّ عليه بالقراءة به، وقيل: هو بالجيم تعرُّف حال مَّا، وبالمهملة تعرُّف ما يدرك بالحسِّ، فهو أعمُّ مِمَّا بالمهملة. و«مِنْ» بمعنى عن، أو للتبعيض على حذف مضاف، أي بعض أخبار يوسف وأخيه، وهو بنيامين، وأمَّا روبيل أو شمعون فعلم أنَّه في مصر باختياره حتَّى يأذن له أبوه في الرجوع، أو يحكم ا لله، ورَوْح ا للهِ: رحمته، مستعار من روح القلب، وهو استراحته من الغمِّ، كأنَّه قيل: لا تيأسوا من راحة لقلوبكم تأتيكم من ا لله، أو مستعار من الروح بمعنى النفَس بفتح الفاء للفرج.

(أصول الدين) والإيَّاس من رحمة الدنيا كفر كما هو من رحمة الآخرة كفر، وأمَّا الإيَّاس من الخلق فجائز، والكفر هنا بمعنى الشرك، أو **مطلق الفسق**، وذلك تغليظ في الزجر، أمَّا الفاسق غير المشرك فلقسوة قلبه وإعراضه، وأمَّا المشرك فلقصوره عن إدراك خصال التوحيد، وذكر بعض قومنا أنَّ الموحِّد إذا أيس فإيَّاسه شرك.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

تعرُّف أولاد يعقوب على يوسف في المرَّة الثالثة واعترافهم بخطئهم وعفوه عنهم

وذهبوا يتحسَّسون **﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾** خرجوا من عند أبيهم للتحسُّس إلى مصر ودخلوها ودخلوا على يوسف، ولَمَّا دخلوا عليه **﴿قَالُواْ يَآ أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾** هذه مرَّة ثالثة في دخول مصر، الأولى ليكتالوا، والثانية ليرجعوا

بنيامين إليها، ويزدادوا كيل بعير، وهذه للتحسُّس، ولكن قدَّموا ذكر مسِّ الضرِّ وهو الجوع وطلب إيفاء الكيل والتصدُّق، لأنَّ المتحسِّس يستعمل كلَّ ما يظنُّ أنَّه يتوصَّل به إلى مطلوبه، فاعترفوا له بالمسكنة أوَّلا ليقابلها بما يصلحها من الإيفاء والتصدُّق، وذلك استجلاب للرأفة، فإن رقَّ لهم طلبوا بنيامين وسألوه العمل في يوسف، وإلاَّ شرعوا لا محالة في بنيامين ويوسف أو سكتوا.

والبضاعة: ما يشترى به أو يباع، والمزجاة: التي تدفع على صاحبها لقلَّتها، أو خسَّتها، أو لهما وهو المتبادر من المقام، والخسيسة قد تكون قليلة وقد تكون كثيرة، والقليلة قد تكون خسيسة وقد تكون جيِّدة، وذلك عموم وخصوص من وجه، [وقد قيل:] كانت دراهم زيوفا تؤخذ بوضيعة، أو صوفا أو سمنا وحبَّ الصنوبر والحبَّة الخضراء المأكولة من البطم، ويعصر منها الزيت، أو الإقط وسويق المقل، أو الفستق مع الصنوبر وسمَّاه بعض الحبَّة الخضراء، ويقال: المقل الدوم، ويقال: سمغ شجرة، والزيف يكون بخلط النحاس مثلا، ويقال: نحاس مطليٌّ بمعقود الزئبق مع الكبريت.

وجعل مسُّ الضرِّ علَّة لإيفاء الكيل والتصدُّق، أو المجيء بالبضاعة المزجاة علَّة لهما لبنائها على مسِّ الضرِّ، والمراد: أوف الكيل ولا تنظر إلى رداءة بضاعة فتنقصه، أو اقبلها كالجيِّدة، وزد على ما تسوى الجيِّدة، أو أوفه بردِّ أخينا، وتصدَّق علينا زيادة على ذلك كلِّه، لا في مقابلة ثمن، أو التصدُّق بردِّ بنيامين.

(فقه) وأخطأ من قال: إنَّ إخوة يوسف أنبياء لأفعالهم، فلا شكَّ أنَّه تحلُّ لهم الصدقة لأنَّها ولو حرمت على الأنبياء كلِّهم لكن لم تحرم على آلهم، كما حرمت على آل سيِّدنا محمَّد ﷺ مثله، وذكر بعض أنَّها حرمت عليهم وعلى آلهم، ولعلَّهم طلبوا الصدقة لأنفسهم وهم غير أنبياء، لا ليعقوب النبيء، فإمَّا أن لا يعطوه

منها وإمَّا أن يعطوه منها، لأنَّها لم تطلب له كما قال ﷺ في لحم: «**إنَّه صدقة على بريرة وهديَّة لنا**»[1].

والمشهور أنَّ الصدقة حرمت على النبيء ﷺ وعلى آله، لا على الأنبياء قبله، وهو المتبادر من قوله: ﴿فَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ لكن يحتمل التصدُّق بردِّه بنيامين، وأيضا التصدُّق على كلِّ أحد هبة، والهبة لكلِّ أحد، وكأنَّهم قالوا: وهبْ لنا، وأيضا تطلق على التفضُّل مطلقا، كما جاء: «**إنَّ القصر** [في السفر] **صدقة تصدَّق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»[2]. بقي أن يقال: الأنسب إذا كانت لنبيء لا تسمَّى صدقة، والصدقة في العرف ما يبتغى به الثواب، ولذلك ردَّ الحسن على من قال: «اللهمَّ تصدَّق علينا» وقال: «قل اللهمَّ أعطنا وتفضَّل علينا» ولا يعارض بهذا الحديث، لأنَّ القائل ليس بليغا يتصرَّف في كلامه ولئلاَّ يشرَّع في الناس، أو هو في الحديث للمشاكلة، وقالوا: «يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ» لا إنَّ الله يجزيك لأنَّهم لا يعرفونه مؤمنا وظنُّوه كافرا، كملوك مصر.

وَلَمَّا قالوا ذلك رقَّ لهم فقال ما في قوله تعالى: ﴿**قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ**﴾ من الضرب والشتم، والإلقاء في البئر والبيع والنسبة إلى السرقة، والتفريق له عن أبيه وأهله ﴿**وَأَخِيهِ**﴾ بنيامين، من إذلاله حتَّى لا يكلِّمهم إلاَّ في عجز وذلٍّ، ولا يجد ذكر أخيه يوسف إلاَّ في ذلك، ومن تفريقهم بينه وبين يوسف، وقولهم له لَمَّا خرج الصاع من رحله: ما رأينا منكم يا بني راحيل خيرا. والاستفهام توبيخ ليتوبوا، أو تقريع كذلك، والمراد: هل علمتم قبح ما فعلتم أو عقابه من الله.

١- رواه **البخاري في** كتاب الهبة (٦) باب قبول الهدية، رقم ٢٤٣٨. من حديث أنس.

٢- رواه **مسلم في** كتاب المسافرين (١) باب رقم ٤ (٦٨٦). ورواه **الترمذي في** كتاب التفسير (٥) باب ومن سورة النساء، رقم ٣٠٣٤. من حديث عمر بن الخطاب بنفس المعنى وزيادة.

وفي قوله: ﴿إِذَ انتُمْ جَاهِلُونَ﴾ تليين لهم، كأنَّه علَّمهم الاعتذار، وسهَّل لهم لجهلهم، جعل عمدهم كالجهل، لأنَّ غير العامل بما علم كالجاهل في عدم العمل، أو ﴿جَاهِلُونَ﴾: سفهاء كأنَّهم صبيان، أو جاهلون عاقبة أمري من النبوءة والملك، أو عقاب فعلكم أو قبحه.

﴿قَالُواْ أَ.نكَ لأَنتَ يُوسُفُ﴾؟ قالوا بالاستفهام لا بالجزم، لأنَّهم ظنُّوا ظنًّا أنَّه يوسف لجماله، ولعلمه بما فعلوا في يوسف وأخيه، وإن قالوا هذا بعد علمهم تحقيقا بأنَّه يوسف فالاستفهام تعجُّب أو زيادة تيقُّن، أو تقرير، ويدلُّ على أنَّه بعد علمهم التأكيد بأن واللام وتكرير الضمير، والاستفهام الحقيقي ينافي التأكيد، وقد قيل: عرفوه لَمَّا كشف وجهه لهم وتبسَّم، وقيل: رفع التاج عن رأسه فرأوا في قرنه علامة تشبه الشامة البيضاء كشامة جدَّته سارة، وشامة أبيه يعقوب، قيل: عرفوه لِمَا رأوا من خصاله، وقيل: بوجهه أظهره لهم في ذلك الوقت فقط ومن قبل ستر وجهه، أو يكلِّمهم من وراء الستر تارة ومستور الوجه أخرى، وقيل: لَمَّا قرأ كتاب يعقوب رقَّ فأخبرهم أنَّه يوسف.

﴿قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ﴾ لم يقل أنا هو، أو هو أنا لزيادة الإيضاح وتعظيم ما فعلوا به، وما عوِّض من النصر والملك، كأنَّه قال: أنا يوسف المعروف بالإلقاء في الجبِّ، وسائر مساويكم به، صرت إلى ما ترون، ولذلك أيضا قال: ﴿وَهَـٰذَآ أَخِي﴾ شقيقي بنيامين ـ مع أنَّهم عرفوه ـ وأيضا هو مظلوم مثلي، وأيضا زاد به تعريفا لنفسه وتفخيما لشأنه، وإدخالا في قوله: ﴿قَدْ مَنَّ ا لله عَلَيْنَآ﴾ بالسلامة، وبالاجتماع بعد الفرقة، والقعود على بساط الملك وسلامة الدين.

﴿إِنَّهُ,﴾ أي الشأن ﴿مَنْ يَّتَّقِ﴾ الذنوب ويخش ا لله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على الطاعات والبلايا وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ ا لله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أجرهم

اعتبارًا لِمعنى «مَنْ» بعد اعتبار لفظه، وأظهر في موضع الإضمار لِيُبَيِّنَ علَّة الحكم، أي عدم الإضاعة لإحسانهم، ولِيُبَيِّنَ أنَّ المحسن من جمع التقوى والصبر، أو الإحسان هو الإخلاص فيلوِّح إلى أنْ لا عبرة للتقوى والصبر بلا إخلاص، بناء على أنَّه لم يشمله لفظ التقوى، كما تذكر العام على قصد أن لا يدخل فيه خاصٌّ، فتذكر الخاص بعد أو قبل. والرابط نفس المحسنين لأنَّهم هم الذين اتَّقوا وصبروا لا العموم، إلاَّ إن أريد بـ«مَنْ» يوسف وأخوه أو أهل بيته خاصَّةً.

﴿قَالُواْ تَا للهِ لَقَدَ ـ اثَـرَكَ ا للهُ عَلَيْنَا﴾ اختارك علينا بالصبر والعقل، والحلم والعلم والملك والتقوى، والجمال والإحسان وحسن الخلق، وما قيل: إنَّه أراد قتلهم ثمَّ رقَّ عليهم بذكرهم أباه واغتمامه به وبنيامين فكيف بهم لا يصحُّ ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ مذنبين في صنعنا معك، ولذلك جعلنا ا للهُ أذلاَّء لك خاضعين.

﴿قَالَ لاَ تَثْرِيبَ﴾ لا عتاب كثيرا، بل قليل كما مرَّ أنَّه وبَّخهم، وإن لم يكن توبيخ فالمبالغة راجعة إلى النفي، أي انتفى التثريب انتفاء بليغا، وذلك أنَّ الأصل ثرب ثربا كضرب ضربا شدِّد للمبالغة، ولَمَّا استحقُّوا المبالغة في العتاب لمبالغتهم في الشرِّ تركها عفوا، استعارة من التثريب بمعنى إزالة الشحم عن اللحم، فيبقى هزيلا، فلو عدَّ ذنوبهم عليهم لزال كمالهم كما زال كمال اللحم ﴿عَلَيْكُمُ﴾ خبر.

(نحو) ﴿الْيَوْمَ﴾ متعلِّق بما تعلَّق به «عَلَيْكُمْ»، أو بـ«عَلَيْكُمْ»، لنيابته ولو علق «عَلَيْكُمْ» بـ«تَثْرِيبَ» لنوِّن عند البصريين، وأجاز البغداديُّون نصب المشبَّه بالمضاف بلا تنوين، نحو: لا طالع جبلا، ويجوز تقدير الخبر، أي لا تثريب يقع عليكم، كما قدِّر في قوله ﷺ: «**لا مانع لِمَا أعطيت**»[1] لا

١- رواه **البخاري** في كتاب الأذان (١٧) باب الذكر بعد الصلاة، رقم ٨٠٨، من حديث المغيرة بن شعبة. ورواه **مسلم** في كتاب الصلاة، رقم ٧٣٦. من حديث أبي سعيد الخدري. ورواه **الربيع**

=

مانع[1]، وعدم التنوين في ذلك للبناء أو للتخفيف، قولان، و«الـ» للعهد الحضوري، وهو يومهم ذلك الذي أظهر لهم يوسف فيه نفسه، فإذا انتفى التثريب فيه مع أنَّه وقت شدَّة الغضب انتفى بعد بأولى، بل نفيه اليوم نفي لِمَا بعد، أو يتعلَّق بقوله:

﴿يَغْفِرُ ا للهُ لَكُمْ﴾ ذنوبكم التي في شأني، دعاء بليغ حتَّى كأنَّه قد أجيب، فهو يخبر بأنَّه وقع الغفران في الحال، أو يقع في وقت مستقبل، ولوَّح بكونه على صورة الإخبار إلى العلَّة، كأنَّه قيل لا تثريب عليكم لأنَّه يغفر لكم ا لله، ولا يتحقَّق التعليل لأنَّ ذلك على الإنشاء لا خارج له.

(بلاغة) وما قيل من أنَّ الإنشاء لا يعمل فيما قبله غلط، فكما يقال: إيَّاي ارحم يا رَبِّ يقال: إيَّاي رحم ا لله، بمعنى ارحمني، وقيل: «يَغْفِرُ» إخبار لفظا ومعنى، وذلك رغبة لتوبتهم أو بالوحي، ولو قالوا بعد: ﴿يَآ أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾، لأنَّ المغفرة تطلب ولو حصلت، لأنَّ ذلك مزيد دعاء وتضرُّع للطمأنينة، وأيضا المستقبل يطلب ما لم يقع ولو وعد به، وأيضا لا يدري وقته فيطلب تعجيله، وأيضا طلبوا من يوسف عفوا عن حقِّه، وطلبوا من أبيهم عفوا عن حقِّه، وأيضا طلبوا من يعقوب مغفرة مقارفتهم من ا لله، بعد ما سامح صاحب الحقِّ.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ يتفضَّل على التائب بعد مغفرة صغائره و كبائره، و كان يغذِّيهم ويعشِّيهم معه، فأرسلوا إليه: نستحي منك بإساءتنا، فقال: لا لقد تشرَّفت بكم في أهل مصر، إذ علموا أنَّكم إخوتي وأنِّي من إبراهيم، ومن قبل

=

في باب العلم وطلبه، رقم ٢٦، من حديث معاوية.

١- في الطبعة العمانية: «لا مانع مانع».

يرونني بعين العُبُودِيَّة، ويقولون: سبحان من بلَّغ عبدا بيع بعشرين درهما هذه المرتبة، وا لله علم ما يقع من القحط وأجرى شأنه على يدي لتبقوا أنتم وغيركم أحياء، وقد مضى من سنيه سنتان وبقي خمس، وقد خالطني فرعون في أموره كلّها إلاَّ زوجته، وقال: آنف أن تأكل معي، فقلت: أنا آنف أن آكل معك لأنّي من بيت إبراهيم.

وقال: ما حال أبي بعدي؟ قالوا: عميَ فقال: ﴿**اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي**﴾ مع قميصي ﴿**هَذَا**﴾ مرَّ أنَّه قيل: قميص من الجنَّة ألبس إبراهيم حين جرِّد وألقي في النار، وكان معلَّقا على يوسف كالتميمة في شيء، فكَّه جبريل حين ألقي في البئر، وألبسه إيَّاهُ، وفيه ريح الجنَّة، قال جبريل عليه السلام: لا يلقى على مبتلى إلاَّ عوفي، ولم يزل لابسا له أو مستصحبا له، وأن ردَّه في وعائه فإنَّه استحضره إذ قال هذا.

وقيل: قميص آخر لبسه في الحال قال: اذهبوا به ليعقوب ليعلم أنّي بريء مِمَّا رميت به **وهو الصحيح**، وقيل: هو القميص الذي قدَّ.

و«هَذَا» نعت أو بيان أو بدل، أو مفعول لـ"أعني" أو خبر لـ"هو". ﴿**فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي**﴾ ليزول همُّه الذي ضعف به بصره، وكذا ضعف بكثرة البكاء فينشرح صدره ويقوى بصره، أو علم أنَّه يرجع بصره به ولو ذهب كلُّه ﴿**يَاتِ**﴾ يصير ﴿**بَصِيرًا**﴾ كما قال: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ أي صار ورجع، أو يأتني بصيرا، كما قال: ﴿وَاتُونِي بِأَهْلِكُمُ, أَجْمَعِينَ﴾ وصحَّ أنَّ أباه أتاه إلى مصر معهم، ولكن لا مانع أنَّه يصير بصيرا ويجيء بعد، وذلك بعد عماه أو كامل البصر بعد نقصه، وعلم يوسف بعماه أو ضُعْفِ بصره [علمه] بالوحي، أو بإخبار إخوته كما مرَّ آنفا.

﴿**وَاتُونِي بِأَهْلِكُمُ, أَجْمَعِينَ**﴾ شامل لأبيه وخالته، ونسائهم وأولادهم ومواليهم، وعبيدهم، وأولاد أولادهم، ويبحث في جعل الأب من الأهل وتابعا

ملحقا ! ويجاب ضعفه، ولو عاش بعد ذلك أربعا وعشرين، فإذا كان لا يلي الأمور كالكسب والرفع والحط فهو كالطفل من جملة الأهل، وإن كان في ذلك كراهة جعلنا الإتيان بالأهل تغليبا عليه. أو إيتوني أنتم، وأبي بأهلكم، وغلّب المخاطب، وليس في هذا إتيان بالأب.

(قصص) والأهل: اثنان وسبعون، أو سبعون، أو ثمانون، أو تسعون، أو ثلاثة وتسعون، أو ستّة وتسعون، ونموا في مصر حتّى خرجوا منها مع موسى، وهم ستمائة ألف وخمس مائة وبضعة وسبعون رجلا، سوى الذرِّية والهرمى، والذرِّية ألف ألف ومائتا ألف فيما قيل.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

بشارة ترد على يعقوب من يوسف عليه السلام

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ﴾ انفصلت ﴿الْعِيرُ﴾ خرجت من عريش مصر مع القميص، وعريش مصر آخر بلادها مِمَّا يلي الشام قريبا من الشام، كذا قيل، كأنّه قيل: خرجت عن أعمال مصر، **والمتبادر** أنَّ المراد لَمَّا خرجت من المدينة التي فيها يوسف إن كان فيها أو من أي بلد هو فيها من بلاد مصر، كأنّه قيل لما فصلت العير عن عمران مصر إلى كنعان من الشام.

﴿قَالَ أَبُوهُمُ﴾ لمن حضره منهم ومن أولادهم وأحبابه ﴿إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ الطيِّبة في أنفي، أو المراد ريح قميصه، والأوَّل أولى لأنّه ظاهر اللفظ، وقد

قيل: إنَّ ريح بدنه أشدُّ من ريح المسك.

(قصص) وقيل: وجد ريح القميص حين خرج به يهوذا من ثمانين فرسخا، وفي عبارة: من مسيرة ثلاثين يوما، وفي أخرى: عشرة أَيَّام، روايات عن الحسن، وعن ابن عَبَّاس: ثمانية أَيَّام، ويقال: استأذنت الصبا في إيصال ريح يوسف فأذن لها. والخطاب في «اذْهَبُواْ بقَمِيصِي» للمجموع، وأيضا كأنَّه حمله كلُّ واحد لرضاهم به وفرحهم بما يسرُّ أباهم، وأيضا هم رفقة واحدة يتحافظون، أوصلت إليه ريح الصبا ريح بدنه، أو ريح القميص بإذن الله.

لكن مصر تكون دبورا للشام أو جنوبا لا صبا، ولعلَّ الله أرسل إليه ريحا هبَّت من جهة الصبا ودارت إلى مصر، وحملت الريح، وإلاَّ فمهبُّ ريح الصبا يقابل الشام.

وقيل: ريح القميص من ريح الجنَّة، قيل: هبت ريح فلعلَّها ريح الصبا فصفَّقت القميص فامتلأت الدنيا ريحا، واتَّصلت بيعقوب وعلم أنَّه ريح يوسف، لأنَّه ليس في الدنيا ريح الجنَّة إلاَّ ما على قميص يوسف، ويبحث بأنَّه قال: «رِيحَ يُوسُفَ» لا ريح قميصه، وأمَّا غيره فلو فاحه لا يدري أنَّه ريح قميص يوسف، أو ريح يوسف، ويقال: أوصلته إليه وبينهما ثلاثة أَيَّام، ويقال: ثمانية، ويقال: عشرة، ويقال: شهر[1].

﴿لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ لولا تفنيدكم تكذيبكم إيَّاي، أو تخطئتكم، أو نسبتكم إيَّاي إلى الضعف في الرأي، أو إلى السفه، أو نقصان العقل. والجواب محذوف أي لأكثرت التبجُّح به، وأظهرت المبالغة في السرور، وهذا أولى من أن يقال: لقلت إنَّ يوسف في قريب المكان مِنِّي، أو يقرب اجتماعه بي، أو لقلت: إنَّ

١- لا تنس أنَّ الشيخ قد رجَّح أنَّ القميص هو قميص يوسف لا قميص الجنَّة.

مبشِّره إليَّ قريب، وأمَّا أن يقال: "لصدَّقتموني" فضعيف لأنَّ وجود التفنيد هو نفس انتفاء التصديق فلا تهم.

﴿قَالُواْ﴾ أي المخاطبون ﴿تَا للهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ خطئك القديم، وهو رجاؤك لقاء يوسف بإفراط في محبَّته على بعد العهد بينك وبينه، ثماني عشرة سنة أو أربعين سنة، أو ثمانين سنة.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ﴾ قبل وصول العير ﴿الْبَشِيرُ﴾ يهوذا بالقميص، قال: أنا أحمل إليه القميص هذا لأفرحه به كما أحزنته برفع قميص يوسف الملطَّخ بالدم، يقال: ذهب به حافيا مكشوف الرأس يسرع، وزاده سبعة أرغفة لم يستوف أكلها حتَّى أتى أباه، والمسافة ثمانون فرسخا أو غيرها، سبق العير، فارقهم من حين وصلوا العريش، أو من حين انفصلوا عن عمران مصر، وقيل: البشير الجائي مالك بن ذعر رجل من عرب البدو، والصحيح ما مرَّ، ويردُّه قوله: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾.

﴿أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ وجه يعقوب، وضمير «ألقى» للبشير، وقيل: ليعقوب، وهو أنسب بالأدب، ورُجِّح الأوَّل بقوله: ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾. ولَمَّا ألقي على وجهه دخل ريحه أنفه، وقيل: الوجه: عيناه لأنَّهما فيه وهما بعضه، وقيل: الوجه: جسده عبَّر بالبعض عن الكلِّ. ﴿فَارْتَدَّ﴾ با لله أو مع واسطة تحرُّك القُوَّة فيه ﴿بَصِيرًا﴾ صار بصيرا بعد العمى، أو صار كامل البصر بعد نقصه، أو بعد كونه كالأعمى لكثرة الدموع، أو رجع من العمى أو من كماله أو من شبهه.

علَّمه يعقوب كلمات ورثها من أبيه إسحاق، وإسحاق من أبيه إبراهيم «يا لطيف فوق كلِّ لطيف، ألطف بي في أموري كلِّها كما أحبُّ، وأرضني في دنياي وآخرتي» وسأل البشيرَ: كيف يوسف؟ قال: ملك مصر، فقال: ما أصنع بالملك على أي دين تركته؟ قال على دين الإسلام، قال: الآن تمَّت النعمة

وما وجدت ما أكافئك به، وما اختبزنا سبعة أيَّام، ولكن هوَّن الله عليك سكرات الموت.

﴿قَالَ أَلَمَ اَقُل لَّكُمُ, إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ «أَلَمَ اَقُلْ» مقول «قَالَ»، و«إِنِيَ أَعْلَمُ...» مقول «أَقُل...»، أو مقول «أَقُلْ» محذوف، أي ألم أقل لكم: «اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ...»، أو ألم أقل لكم: «إِنِي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ» أو ألم أقل لكم: «لاَ تَيْأَسُواْ...». ومعنى ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللهِ...﴾: أعلم من سعة رحمة الله ما لا تعلمون، أو أعلم بالوحي ما لا تعلمون من اجتماعي بيوسف وأنَّه حيٌّ، ورؤياه صادقة منتظرة. والخطاب لمن عنده قبلُ، وقيل: لابنه القادم. والجمع تعظيم، أو لأنَّه معتبر مع إخوته، أو هذا المقال بعد حضورهم.

﴿قَالُواْ يَآ أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ ادع الله أن يستر ذنوبنا التي أذنبناها في شأن يوسف، وشأنك وشأن بنيامين، وفي شأن من أوجعناه بها، وسترها: عفوها، فكأنَّها شيء غير واقع فلا يرى ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ في حقِّ الله وحقِّ العباد، ومن شأن المعترف التائب بإصلاح ما أفسد أن يعفو عنه المظلوم، ويغفر الله ﷻ له.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ, هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يقال استغفر لهم في الحال، والآية وعد لِمَا بعد ذلك، [قلت:] ويظهر لي أنه أخَّر الاستغفار حتَّى يعلم هل عفا من وصلته المضرَّة بالذات منهم، وهو يوسف وبنيامين، وإن علم وأخَّر فلانتظار وقت الإجابة كالسحر، نحو طلوع الفجر الكاذب، ونحو ليلة الجمعة، أو آخر يومها، أو صلاة الليل، أو الليالي البيض، أو محلَّ الإجابة كالمسجد فإنَّ للأمكنة مظانٌّ إجابة كالأزمنة، أو ذلك كلُّه.

(فقه) ومن قال: حللني من كلِّ حقٌّ لك، فحللته عالما بالحقِّ بريء حكما وديانة، وإن لم تعلم به فحكما إجماعا لا ديانة عند محمد صاحب أبي

حنيفة، وفيهما عند أبي يوسف.

(نحو) والتسويف والتنفيس صالحان في السين وفي "سوف" جميعا عند البصريِّين، مع أنَّهما يكونان نسبيين، فقد يعدُّ الزمان طويلا باعتبار ما تحته وعكسه، وبعارض، وتأخير الاستغفار من النهار إلى الليل يعظم كأنَّه زمان طويل في شأن من نصحت توبته ورغبته، فكيف من يوم إلى يومين.

ويقال: صلَّى سحرا ورفع يديه وقال: «اللهمَّ اغفر لي جزعي على يوسف، وقلَّة صبري عنه، واغفر لأولادي ما أتوا إليَّ وإلى أخيهم يوسف» فأوحى الله إليه: إنِّي قد غفرت لك ولهم أجمعين. وعن وهب: استغفر لهم كلَّ ليلة جمعة أربعا وعشرين سنة. وعن طاوس: استغفر لهم ليلة جمعة كانت ليلة عاشوراء، ويقال: استقبل القبلة أي الكعبة لا بيت المقدس على الراجح، أو إيَّاهُما بأن جعله بينه وبين الكعبة، قائما يدعو ويوسف خلفه مؤمِّنا وهم خلف يوسف مؤمِّنين أذلاَّء خاشعين، فنزل جبريل عليه السلام فقال: «إنَّ الله قد أجاب دعوتك في ولدك»، ولم يَصِحَّ أنَّه زاد على ذلك: «أنَّه جعلهم أنبياء بعدك».

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

لقاء أسرة يعقوب عليه السلام في مصر

توجَّهوا إلى مصر وخرج يوسف والأكابر لتلقِّيهم، وخرج يعقوب بأهله أجمعين وساروا حتَّى بلغوا يوسف يوم عاشوراء ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في

مخيمه أو بيته خارج مصر ﴿ءَاوَىٰٓ﴾ ضمَّ يوسف ﴿إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أباه وجدَّته أمّ أمِّه، فهي أمٌّ فهما أبوان.

(قصص) قيل: أباه وخالته سمِّيت أمًّا، وغلب الأب فصار أبوين، أو سمَّاها أمًّا لأنَّها زوج أبيه كأمِّه، وتحترم كالأمِّ، واسمها ليا، وماتت أمُّه راحيل في نفاس بنيامين، تزوَّج راحيل وأختها ليا معا لجواز ذلك في شريعته، وبقيت ليا حتَّى أدركت اجتماع يعقوب بيوسف، وضعَّف بعض هذا القول، ورجَّح أنَّه تزوَّج راحيل بعد موت ليا، وعلى اجتماعهما قيل: تزوَّج راحيل قبل ليا، وقيل: بالعكس، ولعلَّ لهما أختا ثالثة تزوَّجها بعد موتهما. ويقال: أحيى الله أمَّه من قبرها حتَّى سجدت له مع أبيه تحقيقا لرؤياه، وهو ضعيف، وقيل: لم تمت حتَّى آواها وأباه وسجدا له، وقيل: اسم خالته راحيل، وشهر أنَّه اسم أمِّه.

(قصص) بعث مع إخوته إلى يعقوب مائتي راحلة ليأتوا بيعقوب وأهله، وأتوه فجمع أهله اثنين وسبعين إنسانا ذكورا وإناثا أو ثلاثة وسبعين، وَلَمَّا دنا من مصر أخبر يوسف الملك فخرج بأهل مصر ركبانا، ويوسف بأربعة آلاف من الجند لكلِّ واحد جبَّة من فضَّة وراية خزٍّ، واصطفوا وتزيَّنت الصحراء بالفرسان والألوان، وتعجَّب يعقوب وقال ليهوذا وهو متّكئ على يده: هذا فرعون مصر! وقال: بل ابنك يوسف، وقال جبريل عليه السلام : انظر إلى الهواء فإنَّ الملائكة قد حضرت سرورا بحالك، وكانوا باكين محزونين مدَّة لأجلك، وماج الفرسان، وصهلت الخيل، وسبَّحت الملائكة، وضربت الطبول والبوق كأنَّه يوم القيامة، وأراد يوسف البدء بالسلام فقال جبريل: يبدأ يعقوب، فقال يعقوب: السلام عليك يا مذهب الأحزان، ونزلا وتعانقا وبكيا، وقال: يا أبت بكيت حتَّى ذهب بصرك، ألم تعلم أنَّ القيامة تجمعنا ؟ قال: خفت أن يسلب دينك فيحال بيننا.

﴿**وَقَالَ**﴾ يوسف لهم ﴿**ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللهُ**﴾ شرط متعلّق بقوله: ﴿**ءَامِنِينَ**﴾ قدِّم للفاصلة، أو هو للتبرُّك، أو متعلّق بـ«تدخلون» محذوفا مستأنفا، وذلك لأنَّ الأمر والنهي والدعاء والإنشاء لا تقيَّد بـ«إن شَاءَ اللهُ» لأنَّه لا خارج لها، ويبعد ما قيل من تعليقه بالدخول المصرَّح به، فكيف بالأمن؟ .

(قصص) فدخلوها وهم اثنان أو ثلاث وسبعون إنسانا، وبورك لهم حتَّى خرج موسى عليه السلام منها بستمائة ألف وخمس مائة وبضعة وسبعين سوى الذرِّيَّة، وهي ألف ألف ومائتا ألف أخرجوا، وسوى الهرمى بقوا فيها وبينه وبين موسى أربعمائة، وقيل: خرج بستِّمائة وسبعين ألفا، وقيل: خرج بذلك وخرج بالهرمى والذرِّيَّة، وإنَّ الذرِّيَّة والهرمى ألف ألف، ومئتا ألف. ومعنى ﴿ءَامِنِينَ﴾: إنَّكم لا تخافون عدوًّا ولا قحطا ولا طاعونا ولا مكروها ولا ملكا، وكان الناس يخافون ملوك مصر فلا يدخلها أحد إلاَّ بجوارهم، فقال يوسف وهو خارج مصر في مخيم أو بيت مبنيٍّ: «ادخلوا مصر آمنين على أنفسكم وأموالكم» فقيل دخولان: دخول في حدِّ مصر، ودخول في بيت في مصر.

﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ**﴾ أجلسهما معه تعظيما ﴿**عَلَى الْعَرْشِ**﴾ السرير، وعدّى «رَفَعَ» بـ«عَلَى» لتضمُّنه معنى الإجلاس، أو الحمل، والرفع: النقل إلى علوٍّ. ﴿**وَخَرُّواْ**﴾ عجَّلوا كالحجر الساقط، وهم أبواه على ما مرَّ وإخوته لا إخوته فقط كما قيل ﴿**لَهُ**﴾ ليوسف ﴿**سُجَّدًا**﴾ بوجوههم على الأرض، كسجود الصلاة **مريدين تعظيمه لا عبادته،** كان ذلك جائزا ثمَّ نسخ؛ أو المراد بالسجود الانحناء بلا وصول للأرض، وذلك كالتحية بالقيام وتقبيل اليد.

(فقه) ونهي في شرعنا عن القيام إعظاما لأحد، أمَّا ليقعد في موضع القائم فيجوز القيام للإمام العدل، أو الوالدين، أو سجَّدا بوجوههم في الأرض

سجود عبادة لله. واللام بمعنى إلى، أي سجدوا إلى جهته شكرا كالصلاة للكعبة تعظيما له.

أو الضمير لله، أي سجدوا لله، ويدلُّ لهذا أنَّه لو كان ليوسف لكان قبل الرفع على العرش لأنَّه أبلغ في التواضع، إلاَّ أن يقال السجود قبل الرفع لكن أخّر لفظا للاهتمام بالرفع، ويعارضه: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فيجاب بأنَّ اللام بمعنى إلى، أي ساجدين لله إلى جهتي، أو للتعليل أي ساجدين لأجلي لله ﷻ، ومعنى لأجلي لاجتماعهم بي، وفي ذلك تفكيك الضمائر بردِّ ضميري «رَفَعَ» و«أَبَوَيْهِ» ليوسف، وهاء «لَهُ» لله ﷻ، وفيه ردُّ الضمير إلى أقرب مذكور وهو يوسف في ضمير «رَفَعَ»، وضمير «أَبَوَيْهِ».

وإنَّما سجد أبوه له لا هو لأبيه مع عظم حقِّ الوالد وكذا الأمّ وقدم نبوءته وكبر سنّه لبلوغه في الرغبة في ولده حتَّى عمي، وكونه هو الطالب له، ويوسف في غفلة عن تلك الرغبة، فيكون كالزجر ليعقوب عليه السلام، وقيل: سَجدا ليتبعهما أولاده، وأمَّا أن يقال لتصدق الرؤيا فلا يتمُّ جوابا لأنَّه يبقى أن يقال: لِمَ جعل الرؤيا كذلك سجود أب لولد؟ فلا تهم، وأيضا لا تجب مطابقة الرؤيا من كلِّ وجه. وقيل: الواو للإخوة ومن معهم لا للأبوين معهم، وفيه منافاة لقوله: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ﴾ مع قوله: ﴿هَذَا تَاوِيلُ رُءْيَايَ﴾.

﴿وَقَالَ يَآ أَبَتِ هَذَا﴾ أي هذا السجود **﴿تَاوِيلُ رُءْيَايَ﴾** إرجاعها إلى ما هي عبارة عنه، وتطبيقها معه **﴿مِن قَبْلُ﴾** أي قبل سجودكم هذا، أو حال صغر السن، ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا...﴾ متعلّق بـ﴿رُءْيَايَ﴾ أو بمحذوف حال من ﴿رُؤْيَايَ﴾. وذكر الدماميني قولا بجواز تعليق الظرف بمعرفة محذوفة نعت لمعرفة، أي رؤياي الكائنة من قبل.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ صادقة ولو لم تصدق لكانت باطلا ضدّ الحقّ، وذكر حقًّا لأنَّه مصدر، وهو بمعنى اسم الفاعل، أو يقدَّر مضاف: ذات حقٍّ، أو وصف لمذكَّر، أي أمرا حقًّا، واختير «حَقًّا» لأنَّها مقال والمقال يصدق ويكذب.

﴿وَقَدَ اَحْسَنَ بِيَ﴾ أي إليَّ ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ (سورة القصص: ٧٧) أو ضمَّن معنى لطف، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (سورة الإسراء: ٢٣) أي الطف بهما. وذكر بعض أنَّ الإحسان يتعدَّى بالباء بلا تأويل، وهي للإلصاق ﴿اللهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِ﴾ (سورة الشورى: ١٧) أو بمعنى وقد أحسن فيَّ، أي جعل الخير فيَّ، وقدَّر بعض أحسن صنعه بي ﴿إِذَ اَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ لم يقل: أخرجني من الجبِّ، لأنَّ الأصعب الإلقاء في البئر، ومقابله الإدخال في السجن، وليس الكلام في الإلقاء والإدخال بل في اللبث، ولا شكَّ أنَّ اللبث في السجن أشدُّ من اللبث في البئر، لطول مدَّته ومعاشرة السفهاء فيه والمشركين، بخلاف مدَّة اللبث في البئر فإنَّها قصيرة ومعاشره فيها جبريل وغيره من الملائكة، وأيضا الإخراج من السجن سبب للملك المتوصَّل هو به إلى الدعاء إلى الدين، وإنقاذ النفوس من الهلاك بالجوع، وأيضا هو إزالة للتهمة في شأن امرأة العزيز، وآل به إلى إظهار حرِّيَّته، ولو قال: أخرجني من الجبِّ، لخجلوا بذكر الجبِّ مع أنَّه قد قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ...﴾.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ﴾ البادية وهم قرويون لكن كانوا في مواشيهم في البادية، وجاء بهم منها، وقيل: كان يعقوب من أهل البدو، فإن صحَّ فإنَّما تحوَّل إليها من القرية بعد التبليغ، إذ لم يبعث نبيء من البدو، وله مسجد تحت جبل باديته، [قلت:] وجاز لغير هذه الأمَّة البداوة بعد الحضارة.

﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾ أفسد ﴿الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيَ﴾ لم يزل يستر عليهم إذ عبَّر بعبارة لا تفصح أنَّهم الظالمون، بل بعبارة تقبل أن يكون ظالما أو هم

ظالمين ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ مدبِّر لِمَا يشاء من أحوال خلقه، من حيث لا يعلمون، ولا يعجز الله شيء، وهو خالق الأسباب ومسهِّل الصعاب ﴿إِنَّهُۥ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بخلقه وأحوالهم ومصالحهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ الفاعل للشيء في وقته ومكانه وكمِّه وكيفه.

(قصص) ومن حكمته تفريقه بين يوسف ويعقوب أربعين عاما، أو سبعين، أو ثمانين، أو ثمانية عشر، أو اثنين وعشرين، أو ستًّا وثلاثين، أو خمسا وثلاثين، وأقام معه قبل الفرقة سبعة عشر، وأقام عنده أبوه بعد الاجتماع أربعة وعشرين، أو سبعة عشر، ويقال: عمره حين ألقي في الجبِّ سبع عشرة سنة، وأقام في العُبُودِيَّة والسجن والملك ثمانين سنة، وأقام مع أبيه وإخوته وأقاربه بعد الاجتماع ثلاثا وعشرين، وتوفِّي وهو ابن مائة وعشرين. ويروى أنَّه طاف بيعقوب على خزائنه فرأى خزانة القراطيس، فقال: ما أعقَّك؟ عندك هذه القراطيس ولم تكتب إِليَّ على ثمان مراحل! قال: منعني جبريل، قال: هلاَّ سألته له؟ فقال: أنت أبسط إليه منِّي، فسأله يعقوب فقال: لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَّاكُلَهُ الذِّيبُ﴾ ذكرت الذئب دون الله.

(قصص) وَلَمَّا احتضر يعقوب أوصى يوسف أن يدفنه عند أبيهُ إسحاق في الأرض المقدَّسة، فمضى به في تابوت من ساج، فوافق وصوله موت عيص أخي يعقوب، فدفنا في قبر واحد، كما ولدا في وقت واحد من بطن واحد، وعمرهما مائة وسبعة وأربعون، ورجع إلى مصر، وعاش بعدُ ثلاثا وعشرين.

﴿رَبِّ قَدَ ـاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَاوِيلِ الْاَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْاَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي الدُّنْيَا وَالْاَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾

دعاء جامع يتضمّن تحدُّث يوسف بنعم الله عليه وطلبه من ربّه حسن الخاتمة

وقد تمَّ له الأمر المرُّ والحلو، واستشعر أنَّه لا بدَّ من الموت، فسأل الله الرحمن الموتَ على الإسلام واللحوق بأهل النعيم الدائم كما قال تعالى: ﴿رَبِّ﴾ يا ربِّ ﴿قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ بعض الملك وهو ملك مصر، أو قد آتيتني من الملك ملكا عظيما، والمقصود بالذات ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ ولكن قدَّم الثناء على الله والشكر على النعم السابقة توسُّلا بها إلى اللاحقة.

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَاوِيلِ الاَحَادِيثِ﴾ بعض تأويل الأحاديث، أو فنًّا عظيما منه تأويل الأحاديث، تفسير الرؤيا أو الكتب ﴿فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ صفة لـ«رَبِّ»، أو نداء آخر: يا فاطر السماوات والأرض ﴿أَنتَ وَلِيِّي﴾ متولِّي أموري وناصري ﴿فِي الدُّنْيَا وَالاَخِرَةِ﴾ تعاملني فيهما بالنعم وإزالة النقم ﴿تَوَفَّنِي﴾ أمتني ﴿مُسْلِمًا﴾ إذا جاء أجلي، فهذا طلب لأن يكون موته على الإسلام لا طلب للموت.

(قصص) قال الحسن: عاش بعد هذا الدعاء سنين كثيرة. أو توفَّني الآن، روي أنَّه لم يتمَّ الأسبوع، قال قتادة: لم يسأل نبيء الموت إلاَّ يوسف، وفي رواية عنه: لم يتمنَّ نبيء قبله الموت، وكثير من المفسِّرين على هذا القول من طلب الموت في الحين، [قلت:] لكن تمنِّيه الموت بعد تخيير الله له لقول عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ: «**لم يقبض نبيء حتَّى يرى مقعده من الجنَّة ثمَّ يخيَّر**»[1] قاله

١- رواه **البخاري** في كتاب المغازي (٧٨) باب مرض النبيء ﷺ ووفاته، رقم ٤١٧٣. من حديث عائشة رضي الله عنها.

ابن مالك في شرح المشارق عند قوله ﷺ : «**إنَّ ا لله خيَّر عبده بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده**»[١] والحديث في البخاري ومسلم. وعنه ﷺ : «**لا يتمنَّ أحدكم الموت لضرٍّ نزل به**» قيل: وهو نهي تنزيه، وفي الحديث: «**لكن يقول اللهمَّ أحيني ما كانت الحياة خيرا لي**»[٢]. وطَلَبَ الوفاةَ على الإسلام مع علمه أنَّ كلَّ نبيء لا يموت إلاَّ كذلك ذهولا، أو إظهارا للعبودية، ورغبة وتعليما للغير، وانفساحا للقلب وانشراحا واطمئنانا.

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل في درجاتهم، لا في درجة الصلاح فإنَّه فوقها، وهي أوَّل درجات المؤمن، فتوفَّاه ا لله مسلما وألحقه بهم، وتخاصم أهل مصر في مدفنه حتَّى همُّوا بالقتال فاتَّفقوا أن يدفن في أعلى النيل من جهة الصعيد، حتَّى تجري عليهم بركته كلِّهم، وجعلوه في صندوق من رخام أجود رخام لا من حجر الزند، وحمله موسى إلى الشام حين خرج من مصر، وعمره مائة وعشرون سنة.

(قصص) وولد له من راعيل إفرايم، وميشا جدُّ يوشع، ورحمة امرأة أَيُّوب، ويروى أنَّه جعل في تابوت من رخام ودفن في أيمن النيل، وهي الغَربِيَّة، فأخصب وأجدب الأيسر، ثمَّ دفن في الأيسر وهي الشَّرقِيَّة فأخصب وأجدب الأيمن، فدفنوه في وسطه بالسلسة فأخصب الجانبان، وَلَمَّا أمر ا لله تعالى موسى عليه السلام بالخروج من مصر إلى الأرض المقدَّسة، أوحى إليه أن احمل معك يوسف، و لم يكن علم بقبره عند أحد إلاَّ عند عجوز، فشرطت أن تكون لموسى زوجا في الجنَّة فتوقَّف موسى،

١- رواه **البخاري** في كتاب الصلاة (٨٠) باب الخوخة والممر في المسجد، رقم ٤٥٤. ورواه مسلم في كتاب فضل الصحابة، باب فضائل أبي بكر، رقم ٤٣٩٠. من حديث أبي سعيد الخدري.

٢- أورده **الهيثمي** في الموارد، ص٢٤٢٦. **وابن عدي** في الكامل، ج١، ص٣٩٣.

فأوحى الله ﷻ إليه أن قل: نعم، فأخبرته أنّه في موضع كذا من النيل في وسطه.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

إثبات نبوءة محمّد ﷺ وإعراض المشركين عن كلّ آية

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من أخبار يوسف وإخوته وأبيهم، والخطاب للنبيء ﷺ لقوله: ﴿**مِنَ انبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ**﴾ فهو دليل نبوءتك، لأنّك أخبرت به على أحسن وجه وترتيب، بدون أن تسمعه من أحد، وبدون أن تقرأه في كتاب، لأنك لم تجالس أصحاب الكتب وأصحاب الأخبار، ولا تعرف الكتابة ﴿**وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ**﴾ لدى إخوة يوسف غير بنيامين لقوله: ﴿**إِذَ اَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ**﴾ دبَّروه، وهو إلقاؤه في البئر، وبنيامين صغير لم يدخل مكرهم ﴿**وَهُمْ يَمْكُرُونَ**﴾ به يحتالون عليه، بترغيبهم له في الخروج للعب وعلى أبيه بعهدهم له أن يحافظوا عليه، وأن يناصحوه، وأن لا يصدر منهم إلا ما يسرُّهما، فقال الله ﷻ: لم تحضرهم فتعرف قصَّتهم، وإنَّما عرفتها بالوحي من الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ

وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا﴾ (سورة هود: ٤٩) وذلك ردٌّ على أهل مكَّة إذ كفروا به، وقد سألوه هم واليهود عن قصَّة يوسف، فأخبرهم بلا سماع ولا نظر كتاب.

﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ ناس مكَّة، وليس المراد الناس كلُّهم ولو كان الواقع كذلك لقوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ إذ لا حرص له على من فات، والمراد الحرص على إيمان أهل مكة لينفسح الإيمان إلى غيرها، إلاَّ أن يراد بالحرص مطلق الرغبة فتصدق بالناس كلِّهم ﴿بِمُومِنِينَ﴾ مع أنَّك أخبرتهم بها، على وفق التوراة، ووعدوا لك بالإيمان إن أخبرتهم فلم يوفُّوا.

﴿وَمَا تَسْئَلُهُمْ﴾ أي أهل مكَّة ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على الإخبار بقصَّة يوسف أو على القرآن أي تبليغه، وبيان أحكامه وتلاوته، أو على نفسه مبالغة ﴿مِنَ اَجْرٍ﴾ أجرة بمال أو بدن أو جاه أو شيء ما ﴿اِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ﴾ وعظٌ ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ كلِّهم، فكيف يأخذ الأجرة من بعض لا يختصُّ به، وأخذ الأجرة من العام لا يتصوَّر، ولا أخصُّ به غنيا ولا ذا جاه ولا طلبه أحد لمصلحة فأخذها عنه لأجلها.

﴿وَكَأَيِّن﴾ كم من ﴿مِنَ ـ ايَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ كم دليل على وَحْدَانِيَّة الله تعالى في السماوات؟

(فلك) من نجوم منازل وغير منازل للقمرين ثوابت، ونجوم ذوات أذناب وغيرها، وتغيُّر أحوالها، والقطب الشمالي، ودوران النجوم عليه، والقطب الجنوبي، ودوران مارد سهيل عليه معه، والمجرَّة وفيها نجوم كبار تدور معها في وسط السماء، ومطلعها ومغربها، وإذا استقبلت أنت جهة تقوست إليها، وبنات النعش الصغرى والكبرى، وإضاءة ما قابل الشمس من القمر، وخلو ما لم يقابلها منه، وغير ذلك.

وما في الأرض من جبال وأشجار وبحور، وآثار الأمم السابقة وغير ذلك... يمرُّون على تلك الآيات بعيونهم يشاهدونها مشاهدة تشبه المرور بالأقدام على الأرض، لا يتفكَّرون فيها.

(قصص) ومن ذلك أن بدويا نام في بعض صحاري مغربنا هذا فجاءت حية كعروض الخيمة، فأحسَّ بشيء يلمُّه من تحته في وسطه، فإذا هو حية التوت عليه، وأسرعت به، فافتتح القرآن من الفاتحة وسورة البقرة، وقبل الفراغ منها خرجت عليه أخرى مثلها تقاتلها، فأطلقته فانطلق إلى جبل فرآها رجعت إلى موضعها الأوَّل تضطرب فيه، وانسلخت جلدة وسطه مع أنَّها لم تمسَّه إلاَّ من فوق الثوب. ومن ذلك ما رئي من سفينة أو جبل عال في المشرق من خروج الأسود والنمور والأفيال من غابة شجر في سرعة لتوجُّه حيَّة كالصومعة إليها، لو صادفت الفيل لكان لها لقمة.

﴿وَمَا يُومِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ﴾ أنَّه الخالق الرازق ﴿إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بعبادة الأصنام، وهذا حال أهل مكَّة، وكانوا يقولون: «لبَّيك اللهمَّ لبَّيك لا شريك لك إلاَّ شريكا تملكه وما ملك» فكان ﷺ إذا وصل أحدهم إلى «لا شريك لك»، يقول: «قط، قط» يعني لا تزد: «إلاَّ شريكا...».

وعن ابن عَبَّاس: أراد [الله] المشبِّهةَ: آمنوا إجمالا وكفروا تفصيلا، وعن الحسن: المراد المراءون، وقيل: المراد الناظرون إلى الأسباب [فقط]، وقيل: المراد مطيع الناس بمعصية الله، وقيل: المنافقون بإضمار الشرك.

وإن أريد بالناس العموم فالإشراك بعبادة الأصنام، وباتِّخاذ الأحبار أربابا، وقول: إنَّ عزيرا ابن الله، والمسيح ابن الله، أو إنَّه إله، ومريم إله، وإنَّ الملائكة بنات الله سبحانه عن ذلك، وإنَّ النور خلق الخير، أو تولَّد منه الخير، والظلمة

خلقت الشرَّ أو تولَّد منها، وإنَّ إبليس خلق الشرَّ، وإنَّ المطر استقلَّ به طلوع المنزلة أو غروبها.

(أصول الدين) وما هو في معنى الإشراك كالقول بأنَّ الحيوان خلق فعله كملك وجنّيٍّ وآدميٍّ. و[كالقول في] ﴿اسْتَوَى﴾ على المعقول، ودعوى أنَّ متشابه القرآن على ظاهره لكن بلا كيف، والنظر إلى الأسباب، وكون صفاته غيره، قال ابن العربي الأندلسي المالكي: «ما بين من يقول صفاته غيره، ومن يقول إنَّ الله فقير إلاَّ تحسين العبارة».

﴿أَفَأَمِنُواْ﴾ أتركوا التفكُّر فأمنوا؟ ﴿أَن تَاتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ﴾ عقوبة تعمُّهم في الدنيا، أو صاعقة لا يفلت منها أحد ﴿أَوْ تَاتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة بلا تقدُّم علامة ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانها فلا يستعدُّون لدفعها، على سبيل الفرض بأنَّ لهم دفعا، ولا للتخلُّص منها بالتوبة وإصلاح الفساد.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِيَ﴾ أي الدعوة إلى توحيد الله ﷻ، يدلُّ لهذه الإشارة قوله: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُومِنِينَ﴾ فإنَّه حريص على توحيدهم بإجهاد نفسه في الدعاء إليه، ومن قوله: ﴿وَمَا يُومِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ فإنَّه دعاء للتوحيد، وزجر عن الإشراك إذ عاب عليهم الإشراك، وفسَّر الإشارة بقوله: ﴿أَدْعُو إِلَى اللهِ﴾ إلى توحيده، من شأني ذلك الدعاء، أو يقدَّر: النَّاسَ إليه، والعلم بالله خلاصة الدين، والعمل متفرِّع على العلم بوحدة الله؛ أو أدعو إلى عبادته، وعبادته تستلزم العلم به ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ تمييز بين الحقِّ والباطل أو حجَّة واضحة.

﴿أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ في الإيمان، العطف على ضمير «أَدْعُو» أو «عَلَىٰ بَصِيرَةٍ» خبرٌ لـ«أَنَاْ». ﴿وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

العبرة من القصص القرآني

﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً يُوحَىٰٓ إِلَيْهِم**﴾ ردٌّ لقولهم: إنَّ الرسول لا يكون بشرا بل ملكا، ﴿وَلَوْ شَآءَ اللهُ لأَنزَلَ مَلآَئِكَةً﴾ (سورة المؤمنون: ٢٤) ﴿**مِّنَ اَهْلِ الْقُرَىٰٓ**﴾ لا من أهل البدو لجهلهم وجفائهم، كما لم يرسل النساء لنقصهنَّ ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُواْ**﴾ أي أهل مكّة ﴿**فِي الاَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ من إهلاكهم لتكذيبهم بالرسل والآيات.

﴿**وَلَدَارُ الاَخِرَةِ**﴾ دار المنزلة الآخرة، أو الحياة الآخرة ودارها الجنّة، أو لدار هي الدار الآخرة ﴿**خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوا**﴾ تركوا الشرك والمعاصي، والخير ضدُّ الشرِّ، أو أفضل وخرج عن التفضيل، إذ لا فضل، كأنّه قيل: حسنة وغيرها قبيح، أو أحسن من الدنيا على اعتبار ما في الدنيا من الحسن ﴿**اَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ أنَّ هذه خير، خطاب بعد غيبة.

﴿**حَتَّىٰٓ إِذَا اسْتَيْئَسَ**﴾ أي أيس، فهو لموافقة المجرَّد ﴿**الرُّسُلُ**﴾ تراخى نصر

الرسل حتّى استيأسوا من النصر في الدنيا، فمن وعد له بالنصر ولا يدري فيها أو في الآخرة، أو **أيسوا من إيمان الكفرة** ﴿**وَظَنُّواْ**﴾ أي أيقن الرسل ﴿**أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ**﴾ بلغ التكذيب غايته بأن لا يعقبه نصر، أو ظنّ الرسل: توهّمهم أن لا ينصروا، لذهولهم عن الوعد بالنصر لشدّة الهول عليهم، أو لتوهّم أنّ النصر على شرطٍ، لم يقع الشرط فلم يقع النصر ﴿**جَآءَهُمْ نَصْرُنَا**﴾ لهم على أممهم المكذّبة لهم، بتنجيتهم وإهلاك مكذّبيهم كما قال ﴿**فَنُنجِي مَن نَّشَآءُ**﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿**وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا**﴾ عذابنا ﴿**عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ المكذّبين.

﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ**﴾ قصص الرسل أو قصص إخوة يوسف ﴿**عِبْرَةٌ لأُوْلِي الاَلْبَابِ**﴾ العقول المستعملة فينتفعون بها، أو مطلق العقول فيخسر من لم يستعملها ﴿**مَا كَانَ**﴾ هذا القرآن ﴿**حَدِيثًا يُفْتَرَى**﴾ أشار إلى القرآن لحضوره، أو لتقدُّمه في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [في أول السورة].

﴿**وَلَكِن تَصْدِيقَ**﴾ كان تصديقا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ ا للهِ﴾ (سورة الأحزاب: ٤٠) ولا حاجة إلى جعله تعليلا لمحذوف هكذا: لكن أنزلناه تصديقا، أو حالا بمعنى أنزلناه مصدِّقا ﴿**الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**﴾ من الإنجيل والزبور والتوراة والصحف ﴿**وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ يحتاج إليه في الدين، من حلال وحرام والحدود والأحكام، والمواعظ والأمثال، [قلت:] **وأمور الدين كلّها في القرآن بالذات أو بالواسطة.**

﴿**وَهُدًى**﴾ من الضلال ﴿**وَرَحْمَةً**﴾ دِينِيَّة ودُنْيَوِيَّة ﴿**لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ**﴾ خصُّوا بالذكر لأنّهم المتأثّرون بالقرآن.

(بلاغة) وفي جعله تصديقا وتفصيلا وهدى ورحمة مبالغة، كأنّه نفس ذلك، أو يقدَّر مضاف أي ذا تصديق...، أو يقدَّر بالوصف أي مصدِّقا ومفصِّلا

وهاديا وراحما، والإسناد مجاز، والحقيقة لله.

وإذا كانوا مؤمنين فهداهم تحصيل الحاصل! الجواب: أنّهم يزدادون الإيمان والهدى، والمراد: يشارفون الإيمان والهدى، فيحصل ذلك لهم به، أو يؤمنون في قضاء الله ويهتدون، وهكذا في مثل ذلك تقول في القرآن.

ووجه الاعتبار بقصصهم أنّ القادر على إخراج يوسف من الذلّ والمصائب قادر على إظهار دين محمَّد ﷺ وعلى آله وصحبه.

ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم

تفسير سورة الرعد وآياتها ٤٣

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمَّرَ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ وَالذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾

القرآن حقٌّ من الله

﴿أَلَمَّر﴾ اسم للسُّورة، أو حروف من أوائل أسماء الله، وقد قيل المعنى: أنا الله أعلم وأرى ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ الإشارة إلى آيات السورة هذه، أو آيات القرآن، أو إلى أخبار الرسل المذكورة في سورة يوسف المشار إليها إجمالا في آخرها، وحضورُها باعتبار تلاوة بعض لبعض في التلاوة، أو في اللوح المحفوظ، أو مع الملك.

والكتاب: القرآن، وهو الكتاب العجيب الكامل، المغني عن الوصف المعروف من بين الكتب، أو السورة أو اللوح المحفوظ، أي آيات هنَّ الكتاب، أو هنَّ السورة، أو بعض من الكتاب، أو من السورة، و«الـ» للكمال، أو للعهد الحضوري، أو الاستغراق مبالغة، والمراد بالكمال كمال السورة في نفسها لا الفضل على غيرها، لأنَّ قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ﴾ مذكور في أوائل سور متعدِّدة فكلٌّ واحدة آية كاملة في ذاتها.

﴿وَالذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ نعت «ءَايَاتُ»، والعطف عطف عامٍّ على خاصٍّ، أو عطف صفة على أخرى لموصوف، أي تلك آيات الكلام الجامع بين كونه كتابا وكونه منزلا من ربِّك، والكتاب بمعنى المكتوب في اللوح المحفوظ، أو في صحف الملائكة، و«الْحَقُّ» خبر لمحذوف، أي هو الحقُّ، أو «الذِي» مبتدأ و«الْحَقُّ» خبره، وعلى هذا فـ«الذِي» القرآن أو مع سائر الوحي إليه ﷺ، والجملة كالحجَّة

للجملة قبلها، فإنَّ ما هو منزل من الله حقًّا يكون كاملا لا محالة.

(أصول الفقه) وإذا جعلنا «الذي» مبتدأ حصل الحصر بتعريف الطرفين مع أنَّ القياس أيضا حقٌّ، والإجماع حقٌّ والسنَّة حقٌّ، والجواب إنَّهنَّ دخلن في المنزل ضمْنًا، السنَّة لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ...﴾ (سورة الحشر: ٧) ، والإجماع لقوله ﷺ : «**لا تجتمع أمَّتي على ضلالة**»[1] الثابت[2] بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ...﴾ (سورة النجم: ٣) ، والقياس لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الاَمْرِ مِنكُمْ﴾ (سورة النساء: ٥٩) أي المجتهدين، وأمَّا الكتب المتقدِّمة فلأنَّ القرآن مصدِّق لها. ﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُومِنُونَ**﴾ بأنه من الله لإخلالهم بالنظر في بلاغته الخارجة عن طوق البشر والخلق.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْاَمْرَ يُفَصِّلُ الْاَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْاَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِي الْاَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ اَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْاُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

بعض مظاهر قدرة الله في السماوات والأرض

١- رواه **الترمذي** في كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢٠٣٣، من حديث ابن عمر.
٢- كذا في النسخ المعتمدة، ولعلَّ قوله الثابت نعت للسنة فيكون المعنى السنَّة الثابتة عنه عَلَيهِ السَّلَامُ.

وشرع في ذكر دلائل السماوات في أوائل السورة بقوله: ﴿ا للهُ الـذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾الخ... وفي ذكر دلائل الأرض بقوله: ﴿وَهُوَ الـذِي مَدَّ الاَرْضَ...﴾ وذلك قوله تعالى في أواخر السورة قبلها: ﴿وَكَأَيِّن مِّنَ ـ ايَةِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ (سورة يوسف: ١٠٥) ومعنى رفعها نقلها من الجهة السفلى إذ كانت على الماء، أو خلقها في علوٍّ، ودلَّت الآية على أن لا علاقة للسماوات أيضا، لأنَّ الآية في دلائل قدرة ا لله، ولو رفعها بلا عمد مع علاقة لم يستعظموا قدرته، ولو كانت بعمدة لاحتاجت تلك العمدة إلى أخرى، فيتسلسل ذلك، وهو محال، ولو كانت بعلاقة لاحتاجت العلاقة إلى أخرى.

وحاصل الآية أنّه أمسك السماوات بقدرته حيث هي، ورفعها إمساكها حيث هي بلا علاقة ولا عمدةٍ.

(لغة) و«عَمَدٍ» جمع عماد أو عمود على غير قياس، والقياس أعمدة أو أعمد، أو اسم جمع، وذلك كإهاب وأَهبٍ، وأَديم وأَدم، وأفيق وأَفق، قيل: ولا خامس لها، وذلك كلُّه رباعي ثالثه مَدَّة، جمع على فعل، ويدلُّ على أنَّه غير مفرد التأنيث في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ (سورة الهمزة: ٩) وقيل هو مفرد مؤنّث. والمنفي العمد والرؤية معا، وحاصله أن لا عمد فضلا عن أن ترى، وقال مجاهد وعكرمة: نفيت الصفة فقط فالعمد ثابتة لا ترى، وهي جبل قاف محيط بالدنيا، بعد المحيط من زمرد أخضر عليه أطراف السماء، **وهو كلام غير كاف** إذ تبقى السماوات أو يدعى أنَّ أطرافهنَّ كلّهنَّ على جبل قاف **وهو غير صحيح.**

والصواب أنَّ العمد على فرض ثبوتها هي القدرة، والقدرة لا ترى وإنّما يرى

أثرها، فالعمد هي قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي واحدة ذَاتِيَّة[1]، وأمَّا جمعها فتمثيل أو باعتبار تعدُّد متعلَّقاتها. والجملة نعت لـ«عَمَدٍ» و«هَا» لها، ويجوز كونها للسماوات فالجملة مستأنفة أو حال من «السَّمَاوَاتِ»، ورؤيتنا السماوات برؤية نجومهنَّ، وما تقدَّم أظهر.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ملك الأمور كلَّها والأجسام كلَّها، أو حفظها ودبَّرها، أو خلق الجسم العظيم المسمَّى عرشا. و«ثُمَّ» للترتيب الذكري، أو لمجرَّد العطف.

(أصول الدين) وكلُّ موجود سوى الله متناهٍ، لأنَّه لو وجد جسم لا يتناهى لزم أنَّه قديم غير مخلوق، واعتقاد هذا إشراك، والعرش والسماوات دليل على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته، وعموم علمه، فإنَّ إمساكهنَّ في محالها دليل على أنَّ لها فاعلا يختار ما شاء، من الجائز اختار موضعهنَّ ولسائر الأجسام أيضا محالها، فليس بجسم ولا عرض لعجزهما.

وعلى ذلك الأسلوب تسخير الشمس والقمر في قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ذلَّلهما لِمَا أراد منهما من حركة سريعة واستدارة في منازل، لو شاء لزاد في سرعتهما أو نقص أو سكنتا أو دارتا على غير دورانهما، فاختار ما هما عليه على غيره، وجعل حركتهما نافعة في حصول الفصول الأربعة وما يترتَّب عليها من حرٍّ وبرد ونبات وثمار.

﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِي﴾ في فلكه ﴿لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وهو يوم القيامة، أو هو دور الحول للشمس، والشهر للقمر، لا يختلف ذلك، واختاره بعض، وبعضهم

١- ومن القدرة قُوَّة الجاذبيَّة التي أودعها الله في الأفلاك ومفعولها.

الأوَّل، كما اختلف في قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ (سورة يس: ٣٧) [قلت:] وعندي أنَّ المراد في الآيتين الثاني، ألاَ ترى إلى قوله: ﴿ذَالِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (سورة يس: ٣٧) مع قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ (سورة يس: ٣٨) واستدلَّ للأوَّل بقوله عزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ (سورة التكوير: ١و٢) ويناسب الثاني أنَّ التسخير لمنافع العباد، وهي بالفصول لا بيوم القيامة. واللام على كلِّ حال بمعنى إلى.

﴿يُدَبِّرُ الاَمْرَ﴾ يقضي أمر ملكه بإحياءٍ وإبقاءٍ وإماتةٍ وإفناءٍ ورزقٍ، وإنزال الوحي والكتب والتكليف، والإغناء بعد الفقر والعكس، وكون الأحمق [أحيانا] في أهنإ عيش والعاقل الذكيِّ في عسر وضيق كما قيل:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه   وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهام حائرة   وصيَّر العالم النحرير زنديقا[1]

أي شاكًّا في وجود الصانع تعالى وأخطأ، بل ذلك دليل على وجوده تعالى كما قيل:

كم عاقل عاقل قد كان ذا عسر   وجاهل جاهل قد كان ذا يسر
تحيَّر الناس في هذا فقلت لهم   هذا الذي أوجب الإيمان بالقدر

وكما قيل:

كم من أديب فهم قلبه   مستكمل العقل مقلٍّ عديم
ومن جهول مكثر ماله   ذلك تقدير العزيز العليم

١- نسبه الدمنهوري شارح الأخضرية في علم البلاغة لابن الراوندي. راجع حاشية المناوي عليه ففيه تعليق مفيد في الشأن، ص٨٠.

﴿يُفَصِّلُ الاَيَاتِ﴾ يُبَيِّنُ دلائل قدرته أو ينوِّعها، أو الآيات المتلوَّة، أو يحدث الدلائل شيئا بعد شيء ﴿لَعَلَّكُم﴾ أيُّها الناس عموما، أو يا أهل مَكَّة. الترجِّي هنا بمعنى الاختبار، أو لعلَّ للتعليل ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ توقنون بلقائه بالبعث، وكأنَّه يفصِّل آياته في كتابه أو كتبه المنزَّلة لعلَّكم توقنون بالجزاء، وأنَّ هذا المدبِّر المفصِّل لا بدَّ لكم من الرجوع إليه، فإنَّه لا يخلقكم عبثا، وبأنَّ القادر على خلق السماوات والشمس والقمر وسائر الحوادث قادر أن يبعثكم.

﴿وَهُوَ الذِي مَدَّ الاَرْضَ﴾ بسطها لمصلحة العباد قال ﷺ: «أوَّل بقعة وضعت من الأرض موضع البيت، ثمَّ مدَّت منها الأرض، وأوَّل جبل وضعه الله تعالى على وجه الأرض أبو قبيس ثمَّ مدَّت منه الجبال» وليس المدُّ مشعرا بالطول العظيم كما قيل، وإنَّما الطول والقصر من خارج.

والآية دليل على أنَّ الأرض بسيطة، وكذا قوله: ﴿وَالاَرْضَ بَعْدَ ذَالِكَ دَحَاهَا﴾ (سورة النازعات: ٣٠) ومثله، ولا داعي إلى زعم أنَّها كرة، وأنَّ ما يظهر من بسطها إنَّما هو لعظمها حتَّى إنَّ كلَّ قطعة منها تشاهد سطحا، ودلائل الفلاسفة في ذلك كلِّها مدخولة[1]، ثمَّ أنَّ ظاهر قوله: ﴿مَدَّ الاَرْضَ﴾ أنَّ الأرض موجودة بلا مدٍّ، ثمَّ أوقع عليها المدَّ، ولا مانع من ذلك. وعلى أنَّها خلقت بسيطة من أوَّل الأمر، فالمعنى أنَّ البسط الذي فيها من أوَّل وجودها فعلٌ لله عَزَّ وَجَلَّ، أو خلقها بسيطة كـ«ضيِّق فم البئر».

﴿وَجَعَلَ﴾ خلق أو وضع ﴿فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي جبالا ثوابت تمنعها من الحركة، والمفرد راس كقاض، وجمع على فواعل مع أنَّه مذكَّر لأنَّه غيرُ عاقل، قال

١- لا تنس أنَّ الأمر الآن لم يعد محلَّ جدال أو احتمال كما كان في القديم. وَالأَدِلَّة على أنَّها بسيطة إنَّما ساقها الله تعالى على حسب ما يبدو للناس.

الجاربردي[١]: يجمع فاعل مذكّر غير عاقل على فواعل قياسا مطّردا، ومن خصّه بالمؤنّث قال: جمع راسية، أي جبال راسية جمعت على رواس، أو جمع راسية مفردا بتاء المبالغة في الرسوخ.

﴿وَأَنْهَارًا﴾ ينزل ماؤها من السماء كما ترى نقص ماء العيون بقلّة المطر وكثرته بكثرته، ويكفي في ذكرها مع الجبال أنّ فاعلهما واحد وهو الله عَزَّ وَجَلَّ، والجامع خيالي كقوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (سورة الغاشية: ١٩) وأيضا الجامع التضادُّ، فإنَّ العيون تسيل بالماء والجبال ثوابت، ولا حاجة إلى ما ذهب إليه بعض الحكماء من أنَّ الجبال لتركُّبها من أحجار صلبة إذا تصاعدت إليها الأبخرة احتبست فيها فتكاملت فتنقلب مياهها إلى خارج عنها، وربَّما خرقتها فخرجت منها، **مع أنّه كلام فاسد.**

سيحان وجيحان والفرات والنيل من الجنّة كما رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعا[٢]، والأوَّلان في أرض الأرمن، جيحان نهر المصيصة، وسيحان نهر أدنه، وسيحون نهر الهند وهو أربعمائة فرسخ ينصبُّ في بحر الحبشة، وجيحون نهر بلخ يجري إلى خوارزم، ويتفرَّق في أماكن وباقيه إلى البحر الذي عليه الجرجانية، وذكر بعض أنَّ الأنهار مائة وَسِتَّة وتسعون.

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ «مِن كُلِّ» متعلّق بمحذوف حال من «زَوْجَيْنِ»، أو بـ«جَعَلَ» أي وجعل فيها زوجين اثنين من كلِّ الثمرات،

١- الجارْبَرْدِي (توفي عام ٧٤٦هـ/١٣٤٦م) أحمد بن الحسين بن يوسف فخر الدين: فقيه شافعي، اشتهر وتوفي في تبريز، له شرح منهاج البيضاوي في أصول الفقه، وشرح شافية ابن الحاجب، وحاشية على الكشاف... خير الدين الزركلي: الأعلام، ج١، ص١١١.

٢- روى **مسلم** في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب ما في الدنيا من أنهار الجنّة، رقم ٥٠٧٣. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «سيحان وجيحان والفرات والنيل كلٌّ من أنهار الجنّة».

والزوجين: النوعين، أو عطف على «رَوَاسِيَ» أو «أَنْهَارًا»، كأنّه قيل: وجعل أنواعا من الثمرات، فيكون قوله: ﴿جَعَلَ فِيهَا﴾ مستأنفا بعده.

(لغة) والزوج الفرد المقابل للآخر، كذكر وأنثى، والنعلين، وفي الآية الحلو والحامض، والأسود والأبيض، والأصفر مع أحدهما، والأحمر مع أحدهما، ونحو ذلك، والحارُّ والبارد، واختلاف الروائح، والصغير والكبير، أو جعل فيها زوجين من أنواع الثمرات حين مدَّها، ثمَّ تشعَّبت وتكاثرت وتنوَّعت، والقول بأنَّ الثمرات في أصلها صنف ثمَّ تشعَّبت فصارت أصنافا كثيرة بعيد[1]. والوصف بالاثنين للتنبيه على أنَّ القصد إلى الأفراد لا إلى الماهية، والمراد أقلُّ ما يكون، وإلاَّ فلا انحصار في الاثنين كأبيض حلو بارد كبير، وأسود مرّ حارّ صغير.

﴿يُغْشِي الَّيْلَ النَّهَارَ﴾ يجعل الله الليل غاشيا النهار، يستره بظلمته، والنهار أيضا غاش لليل، يستره بنوره، وإنَّما لم نحمل الآية عليه لأنَّ الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي، ولأنَّه إذا لم يكن دليل على أنَّ المقام مقام التأخير أبقي على حاله، ولا دليل هنا على أنَّ «اللَّيْلَ» مفعول ثان، و«النَّهَارَ» مفعول أوَّل فاعل في المعنى، فضلا عن أن يقال: المعنى يجعل الله النهار غاشيا الليل.

(بلاغة) أو شبَّه إحضاره على النهار بإلباس اللباس لأحد، فالاستعارة تبعيَّة، أو شبَّه النهار برجل ورمز إليه بإلباس اللباس فتكون الاستعارة مكنيَّة. وهذه الآية تكوَّنت بالسماء وَلَكِنَّ الأثر يظهر في الأرض بزوال الضوء وحلول الظلمة، فجعلت في آيات الأرض، والمشهور أنَّ النهار زمان ظهور الشمس وانتشار الضوء،

١-ولا يبعد ذلك إذا لاحظنا ما يقع بالتلقيم وانتقاء البذور، إلاَّ إذا كانوا يعنون أنَّ الأصناف كلَّها كانت صنفا واحدا.

وقيل: الضوء والليل زمان غيوبها، وقيل: نفس الظلمة، والغشي هنا التعرُّض، كقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ﴾ (سورة لقمان: ٣٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في المخلوقات فيستدلُّون بالأثر على المؤثِّر. **والفكر**: تصرف القلب في الأشياء المعقولة، أو ترتيب أمور معلومة ليتوصَّل بها إلى إدراك المجهول، ويقال: الفكر قُوَّة توصل إلى إدراك المجهول، والتفكُّر استعمالها بحسب نظر العقل، ولا يكون ذلك إلاَّ فيما له صورة، وجاء الحديث «**تفكَّروا في المخلوق ولا تتفكَّروا في الخالق**»[1]، والله لا يوصف بصورة، والجاهل يتفكَّر فيه من حيث أنَّه شيء متَّصف بصفات، فيتوهَّم أنَّه يوصف بها تعالى الله عنها.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جمع قطعة بكسر فإسكان بمعنى بقعة ﴿مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ تخالفت مع تجاورها بعض كريمة التربة كثيرة النبات حسنة وافرة النفع، وبعضها سبخة قليلة النبات والنفع، أو عديمتها، وبعض رخوة وبعض صلبة، وبعض يصلح للزرع كالرخوة دون الشجر وبعض بالعكس كالصلبة، بعض قليل المطر كمضاب وبعض كثيرة، وذلك فعل للفاعل الذي يختار بعض الجائزات عن بعض، ﷻ وإلاَّ لتساوت، لأنَّها كلُّها أرض بسيطة متَّحدة المادَّة، فلا تتفاوت بالذات بل باختيار القادر [بما أودعه فيها من العناصر].

﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ أشجار الزبيب، خصَّها بالذكر دون سائر الأشجار كالتين، لأنَّ ثمارها أشهى للعرب من غيرها، وسهولة أكلها وحصول الخلِّ منها أكثر، وأسهل من غيرها ﴿وَزَرْعٌ﴾ لم يقل: زروع لأنَّه في الأصل مصدر يصلح

١- رواه **الربيع** في مسنده، ج٣، ص٣٠٩، رقم٨٢٣ و٨٤٦. وأورده **الهندي** في الكنز، ج٣، رقم٥٧٠٥ و٥٧٠٦ مع زيادة. من حديث ابن عبَّاس.

للكثير كما يصلح للقليل ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ ثلاث فصاعدا مفترنات أصلهنَّ واحد، كلٌّ واحدة صنو، وأصل الصنو المثل ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ ثلاث فصاعدا، كلُّ واحدة بأصل على حدة، فيبقى نخلتان أصلهما واحد لم يذكرهما الله ﷻ، لأنَّهما تعلمان بالقياس والمشاهدة.

أو نقول: الجمعان أُطلقا على اثنين فصاعدا، أو نقول: ﴿صِنْوَانٌ﴾ يشمل الاثنتين على حدة والثلاث فصاعدا على حدَّة، مثلا اثنتان بأصل واحد وثلاث بأصل واحد، فذلك خمسة كلُّهنَّ صنوان، كما شمل الثلاث فصاعدا على حدة باعتبار دون اعتبار الاثنتين.

(صرف) وذلك مِمَّا اتَّحَدَ مثنّاه وجمعه في حال الرفع، ولا فرق في اللفظ إلاَّ بالتنوين وضمِّ النون وفتحها في الجمع، وإثباتها مع الإضافة فيه، ويقال أيضا رِئْدٌ ورِئْدان بمعنى مثل، وحِشٌّ وحِشَّان للبستان، وشفذ وشفذان [لولد الحرباء] ذكرهما سيبويه ولا خامس لَهُنَّ[1].

﴿تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ من عين أو مطر أو بئر أو بعروقها، ولا تخرج الشاربة بعروقها عن ذلك، أو يجمع ذلك أو بعضه فيهنَّ، وعلى الاجتماع تكون المياه المجتمعة كشيء واحد كما مرَّ مثله في سورة البقرة ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكْلِ﴾ نفضِّل بعض النخلات المسقية بماء واحد في مأكولها، وهو الثمار، وذلك التفضيل جعل طعم بعض أفضل من طعم بعض، وبعض أفضل رائحة من بعض، وشكل بعض أحسن من شكل آخر، وبعض أكبر من بعض، وكذلك في الحبوب والثمر والبقول، وخصَّ المأكول بالذكر لأنَّه أشدُّها نفعا وإلاَّ فكذلك يفرق بالحموضة والمرارة والعفونة، والماء واحد.

١-انظر: كتاب سيبويه، ج٣، ص٥٧٦.

وفي تفضيل بعض على بعض مع اتّحاد الماء دليل على قدرة خالقها، واختياره ما أراد من الجائزات، ومن ذلك أنَّ البشر من آدم كالأرض للثمار بالماء، وتذكرتهم واحدة[1]، حسنت نفوس بعض وخبثت نفوس بعض، قال الحسن: «والله ما جالس أحد القرآن إلاَّ قام عنه بزيادة أو نقصان» قال الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُومِنِيَن وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ (سورة الإسراء: ٨٢).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي ما ذكر كلّه من الاختلافات، أو من تخالف الأرضين وتخالف ثمارها المسقية بماء واحد، وهذا أولى لأنَّما قبله قد ذكر له قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿ءَلاَيَاتٍ﴾ كثيرة عظيمة، فالتنكير لذلك، و«فِي» للتجريد، بمعنى أنهنَّ في عظمهنَّ بحيث يتولَّد منهنَّ آيات أخر، أو يشار إلى الأحوال الكلّيَّة، والآياتُ أفرادُها الحادثة شيئا فشيئا في الأزمنة والأمكنة فلا تجريد، ولكن لا وجود للكلّيِّ إلاَّ في ضمن الجزئيِّ، فلا يكون مشارا إليه من حيث هو هو.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون قُوَّة عقولهم فينتفعون، ولا مفعول له لأنَّه ليس المراد يعقلون كذا، بل استعمال قُوَّة عقولهم، وقال هنا: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ و[قبلها] هنالك: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ للتفنّن، أو لأنَّ الاستدلال باختلاف النهار أسهل، والتفكُّر سبب للتعقُّل والسبب مقدَّمٌ على المسبَّب.

[قلت:] ومن ذلك أنَّه تنبت من أسفل الحبَّة عروق لأسفل، ومن أعلاها أوراق وأغصان، وبعضها خشب وبعضها نورٌ، وبعضها ثمر، فما هذا الاختلاف مع اتّحاد طبيعة الحبَّة والأرض والحرِّ والبرد إلاَّ بفاعل مختار، وانظر الجوزة أعلاها قشر تحته قشرة خشنة تحتها قشرة تحيط باللبِّ تحت ذي

١- كذا في النسخ وفي الطبعة العمانية، و لم يظهر لنا الوجه المقصود تأمَّل.

قشرة في غاية الرقَّة حال رطب الجوز، وإلى العنبة جلدها وعجمها باردان يابسان، ولحمها وماؤها حاران رطبان قيل:

والأرض فيها عبر لمعتبر	تخبر عن صنع مليك مقتدر
تسقى بماء واحد أشجارها	وبقعة واحدة قرارها
والشمس والهواء لم يختلفا	وأكلها مختلف ما ائتلفا
لو أنَّ ذا من عمل الطبائع	أو أنَّه صنعة غير الصانع
لم يختلف وكان شيئا واحدا	هل يشبه الأولاد إلاَّ الوالدا؟
الشمس والهواء يا معاندا	والماء والتراب شيء واحدا!
فما الذي أوجب ذا التفاضلا	إلاَّ حكيم؟ لم يرده باطلا

[سبحانك ما أعظم سلطانك وما أعزَّ شأنك].

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

إنكار المشركين البعث واستعجالهم العذاب

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من كفرهم وإنكار البعث مع وضوح الحجَّة، والعجب حالة انفعاليَّة تعرض للنفس عند إدراك ما لا يعرف سببه، أو تغيُّر النفس برؤية خلاف المعتاد، أو الاستعظام، وذلك كلُّه محال في حقِّ الله عَزَّ وَجَلَّ، إلاَّ إن أريد مطلق العظمة ﴿فَعَجَبٌ﴾ عندك ﴿قَوْلُهُمْ﴾ أي وقع تعجُّبك في محلِّه، أو إن تعدَّه عظيما فهو عظيم عندي وعندك، والمتعجَّب منه واحد وهو قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ

جَدِيدٍ﴾ والذي تعجَّب ﷺ منه وعظَّمه الله هو نفي كونهم في خلق جديد بالبعث.

(بلاغة) ومقتضى الظاهر: «وإن تعجب من حالهم فهو عجيب»، ولكن أظهره تأكيدا في إظهار قبحه، والنعي عليهم بأنَّ القادر على الخلق الأوَّل قادر على الجديد، أو المعنى: إن تحقَّق عجبك فقد أصبت، وهذة الإصابة مرادة بقوله: ﴿فَعَجَبٌ...﴾ فأقيمت العلَّة وهي «قَوْلُهُمُ» مقام المعلول وهو قوله: فقد أصبت.

أو **المعنى**: إن تحقَّق عجبك فتعجُّبك كامل واقع موقعه، والتعجُّب أو تحقُّقه لا بدَّ واقع من قولهم، فكذلك هو معظم فذلك تأكيد، أو **المعنى**: إن يكن منك تعجُّب فليكن من قولهم: ﴿أَ.ذَا كُنَّا...﴾، أو إن تعجب يا من ينظر في هذه الآيات فازدد تعجُّبا مِمَّن ينكر الإنشاء الجديد.

(نحو) و«عَجَبٌ» خبر و«قَوْلُهُمُ» مبتدأ، وقدِّم للحصر وطريق الاهتمام، فيتصوَّر من ذلك معنى آخر هو إن تعجب من حالهم فما هو الأعجب، وقوله: ﴿أَ.ذَا كُنَّا...﴾ مفعول به للقول على معنى المصدر، أو بدل مطابق على معنى مفعول. والاستفهام للإنكار والتعجُّب من الإمكان والوقوع، و«إِذَا» متعلِّق بمحذوف، أي أَنُبْعَثُ إِذَا كُنَّا...؟ أو إِذَا كُنَّا... نبعث؟ لا بـ«كُنَّا» لأنَّ المضاف إليه لا يعمل فيما قبل المضاف، إلاَّ على قول من يدَّعي أنَّ مدخول «إذا» غير مضاف إليه، ولا بما تعلَّق به «فِي» لأنَّ معمول خبر «إنَّ» لا يتقدَّم عليها، ولا بـ«خَلْقٍ» لأنَّه من خبرها.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المنكرون للبعث أو لرسالته ﷺ ﴿الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ الكفر بقدرة الله على البعث أو بصفة من صفاته كفر به، كما قال في منكر البعث: ﴿أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ (سورة الكهف: ٣٦) ومنكر البعث ومنكر إمكانه كافران مشركان، لأنَّهما ردَّا على الله ما أثبت، والبعث فعل والقدرة عليه صفة.

ولا نسلّم أنَّ إعادة المعدوم بذاته مستحيلة إذ هي من جنس إيجاد المعدوم بلا وجود له قبلُ، بل أسهل لبادئ الرأي، وعند ا لله سواء.

﴿وَأُوْلَئِكَ﴾ الكفرة ﴿الاَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ تثبت في أعناقهم، يقدَّر المضارع للاستقبال، أو يقدَّر ثابتة للاستقبال، لأنَّ ذلك يوم القيامة.

ويجوز تقديرهما للحال أو للماضي المستمرِّ تنزيلا للواجب منزلة الواقع، وإن أريد بالأغلال الموانع عن الإيمان من دواعي النفس والشيطان والخذلان قدِّر ثَبَتَتْ أو ثابتة للماضي، وجاز تقدير الحال.

(بلاغة) شبَّه الموانع بأغلال الحديد على الاستعارة التصريحيَّة، والأعناق ترشيح، أو هيئة بهيئة على التمثيليَّة بجامع عدم رجاء الخلاص، والتمكُّن في الهلاك، فإنَّ وجود تلك الموانع للقلب والحواسِّ وتسلُّطَها عليها كوجود الأغلال ووضعِها في الأعناق، يقادون بها ولا يمتنعون، أو يربط أيضا الأرجل والأيدي، ولا يجدون التصرُّف حيث شاءوا.

﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا ضمير فصل هنا، لأنَّ ﴿أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ جملة و﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ جملة أخرى فلا تهم.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ حين أنكروا ما أنذروا به من النار على إنكارهم، وذلك قولهم: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾. ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ العذاب ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وهي الإبقاء بلا عذاب، والقبليَّة اختياريَّة، كأنه قيل: قدَّموا في اختيارهم العذاب وتركوا الإبقاء بدونه، وهو الإمهال، فإنَّ العذاب منتفٍ فيه والتوبة ممكنة فيه، أو الحسنة: خير الدنيا والآخرة لو آمنوا، والمضارع للاستمرار، أو لحكاية الحالة الماضية ما زالوا في إنكار إذا أخبروا بالبعث قالوا: ﴿أَ.ذَا مِتْنَا﴾؟ وإذا هدِّدوا بالعذاب قالوا: ﴿مَتَىٰ هَذَا الوَعْدُ﴾؟.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ العقوبات لأمثالهم من المكذِّبين الفاضحة، أو المبقية أثرا كقطع أنف أو يد أو فقء عين، فما لهم لا يخافون أن تنزل عليهم لتكذيبهم؟ سمِّي العقاب مثلة لأنَّه مثل ما يعاقب عليه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ﴾ أي مع ﴿ظُلْمِهِمْ﴾ كبائرهم وصغائرهم إذا لم يصرُّوا عليها، ولا تعجزه معصية ولو بلغت ما بلغت.

(أصول الدين) والآية زجر عن الإيَّاس، ولا مغفرة بلا توبة، أو هي في الصغائر لمن اجتنب الكبائر، أو المغفرة: الستر في الإمهال وهو بعيد، فلا دليل فيها على مغفرة المصرِّ، فلنا إحباط الحسنات بالسيِّئات، ولنا قيد التوبة في الآي الأخر، فالعمل به لا بالإطلاق، **ومن الجهالة** الغفلة عن أنَّ الآية قَضِيَّة مطلقة عَامَّة بظاهرها، فيلزم أنَّ كلَّ ظالم مصرٍّ يغفر له، ولا يقول ذلك إلاَّ من تبرَّأوا من مذهبه وهم المرجئة، ويكرهون الانتساب إليهم، وتشمل بظاهرها المشركين ولا يقولون به هم ولا غيرهم، لقيام الدليل والإجماع **على أن لا مغفرة للمشرك غير التائب من شركه** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (سورة النساء: ٤٨) و«عَلَى ظُلْمِهِمْ» حال من «النَّاسِ»، أو متعلِّق بـ«مَغْفِرَةٍ».

والظلم شامل لظلم نفسه وظلم غيره، ولا يعجزه غفران الظلم ولو لغيره مع التخلُّص من التباعة، ويقضي الله عنه إن تاب نصوحا، ولم يجد ما يعطي، قيل: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾ للمبالغة في الرحمة، ولذلك لم يقل: وإنَّ ربَّك لذو عقاب شديد مع أنَّه أوفق للفاصلة.

روى ابن أبي حاتم من رواية حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن سعيد بن المسيَّب، عن رسول الله ﷺ: «**لولا عفو الله وتجاوزه لَمَا هنأ أحدا العيشُ،**

ولولا وعيده وعقابه لاتّكل كلُّ أحد»[1] أي على عفوه، فقوله: «لولا عفو الله» عائد إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ وقوله: «لولا وعيده» عائد إلى قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن أصرَّ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مقتضى الظاهر: «ويقولون» بالإضمار كما أضمر في «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ»، لكن أظهر ليصفهم بالكفر الشديد بأن جعلوا الآيات العظام غير آيات، وطلبوا ما هو آية كآيات موسى وصالح وعيسى ﴿لَوْلآ﴾ صيغة تحضيض، لا يجوز أن يقال حضض أحد الله، وحضَّه أحد والمراد: الطلب الشديد ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كالعصا والناقة وخلق الطير بإذن الله مِمَّا لو أتى به فلم يؤمنوا لم يؤخّر إهلاكهم.

ولا يقال: إنّهم قد جعلوا ما آتاهم آيات، لكنّهم أرادوا آية عظيمة كما مثّلنا، لأنَّا نقول: صرَّحوا بأنَّ ما يأتي به سحر أو جنون، أو أساطير الأوَّلين، لا آيات، وسواء جعلنا التنوين للوحدة أو للعظمة، كأنّهم قالوا: إيت بآية عظيمة، وما أتيت به غير آية البتّة، فخطّأهم الله ﷻ بقوله:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ إنّما عليك الإنذار والاستظهار بما آتاك الله من المعجزات، لا الإتيان بما يقترحون، وكفى أنَّ الخلق عجزوا عَمَّا أتيت به مع أنّه ما من معجزة أتى بها نبيء قبلك إلاّ وقد أتيت بمثلها وأعظم، كحنين الجذع، ونبع الماء من الأصابع، وإغزار الثمد، وإكثار الطعام القليل، وانشقاق القمر، وإحياء الموتى، وسلام الحجر، **ولو أنصفوا لكفاهم القرآن فصاحة وبلاغة لا تطاقان، وإخبارا بالغيوب.**

١- أورده **القرطبي** في تفسيره، ج٩، ص٢٨٥. والعراقي في المغني، ج٣، ص١٤٤.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ إمَّا نبيء أو نائبه، يتحدَّاهم بمثل ما يستعظمونه ويتكلَّفونه، كالسحر في زمان موسى، فإنَّ العصا مناسبة له وليست سحرا، والطبِّ في زمان عيسى فإنَّه يناسبه الإحياء، وإبراء الأكمه والأبرص، والفصاحة والبلاغة في زمان سيِّدنا محمد ﷺ، فإنَّ العرب فيه أفصح وأبلغ ما يكون، فجاء القرآن منهما بما لا يطيقونه، ونائب الرسول يتحدَّاهم بنفس ما تحدَّاهم به الرسول.

والهادي الله ونكَّر اللفظ للتعظيم، فإنَّ الله تعالى هدى كلَّ أحد، أي بَيَّنَ له، فمن قابل ومن معرض، أو المراد أنَّه قادر على أن يهدي هداية توفيق لكن لا يهدي توفيقا، إلاَّ من سبق له القضاء به.

وقد علم الله أنَّهم يطلبون الآيات عنادا أو إعناتا لا استرشادا أو استزيادا للطمأنينة، ولو فتح هذا الباب لأفضى إلى ما لا نهاية له، وهو أنَّه كلَّما أتى بمعجزة طلبوا أخرى، أو جاء آخرون فطلبوا أخرى، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء، أو أتى بما يوجب الإعجال بالعقاب، إن لم يؤمنوا به، وأردف ذلك بما يدلُّ على كمال العلم والقدرة على البعث فقال:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝١٠ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ۝١١﴾

بعض مظاهر علم الله المحيط بكلِّ شيء

﴿الله يَعْلَمُ﴾ متعدٍّ لواحد، بمعنى لا يجهل ذلك، وفي وصفه بالمعرفة قولان ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من الجنِّ والإنس، وسائر الدوابِّ والطير ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾ تنقص الأرحام من مدَّة الحمل بأن تلد قبل تسعة أشهر ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ بأن تلد بعد تسعة أشهر، وفاعل الزيادة والنقص في الحقيقة الله.

أو غيض الأرحام: الحيض، يخرج الدم فينقص الغذاء فينقص الولد، ودم الحيض غذاء الجنين فيحيى أو يفسد، وإذا لم يخرج ازداد الجنين قُوَّة، أو علقت بآخر أو أكثر أيضا، أو إذا حاضت الحامل نقص الغذاء وزادت مدَّة الحمل، فتتمُّ التسعة أو يزداد عليها، أو النقص: السقط، والزيادة: ما يزيد على التسعة.

(فقه) وأقلُّ مدَّة الحمل الذي يولد حَيًّا ويحيى ستَّة أشهر، وأكثره عامان عندنا وعند أبي حنيفة، وأربعة عند الشافعي وأحمد ورواية عن مالك، وهي المشهورة عنه، وخمسة عنده في الأخرى، وإذا احتمل بعد مدَّة من تلك المدَّات على أقوالها حكم بعدمه، فتتزوج ولو علم أنه في بطنها ميِّتا إلاَّ إن تيقّن بحياته، هذا ظاهر إطلاقهما.

[قلت:] والذي أقول به إنَّها لا تتزوَّج ما دام فيه ولو ميِّتا لأنَّها حامل غير واضعة.

وولد الضحَّاك لسنتين بأسنان يضحك فسمِّي بالضحَّاك لذلك في قول، وهرم بن سنان لأربع، وشوهد حياته في البطن عشرين عاما، وأقلَّ وأكثر، وما روي عن عائشة رضي الله عنها لا يبقى أكثر من عامين محمول على السماع أو الكثير[1]، أو الآية في نقص أعضاء الولد أو جسمه، وزيادته بالتمام وَالقُوَّة، أو باتِّحاد الجنين وتعدُّده.

قيل: وقد ولدت امرأة في بغداد أربعين ولدا من مشيمة واحدة وحيوا فيما

١- لا يخفى عليك أنَّ تقدُّم الطبِّ بطرق الكشف بالأشعة قد حسم القَضِيَّة.

روي، وشريك من فقهاء المدينة رابع أربعة في بطن أمِّه، ولا غاية لعدده، وقال أبو حنيفة: أربعة فيما عرف، وأخبر شيخ في اليمن الشافعي أنَّ امرأته ولدت بطونا في كلِّ بطن خمسة.

(نحو) و«مَا» مَصدَرِيَّة، بمعنى يعلم حملها وغيض الأرحام وازديادها، أو موصولة، أي ما تحمله وما تغيضه وما تزداده، أو استفهامية مفعول مقدَّم، والجملة علِّق عنها «يَعْلَمُ».

﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ, بِمِقْدَارٍ**﴾ سبق به القضاء بلا أوَّل لعلمه وقضائه، ولا يتغيَّر بكمِّية أو كيفيَّة، ودخل في ذلك أفعال العباد كسبًا لهم، وخلقًا لله ﷻ، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (سورة القمر: ٤٩). و«عِندَهُ» خبر، و«بِمِقْدَارٍ» خبر ثان، أو حال من ضمير الاستقرار ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ**﴾ هو عالم ما غاب عن الخلق كلِّهم، وما غاب عن بعض دون بعض في الدنيا والآخرة ﴿**وَالشَّهَادَةِ**﴾ ما شاهدوه وما شاهد بعض دون بعض.

﴿**الْكَبِيرُ**﴾ شأنا لا يخرج شيء عن علمه، وقدرته ﴿**الْمُتَعَالِ**﴾ عن صفات الخلق، أو ﴿الْكَبِيرُ﴾: علما، ﴿الْمُتَعَالِ﴾: قدرة على كلِّ شيء.

﴿**سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنَ اَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ**﴾ هم عند الله سواء في علمه بهم وبقولهم، المجهور به والمسرّ، وبخفائهم وظهورهم، وجميع أحوالهم في ذلك وغيره، كيف يجهل شيئا وهو خالقه؟. و«مِنكُمْ» حال من المستتر في «سَوَآءٌ»، ولم يجمع لأنه في الأصل مصدر، وإلاَّ فإنَّه لأربعة، كأنَّه قيل: المسرُّ بالقول والجاهر به، والمستخفي بالليل والسارب بالنهار مستوون عند الله في العلم بهم وبأحوالهم.

(لغة) وإسرار القول: إظهاره في القلب أو النطق به في خلوة، أو مع

الغير بلا قصد إفشاء، وما في القلب سمِّي قولا مجازا على الصحيح، والجهر به: النطق به ولو في الخلوة، أو مع الغير، أو إفشاؤه. والباءان بمعنى في، أو الأولى باء الآلة أو الاستعانة. والسارب: البارز في طريقه أو داخل السرب، وهو حفير الأرض لا منفذ له، فيكون قد اختفى بالليل أو بالسرب.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَاتٌ﴾ جمع معقِّبة، والمعقِّبة: جماعة، فكأنَّه قيل: له جماعات معقِّبات، أو جمع معقِّبة، والمعقِّبة مفرد، وتاؤه على هذا للمبالغة. وهاء «لَهُ» للمخلوق، أو لله عز وجل، والمعقِّبات: الملائكة، والتشديد للمبالغة، إذ يكفي أن يقال: عاقبات، اسم فاعل عقب بالتخفف، وإذا قلنا: إنَّه جمع معقِّبة للواحد والتاء للمبالغة اجتمع تأكيدان، وذلك أنَّ الملائكة أشدَّاء التعقُّب على الإنس والجنِّ، في كتب ما يفعلون وما يقولون ـ قيل: وما يعتقدون ـ على أنَّ الله عز وجل يطلعهم عليه، يعقِّبون ذلك منهم بالكتب له، أو أشدَّاء التعقُّب عليه يحفظونه مِمَّا أمرهم الله بالحفظ عنه، كما قال:

﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُۥ مِنَ اَمْرِ اللَّهِ﴾ يحفظونه من المضارِّ بأمر الله، و«مِنْ» بمعنى الباء، أو لأجل أمر الله لهم بالحفظ، ويجوز أن تكون للابتداء، والمعنى: يحفظونه مِمَّا هو ملك لله لو وقع، أو من أمر الله الواقع على غيره.

والضرُّ خلق لله وفعل له، أمَّا الإنس فمضرَّتهم من بعض لبعض، ومن الجنِّ والهوام وغير ذلك كالتردِّي والاحتراق، والشوكة والصاعقة في النوم واليقظة، وأمَّا الجنُّ فمن بعض لبعض، ومن الناس وَمِمَّا ذكر، وما لم يؤمروا بالحفظ عنه لم يحفظوا أحدا عنه.

وأمرهم إنَّما هو بالإلهام، فيقع الإنسان في بئر أو عند سبع أو نحو ذلك من المضارِّ فيلحقه الضرُّ إذ لم يقع لهم إلهامٌ وانكشاف، لذلك قال كعب الأحبار رضي الله عنه: «لولا أنَّ الله تعالى وكَّل بكم ملائكة، يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم

وعوراتكم لاختطفتكم الجنُّ» ومعنى ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: من جهاته كلّها، فأشار إليها كلّها بالجهتين، كما يشار بالأوّل والآخر إلى الوسط معهما، أو معناه: من الأعمال ما قدّم وما أخّر، وذلك في الملكين الكاتبين، وقيل: الكاتبون لكلّ أحد أربعة فصاعدا.

روي[1] أنّه تطلع خمسة باتوا معنا فيقول الله لهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلّون، وأتيناهم وهم يصلّون، ويصبح معنا خمسة فيقال لهم فيقولون ذلك، لأنّهم يجتمعون عند العصر، وقيل: عند المغرب وفي قرب الفجر، وقيل: في الفجر، وقال اللقاني: عشرة ليلا وعشرة نهارا، وقيل: خمسة ليلا وخمسة نهارا، الأوّل عن اليمين لكتب الحسنات، والثاني على اليسار لكتب السيّئات، والثالث على الناصية يرفعه إن تواضع، ويضعه إن ترفّع، وآخر يقيه عن الأذى، وآخر يقيه عن الهوام.

و﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ...﴾ متعلّق بما قبله، وإن علّق بـ«يَحْفَظُونَهُ» فلا بأس لأنّها بمعنى في، و «مِنْ» في ﴿مِنَ اَمْرِ اللهِ﴾ للابتداء، أو للسببيّة، أو للاستعانة كما مرّ.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ في قوم أو لقوم، أو مع قوم، من نعم الصحّة والمال والجاه والستر ونحو ذلك **﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** من الحالة الحسنة بالمعصية.

١- يشير إلى الحديث الذي رواه **البخاري** في كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم ٥٣٠، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وأوّله قوله ﷺ : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار...».

وكلُّ أحد يولد على الفطرة حتّى يبلغ فيكفر، أو يبقى على الخير، أو من حال حسنة كالجود والعدل، ولو كان كافرا فإذا جار سلب ماله مِمَّا يستحسنه، وقد يبقيه أو يزيده مما يحبُّ استدراجا، **والشكر يُبقي النعم، والكفر يزيلها.**

﴿**وَإِذَآ أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا**﴾ ضرًّا ﴿**فَلاَ مَرَدَّ لَهُ,**﴾ لا ردَّ له، قيل: المعقّبات: الحرس حول السلطان يحفظونه بإذن الله، وإذا أراد الله بهم سوءا لم يدفعوه بل إن شاء سلّطهم عليه، وذلك كالتهكّم بهم ﴿**وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَّالٍ**﴾ يليهم، يدفع العذاب أو بعضه قبل وقوعه أو بعده.

﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾**﴾

مظاهر ألوهيّة الله وربوبيّته وقدرته

﴿**هُوَ الذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ ذوي خوف وطمع، أو نفس الخوف والطمع مبالغة، أو خائفين خوفا وطامعين طمعا، أو خائفين وطامعين، أو لأجل خوفهم وطمعهم، لأنَّ الإراءة تتضمَّن الرؤية، فقد اتّحد فاعلها وفاعل الرؤية، أو إراءة خوف وطمع، أو هما اسما مصدرين، أي إخافة وإطماعا، أي ذا إخافة وإطماع، أو مخيفا ومطمعا، أو للإخافة والإطماع.

والمراد: خوفا من أذى يأتي من جهة البرق، وطمعا في مطره، والخائف والطامع واحد، وقيل: يخائف من المطر من يضرُّه، ويطمع فيه من ينفعه، وكلُّ واحد غير الآخر، والمطر وإن ضرَّ لَكِنَّ نفعه أكثر، فيخاف منه في غير أوان الصلاح فيه، كحال تجفيف التمر والحبوب، وفساد الثمار به أو سقوطها. والمضارع للاستمرار التجدُّدي.

﴿**وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ**﴾ الغيث المنسحب في الهواء الثقيل بالماء، والسحاب جمع أو اسم جنس جمعي، والواحد سحابة ولذلك وصف بالجمع ﴿**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**﴾ ثابتا مع حمده أو ملتبِسا بحمده، يقول: «سبحان ا لله والحمد لله»، أوالتقدير: يسبِّح الرعد ويسبِّح من يسمعه بحمده، فالحامد على هذا سامعوه.

أو **تسبيح الرعد حالي لا قالي، وهو دلالته على قدرة ا لله** ﷻ دلالة ملتبسة بنزول الرحمة وهو الصوت.

وإذا قلنا: الرعد ملك فذلك منه قالي، قال ﷺ: «**الرعد ملك موكَّل بالسحاب، معه مخاريق من النار يسوق بها السحاب حيث شاء ا لله**»[1]، أجاب بذلك اليهود السائلين له عن الرعد، فقالوا: وما الصوت منه؟ قال: زجره للسحاب، وإذا شذَّت سحابة ضمَّها، وإذا اشتدَّ غضبه طارت من فيه نار هي الصاعقة، ويقال: إنَّ بحورا من نار تحت العرش يكون منها الصواعق، وقال ابن سيناء: أجسام نارية فارقتها السخونة وصارت لاستيلاء البرودة على جوهرها متكاثفة، وقيل: الرعد ملك والصوت تسبيحه، وقيل: صوت ضربه السحاب، وقيل: صوت تقارع الماء، وقيل: ملك والبرق سوطه كما مرَّ.

١-أورده **ابن بشران** في الأمالي، ٢/٢٧/٢٤، و**المقدسي** في الضياء في الأحاديث المختارة (ق٢٠٦، ٢٠٧) من حديث ابن عَبَّاس. (الألباني، الصحيحة: ج٤، ص٤٩١ رقم١٨٧١).

وعنه ﷺ: «**إنَّ ا لله ينشئ السحاب فينطقه أحسن النطق، ويضحكه أحسن الضحك، فنطقه الرعد، وضحكه البرق**»[١]، وا لله قادر على إحياء الجماد وإنطاقه وإضحاكه، وإذا سبَّح ذلك الملك لم يبق ملك في السماء والأرض إلاَّ رفع صوته بالتسبيح فينزل القطر.

وإذا كان الرعد ملكا فقوله ﷻ: ﴿**وَالْمَلآَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**﴾ عطف عامٍّ على خاصٍّ، وذكر الخاصِّ قبل العامِّ والعكس كلاهما تشريف للخاصِّ، والخيفة: نوع من الخوف مقرون بالتعظيم. والهاء لله ﷻ، وقيل: للرعد خوفا منه، [قلت:] والصحيح الأوَّل، وليس خوفهم من ا لله كخوف غيرهم فإنَّهم لا يعرفون من بيمينهم أو يسارهم لشدَّة خوفهم، ولا يشغلهم شيء عن العبادة.

﴿**وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ**﴾ الصاعقة: نار تنزل من ماء السحاب، أو صوت شديد ينزل، ثمَّ تكون فيه نار، أو عذاب أو مَوْتٌ، وأمر النار من الماء عجيب جدًّا، وهي أقوى من جميع نيران الدنيا، فإنَّها تنزل من السحاب فربَّما غاصت في البحر، وأحرقت الحيتان فيه وفي قعره، وتنزل وتغوص في الأرض فتخرج حجارة كالبكرة السفلى، وهذا كخروج النار من العرجون، ومن شجر المرخ، **وذلك أدلُّ دليل على وحدة ا لله**، أخرج ما هو حارٌّ يابس مِمَّا هو بارد رطب، ويقال عن ابن عَبَّاس: من سمع صوت الرعد فقال: «سبحان الذي يسبِّح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته، وهو على كلِّ شيء قدير» وأصابته صاعقة فعليَّ ديته[٢].

﴿**فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَّشَآءُ**﴾ يوصله من يشاء فيهلك، أو الإصابة نفس الإهلاك،

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٤، ص٥٨، من حديث أبي هريرة.

٢- يعني ﵁ لا تصيبه صاعقة فلذلك ألزم نفسه بديته إن أصابته.

قال محمَّد بن علي الباقر[1]: تصيب الصاعقة المسلم وغير المسلم، ولا تصيب الذاكر، جاء الحديث بذلك فليس نزول الصاعقة على أحد موجب للبراءة منه، كما قيل، وأمَّا المسخ فموجب للبراءة، والجزم بشقاوة الممسوخ، وكذا الخسف، ولا مانع من حمل إصابة من يشاء على معنى الضرِّ له في جسده أو حرثه وشجره وماله.

﴿**وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ا للهِ**﴾ في شأن ا لله، يكذِّبونه ﷺ في قوله بالبعث والجزاء، ووصفُ ا لله بالقدرة والعلم التامِّ وبأنَّه لا يشبهه شيء أشدُّ تكذيب، كالجدل بمعنى الإلقاء على الجدالة، وهي الأرض، أو بمعنى القتل.

(سبب النزول) نزلت الآية في رجل بعث إليه رسول ا لله ﷺ من يدعوه إلى التوحيد فقال: من رسول ا لله؟ وما ا لله؟ أمن ذهب أم فضَّة أم نحاس؟ فقال: عودوا إليه، فعادوا فقال ذلك وأقبح، وأمرهم بالعود إليه، فما زاد إلاَّ شرًّا، فنزلت الصاعقة بعد إرعاد وإبراق فذهبت بجمجمة رأسه، وهم جلوس حوله، ينهونه، وسلموا، فجاءوا ليخبروه ﷺ فسبقهم بالإخبار، وقال: أوحي إِليَّ بذلك.

وروي أنَّ عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا إليه ﷺ وأرادا قتله، على أن يلهيه عامر بالجدال ويضربه أربد بالسيف من خلفه، فقال ﷺ: «**اللهمَّ اكفيهما بما شئت**» فأرسل ا لله على عامر صاعقة، ورمي أربد بغدَّة كغدَّة البعير، ومات في بيت سلولية من قبيلة تستحقر، فكان يقول: غدَّة كغدَّة البعير وموت في بيت سلولية، ثمَّ خرج وأجرى فرسه ومات على ظهره، ويروى: مات عامر بالطاعون، وأربد بالصاعقة.

١- محمَّد بن علي زين العابدين بن الحسين الطالبي الهاشمي القرشي أبو جعفر الباقر، ولد ٥٧هـ وتوفي ١١٤هـ، خامس الأيمَّة الاثني عشر عند الإماميَّة. كان نسَّاكا عابدا، له في العلم وتفسير القرآن آراء وأقوال، ولد بالمدينة وتوفي بالحميمة ودفن بالمدينة. (الزركلي: الأعلام، ج٦، ٢٧٠).

﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ الكيد للعدوِّ، أو القُـوَّة أو الأخـذ، أو المماحلة بمعنى المكايدة، يقال: تمحَّل لكذا إذا تكلَّف استعمال الحيلة له، وهو مصدر ماحل يماحل، وإذا كان بمعنى القُـوَّة فقد قيل إنَّه اسم لا مصدر، ومـادَّة المحل الشـدَّة، ومنه المحل بمعنى القحط.

(صرف) والميم أصل والألف زائد، ويجوز العكس، فتكون من الحول بمعنى الحيلة مجازا، كأنَّه من المجازاة على احتيالهم في الإهلاك، والقلب على هذا شـاذٌّ قياسا، إذ لا موجب لقلب الواو ألفا فيه، كذا قيل، وليس كذلك، فإنَّه نقلت فيه حركة العين إلى الفاء فقلبت، بل لو صحَّت كمِجْوَر ومِقود لقيل: شـاذٌّ، إلاَّ إن أراد بكونه شاذًّا أنَّه خارج عن قانون الاستعمال، ويُدَّعى أنَّ مِفعل بكسر الميم ما ورد إلاَّ غير مُعلٍ نحو مقول، وليس كونه شاذًّا لعدم الفتح قبله، فإنَّه ينقل فتحه لِمَا قبل فلا تهم.

وقيل: بمعنى الفقار، وهذا في قراءة فتح الميم، والواحد محالة بالتاء، فيكون مثلا في القُـوَّة، فإنَّ المخلوق الطويل الظهر الكبير الفقار قويُّها، وهنَّ سبع عشرة، وعن أبي الهيثم: أربعة وعشرون، ويجمع بأنَّ بعض الناس يكون أكثر فقرة من بعض، ولا تزيد على أربع وعشرين ويكون الكثير الفقار قَوِيًّا حاشى ا لله، **وهو ضعيف لعدم التوقيف ولا يجوز اعتقاده ولو بالتأويل**، ويقتصر على الوارد كما جاء من حديث نهاية ابن الأثير: «**فساعد ا لله أشدُّ وموساه أحدُّ**»[1]، أي لو شاء تحريم البحيرة لخلقها مشقوقة الأذن، وهو أقوى على ذلك، فكنَّى عن ذلك بأشدِّية ساعده، وأحدِّية موساه، **ولا يوصف بالساعد.**

﴿لَهُ,﴾ لا لغيره ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ الدعاء إلى التوحيد فإنَّ الدعاء إليه دعاء حقٌ لا باطل، أو الحقُّ هو التوحيد، ودعوة التوحيد هو الدعاء إليه، وليس من إضافة

١- رواه **أحمد** في مسنده، كِتَاب مسند الشاميِّين، رقم ١٦٥٩٤، من حديث أبي الأحوص عن أبيه.

الموصوف إلى الصفة كما قيل، وإلاَّ قيل: الحقَّة، إلاَّ أن يتكلَّف أنَّه مصدر كما يقال: امرأة عدل، أو أَوَّل الدعوة بالدعاء فكأنَّه الدعاء الثابت، أو المستجاب فإنَّ ما لا يستجاب باطل، كما قال: ﴿لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾، أو **المراد: دعوة المدعو** الحقِّ وهو الله، وقيل: الحقُّ: الله، وكأنَّه قيل: لله دعوة الله، فيشكل بظاهره، ويؤوَّل بأنَّ كلَّ ما كان دعاء إليه تعالى يكون له، وأنَّه أمر به ولا يليق بغيره، وكلُّ دعاء إليه هو دعاء له، بمعنى أنَّه أمر به.

﴿**وَالذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ**﴾ ذكر الأصنام بما يذكر به العقلاء لأنَّهم يعظِّمونها كأنَّها عقلاء، وواو «يَدْعُونَ» للمشركين، و«الذِينَ» للأصنام، والعائد هاء محذوفة، أي والأصنام الذين يدعونهم، أي يدعوهم المشركون، أو «الذِينَ» للمشركين، والعائد الواو، ومفعول «يَدْعُونَ» محذوف ظاهرا يعود إليه واو «لاَ يَسْتَجِيبُونَ»، فإنَّ واوه على كلِّ وجه للأصنام، وهاء «لَهُمْ» على كلِّ حال للمشركين، لا يستجيب الأصنام لعابديها بشيء مِمَّا يطلبونها إليه.

﴿**إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ**﴾ أي إلاَّ استجابةً كاستجابة باسط يديه من فم البئر إلى الماء في قعرها، أو باسطيهما إلى السحاب مع ضمِّ أصابعه، ونصبهما لتمسك له الماء ليدخل فاه أو يصله، وهو عطشان والماء جماد لا شعور له بعطشه، ولا ببسط الكفَّين إليه، ولا قدرة له على إجابة الدعاء، ولا يطلع إليه الماء أو ينزل إليه، فكذا دعوا الأصنام جمادا لا تعلم بدعائهم ولا تستجيب لهم، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ (سورة فاطر: ١٤) بقي أنَّه لا استجابة للماء البتَّة فكذلك لا استجابة للأصنام، فذلك كقوله:

ولا عيب فينا غير أنَّ سيوفنا بهنَّ فلول من قراع الكتائب

فإنَّ ذلك لا يختصُّ بالمدح والذمِّ.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي الماء ﴿بِبَالِغِهِ﴾ أي بالغ فيه، أو ما فوه ببالغ الماء، أو ما باسط كفَّيه إلى الماء ببالغ الماء، والأوَّل أولى، لأنَّ البالغ في قوله: ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ هو الماء، ووجه الثاني والثالث التفنُّن في البالغ.

ويجوز أن يكون المعنى: كباسط كفَّيه بتفريق أصابعه، أو مع ضمِّها ممتدَّة في حوض أو إناء واسع، فإنَّه لا يغترف له الماء بذلك، وما تقدَّم أولى لتمام التشبيه فيه، بخلاف هذا فإنَّه قد يبقى ماء قليل في أخمص راحته، مع أنَّه لا نفع كثير ولا قليل من الأصنام.

﴿وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ﴾ طلبهم حوائجهم من الأصنام، أو عبادتهم إيَّاها، أو ما عبادتهم الله لأنَّهم قد يعبدونه كالطواف ﴿إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ ضياع حين يحتاجون لا نفع فيه، لا تنفعهم الأصنام ولا يقبل الله عبادتهم إيَّاهُ لشركهم، قال ابن عَبَّاس: «أصوات الكُفَّار محجوبة عن الله تعالى فلا يسمع دعاءهم» ومعنى حجبها وعدم سمعها أنَّها غير مقبولة، والله لا يخفى عنه شيء.

﴿وَلِلهِ﴾ لا لغيره ﴿يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ بالجباه على الأرض والسماوات من [قِبل] الملائكة فيهما، ومؤمني الإنس والجنِّ، ومنافقيهم ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ ذوي طوع وذوي كره، كمشرك يسجد خوفا من القتل، وكمنافق يسجد لئلاَّ يظهر نفاقه، أو طائعين وكارهين أو للطوع والكره، ولا مانع من أن يقال: من حقِّ الله أن يسجد له طوعا أو كرها، أو بمعنى الطلب، أي اسجدوا له طوعا وكرها.

ومعنى السجود كرها: أن يقبل السجود من قلبه لكن يكرهه بالطبع، ومقابله الطوع فيه بالرغبة، أو المراد حال النشاط وغيرها، أو السجود: عدم قدرتهم على الخروج عمَّا أراد فيهم من التصرُّف، فبعض يذعن للشدَّة بلا كراهة، وبعض بها، أو السجود: التعظيم، فإنَّ أجساد الكافرين مقرَّة، والكفر يحدث في القلب.

ويدلُّ على أنَّ السجود غير سجود الجبهة بل بعض ما تقدَّم أنَّه قال: ﴿وَظِلاَلُهُم بِالْغُدُوِّ وَالاَصَالِ﴾ فإنَّه لا جبهة للظلال، إلاَّ أن تستعمل الكلمة في معنييها، وهما سجود الجبهة مع السجود بمعنى الخضوع أو الانقياد، أو يقدَّر وتنقاد ظلالهم كقوله: «علفتها تبنا وماءا باردا»، أو يخلق الله لها عقلا تسجد به، وقيل: سجودها ميلها، و«بِالْغُدُوِّ» متعلّق بـ«يَسْجُدُ» كناية عن دوام سجود من في السماوات والأرض، أو حال من الظلال، فيكون قد خصَّ الغدو والآصال لأنَّ الشيء إذا أخذ بطرفيه فقد أخذ كلُّه، وإلاَّ فالظلال موجودة في غيرهما أيضا ساجدة، ولأنَّ الامتداد في الآصال أظهر، لأنَّه يزيد الظلُّ في زمان قصير كثيرا، والتقليص في الغدوِّ أظهر لأنَّ نقصانه كثير في زمان قليل. والغدوُّ جمع غداة، والآصال جمع أصيل وهو ما بين المغرب والعصر، وقيل: أصل الغدوِّ مصدر استعمل للزمان وهو ما بعد طلوع الفجر.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلَ اَفَاتَّخَذتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الاَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾

وحدانيَّة الله ومثل المؤمن والمشرك تجاه الوحدانيَّة

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لقومك ﴿مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ مالكهما القائم بوجودهما وإبقائهما وأحوالهما ﴿قُلِ اللهُ﴾ الله ربُّهما، أو ربُّهما الله، لا يجدون جوابا غيره، أجابوا به أو سكتوا عنادا لظهوره، فهو ﷺ والخصم في تقريره سواء، أو قل لهم ذلك تلقينا لأن يقوله جاحدٌ أو ساكت عارف،

والأمر ظاهر حتَّى كَأَنَّهُم قالوه بعد السؤال فحكاه، وذلك تحريض لهم على الجواب. والاستفهام للتقرير.

﴿قُلَ اَفَاتَّخَذتُّم مِّن دُونِهِ﴾ أظهرت لكم دلائل وحدانيَّته فاتَّخذتم بعد ظهورها؟ أو الهمزة مِمَّا بعد الفاء، والاستفهام إنكار للياقة الاتِّخاذ فإنَّه منكر بعيد عن العقل ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ آلهة تتولَّونها بالعبادة والدعاء، أو تتولَّى نصركم على زعمكم، وتنفعكم وتشفع لكم في نظركم الخاسر ﴿لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا﴾ فكيف تطمعون أن تنفعكم بنصر أو رزق أو شفاعة، وصيغة الذكور العقلاء لأنَّهم يعتقدون فيها ما يعتقد في الذكر العاقل.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي﴾ في التعظيم ﴿الاَعْمَى﴾ أي الجاهل، فإنَّه في وقوعه في المضارِّ كفاقد بصر لم يتَّبع بصيرا ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ العالم بمصالحه لا يستويان، بل لاحظَّ في التعظيم للجاهل فكذلك الجاهل بالتوحيد والعبادة، والعالم به المعتقد له العامل، أو لا تستوي الأصنام الغافلة عَمَّن يعبدها، ولا إدراك لها، والعالم بكلِّ شيء المستحقُّ للعبادة.

أو ﴿الأَعْمَى﴾: المشرك و﴿البَصِيرُ﴾: الموحِّد، أو ذلك تمثيل، أو استعارة، ومرادنا بالغفلة عدم الشعور، فصحَّ إسنادها إلى غير الحيِّ، وإنَّما لم تعطف هذه الجملة لأنَّها استئناف بياني، كأنَّه ﷺ قال: أيُّ شيء أقول في تصوير اتِّخاذهم القبيح بالصورة المحسوسة؟ فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الاَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ لا يستويان، فإنَّ من في الظلمات لا يهتدي لمصالحه ولا ينجو من المهلك، بخلاف من في النور، فكذلك الجاهل والمشرك يهلكان، والموحِّد المطيع ينجو ويفوز، وجمع الظلمة لكثرة أنواع الشرك كاليهوديَّة والنصرانيَّة، والصابئة والمجوسيَّة، والوثنيَّة والثنويَّة، والدهريَّة وأنواع الفسق، بخلاف التوحيد والعمل بمقتضاه.

(بلاغة) ووجود «هَلْ» بعد «أَمْ» هنا دليل على أنَّ «أَمْ» منقطعة تقدَّر بلفظ بل لا ببل والهمزة، وإلاَّ اجتمع هنا هل والهمزة الاستفهاميَّتان، وقد يجاب بأنَّ «هَلْ» هنا بمعنى قد، كما قال به بعض في قوله تعالى: ﴿هَلَ اَتَىٰ عَلَى الاِنسَانِ﴾ (سورة الإنسان: ١) وقد يقال: إنَّها تقدَّر ببل والهمزة إذا لم تكن «هل».

﴿أَمْ جَعَلُواْ للهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ﴾ بل أجعلوا لله شركاء في الأُلُوهِيَّة وإيجاد المعدومات؟ فالتبس عنهم ما خلق ا لله وما خلق شركاؤهم، ولم يتميَّز واحد من آخر كما قال: ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فعبدوها، وا لله لم يكن ذلك ولم يتوهَّموه، لأنَّهم أقرُّوا أنَّ آلهتهم لا تخلق شيئا، وأنَّ الخالق ا لله وحده ﷻ، فكيف يعبدونها معه وهي لا تتَّصف بصفاته، ولا تفعل أفعاله؟ بل لا تفعل [حتَّى] أفعال الحيوانات. والاستفهام في هذه المواضع للإنكار.

﴿قُلِ ا للهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الجواهر والأعراض، لا شيء سواه يخلق كما يخلق فيعبد كما يعبد، لا ثاني له في الخالقيَّة والألوهيَّة ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ في ذاته وأفعاله وصفاته، فهو المتوحِّد بأن يعبد ﴿الْقَهَّارُ﴾ لعباده في غير أفعالهم التي يختارونها واكتسبوها. والجملة من كلام ا لله أو من مقول القول.

﴿أَنزَلَ مِنَ اَلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتَ اَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ اَلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا تُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي اِلنَّارِ اِبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ اَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اُللَّهُ اُلْحَقَّ وَالْبَٰطِلَ فَأَمَّا اَلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ اُلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي اِلْاَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اُللَّهُ اُلْاَمْثَالَ ١٧ لِلذِينَ اَسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ اُلْحُسْنَىٰ وَالذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوَ

أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾﴾

مثل الحق والباطل ومآل السعداء والأشقياء

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ من السحاب أو من جهة السماء، فإنَّ السحاب من جهتها، أو من نفس السماء أو السماوات تحقيقا، وا لله قادر، أو المراد أنَّ مبادئه منها، والأوَّل أولى لأنَّ بعض الأمطار من ماء البحور أو العيون [كما قيل].

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ جمع واد جمع فاعل على أفعلة على غير قياس، كما يجمع فعيل على أفعلة قياسا، وذلك لتوارد فعيل وفاعل على الشيء الواحد كعالم وعليم وشاهد وشهيد، وهو المنفرج بين الجبلين وليس ما بين الجبلين كلّه يسل فيه الماء بل يسيل في جانبه مِمَّا يلي الجبل، ويسمَّى كلُّه واديا لأنَّ فيه موضع جريان الماء، وهو من ودى يدي بمعنى وصل إليه، والماء يصل منه إلى غيره، وأسند السيلان إلى الموضع مع أنّه للماء للعلاقة الحالية والمحلّية، أو سمَّى الماء باسم الوادي لتلك العلاقة، وهذا أولى من تقدير مضاف هكذا: سال ماء أودية. ونكّر الأودية لأنّه ليست تسيل الأودية كلُّها إذا نزل الماء بل بعضها ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي سبق به القضاء، من كثرة وقلّة وامتلاء وغير امتلاء، وضر ونفع.

فأرض طيِّبة تتأثَّر بالماء فتنبت وتثمر كالمؤمن يتأثَّر بالوحي ينتفع وينفع الناس به، وأرض تمسك الماء للناس والدوابِّ ولا تتأثَّر به كمؤمن وغيره يحفظ الوحي وينفع به الناس ولا ينتفع به، وكحافظ وحي ينساه فيؤدِّيه في غيره قبل النسيان، وأرض لا تمسك الماء ولا تتأثَّر بالمطر كالمشرك والفاسق يسمعان الوحي

ولا ينفعان به ولا ينتفعان به[1].

﴿فَاحْتَمَلَ﴾ فحمل، من الخماسي بالزيادة بمعنى الثلاثي، أو هو للمبالغة ﴿السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ السيل: الماء الجاري ولو من غير المطر، والمراد هنا المطر، والزبد: ما على وجه الماء لجريانه أو اضطرابه من وسخ، وقيل: ما على وجهه ولو من غير اضطراب أو جري كما يكون في ماء إناء، ويقال: هو ما على الماء من العشب اليابس، و﴿رَابِيًا﴾: عاليا.

وعرَّف السيل لأَنَّهُ قد تقدَّم وما يتضمَّنه في قوله: ﴿فَسَالَتَ﴾ وهو المصدر الذي في ضمن الفعل، والسيل مصدر، أي فاحتمل جريان الماء زبدا، أو الوصف، فإنَّ الضرب يدلُّ على ضارب، وسالت على سائل، والسيل: بمعنى الماء السائل وكأنَّه ذكر في ﴿سَالَتَ﴾ وهو نكرة وأعيد معرفة في ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ﴾ ألا ترى كيف يجوز ردُّ الضمير إلى ما يفهم من الفعل؟ والضمير معرفة كمعرفة العهد، نحو: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (سورة الزمر: ٧) و﴿اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (سورة المائدة: ٩) ومن كذَّب فهو شرٌّ له، أي يرضى الشكر، والعدل أقرب والكذب شرٌّ له، وأولى من ذلك أن تكون «الـ» للحقيقة.

﴿وَمِمَّا تُوقِدُونَ﴾ خبر مقدَّم و«مِنْ» للابتداء، و«زَبَدٌ» مبتدأ، أي زبد مثل

١- يشير الشيخ إلى الحديث: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنَّمَا هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا و لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به». رواه **البخاري** في كتاب العلم (٢٠) باب فضل من علم وعلَّم، رقم ٧٩. **ومسلم** في كتاب الفضائل، باب بيان ما بعث به النبيء، رقم٢٢٨٢.

زبد السيل، و«مَا» واقعة على الجواهر الأرضية، كالذهب والفضَّة والنحاس والحديد والرصاص، و«مِنْ» للابتداء لأنَّ زبدا مثل زبد السيل ينشأ مِمَّا يوقدون، والمعنى: ثابت مِمَّا توقدون بالتولُّد منه، وإن شئت قدَّرت الخبر كونا خاصًّا، أي ناشئ أو متولِّد مِمَّا...، أو للتبعيض بمعنى: وبعضه زبد.

وحاصل المعنى: أنَّ الموقد عليه من الجواهر المعدنية له زبد مثل الزبد الذي يعلو الماء إذا أذيب، فالصافي ينتفع به كما ينتفع بالماء، وزبده يبطل كما يبطل زبد الماء، ووجه الشبه أنَّ كلاًّ ناشئ من الأكدار وصاعد وعال، والآية تهاون بما يستعظمون من نحو الذهب والفضَّة، إذ ذكرها بلفظ «مَا» لا بلفظ الذهب والفضَّة ونحوهما، مع لفظ الإيقاد عليها في النار، كما قال: ﴿تُوقِدُونَ **عَلَيْهِ فِي النَّارِ**﴾ على عادة الملوك في الاحتقار بالشيء، كقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ (سورة القصص: ٣٨) في تحصيل الآجر.

أي هذه الجواهر التي تعدُّونها أنفس الجواهر وتفتخرون بها وتتَّخذونها حُلِيًّا تتزيَّنون بها في مجالسكم، هي التي توقدون عليها، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ (سورة الطارق: ٥-٦)، وقوله: ﴿مِنَ اَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ (سورة عبس: ١٨-١٩) أي شيء حقير، وللاحتقار لم يذكرها باسم الذهب والفضَّة والنحاس. و«فِي النَّارِ» حال من الهاء، أو متعلِّق بـ«توقد».

﴿**ابْتِغَآءَ**﴾ طلبَ، مفعول من أجله ﴿**حِلْيَةٍ**﴾ ما يتزيَّن به في البدن أو في اللباس ﴿**اَوْ مَتَاعٍ**﴾ ما يتمتَّع به كأواني النحاس، وآلات الحرب، وآلات الحرث، والدنانير والدراهم والفلوس ﴿**زَبَدٌ مِّثْلُهُ**﴾ زبد مثل زبد الماء وهو خبث تلك الجواهر ورديئها أو الوسخ.

﴿**كَذَالِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ**﴾ كما ذكر من الماء والموقد عليه والزبدين، يضرب الله مثل الحقِّ والباطل على العموم، أو التوحيد والشرك، فالحقُّ

في الثبات والنفع كالماء من السماء يحرث به ويجمع في الأحواض وغيرهـا، ويمكـث فوق الجبال السفلية وتحتها، وكالجواهر المنتفع بهـا مـع الطـول، والبـاطل في سـرعة الذهاب وعدم النفع أو قلّته كزبد الماء وزبد الموقد عليه.

﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ**﴾ زبـد المـاء وزبـد الموقـد عليـه وهمـا مثـلان للبـاطل ﴿**فَيَذْهَبُ جُفَآءً**﴾ حال، بمعنى ذا جفاء أو مجفوًّا، أي غير معتنىً بـه، بـل يرمـى أو لا يتعـرَّض له، أو مفعول مطلق أي ذهاب جفاء ﴿**وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ**﴾ مـن المـاء والجواهـر الموقد عليها ﴿**فَيَمْكُثُ فِي الاَرْضِ**﴾زمانا للانتـفاع بـه، والعـرب توضـح الشـيء بالمثال فميَّز الله الحقَّ بالمثل كما أوضح المشرك بالجاهل والأعمى ﴿**كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الاَمْثَالَ**﴾ لزيادة البيان مثل ذلك الضرب العجيب.

يضرب الله الأمثال في كلِّ باب يليق، إظهارا لكمال اللطف والعنايـة في الهدايـة، وهذا تأكيد لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ إذ الظـاهر أنَّ ذلـك إشارة إليهما بتأويل ما ذكر، أو إلى ضرب المثل لهما كما هو الظاهر، وهذا مبني علـى التمثيل الأوَّل، أو نجعل «ذَٰلِكَ» إشارة إليهما معا. والأمثال: المثلان.

﴿**لِلذِينَ اسْتَجَابُواْ**﴾ خبر المبتـدأ الـذي هـو «الْحُسْنَىٰ»، أي للمؤمنـين الذيـن استجابوا ﴿**لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ**﴾ أو متعلّق بـ«يَضْرِبُ» و«الْحُسْنَىٰ» مفعـول مطلـق، أي استجابوا الاستجابة الحسنى.

﴿**وَالذِينَ**﴾ لِلكُفَّارِ الذيـن ﴿**لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُ**﴾ عطـف علـى «الذِيـنَ [اسْتَجَابُوا]»، أو مبتدأ خبره قولـه: ﴿**لَوَ اَنَّ لَهُم مَّا فِي الاَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ**﴾ من الأموال، أو ما في الأرض مطلقا صار لهم مالا ﴿**لَافْتَدَوْاْ بِهِ**﴾ والأوَّل أولى، لأنَّ ضرب الأمثال فيه غير مقيَّد، كما وقع في غير هذه الآية غير مقيَّد، ويدلُّ على أنَّ المراد بالأمثال المثلان أنَّه لم يقـل: كذلـك يضـرب الله الأمثـال للنـاس، أو لقوم يعقلون، كما قال: ﴿وَتِلْكَ الاَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٣) .

ومعنى ﴿لاَفْتَدَوْاْ بِهِ﴾ أنَّه يهون عليهم كلُّه فيتركونه فداء مع أنَّه لا يقبل عنهم، وليست «لَوْ» للتمنّي بدليل اللام في قوله: ﴿لاَفْتَدَوْاْ بِهِ﴾ فلا تهم.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ هو على ظاهره، أي فظاعة الحساب، أو الحساب السوء أي السيِّء، وأضيف النعت إلى المنعوت؛ يحاسبون حسابا عسيرا لا يغفر لهم ذنب ولا همٌّ به، صغير ولا كبير، وفي البخاري ومسلم عنه ﷺ: «**من نوقش في الحساب عذِّب**»[1]. ﴿وَمَأْوَيهُمْ﴾ مرجعهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِيسَ الْمِهَادُ﴾ أي المستقرُّ، شبِّه بالفراش الذي يمهَّد، أو تهكّم به، والمخصوص بالذمِّ محذوف تقديره هي، أو مهادهم.

ونزل في أبي جهل لعنه الله وحمزة رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَّعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ لا غيره، وهو حمزة رضي الله عنه وغيره، لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ أعمى القلب، وكفاقد البصر لا يستبصر، ولا يستجيب. والاستفهام إنكار، لا يميِّز الحقَّ من الباطل، أو هو أبو جهل وغيره للعمل بعموم اللفظ. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الاَلْبَابِ﴾ العقول المكتسبة لا أصحاب العقول التي لم تستعمل، فبقيت على متابعة ما ألفوه، وموانع الوهم[2].

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ

١- رواه **البخاري** في كتاب العلم (٣٦) باب من سمع شيئا فراجع حتّى يعرفه، رقم١٨. ورواه **مسلم** في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب، رقم٢٨٧٦. من حديث ابن عمر.

٢- كذا في النسخ ولعلّه: وموانع الفهم.

مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

أوصاف المؤمنين أولي الألباب وجزاؤهم

﴿**الذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ا للهِ**﴾ المأخوذ عليهم حين قالوا: ﴿بَلَى﴾ بعدَ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢)، أو بما عهد ا لله في الكتب وسائر الوحي إلى الأنبياء، ومن لم يعلمه أو أنكره كأنَّه علمه وأعطى الميثاق لتبليغ الأنبياء، ونَصْبِ الدلائل، **أو بكلِّ وعد وعدوه من طاعة لله، أو وعد وعدوه من المباح لغيرهم.**

(نحو) و«الذينَ» نعت لـ«أُولُواْ الاَلْبَابِ»، و«الذِينَ» بعده مبتدأ، وقوله: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ خبر له مع ما بعده، أو «الذِينَ يُوفُونَ» مبتدأ، أو «أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ» خبر له مع ما بعده، ويجوز عطف «الذِينَ» في ذلك كلِّه على «الذينَ يُوفُونَ» عطف صفات لموصوف واحد، فيكون «أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ» مستأنفا.

﴿**وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ**﴾ إن كان بمعنى العهد المذكور فعطف على «يُوفُونَ» باعتبار اختلاف المفهوم، ذكر أوَّلاً باعتبار عدم النقص منه بالصاد المهملة، وثانيا باعتبار أنَّهم لم يخالفوه، والمخالفة له نقض ـ بالمعجمة ـ ، أو باعتبار أنَّهم أوفوا له وداموا عليه لم ينقضوه برئاء، أو بمحبط كشرك، **أو العهد على العموم والميثاق بينهم وبين ا لله أو بالعكس.**

﴿**وَالذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ا للهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾ من حقِّ الرحم والجار والعشرة وحقِّ المؤمنين وموالاتهم وإيثارهم، والتودُّد إلى الناس وعيادة مرضاهم، واتِّباع جنائزهم، وحقوق الناس، والإيمان بجميع الأنبياء والكتب لا ببعض دون بعض،

كاليهود والنصارى، وهذا داخل فيما مرَّ. و«أَنْ يُوصَلَ» بدل اشتمال من الهاء.

﴿**وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾ يخافونه وعذابه تعظيما له ﴿**وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ**﴾ داخل فيما مرَّ لكنَّه ذكره بعنوان يشير إلى «أن يحاسبوا أنفسهم قبل أن يحاسبوا».

﴿**وَالذِينَ صَبَرُواْ**﴾ على الطاعة وتجويدها في إخلاص فرضا ونفلا، وعلى المصائب، وعلى المعاصي، والنفل لا يلزم، [قلت:] لكن لَمَّا كان تارك السنن المؤكَّدة لا يتولَّى إن لم تسبق له الولاية أدرجتُ النفل في الآية ﴿**ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ**﴾ ذوي ابتغاء ثواب وجه ربِّهم، أو مبتغين لثوابه، أو لابتغائه، لا ابتغاء عرض الدنيا كالمال والشهرة بالصبر في ذلك، وكالرئاء وما هو من جانب الخلق وحذر أن لا تشمت به الأعداء.

﴿**وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ**﴾ المفروضة، وأمَّا غير المفروضة إن أتوا بها متهاونين فمن سوء الأخلاق، [قلت:] **وسوء الأخلاق يجرُّ إلى سائر الذنوب**، ويجوز تفسير الآية بالصلاة الواجبة وغير الواجبة، حملا للكلام على المدح لصفات الخير، ولو كان الإخلال بالنفل لا يدخل به النار.

[قلت:] **ومن تضييع الصلاة** الجمع بين الصلاتين بلا ضرورة، فقد صلَّى الثانية قبل وقتها إذا جمع قبله، ولو كان في السفر إذا كان في قرية آمنا، وأجزتهم على قول اشتراك الأولى والثانية من أوَّل وقت الأولى إلى أواخر وقت الثانية، **وتقرَّر أنَّه من جمع بين صلاتين بلا عذر أجزتاه ولا ثواب له.**

وعطف قوله: ﴿يَخَافُونَ﴾ عَلَى: ﴿يَخْشَوْنَ﴾ عطف خاصٍّ على عامٍّ، وكذا عطف قوله: ﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ **وَأَنفَقُواْ**﴾ على قوله: ﴿صَبَرُواْ﴾.

﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي بعضه، وهو ما وجب من الزكاة والضيافة ونفقة الأهل الواجبة، وتنجية المضطرِّ، ويقال أيضا: لا بأس بإدراج النفل، لأنَّ المقام مقام مدح، وترك اللَّذة المباحة، ولو كان الإخلال بالنفل لا يدخل النار.

﴿سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ بأي حال اتَّفقت لحرصهم على الطاعة، لا يؤخّرون الفرض إلى وقت العلانية، ولا النفل إلى وقت السرِّ ﴿سَارِعُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٨) ، أو سرًّا في النفل وعلانية في الفرض، لأنَّ من شأن الفرض الإعلان، قال الحسن: المراد الزكاة المفروضة، فإن عرف بالمال أدَّاها جهرا وإلاَّ فسرًّا، ولا مانع من ردِّ ﴿سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ إلى الصلاة والإنفاق معا، ونصبهما على الظرفيَّة، أي وقت سرٍّ ووقت علانية، أو حال أي ذوي سرٍّ وذوي إعلان، أو مسرِّين ومعلنين.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ يدفعون ﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ كالجهل بالحلم، والأذى بالصبر، والحرمان بالعطاء، والجفاء بالأدب مع الجافي، وما يؤدِّي إلى سوء ترك، كما جاء: «من الجفاء الإقبال على من أعرض» أو يتبع السيِّئة بالحسنة، قال ﷺ : «**إذا عملت سيِّئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها**»[1]، أو يدفعون المعصية بالتوبة.

دخل شقيق البلخي على عبد الله بن المبارك، أو بالعكس —وهو المشهور— متنكِّرا، فقال: «إذا منعوا صبروا وإذا أعطوا شكروا» فقال شقيق: «هذه صفة كلابنا ببلخ» أو قال عبد الله: «هذه صفة كلابنا» فقال أحدهما للآخر: فكيف الأمر؟ فقال: «إذا منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا» ويزاد على ذلك: أنَّهم يجزون الظالم بالمغفرة والمسيء بالإحسان، كما قيل:

١- رواه سعيد بن منصور في سننه، ج٣، ص٦٤. ورواه **أبو نعيم** في الحلية، ج٤، ص٢١٨ مع زيادة في آخره. من حديث أبي ذر. ورواه **أحمد** عن أبي ذر كذلك.

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ العاقبة المحمودة في الدار الآخرة، و﴿الدار﴾: الآخرة ما بعد الموت شاملة للجنَّة والنار، والمحمودة منها الجنَّة وهي المراد هنا، أو ﴿الدار﴾: الدنيا وعقباها الجنَّة لأنَّها تجيء بعدها ونتيجة لها لمن اتَّخَذَها مطيَّة إلى الخير، وينتهي شأن الدنيا إلى الآخرة بجنَّة أو نار والمراد هنا الجنَّة.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة، قيل: هي وسط الجنَّة، وهو بدل أو بيان من «عُقْبَى»، أو خبر لمحذوف، والوجوه هذه أولى من كونه مبتدأ مخبرا عنه بقوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنَ ـ ابَآئِهِمْ﴾ وإن علوا، والديهم ووالداتهم، يجاورونهم في الجنَّة لإتمام السرور، و«مِنَ ـ ابَآئِهِمْ» حال من ضمير «صَلُحَ»، أو من «مَنْ»، و«مَنْ» معطوف على الواو للفصل بالمفعول. ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ التي متن أو ماتوا في العصمة، هُنَّ فراش لهم في الجنَّة، [قلت:] والمرأة لآخر أزواجها على الصحيح، وجاء به الحديث، وقيل: تختار أحسنهم خلقا معها، وفيه أثر وارد، وقيل: لأوَّلهم.

﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ الذين لم يبلغوا من الذكور والإناث يكونون في درجاتهم، مع أنَّهم لم يعملوا عملهم، وكذا قيل في الآباء لإكمال السرور، وذلك من جملة الشفاعة، والأنثى غير البالغة تكون مع زوجها لا مع أبيها، ولا يخفى أنَّ الآية في الجَنَّة تجمع هؤلاء لاتِّصال بعض ببعض في أمر الدين، لا في الاستواء في الدرجات، إذ لا دليل في الآية على الاستواء، وإنَّما الصريح في الأولاد قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ اَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ (سورة الطور: ٢١).

﴿وَالْمَلآَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب الجنَّة، ومن أبواب القصور يهنِّئونهم، وبعد ذلك يدخلون عليهم في مقدار كلِّ يوم من أيَّام الدنيا ثلاث مرَّات بالهدايا، والتحف من الله ﷻ بالسلام في ذلك الدخول كلِّه، كما

قال تعالى: ﴿**سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ**﴾ أي بصبركم، والباء سببي، أو عوض، متعلّق بما تعلّق به «عَلَيْكُمْ»، أو خبر لمحذوف، أي هذا الثواب بما صبرتم، أو المعنى: يدخلون عليهم من كلِّ نوع من الهدايا، أو بكلِّ نوع، سمِّيت الهدايا أبوابا مجازا، وفيه أنَّه لا قرينة، وقيل: من كلِّ باب من أبواب البرِّ كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر.

﴿**فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ عقباكم أو هذه العقبى أو ذلك، هذا من جملة قول الملائكة، أي عقبى دار الآخرة وهي الجنَّة، أو عقبى دار الدنيا أي نتيجة عملكم فيها.

قال عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: ليقم أهل الصبر، فيقوم ناس ولا يقدر غيرهم على القيام، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنَّة، فتقول الملائكة: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنَّة، قالوا: قبل الحساب! قالوا: نعم، فيقولون: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر، قالوا: وما صبركم؟ قالوا: صبَّرنا أنفسنا على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى بلاء الدنيا، فيقولون: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ...﴾ الآية»، وهو تبشير بالسلامة أو تَحيَّة منهم أو من الله بواسطتهم.

﴿وَالذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

صفات الأشقياء وجزاؤهم

﴿**وَالذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾ هما ما تقدَّم في قوله: ﴿الذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ في الأوجه السابقة وزاد معنى آخر هنا في الميثاق وهو التأكيد، كأنَّه قيل من بعد تأكيده بالاعتراف والقبول، وهم فاعل الميثاق، أو من بعد تأكيد الله له بالدلائل العقلية والسمعية، ففاعله الله، أو الميثاق

اسم آلة وهو ما يوثق به الشيء فعهد الله قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ والميثاق قولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢).

﴿**وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُّوصَلَ**﴾ هو ما مرَّ في قوله: ﴿وَالذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُّوصَلَ﴾ ﴿**وَيُفْسِدُونَ**﴾ يعتادون عمل الفساد ﴿**فِي الاَرْضِ**﴾ فلا مفعول له، أو يقدَّر يفسدون ما صلح وهو التوحيد وعبادة الله وعدم الجور، وذلك بالشرك والمعاصي فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين الخلق، وفعل المعاصي من الإفساد، وكتهييج الفتن، وإفشاء أسرار المسلمين إلى الكُفَّار.

﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ**﴾ البعد عن الجنَّة وولاية الله ﴿**وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾: الآخرة، وسوؤها: جهنَّم، أو سوء الدار: الدنيا، أو سوء عاقبة الدنيا وهي جهنَّم، لأنَّه في مقابلة ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ على أنَّ ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾: عقب دار الدنيا، أو ﴿الدَّارِ﴾: جهنَّم، وسوؤها: عذابها؛ واللام في الموضعين للاستحقاق، وقدِّم للحصر، وكلٌّ واحدة من تلك الصفات على حدة توجب اللعنة وسوء الدار. وأخِّر سوء الدار للفاصلة.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ

وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

الرزق على الله والآيات بيد الله والهداية من الله

﴿**اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ**﴾ قدَّم المسند إليه تأكيدا بإسنادَيْن، لأنَّ في «يَبْسُطُ» ضميره لا للحصر، كما قال عبد القاهر الجرجاني، وتبعه عليه من لم يتأمل، والذوق لا يقبل أنَّ قولك: «زيد يقوم» للحصر.

وبسْط الرزق توسيعه، وذلك استئناف بياني، كأنَّه قيل: لو كانت لهم اللعنة وسوء الدار لم يبسط الله رزقهم؟! فأجاب بأنَّ بسطه لهم ليس لرضى الله بكفرهم، بل لحكمته أن يجازيهم في الدنيا على خير عملوه، أو أن يزدادوا عذابا بكفر النعم، وقد يضيِّق على الكافر لينزجر، وقد يضيِّق على المؤمن ليعظم ثوابه لا لإهانته، ويبسط له ليزيد شكرا، ولذلك علَّق البسط والتضييق بمشيئته لا بقيد كفر أو إيمان، بل إجمالا.

كما قال الله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ **لِمَنْ يَّشَآءُ**﴾ البسطَ له من كافر ومؤمن ﴿**وَيَقْدِرُ**﴾ يضيِّقه لمن يشاء منهما ﴿**وَفَرِحُواْ**﴾ أي كُفَّار مَكَّة أو عُمُومًا فيدخلون بالأولى، ويبعد عطفه على «يَنقُضُونَ» أو «يُفْسِدُونَ» على أنَّ ما بينهما اعتراض، ووجه البعد أنَّ الفرح بالحياة الدنيا مثل ينقضون وما بعده في أن يجاب به السؤال المقدَّر على الاستئناف البياني، فلو كان العطف على ذلك لأخَّر قوله: ﴿اللهُ يَبْسُطُ...﴾ و لم يعترض به، ويدلُّ على عدم العطف عليه أنَّ الثانية بصيغة الماضي، فإنَّه ولو جاز ذلك العطف لكن الأنسب التوافق في الماضويَّة أو المضارعيَّة. ﴿**بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا**﴾ فرح بطر لا فرح سرور بفضل الله وقصد شكر عليه، وهذا تقبيح لحالهم، إذ ركنوا إلى الدنيا واستعملوا في المعصية ما أعطوه ليعبدوا الله ﷻ به، [قلت:] **والآية دليل على أنَّ الركون إلى الدنيا حرام**، وفي الآية حذف

والأصل: «وفرحوا بنعم الحياة الدنيا» أو «بالحياة الدنيا في النعم».

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ﴾ في جنب الحياة الآخرة، يتعلّق بمحذوف حال من المبتدأ عند مجيز ذلك، وهو ضعيف، لأنَّ عامل المبتدأ الابتداء وهو لا يقيّد بالحال إلاَّ أن يعتبر النفي، والأولى أن يتعلّق بنسبة الكلام كأنّه قيل: محكوم عليها في جنب الآخرة ﴿إلاَّ مَتَاعٌ﴾ شيء قليل يتمتّع به كما يستصحبه الراعي إلى رعيه من طعام، أو إلى أهله من لبن ضحى، أو يتعجَّل به للمسافر بلا احتفال، أو يعطاه وهو راكب، أو غذاء أو عشاء.

(بلاغة) والتنكير للتحقير ولو ملكوا ما ملكوا، لأنّه لا يكمل ويتكدَّر وينقطع أو ينقطعون، أو المعنى الدنيا مزرعة الآخرة. نام ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه، فقالوا: يا رسول الله لو اتّخذنا لك مهادا، فقال: «**مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلاَّ كراكب استظلَّ تحت شجرة ثمَّ راح وتركها**»[1].

﴿وَيَقُولُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ أهل مَكّة ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ تستعظمها العقول ويحسُّونها، وتكون معهم في الأرض كعصا موسى واليد والناقة ﴿قُلِ اِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَّشَآءُ﴾ من الكُفَّار باختيارهم فلا تغني عنهم الآيات شيئا، ولو كنَّ ما كنَّ لبلوغهم غاية العناد والمكابرة، فلا سبيل لهدايتهم، وكأنّه أنزلت الآية تعجيبا منهم، فإنَّ ما نزل عليهم من الآيات غير قليل ولا حقير، ومِمَّا يستعظم انشقاق القمر ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ﴾ إلى دينه ﴿مَنَ اَنَابَ﴾ رجع إليه بالتوبة، أي يزيده هدى، أو يديمه على الهدى أو يهدي إليه من أراد الله إنابته.

﴿الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل مطابق لمن، أو بيان، أو هم الذين، أو أمدح، أو أعني

١- رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (٤٤) رقم ٢٣٧٧. و**المنذري** في الترغيب في الفقر، ج٤، ص١٩٨، رقم١١٨. من حديث عقلمة عن عبد الله.

الذين، أو مبتدأ خبره «الذِينَ»، أو خبره «طُوبَى لَهُمْ» و«الذِينَ» بدله. ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ تثق وتسكن ﴿قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ﴾ استئناسا به وبوعده ورجائه، أو بذكر وعده بعد القلق من وعيده، أو بذكر دلائل وجود وحدانيَّته.

أو الذكر: القرآن، فيكون تعريضا بأنَّ الكفار لم يعبأوا به، وطلبوا معجزة غيره، **مع أنه المعجزة التي يسكن إليها [القلب] ولا يبقى معها ريب** ﴿إِنَّمَا الْمُومِنُونَ الذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ...﴾ الآيَة (سورة الأنفال: ٢)، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ (سورة الزمر: ٢٢). والمضارع للاستمرار، فإنَّ اطمئنانهم يتجدَّد بحسب التذكُّر ونزول الآيات ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ﴾ لا بغيره من أمور الدنيا، وإن أريد بالذكر القرآن فالحصر بالنسبة إلى من لم يشاهد سائر المعجزات لأنَّه معجزة باقية ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ قلوب المتَّعظين.

﴿الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مبتدأ خبره الجملة بعده ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ ومن الصالحات ترك المعاصي ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ الكلمة الطيِّبة، وإنَّما طابق في التأنيث مع أنَّه نكرة لخروجه عن التفضيل في الطيب، كما تقول: جملة كبرى وجملة صغرى وفاصلة صغرى وفاصلة كبرى، وقضيَّة كبرى وقضيَّة صغرى.

(صرف) قلبت ياؤه واوا لانضمام ما قبلها، وصحَّ الابتداء به لأنَّه نعت لمحذوف كما رأيت، أو هو مصدر كبشرى ورجعى وزلفى، قلبت ياؤه كذلك، وصحَّ الابتداء به للتعظيم، أو للدعاء، أي قولوا: طوبى لهم بالدعاء.

قيل: أو عَلَم للجنَّة بلغة الحبشة، أو الهند، أو لشجرة في الجنَّة في دار النبيء ﷺ في كلِّ دار وبيت وغرفة غصن متدلٍّ تنفتق أكمامه عن الثياب والفرس الملجمة وعمَّا يراد من الإبل كحقَّة وجذعة، فيه كلُّ طعم ولون غير السواد، ورقتها تظل الأمَّة في أصلها عين الكافور، وعين السلسبيل، يسير الراكب في ظلِّها مائة عام لا

يقطعها، أو لا يدور بها، وثمرتها كقلَّة هجر[1]، وعلى المصدريَّة يجوز كونه مفعولا مطلقا كقوله: سقيًا لك وسلامًا لك.

﴿**وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾ حسن مرجع، وقرئ بالنصب فيكون دليلا على أنَّ «طُوبَى» مفعول مطلق، فـ«الذِينَ» بدل من «القُلُوبُ» على تقدير تطمئنُّ أصحاب القلوب الذين، أو تطمئنُّ القلوب قلوب الذين. والآية تعريض بأنه طوبى وحسن المئاب للمؤمنين، لا لليهود والنصارى المدَّعين لهما.

﴿**كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)**﴾

١- يشير الشيخ بهذا إلى ما ورد في الأثر من أحاديث أنَّ المراد بالطوبى الموعود بها لأهل الجنَّة. راجع ابن كثير في تفسير الآية.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ٣٤﴾

بيان أهمّية القرآن ووعيد المكذّبين

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مثل إرسال الرسل قبلك المدلول عليهم بقوله: ﴿اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وبقوله: ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ وهو مفعول مطلق لقوله: ﴿**أَرْسَلْنَاكَ**﴾، أو المعنى: كما هدى الله من أناب أرسلناك، أو كما جرت العادة بالإضلال والهداية أرسلناك، أو يقدَّر: الأمر كذلك. ﴿**فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ**﴾ برسلهم، فليست رسالتك ببدع، فكيف يقولون: البشر لا يكون نبيئا؟ ﴿**لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ وهو القرآن.

﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ**﴾ با لله الذي نِعَمُ الدنيا والآخرة صغيرها وكبيرها في ملكه، ولا سيما أنَّ منها القرآن وكفروا به و لم يشكروها، قيل: أو باسم الرحمن أنكروا أن يكون لله، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ...﴾ (سورة الفرقان: ٦٠).

(سبب النزول) سبب نزولها قول أبي جهل لَمَّا سمع قوله ﷺ: «يا الله يا رحمن» قال: «محمَّد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين» ونزلت الآية لذلك، وخصوص السبب لا ينافي عموم الحكم.

(أصول الدين) والكفر باسمه تعالى أو صفته أو فعله كفر به، والمتبادر أنَّ المراد بالرحمن الذات الواجب لا الاسم، فالمراد كفر نعمه.

﴿**قُلْ**﴾ لهم يا محمَّد ﴿**هُوَ**﴾ أي الرحمن الذي أنكرتم ذاته بإنكار صفاته أو اسمه، أو أنكرتم معرفته إذ قلتم وما الرحمن؟ ﴿**رَبِّي**﴾ مالكي ﴿**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾ في نصري وكلِّ ما أريد ﴿**وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ مرجعي بالموت والبعث،

ومرجعكم بهما، وذكر متابه فقط لأنّهم مثله كما في قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة يس: ٢٢).

(سبب النزول) وطلب كُفَّار مكّة أن يزيل رسول الله ﷺ جبالها للتّسع للحرث والغرس والبناء، وأن يقطع الأرض بتفجيرها عيونا وإظهار معادنها، أو بتخشيعها بتلاوة ما تتلوه عليها، وبأن تكلّم به الموتى بعد إحيائها قصيًّا وغيره من آبائهم، فيتكلَّموا به مطلقا، أو يتكلَّموا به ويصدِّقوك فنؤمن، فنزل قوله تعالى:

﴿وَلَوَ اَنَّ قُرْءَانًا﴾ بعضا من القرآن كحرف أو كلمة، أو جملة أو آية أو سورة أو أكثر، وذلك أنَّ بعض القرآن قرآن، فكيف يؤمنون إن لم تسيَّر ولم تقطَّع أو لم تكلِّم الموتى؟ أو فعلت ذلك بالقرآن كلّه، أو المراد القرآن فنكّر للتعظيم، أو المراد شيئا يقرأ كائنا ما كان. ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن مقارِّها، فلست بأهون على ربِّك من داود وقد سخَّر له الجبال تسير معه وكذَّبوا، وإنّما سخَّرها تسبِّح معه، ولو قالوا أَلاَنَهَا له لصدقوا في إلانتها، وكما نقل الطور لموسى عن محلّه فيما قيل، وكما سخَّر الريح والجبال لسليمان. ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الاَرْضُ﴾ لمصالحهم جعلت قطعا للأنهار والحرث والغرس، كما قطّعت لموسى عيونا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ كإحياء جدِّهم قصي، فإنَّ عيسى يحيي الموتى، ولست أهون على ربِّك منه.

ويروى أنَّ جماعة من المشركين، منهم أبو جهل وعبد الله بن أميَّة، أرسلوا إلى النبيء ﷺ، فأتاهم أو مرَّ بهم، فقال عبد الله بن أميَّة: إن سرَّك أن نؤمن بك فافعل ذلك، وزيد: سخّر الريح تجر بنا إلى الشام لتجرنا وميرتنا، ونرجع في يومنا كسليمان، ولست أهون منه عند ربِّك.

وجواب «لَوْ» محذوف تقديره بعد «الْمَوْتَى» **لَمَا آمنوا** أو لم يؤمنوا، كما قال: ﴿وَلَوَ اَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ

قِبَلاً مَّا كَانُواْ لِيُومِنُواْ...﴾ (سورة الأنعام: ١١١) والقرآن يفسِّر بعضه بعضا، بخلاف تفسير التقطيع بالسير إلى الشام على الريح فإنَّه لا دليل عليه، ولا يتبادر، وسير سليمان على الريح يكون فوق الجبال وغيرها. أو دليل الجواب قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بالرَّحْمَنِ﴾ وما بينهما معترض، وكأنَّه قيل: «أو كلِّم به الموتى لكفروا بالرحمن»، وعذاب شديد الرحمة أشدُّ عذاب كما يقال: نعوذ با لله من غضب الحليم، ويقال: نعوذ با لله من غضب الرحيم.

أو يقدَّر: لو أنَّ شيْئا ما مِمَّا يقرأ سيِّرت به الجبال، أو قطِّعت به الأرض أو كلِّمَ به الموتى لكان هو هذا القرآن، لأنَّه في غاية الإعجاز والتأثير، لكن لا أثر لشيء إلاَّ بإذن ا لله ﷻ . و«أَوْ» لمنع الخلو لا الجمع، وقيل: بمعنى الواو لأنَّهم طلبوا ذلك كلَّه لا بعضه، والواو في قوله: ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾، ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ولو قيل: «أو كلِّمت به الموتى» بتأويل الجماعة كما قال: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ بتأويلها لصحَّ، لكن أسقط التاء لأنَّهم طلبوا أجدادا ذكورا عقلاء، فناسب اختيار إسقاطها لا لمجرَّد تغليب الذكور في الموتى إذ لا أنثى في مطلوبهم، وأيضا الجبال ذكور بلا تغليب، قرنت بالتاء وعدم العقل يعادل خلطة الإناث لو كنَّ فلا تهم.

(سبب النزول) ويروى أنَّه لَمَّا نزل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢١٤) صاح على أبي قبيس: «**يا آل عبد مناف إنِّي لكم نذير**»، فقالوا: سخَّر ا لله تعالى الجبال والريح لسليمان، والبحر لموسى، والموتى لعيسى، فادع ا لله تعالى أن يسيِّر عنَّا هذه الجبال أربعة أَيَّام أو خمسة، ويفجِّر لنا أنهارا للحرث، وتحملنا الريح إلى اليمن أو الشام أو الحيرة ذهابا ورجوعا، وإلاَّ فادع ا لله تعالى أن تكلِّمنا موتانا، أو يجعل الصخرة تحتك ذهبا تغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فنزلت الآية.

﴿بَل لِّلَّهِ الاَمْرُ جَمِيعًا﴾ لا يخرج شيء عن قدرته، فلو شاء لكان التسيير والتقطيع والتكليم بلا قرآن، ولو شاء لفعل ذلك به، وقد شاء أن لا يؤمنوا فلا يؤمنوا، هذا وجه اتِّصَال «بَلْ» بما قبلها، أو لم يفعل بالقرآن ذلك بل لله الأمر، فالإضراب متعلّق بأنَّه لم يفعل بالقرآن ذلك، ويجوز اتِّصَالها بما دلَّت عليه «لَوْ» من الانتفاء، ويجوز كونها لمجرَّد انتقال كلام لآخر.

وقوله ﴿بَل لِّلَّهِ الاَمْرُ جَمِيعًا﴾ قائم مقام أنَّه قادر على ذلك، وأنَّه لم يفعله لأنَّهم لا يؤمنون ويناسبه قوله تعالى:

﴿اَفَلَمْ يَاْيْئَسِ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ألم يقنطوا من إيمان هؤلاء الكفرة مع ما رأوه من عنادهم؟ [قلت:] **والمحرَّم الإيـَّاس من الله لا من المخلوق**، أو ألم يعلموا كما قال سحيم:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

وقال رباح بن عدي:

ألم ييأس الأقــوام أنّي أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

والهمزة مِمَّا بعد الفاء، أو يقدَّر: أغفلوا؟ أو أطمعوا فلم ييأس الذين آمنوا؟ وواو "غفلوا" للذين آمنوا على التنازع.

قيل: قال بعض الصحابة للنبيء ﷺ : ادع الله فيفعل لك ما طلبوه ليؤمنوا، فنزلت الآية: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إلى الإيمان تعليل للاستفهام الإنكاري، وقد أجاز قوم التعلُّق بأحرف المعاني كأنَّه قيل: بطلت غفلتكم، وعدم إيَّاسكم، لأنَّه ﴿لَّوْ يَشَآءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولكن لم يشأ إيمان هؤلاء، أو يقدَّر علما منهم بـ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ...﴾ أو عالمين بـ﴿أَن لَّوْ...﴾ أو يقدَّر بـ﴿أَن لَّوْ...﴾ فيعلَّق بـ«ءَامَنُوا» أو ﴿يَيْأَس﴾ بمعنى يعلم على لغة هوازن أو قوم من

النخع أو لغة النخع.

أو يستعمل اليأس في معنى العلم لأنَّ الآيس من الشيء عالم بأنَّه لا يكون، كالرجاء بمعنى الخوف، والنسيان بمعنى الترك، وذلك أنَّ اليأس مسبَّب عن علمهم بأنَّ إيمانهم المأيوس منه لا يكون إلاَّ معلوما، وأمَّا تفسير اليأس بمعنى التبيُّن فنظر إلى حاصل المعنى لا الصناعة، لأنَّه لم يقل للذين بلام الجرِّ.

﴿وَلاَ يَزَالُ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكَّة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ بما صنعوه من الشرك والمعاصي وجورهم أو بصنعهم، والباء سببيَّة ﴿قَارِعَةٌ﴾ فعلة من الله ضاربة لهم، كقتل وأسر، وحرب وجدب وغارة على مواشيهم، أو يقدَّر داهية قارعة، لكن داهية يحتاج إليها إلى تقدير موصوف مؤنَّث أيضا بحسب الأصل، أو يقدَّر عذاب قارعة على أنَّ التاء للمبالغة.

﴿اَوْ تَحُلُّ﴾ تلك القارعة أو أنت يا محمَّد ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ مَكَّة كما حللت قريبا من مَكَّة عام الحديبيَّة، ويبحث بأنَّه لا دليل على تخصيص كُفَّار مكَّة، وبأنَّ حلوله يوم الحديبيَّة لا يمتدُّ إلى إتيان وعد الله، إلاَّ أن يقال حتَّى غاية إصابة القارعة، وبأنَّ حلوله فيها للعمرة لا للقتال وصدوره إلى قابل ﴿حَتَّىٰ يَاتِيَ وَعْدُ اللهِ﴾ موعوده من النصر لك عليهم بالفتح، أو موتهم بلا قتل، فمنهم من مات بالقتل كما مرَّ، ومنهم من مات ذليلا حزينا كأبي لهب، ولا يصحُّ التفسير بيوم القيامة لأنَّ الأمر انفصل بفتح مَكَّة إلاَّ على معنى: لم لا تخافون ذلك؟.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ الوعد ولا الوعيد، لأنَّه لا يكذب ولا تبدو له البدوات، وقد أنجز الله ﷻ وعده، وسلَّى الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدُ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ﴾ عظام كثيرين ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ وهدَّد قومه بما فعل بأمم الرسل قبله في قوله: ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أمهلت مَلاَوَةً من الزمان، أي مدَّة في تمتُّع كالبهيمة في

المرعى مدَّة ﴿لِلذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أممهم، دلَّ هذا على أنَّ فاعل الاستهزاء هو الذين كفروا، إذ لا يستهزئ أحد ويجازى غيره على استهزائه ﴿لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (سورة الأنعام: ١٦٦) والآمر بالشيء كفاعله فقد يهلك الآمر دون المأمور الفاعل بأن تاب من فعله ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُم﴾ عن حياتهم وملاذهم ومصالحهم وأملاكهم بالإهلاك.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ عقابي لهم، استفهام تعجيب وتعظيم أي هو واقع موقعه من الشدَّة والعدل والبعث به في حال خلوٍّ بالهم منه، وحال الفرح ورجاء الخير وذلك أشدُّ، وكذلك أفعل بالمستهزئين منك يا محمَّد، فالآية تسلية له ﷺ .

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ رقيب، أي أيساوي العاجز القادر بمن هو قائم؟ ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شرٍّ لا يخفى عنه شيء، ولا يفوته جزاؤها، ومن ذلك عقاب المستهزئين، ولا تعرض في الآية للرزق والحفظ، إلاَّ إن جعلنا الباء بمعنى مع، فيكون المعنى أفمن هو قائم على كلِّ نفس بإيجادها وإبقائها؟ وحفظها ورزقها وأحوالها مع ما كسبت بثواب أو عقاب عليه، والخبر محذوف تقديره: «كمن ليس كذلك»، بل هو عاجز عن نفسه فكيف عن غيره؟ وهو الأصنام، أو تقديره: أفمن هو قائم على كلِّ نفس بما كسبت لم يوحِّدوه.

وعليه فالعطف في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَآءَ﴾ على قوله: «لم يوحِّدوه» المخبر به، فيكون لفظ الجلالة إظهارا بعد الإضمار بهاء «لم يوحِّدوه»، ولا بأس به ولا سيما مع الحذف كما هنا، ولا سيما أنَّ الظاهر مستكمل لجميع الصفات الحسنى، وأنَّ فيه تربية المهابة وإدخال الروع في قلوب المشركين، وكذا في غير هذا الوجه وهو أن يقدَّر الخبر كمن ليس كذلك، والعطف في غيره عطف قصَّة على أخرى، أو على «مَا كَسَبَتْ» إن جعلت «مَا» مصدريَّة، ولا يمنع من هذا العطف أنَّ النفس عام، و«جَعَلُواْ...» خاصٌّ بالمشركين، وأجاز بعضهم العطف على

﴿اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ...﴾ والمراد: جعلوا لله شركاء في الأُلُوهِيَّة والعبادة.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهم تنبيها على أنَّ شركاءهم لا يستحقُّون الأُلُوهِيَّة والعبادة ﴿سَمُّوهُمْ﴾ عبَّر عنها بضمير العقلاء، لأنَّها عندهم كالعقلاء، والمعنى: اذكروهم بأسمائهم الدَّالَّة على الوصف بصفة الخالق فيفتضحوا عند ذلك، إذ لا يقدرون أن يسمُّوها الله، ولا أن يقولوا: خالقة رازقة، أو قديمة أو قائمة أبدا، لظهور أنَّها ليست كذلك، أو اذكروا أسماءهم فيظهر أنَّها لا تستحقُّ الأُلُوهِيَّة أو لا يستحقُّون اسما لحقارتهم، وإن شئتم فسمُّوهم، أو المراد الأمر بتسميتهم آلهة تهديدا.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ بل أتخبرونه، أو أتخبرونه ﴿بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي الاَرْضِ﴾ من الشركاء المستحقِّين للعبادة، أو من صفاتهم الموجبة لها، ذكر الأرض دون السماء لأنَّهم وأصنامهم فيها، أو يقدَّر: وفي السماء، أو لأنَّهم يزعمون أنَّه حلَّ في السماء فلا يغيب عنه ما فيها، بل يغيب ما في الأرض، حاشاه لا يخفى عنه شيء، فإذا لم يعلم شريكا له في عبادة أو صفة، فلا شريك إذ لو كان لعلمه.

﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ بل أتخبرونه بظاهر من القول، من تسمية إله ومعبود وربٍّ لأصنامهم بدون تحقُّق معنى ذلك لها، كتسمية الزنجي كافورا أو أبيض يقَقٍ، ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ (سورة النجم: ٢٣) وينبغي أن يقدَّر «أم» الأَوَّل بالهمزة وحدها، والثاني بها مع بل، والاستفهام إنكار، والإضراب في ذلك كلِّه انتقال كلام إلى آخر.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ إضراب عن محاجتهم، كأنَّه قيل: اترك محاجتهم فإنَّها لا تؤثِّر فيهم، وقد زيَّن الله في قلوبهم المكر أي الكفر ﴿وَصَدُّواْ﴾ أعرضوا أو منعوا الناس ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ سبيل الله ﷻ، و«ال» للعهد الذهني والحضوري.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ ا للهُ﴾ عن السبيل ﴿فَمَا لَهُ, مِنْ هَادٍ﴾ إليه ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالإهانة والذلّ والقتل والسبي والأسر، وغير ذلك لكفرهم، وما أصاب المؤمنين من المضارّ فلتوفير الأجر وتكفير الذنوب.

﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أشدُّ وأدوم ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ا للهِ﴾ من عذاب ا لله، و«مِنْ» للابتداء متعلّق بـ«وَاقٍ»، وقدِّم للفاصلة، والتي في قوله: ﴿مِنْ وَّاقٍ﴾ صلة، أو لا واقي من رحمة له لهم، أي لا يتفضَّل ا لله عليهم من رحمته بشيء يقيهم من العذاب، فـ«مِنْ» يتعلّق بمحذوف حال من «وَاقٍ».

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ, قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ اللَّهَ وَلآ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَالِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمُ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ اَنْ يَّاتِيَ بِئَايَةٍ اِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ, أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

صفة الجنّة وموقف أهل الكتاب والشركين من نبوءة النبيء ﷺ

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ﴾ صفتها، والخبر محذوف أي «فيما يتلى عليكم»، أو «مِمَّا يتلى عليكم مَثَلُ الجنّة» كما قدّر سيبويه وغيره: «مِمَّا يتلى عليكم حكم ﴿السَّارِقُ

والسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا﴾» (سورة المائدة: ٣٨) «مِمَّا يتلى عليكم حكم ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (سورة النور: ٢) أو الخبر قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ...﴾ وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ خبر ثان، والرابط إعادة المبتدأ بمعناه.

(لغة) والمَثَل بالفتح والمِثْل بالكسر فالإسكان سواء، كالشَّبَه والشِّبْه بذلك الضبط وزنا ومعنى، ولكن كثر استعمال المَثَل بالفتح في الكلام السائر المشبه مضربه بمورده، ولا يضرب إلاَّ لِمَا فيه غرابة، ثمَّ استعير لكلِّ ما فيه غرابة تشبيها بالمثل السائر في الغرابة، وإن قدِّر الخبر مفردا والجملة «تَجْرِي» نعته لم يكن تشبيها بالمثل السائر، بل مطلق المماثل، هكذا مثل الجنَّة.

﴿**التِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ**﴾ جنَّة ﴿**تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ فيكون الخبر مفردا، والمثل وصف بمعنى مشابه ومماثل لا بمعنى صفة، والمراد: وُعِدَ الْمُتَّقُونَ عَلَى اتِّقَائهم، لأنَّ الوصف يدلُّ على العلَّة، والمفعول الثاني محذوف أي وُعِدَها بالبناء للمفعول، والمعنى: تنبع من تحتها أو من موضع آخر لكن بالنسبة إلى ما بعدها تكون كالمبدأ.

﴿**أُكُلُهَا**﴾ ثمرها الذي يؤكل ﴿**دَآئِمٌ**﴾ لا ينقطع ذاته كما تنقطع أكثر ثمار الدنيا بمضيِّ فصولها وأوقاتها، ولا ينقطع وصفها بالقدم أو بالفساد وبالقسوة، كثمار الدنيا تتغيَّر بالبقاء، بل هي أبدا طريَّة جديدة بعد دخولها، فلا يقدح في ذلك فناؤها قبل دخولها، فعلى قول فنائها يجدِّدها الله فيدخلونها[1]، وما أكلوا فيها يفنى ويجدَّد مثله ﴿**وَظِلُّهَا**﴾ كذلك أو دائم، واختير الأوَّل لعدم التكرير معه، ولا بأس بالثاني لأنه غير مذكور، والمراد بدوامه أنَّه لا ينسخ بالشمس كظلِّ الدنيا إذ لا شمس فيها.

١- أي على قول وجود الجنَّة الآن في الدنيا، وفنائها عند قيام الساعة يجدِّدها الله فيدخلونها.

﴿تِلْكَ﴾ أي الجنَّة المذكورة ﴿عُقْبَى الذِينَ اتَّقَواْ﴾ عاقبتهم بعد الدنيا أو ثمرة أعمالهم فيها، وعلَّتها اتِّقاؤهم الشرك والمعاصي.

﴿وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ عاقبتهم بعد الدنيا، أو ثمرة معاصيهم فيها، وعلَّتها الشرك والمعاصي المعبَّر عنهما بالكفر، وهذا إقناط لِلْكُفَّارِ من الجنَّة، ووعد بالنار لا يختلَّف.

﴿وَالذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ التوراة والإنجيل والزبور، اليهود والنصارى والصابون ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ولو لم يؤمنوا به لموافقتهم التوراة والإنجيل والزبور في التوحيد ومكارم الخلاق، وما لم ينسخ، ويستنصرون به على عبدة الأوثان، أو المراد من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه، وقد ذكرت منهم جماعة في شرح نونيَّة المديح[1]، ومن آمن من النصارى وهم أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة.

﴿وَمِنَ الاَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ,﴾ وهم الذين تحزَّبوا عن رسول الله ﷺ بالعناد والشقاق، والمعاداة من المشركين واليهود، والبعض هو ما خالف التوراة وما وافق ما حرَّفوه أو محوه، كذكر الرحمن وما عدا القصص، وقالوا: ما نعرف الرحمن إلاَّ رحمان اليمامة مسيلمة، وعلى هذا فقد أطلق البعض على الأكثر.

والمسلمون من أهل الكتاب يؤمنون بالقرآن كلّه، ويفرحون به كلّه، إذا وافق ما لم ينسخ، ورضوا بنسخ ما نسخ، وغيرهم فرح ورضي بما لم يخالف كتابهم.

أو المراد بالذين آتيناهم الكتاب المسلمون من الأمَّة ومنكر بعضه هم مشركو مكَّة مثلا، قيل: كان ذكر الرحمن قليلا في القرآن فساء ذلك عبد الله بن سلام وأصحابه لكثرة ذكره في التوراة، وَلَمَّا كثر نزوله في القرآن فرحوا، فنزل: ﴿وَالذِينَ

١- تقدَّم التعريف بهذا الكتاب، انظر: ج١، ص٣١٨.

ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ...﴾.

وقيل: من الأحزاب من أحزاب اليهود والنصارى وهم كفرتهم، ككعب بن الأشرف وأصحابه، والسيِّد والعاقب مِمَّن ينكر بعضه ما لا يوافق كتبهم، ولم ينكروا ما وافق كتبهم، لكن لم يفرحوا به.

وعن ابن عَبَّاس: الأحزاب كفرة اليهود والكتاب التوراة، وقيل: الأحزاب أحزاب الجَاهِلِيَّة من العرب، وقال مقاتل الأحزاب بنو أمية وبنو المغيرة وآل أبي طلحة، وقيل: المراد بـ«مَنَ» عَامَّة أهل الكتاب، والبعض ما لم يوافق ما حرَّفوه، والمعنى: منهم من يفرح بما وافق ومنهم من ينكره لشدَّة عناده.

﴿قُل﴾ لقومك يا محمَّد ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ فيما أوحي إليَّ من القرآن وغيره ﴿أَنَ اَعْبُدَ ا للهَ﴾ بأن أعبد ا لله ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِ﴾ شيئا في العبادة، ولا في الفعل ولا في الصفة ولا في القول، أو قل لأهل الكتاب: إنَّما أمرت أن اعبد ا لله ولا أشرك به لا محيد عن ذلك، وأمَّا اختلاف الشرائع فذلك سنَّة ا لله في أنبيائه وكتبه ﴿قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ...﴾ (سورة آل عمران: ٦٣).

﴿إِلَيْهِ﴾ إلى ا لله أي إلى الإيمان به لا إلى غيره، كما أدعو إلى عبادته لا إلى عبادة غيره، ﴿أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَئَابِ﴾ مرجعي بالبعث للجزاء.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كإنزال الكتب السابقة على الأنبياء قبلك بلغاتهم ولغات قومهم، كما يدلُّ عليه: ﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أو مثل إنزال القرآن على هذا الأسلوب العجيب ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿حُكْمًا﴾ حال ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلغتك ولغة قومك، تحكم به بين الناس كلِّهم العرب والعجم، و﴿حُكْمًا﴾ بمعنى حاكم على الإسناد المجازي، أو مبالغة كأنَّه نفس الحكم بالمعنى المصدري.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ قول أهل مَكَّة: اترك عبادة ا لله سنة إلى عبادة

آلهتنا، ونترك عبادة آلهتنا إلى عبادة الله سنة، ولَمَّا أبى قالوا: امسح على آلهتنا فأبى، وقولَ اليهود: ارجع عن قبلتك الكعبة إلى قبلتنا التي كنت عليها، وهي بيت المقدس أو صخرته، فإنَّه صلَّى إلى بيت المقدس بعد الهجرة نحو سِتَّة عشر شهرا، ثمَّ استقبل الكعبة بأمر الله ﷻ، في رجب بعد الزوال قبل بدر بشهرين.

﴿**بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ بالتوحيد واستقبال الكعبة ﴿**مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَّلِيٍّ**﴾ يدفع عنك العذاب بعد ما جاءك ﴿**وَلاَ وَاقٍ**﴾ يمنع عنك العذاب قبل مجيئه، أو بالعكس مالك حافظ من عذاب الله، أو ما لك من رحمة الله واق من العذاب، وذلك حسم لأطماع المشركين واليهود من متابعتهم في شيء مِمَّا خالف الوحي والقرآن، وتهييج للمؤمنين على الثبات على دينهم، لأنَّ الخطاب ولو كان له ﷺ لكنَّه تعريض بغيره، لبعد أن ينهى مثله في صلابة دينه عَمَّا يبعد عن أدنى مسلم، حتَّى قيل: إنَّ الخطاب لمن يصلح له لا له ﷺ، ولو كان له في قوله تعالى:

﴿**وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا رُسُلاً**﴾ كثيرين عظاما ﴿**مِّن قَبْلِكَ**﴾ بشرا يتزوَّجون ويولد لهم ويتسرّون، مثل رسالتك وتزوُّجك وتسرِّيك، والولادة لك كما قال: ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُمُ, أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً**﴾ كما لسليمان ثلاثمائة امرأة بمهورهنَّ، وسبعمائة سريَّة، ولداود مائة امرأة بمهورهنَّ، فكيف يقول أهل مَكَّة: لا يكون البشر نبيئا؟ بل النبيء ملك.

وتَمَّم الله البَشَرِيَّة بالتزوُّج والتسرِّي والولادة، ولا يستشكل بيحيى وعيسى لأنَّ رسلا نكرة في الإثبات فلا تعمُّ، وإنَّما المراد جماعة مخصوصة، ويقال: من فضائله ﷺ: استواء سرِّه وعلنه، حتَّى أنَّه لم تترك نساؤه شيئا مِمَّا يسرُّ من شأن فراشهنَّ معه إلاَّ ذكرنه.

(فقه) حتَّى إنَّ الصحابة اختلفوا في الإيلاج بلا إنزال هل يوجب الغسل؟ فسألوا عائشة رضي الله عنها فقالت ولا حياء في الدين: فعل ذلك رسول

ا لله ﷺ معي فاغتسلنا جميعا، وهذا يناسب ما روي عن جابر بن زيد رحمه ا لله تعالى، أنّه سألها عن جماع رسول ا لله ﷺ.

[قلت:] وكلٌّ ذلك عجيب لأنّه ﷺ نهى عن ذكر ما يفعل الرجل مع زوجه، فإمّا أن يكون ذكرهنّ ذلك زلّة منهنّ وهي مغفورة تبن منه، وإمّا **أن يخصّصن بجواز ذلك لأنّهنّ مبلّغات عنه** ﷺ، والمراد كذلك جعلنا لك يا محمّد تسع نسوة، وقد قالوا: ﴿لَوْ مَا تَاتِينَا بِالْمَلآئِكَةِ﴾ (سورة الحجر: ٧)، و﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ (سورة الأنعام: ٦) و﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَاكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الاَسْوَاقِ﴾ (سورة الفرقان: ٧).

وعيّروه بحبِّ التزويج ولو كان رسولا من ا لله لاشتغل عن النكاح والأسواق بالعبادة، والملك لا يأكل فليس بملك، لأنّه يأكل فليس نبيئا، فردَّ ا لله عليهم بذلك. والنكاح والولادة لا يكونان بلا أكل، ولو كان رسولا لجاء بكلِّ آية طلبت منه.

فردَّ ا لله عليهم بقوله: **﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾** ما ثبت في قدرته **﴿اَنْ يَّاتِيَ بِآيَةٍ﴾** عَقليَّة أو نَقلِيَّة طلبت منه أو لم تطلب **﴿اِلاَّ بِإِذْنِ ا للهِ﴾** فإنّه رسول ولو لم يأتكم بكلِّ آية تطلبونها، وقد جاء بآيات كافية أعرضتم عنها، وقد جاء بآية كآية عيسى وهي إحياء موتى بعد الهجرة فيما قيل[1].

(سبب النزول) وخوّفهم بالنصرة عليهم ونزول العذاب وتأخّر ذلك فقالوا: لو كان رسولا لنصر علينا وعذّبنا، فردَّ ا لله عليهم بقوله ﷻ: **﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾** لكلِّ مكتوب عند ا لله أجل ينتهي إليه، على القلب للكلام تأكيدا كأنّه

١- يورد الشيخ رحمه ا لله قائمة في أسماء الأنبياء من آدم إلى محمّد عليهم السلام فمن أرادها فليراجع النسخة الحجرية أو غيرها. انظر الأثر الذي أورده الشيخ عن ابن مسعود ص من هذا الجزء.

يستحقُّ الأجل مكتوبا ويطلبه، أو لكُلِّ أمر مؤجَّل كتاب كتب فيه لا يؤخَّر ولا يقدَّم، أو لكلِّ أجل كتاب كتب فيه، وذلك بحسب الحكمة والمصلحة.

(أصول الدين) ولا يجب الصلاح على الله عزّ وجلّ بل يهدي إلى الدين، وحكمه عدل ولا يوصف بالفساد والجور، وقالوا لو كان رسولا لم ينسخ بعض ما في التوراة والإنجيل، أو أكثرهما من الأحكام، فردَّ الله عليهم بقوله جلّ جلاله:

﴿يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يمحو ما يشاء من القرآن ومن التوراة والإنجيل، بالنسخ كنسخ عدَّة الوفاة من السنة إلى أربعة أشهر وعشر، واستقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة، وبالنسخ إلى غير بدل، ويمحو السيِّئات بالتوبة والصغائر باجتناب الكبائر، ويمحو ما ليس عليه ثواب ولا عقاب من ديوان الحفظة، ويمحو ما يشاء من الأجل المنقضي، والأشياء الفارغة والفاسدة.

ويثبت ما لم ينسخ وما يحدث وما ينسخ إليه، والحسنات وما فيه ثواب أو عقاب، ويمحو القمر ويثبت الشمس، ويمحو القرن ويثبت الآخر، ويمحو الحيوان والنبات بالموت، ويثبت الآخر بالولادة والنبات، ويمحو الدنيا ويثبت الآخرة، ويثبت ليلة القدر أو ليلة نصف شعبان يثبت ما يثبت ويمحو ما يمحو وهكذا على عموم ما يزول وما يحدث.

وأمُّ الكتاب اللوح المحفوظ والعلم الأزليُّ، وأصل كلِّ شيء أمُّه، وما يجري مجرى الأصل أمٌّ، ومن ذلك أمُّ الرأس وأمُّ القرى لمكَّة، أو أمُّ الكتاب صحائف الأعمال، أو عامٌّ لها وللكتب المنزلة أو لذلك واللوح المحفوظ.

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ

لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

مهمّة الرسول التبليغ والله الشاهد والحاكم بين العباد

﴿**وإن مَّا**﴾ «إنْ» الشرطية و«مَا» المؤكّدة لربط الجواب بالشرط ﴿**نرينَّكَ**﴾ يا محمّد ﴿**بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ**﴾ من العذاب في حياتك ﴿**أَوْ نَتوَفَّينَّكَ**﴾ قبل تعذيبهم، والجواب محذوف أي فلا لوم عليك، ﴿مَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ (سورة الذاريات: ٥٤) ناب عنه علّته وهو قوله: ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ**﴾ أي لأنّه ليس عليك إلاّ البلاغ، أي تحصيل البلاغ، وقد حصّلته، أو البلاغ اسم مصدر بمعنى التبليغ، ولأنّه لا حساب إلاّ على الله كما قال ﴿**وَعَلَيْنَا**﴾ لا عليك ولا على غيرك ﴿**الْحِسَابُ**﴾ للمجازاة عليهم ولك، ولا يهمنّك شأنهم والعذاب يصيبهم لا محالة، والإسلام يعلو الكفر وعدا لا يتخلّف، وما تقدّم أولى من تقدير الجواب للفعل الأوّل على حِدَة هكذا: فإمّا نرينّك بعض الذي نعدهم فذاك شافيك من أعدائك، أو نتوفينّك فلا لوم عليك، ولا بدّ من عذابهم.

وهذه طلائعه مذكوره في قوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْاْ انَّا نَاتِي الاَرْضَ نَنقُصُهَا مِنَ اَطْرَافِهَا**﴾ ومكّة وسطها، أشكّوا ولم يروا، أو أنكروا ولم يروا أنّنا ننقص أرض المشركين بالفتح لبلد بعد بلد نقصا من أطراف المشركين وزيادة في أطراف المؤمنين، وجملة «نَنقُصُهَا» حال من ضمير «نَاتِي»، أو من الأرض، أو ننقص بلاد الأمم السابقة بكفرهم، أفلا تخافون أن تهلكوا مثلهم لكفركم؟.

[قلت:] ويضعف ما قيل عن ابن عباس: ننقصها بموت الأشراف والكبراء والعلماء والصالحين، ولعلَّ هذا لم يَصِحَّ عن ابن عَبَّاس، إذ ليس المقام له، اللهمَّ إلاَّ أن يقال: ألم يروا أنَّا أهلكنا قبلهم من هو أشرف منهم فكيف هم مع كفرهم؟.

﴿وَا للهُ يَحْكُمُ﴾ في الخلق بما يشاء، ومقتضى الظاهر: ونحن نحكم، وجعل الظاهر موضع المضمر لتربية المهابة بلفظ الجلالة، وتحقيق الخبر لكونه من الجليل الذي اسمه "ا لله".

﴿لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا يأتي أحد عقب حكمه بما يبطل حكمه، أو ينقصه أو يضعفه، [قلت:] وقد **حكم للإسلام بالإقبال وللكفر بالأدبار**، فلا بدَّ من وقوعه خارجا بالمعاينة. والجملة حال من ضمير «يَحْكُمُ». ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قريب عذابهم بعد الموت، أو حسابهم يوم البعث بالمناقشة بعد عذابهم في الدنيا، بالذلِّ والخوف والقتل والجلاء من ديارهم، وغير ذلك، وكلُّ آت قريب. ويجوز عود الحساب إلى ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ احتال الكُفَّار قبلهم على أنبيائهم والمؤمنين بالسوء، كما احتال عليك قومك وعلى المؤمنين، فتسل و لم يؤثِّر احتيالهم، كذلك لا يؤثِّر احتيال قومك، فلا عبرة به لأنَّ المكر لله جميعا، كما قال: ﴿فَلِلهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ لا شيء من تأثيره لغيره، فلا يؤثِّر ما لم يرد ا لله أن يؤثِّر، أو لله المجازاة على المكر، أو المكر: التأثير نفسه لأنَّه مسبَّبه، والأوَّل أولى.

وقد مكر نمرود بإبراهيم عليه السلام، وفرعون بموسى عليه السلام، واليهود بعيسى عليه السلام، وما أثر في بعض الأنبياء والمؤمنين إنَّما كان بقضاء ا لله [إنَّما كان] بقضاء ا لله.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ لا يخفى عنه شيء، وَالكُفَّار غافلون فيحضر لهم العقاب من حيث لا يعلمون، وهذا من أشدِّ المكر، وللمؤمنين في ذلك ثواب صبرهم وأعمالهم يجدونه أحوج ما يكونون إليه، وظهور عقاب الكافرين أيضا كأنَّه

مكر من المؤمنين يتشفون به ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ الكُفَّار ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عقباها الجنَّة أللنبيء ﷺ والمؤمنين أم لهم؟.

﴿وَيَقُولُ﴾ لك يا محمَّد ﴿الذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ من الله بل تقول من عندك أو من غيرك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بأنِّي رسول، وقد اكتفيت بما علمت من شهادته، وانقطع الخصام إلاَّ إن يشاء الله، أو سمَّى إظهار الله تعالى المعجزات على رسالته ﷺ شهادة منه تعالى بها.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ عطف على لفظ الجلالة، والكتاب كتب الله كالتوراة والإنجيل والزبور، والذين عندهم علم الكتاب مؤمنو أهل الكتاب، يشهدون له بالرسالة، كعبد الله بن سلاَّم وسلمان الفارسي وكعب الأحبار، والجارود وتميم الداري كذا قيل، وفيه أنَّ سلمان من الفرس لا كتاب له، اللهمَّ إلاَّ أن يقال تعلَّم الإنجيل أو التوراة حين هرب من أبيه، وصار يخدم الرهبان ليدلُّوه على دين الله، وإنَّ كعب الأحبار أسلم في عهد عمر رضي الله عنه، نعم قيل أسلم في زمان النبيء ﷺ، و لم يظهر إيمانه إلاَّ في عهد عمر رضي الله عنه.

ويروى أنَّ عبد الله بن سلاَّم أخذ بعضادتي الباب وقال: أنشدكم الله تعالى أتعلمون أنِّي الذي أنزلت فيه ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قالوا: اللهمَّ نعم.

وقيل: ﴿الْكِتَابِ﴾: اللوح المحفوظ، فالمراد بـ﴿مَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ الله عز وجل، وكأنَّه قيل: قل كفى من اتَّصف بالألوهيَّة واختصَّ بعلم اللوح المحفوظ شهيدا، فاصلا بيني وبينكم، فيخزي الكاذب، كقولك جاء زيد العالم والشجاع، أي المتَّصف بالعلم والشجاعة.

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم
ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام وآياتها ٥٢

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾

الغاية من إنزال القرآن وذمُّ الكافرين

﴿أَلَر﴾ مرَّ مثله، أو هذه «أَلَر» أي هذه سورة تسمَّى ألر، أو اقرأ هذه السورة المسمَّاة «أَلَر» وكذا هو اسم لمثل هذه السورة ﴿كِتَابٌ﴾ أي هذا كتاب أو هذه السورة المسماة «أَلَر» كتاب، وقوله: ﴿انزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ نعت «كِتَابٌ». أو «أَلَر» تعديد للحروف وقرع للعصاة، ولا إعراب له على هذا، كأنَّه قيل: تنبَّه فإنَّنا ننزِّل عليك كلاما معجزا، أو مبتدأ نكِّر للتعظيم خبره قوله عز وجل: ﴿انزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخرِجَ النَّاسَ﴾ وفي إسناد الإخراج إليه صلى الله عليه وسلم مع إسناد الإنزال إلى ا لله عز وجل تفخيم وتقدير.

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾: بدعائك به الناس إلى ما فيه الهدى، كما قال: ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من أنواع الكفر إلى التوحيد والإسلام، جمع الظلمة لكثرة طرق المعاصي، وأفرد النور لأنَّ طريق العلم والإيمان واحد.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بتوفيقه، والإذن موضوع لتسهيل الحجاب والدخول متعذّر، وإذا رفع المنع صحَّ الدخول، وذلك مجاز مرسل لعلاقة اللزوم، أو استعارة، شبَّه توفيق الله ﷻ بالإذن، والجامع إزالة المانع، وهو متعلّق بـ«تُخْرِج»، أو حال من ضمير «تُخْرِج»، أي ثابتا بإذن ربِّك، والمعنى: مأذونا لك، ومقتضى الظاهر بإذننا، لكن أضافه إلى الربِّ إشعارا بالتربية واللطف.

﴿إِلَىٰ صِرَاطِ﴾ بدل من «إِلَى النُّورِ» ولا حاجة إلى قولهم: «صراط» بدل من «النُّور» بترك اعتبار الجارِّ في الإبدال، وهو خطأ شائع، فلا تهم، أو متعلّق بـ«تُخْرِجَ» محذوفا على الاستئناف البياني، كأنَّه قيل: إلى أيِّ نور يخرجهم؟ فقيل: يخرجهم إلى صراط ﴿الْعَزِيزِ﴾ الغالب ﴿الْحَمِيدِ﴾ المحمود، حمد نفسه وحمده خلقه، وهو أهل لأن يحمده ما سواه، وأضاف الصِّراط إلى الله لأنَّه الشارع له والمظهر له، وكان المضاف إليه بلفظ العزَّة تنبيها على أنَّ الخارج إلى هذا الصراط في حمى من لا غالب له، فلا يلحقه ذلٌّ، وبلفظ الحمد تنبيها على أنَّه لا يخيب من الخير، فإنَّه تعالى محمود بإحسانه إلى الخلق كلّهم، وقدَّم العزَّة لأنَّها قدرة على الإنزال وعلى غيره عَامَّة تستحقُّ الحمد، ولأنَّ التخلية قبل التحلية.

﴿اللهُ الذِي﴾ مبتدأ وخبر، أو خبر ونعت، أي هو الله الذي ﴿لَهُ, مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ دخل في ذلك ما بينهما وأجزاؤهما، فإنَّ كلَّ جزء من أحدهما هو فيه، خلق الله الكلَّ وملكه، ودخل ما يتولّد منهما بعد كالثمار قبل وجودها.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ﴾ الذين لم يخرجوا من الظلمات عنادا للهدى ﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هذا بيان للويل، كأنَّه قيل: عذاب شديد للكافرين، فهو حال من ضمير الاستقرار، أو «مِنْ» للابتداء متعلّق بمحذوف خبر ثان، أو خبر و«لِلْكَافِرِينَ» نعت.

وقيل: الويل واد في جهنَّم لو أرسلت فيه الجبال لكانت مائعة، أو جبٌّ فيها تستعيذ منه جهنَّم، وقيل: الويل التأوُّه فيعلَّق به «مِنْ عَذَابٍ»، وفي هذا إخبار عن المصدر قبل متعلَّقه، والوأْل: بهمزة ساكنة بمعنى النجاة ضدُّ الويل بياء ساكنة، والموئل الملجأ وَوَأَلَ إليه: لجأ.

﴿الذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الاَخِرَةِ﴾ يختارونها على الحياة الآخرة، أو الدار الآخرة.

وهو مبتدأ خبره ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ أو مرفوع، أو منصوب على الذمِّ، لا نعت للكافرين، والألزم الفصل بين النعت والمنعوت بأجنبي، وهو «مِنْ عَذابٍ» الذي هو بيان للمبتدإ الأجنبي من الخبر، كذا قيل، وفيه أنَّ الخبر مرفوع بالمبتدإ فلا يكون أجنبيًّا، وأيضا يتسامح في الظروف.

﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يعرضون، أو يمنعون الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ التوحيد والإسلام ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ يبغون لها عوجا، فحذف اللام، أو يثبتونها أو يصفونها عوجا، على الاستخدام، فالضمير لـ«سَبِيلِ اللهِ»، والمراد به سبيلهم، والعوج: الزيغ، يطلبونه ليقدحوا به في سبيل الله، و«عِوَجًا» حال، أي ذات عوج، أو معوجَّة، أو نفس العوج مبالغة.

﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ، ومن الضلال ما هو قريب كضلال الموحِّد الفاسق، وضلال الكتابي الذي قد يراجع التوراة أو الإنجيل فيرجع إلى الإسلام، وعلى استشعار أنَّ الضلال بعيد مطلقا يكون «بعيد» نعتَ توكيدٍ كظلٍّ ظليل، وليلة ليلاء، وداهية دهياء.

وصفهم بالرسوخ في الكفر، فإنَّ استحباب الشيء طلب محبَّته عن اختياره باستحبابه لِمَا في اختياره من شائبة طلب كونه أحبَّ إليه من غيره، فالاستحباب

أبلغ من الاختيار، لأنَّ الاختيار ترجيح والاستحباب يدلُّ على كـون حـبِّ الشـيء مطلوبا له، وكفروا وطلبوا لما كفروا بـه عوجـا[1] بإلقـاء الشبه والشـكِّ، والجـدِّ في تقبيحه بكلِّ ما يمكن.

والبعد في الحقيقة في المكان، واعتبر في الإنسان الذي خالف الدين الشبيـه بمن ضلَّ في الأرض، ووصف به فعله الذي هو المخالفة المعبَّر عنها بالضلال على طريـق التجوُّز في الإسناد، أو نزّل الحقَّ منزلة المكان الذي وقع الضلال عنـه، وأسند البعد إلى سببه الذي هو الضلال، للملابسة بينهما، وقد يقال: البعد حقيقة في الضلال وفي الأمر الذي به الضلال.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ وهـم أولى بـه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاَقْرَبِينَ﴾ (سورة الشعراء: ٢١٤) ولو أرسل إلى أمم مختلفة فينتـشر من قومه الذي هو على لغتهم إلى سائر الأمم المخالفة للغته، كما أنَّه أنزل القرآن على رسول الله ﷺ بلغة قومه وبلغ سائر الأمم المخالفة لقريش من العرب ومن العجم، فذلك جواب عمَّا يقـال: كيف يخرج الناس من الظلمات إلى النور مع أنَّ منهم من ليست لغته عَرَبيَّة؟.

وأيضا قال الله ﷻ: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (سورة الأعراف: ١٥٨) والمراد بالرسول النبيء مطلقا لأنَّ شأن النبوءة التبليغ مطلقا، ومـا من نبيء إلاَّ بلَّغ ما أوحي إليه، واللسان بمعنى اللغة، وهو مجـاز، ووجهه أنَّهُ آلـة اللغـة، وقيل: إنّه مشترك.

والذي يظهر أنَّ المراد بـ«قَوْمِهِ» من هو فيهم، ومتكلِّم بلغـتهم، فـلا ينتـقض بلوط إذ تزوَّج مِمَّن بعث إليهم، وسكن معهم وليس منهـم، ولا بشعيب إذ بعث

[1] - كذا في النسخ وفي الطبعة العمانية، ولم يظهر لنا وجه المعنى، ولعلَّ الصواب وكفروا بما طلبوا ما كفروا به عوجا.

إلى أهل الأيكة كما بعث إلى أهل مدين وليس منهم، فلا حاجة إلى دعوى أنَّ قوله: ﴿إلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ جري على الغالب، بل لو قيل في قوله ﷻ: ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ (سورة الشعراء: ١٦١) إنَّ الأخوة مطلق الكون فيهم والإرسال إليهم لصحَّ.

ولو أنزل الله على سيِّدنا محمَّد ﷺ لكلِّ أمَّة كتابا بلغتها لكان إعجازا قَوِيًّا، إذ تكلَّم عربيٌّ خالص بلغات العجم كلِّها بلا تعلُّم، لكن يفوت أجر تعلُّم العَرَبِيَّة وما يتشعَّب منها، والاجتهاد.

وقيل: إنَّ الهاء لسيِّدنا محمَّد ﷺ، وإنَّ الكتب كلَّها بالعَرَبِيَّةِ وترجمها جبريل لكلِّ قوم بلغتهم ويردُّه قوله ﷻ: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ فإنَّ هاء «لَهُمْ» للقوم، وغير القرآن لم ينزل ليبيِّن للعرب، ودعوى رجوع هاء «لَهُمْ» إلى قوم كلِّ نبيء على الاستخدام خروج عن البلاغة، كأنَّه قيل: وما أرسلنا من رسول إلاَّ بلسان قوم محمَّد ﷺ ليبيِّن الرسول لقومه الذي أرسل إليهم، **وهو كلام لا يناسب جزالة القرآن** ويخالف الواقع.

ذكر بعض أنَّ القرآن نزل بلغة قريش خَاصَّةً، وما فيه من غير لغتهم جرى في لسانهم، وعن عمر نزل بلغة مضر.

(فقه) والآية تدلُّ على أنَّ تعليم الدين واجب، وأنَّه فرض كفاية، ويتعيَّن على الأب لأولاده، وعلى الزوج لزوجه، وعلى السيِّد لعبده، وإن علَّمهم غير هؤلاء أجزى، وتدلُّ على أنَّ التعلُّم واجب. ولام «لَهُمْ» للنفع. وعلى المتعلِّم تعظيم معلِّمه والتقرُّب إلى الله تعالى بنفعه، ولزم المعلِّم أن لا يقصد النفع الدنيوي من معلِّمه، قال بعض:

رأيت أحقَّ الحقِّ حقَّ المعلِّم ... وأوجبه حفظا على كلِّ مسلم
لقد حقَّ أن يهدي إليه كرامة ... لتعليم حرف واحد ألف درهم

وهذا مجرَّد تعظيم وتحضيض، ولعظم شأن العلم وجب كسبه ولو من صين ــ وهو من المشرق الأقصى ــ على مَن في الموضع البعيد كالمغرب الأقصى، وجاء الحديث: «**اطلبوا العلم ولو بصين**»[1] بدون «ال» وحرَّفته الرواة بإدخال «ال» على صين، ولا سيما أنه لا يصحُّ أن تكون «ال» فيه للمح الأصل[2].

(نحو) وهذا مما يقوِّي القول بعدم الاحتجاج بالحديث في علوم العَرَبِيَّة، لأنَّ الرواة يحرِّفون اللفظ، ويحتجُّ به في المعنى لأنَّهم لا يحرِّفون المعنى فكما لا يقول ﷺ : «المكَّة» لا يقول: «الصين» بـ«ال».

﴿**فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَّشَآءُ**﴾ إضلاله ﴿**وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ**﴾ الأصل: فنضلُّ من نشاء ونهدي من نشاء، وذكر لفظ الجلالة تلويحا إلى استحكام الإضلال والهدى، وإضلال الله خذلان، وهدايته توفيق، ولا إجبار، وهما أزليَّان ولا يتخلَّفان.

﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ**﴾ غالب غير مغلوب ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ يهدي ويضلُّ بحسب حكمته لا عبثا ولا سفها، ولا جورا تعالى الله عن ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

---

[1]- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٢ ، ص٢٣٨.

[2]- في الطبعة العمانية: «لا يصحُّ أن تكون «ال» فيه للعلَم».

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾

مهمَّة الرسول موسى عليه السلام ونصائحه لقومه

وسلّى رسول الله ﷺ وحثّه على التبليغ بقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا﴾ إلى فرعون وقومه ﴿مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَآ﴾ اليد والعصا ونحوهما من التسع، ومنها الطمس، فبلّغ الرسالة وصبر على أذاهم، فافعل كذلك ﴿أَنَ اَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ مَن أشرك مِن بني إسرائيل أو فسق، أو المراد تذكير الكلّ ووعظه بإثبات المؤمن، أو قومه هم بنو إسرائيل والقبط لأنّهم أيضا قومه بالإرسال إليهم.

﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من الشرك والمعاصي إلى التوحيد والعمل الصالح. و«أَنْ» مفسِّرة، لأنَّ الإرسال فيه معنى القول دون حروفه، لا مَصدَرِيَّة مقدَّرة بالباء قبلها كما شهر، لأنّه لا خارج للأمر يسلّط عليه معنى الباء، وقولك: أمرناه بإخراج قومه إخبار، وقوله: ﴿اَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ إنشاء، وليس أخرجهم[1] خارج ﴿اخْرِجْ﴾، ففي قولنا: أخرجتهم وأخرجهم الآن أو غدا خارج ولا خروج ماضيا ولا حاضرا ولا مستقبلا في ﴿اخْرِجْ﴾ بصيغة الأمر، وإنّما يكون له خارج إذا أخرجهم.

﴿وَذَكِّرْهُم﴾ ذكر يا موسى قومك ﴿بِأَيَّامِ اللهِ﴾ شدائده الشبيهة بالحروب المسمّاة بالأيّام، كيوم ذي قار ويوم الفجار، ويوم فضّة، وأضيفت لله لأنّه موجدها

[1]- في الطبعة العمانية: «وليس إخراجهم».

كإغراق قوم نوح، وإهلاك عاد وثمود ونمروذ، وذلك من جملة ما قال لموسى.

وقيل عنه ﷺ : «**أيَّام الله نعمه**»، وقيل: نعمه ونقمه، وعلى كلِّ حال سمِّيت بأيَّام لوقوعها فيها، والتفسير الأوَّل أنسب بالمقام، لكن قوله: ﴿اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ﴾ يناسب الثاني، ولذلك جمعهما القول الثالث ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ**﴾ دلائل ﴿**لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾ من كلام الله أو مِمَّا أرسل به موسى، والإشارة إلى التذكير والصبر على ما يشقُّ، والشكر على ما يلذُّ، **وقيل: الصبَّار الشكور: المؤمن**، عبَّر عنه بهما لأنَّ فيه مضمونهما وهما عنوانه، وللتهييج إلى المبالغة في الصبر والشكر، وإذا تفكَّر فيما جرى لمن مضى تنبَّه للإيمان مع المبالغة فيهما، فذلك معنى الدلائل، وذكر المؤمن لأنَّه المنتفع بالآيات لتفكُّره فيها دون غيره، وقدَّم الصبر لأنَّه مفتاح الفرج، والفرج يقتضي الشكر، ولأنَّه من المتروك، يقال: صبرت الدَّابَّة أي حبستها.

﴿**وَإِذْ قَالَ**﴾ اذكر يا محمَّد لقومك إذ قال: ﴿**مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ**﴾ بني إسرائيل ﴿**اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ**﴾ الجملة حال من آل فرعون، أو من الكاف أو لهما، وكأنَّه قيل: ممَّ نجَّاهم؟ قال: من سوء العذاب، وسوم العذاب: إذاقته بالاستخدام في البناء والحرث والغرس والحفر، والاستعباد بكلِّ ممكن، والضرائب على من لا يقدر على ذلك، وليس شاملا للذبح لعطفه عليه في قوله:

﴿**وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ**﴾ وإن شمله فالعطف تخصيص بعد تعميم لعظم شأن التذبيح، كأنَّه لشدَّته ليس من ذلك العامِّ، لكن لا عذاب في استحياء النساء فليس قوله: ﴿**وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ**﴾ عطف خاصٍّ على عامٍّ، بل عطف على «يَسُومُونَكُمْ»، أو يجعل «سُوءَ الْعَذَابِ» غير شامل لِمَا بعد. ومعنى استحياء النساء

إبقاؤهنَّ بلا قتل بل يداوونهنَّ، وإذا اعتبر أنَّهم يبقونهنَّ بلا قتل ليذقن الذلَّ ذلَّ العُبُودِيَّة والخدمة والإبعاد عن أزواجهنَّ، وليذقن شدَّة مفارقة بنيهنَّ صحَّ أن يكون قوله: ﴿يَسْتَحْيُونَ...﴾ خصوصا بعد عموم.

أخبر الكهنةُ فرعون أنَّ مولودا في بني إسرائيل يبطل ملكك وتموت به، فصار يسقط الحبالى منهم، ويخرق بطونهنَّ، ويقتل الأولاد الذكور الخارجة من البطن، ويبقي الإناث منها، وأمهاتهنَّ بالمداواة، ولما كان المراد في سورة البقرة تفسير السوم بالتذبيح كان بلا عطف، وتشديد «يُذَبِّحُ» للمبالغة في أفراد الذبح، وبتعظيم نفس الذبح بحيث لا يطمع في حياة المذبوح.

﴿**وَفِي ذَالِكُمْ**﴾ أي في الإنجاء من آل فرعون بإغراقهم ﴿**بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾ إنعام ﴿إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ, فَأَكْرَمَهُ, وَنَعَّمَهُ,﴾ (سورة الفجر: ١٥) أو فيما ذكر من السوم والتذبيح والاستحياء ابتلاء بالشدائد، ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ (سورة الفجر: ١٧) ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ (سورة الأعراف: ١٦٨).

﴿**وَإِذْ**﴾ هذا وما بعده من كلام موسى عليه السلام لقومه للجمع، والخطاب في قوله: ﴿**تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ أي نعمه، فإنَّ الشكر يقتضي تقدُّم نعمة تشكر ﴿**وَلَئِن كَفَرْتُمْ, إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾ والعطف، على «نِعْمَةَ للهِ»، والمعنى: اذكروا نعمة ا لله عليكم، واذكروا القصَّة الواقعة حين تأذَّن ربُّكم، أو على «إِذَ انَجَاكُم مِّنَ ـ ال فِرْعَوْنَ...» فأعاد «إِذْ» للتنبيه على استقلاله، أي واذكروا نعمته عليكم في الوقتين، فإنَّ التأذُّن أيضا نعمة من ربِّهم عليهم، لأنه سبب لتنشيط الشكر الموجب لزيادة النعمة، وسبب لمجانبة الكفر الموجب للنقمة.

ويجوز أن يكون ذلك من كلام ا لله لسيِّدنا محمَّد ﷺ، فيقدَّر: واذكروا إذ تأذَّن ربُّكم بالجمع.

وقد يجوز الإفراد فيكون كقوله تعالى: ﴿يَـآ أَيُّهَا النَّبِيءُ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ﴾ (سورة الطلاق: ١) وفي التأذُّن مبالغة، لأنَّ من المعاني الموضوعة للتفعُّل التكلُّف والعلاج، تعالى الله عنهما، والجملة مقول لمحذوف حال، أي قائلا: لئن شكرتم يا بني إسرائيل ما أنعمت به عليكم من الإنجاء وغيره، أو قائلا: لئن شكرتم يا أهل مكَّة ما أنعمت عليكم به من رحلة الشتاء والصيف، ومن جعل مكَّة حرما آمنا، وغير ذلك بالإيمان والعمل الصالح لأزيدنَّكم نعم الدنيا ونعم الآخرة والدين، وقيل: نعم الدنيا، والعموم أولى، ومنه زيادة العبادة.

وإن كان الخطاب لمؤمني بني إسرائيل فالمراد: بقيتم على الشكر، أو زدتم فيه، ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ بقيتم على الشرك أو الفسق، أو لئن كفرتم بعد نزول هذه الآية ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، فخافوا أن ينزل عليكم، أو مفعول به لـ«تَأَذَّنَ» لتضمُّنه معنى قال، أو معنى اعلم.

ومقتضى الظاهر: «ولئن كفرتم لأعذِّبنَّكم عذابا شديدا»، أو عبَّر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لأنَّ من عادة الله ﷻ أن يصرِّح بالوعد كما قال: ﴿لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ويعرِّض بالوعيد تعريضا، ولأنَّ من عادته تعالى إسناد الخير إليه دون الشرِّ، ومن ذلك النوع «إنَّ رحمته سبقت غضبه».

ومنافع الشكر ومضارُّ الكفر إنَّما تعود إلى الشاكر والكافر، وأمَّا الله ﷻ فلا يلحقه نفع ولا ضرٌّ كما قال: **﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي الاَرْضِ جَمِيعًا﴾** من المكلَّفين **﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾** لا يحتاج إلى شكرهم ولا إلى أن يتركوا الكفر، وهو محمود لنعمه ولا نعمة إلاَّ منه، وممدوح لذاته وصفاته، وهي هو، فما شكرتم إلاَّ لأنفسكم، وما كفرتم إلاَّ عليها، وفي الآية إرشاد لأهل مَكَّة إلى أن يتأثَّروا بقول موسى هذا.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝٩ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٠ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١١ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝١٢﴾

أخبار بعض الرسل وحوارهم مع أممهم

وزاد تهديدا لهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ﴾ تقرير، أو توبيخ بأن لم ينتفعوا بخبر من قبلهم ﴿الذينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾ قوم هود سمُّوا باسم جدِّهم عاد ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح سمُّوا كذلك. ﴿وَالذِينَ﴾ عطف على قوم أو على «الذِينَ». ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إلاَّ اللهُ﴾ لكثرتهم، كما قال ابن مسعود: **كذب النسَّابون فلا يعلم أحد عمر الدنيا**، ولا كم سنة من آدم، ولا الأنساب إليه، قال الله ﷻ: ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ (سورة الفرقان: ٣٨) ﴿وَمِنهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (سورة غافر: ٧٨) وجملة «لاَ يَعْلَمُهُمْ إلاَّ اللهُ» حال من «الذِينَ»

أو من المستتر فيمن بعدهم، أو «الذِينَ» مبتدأ خبره «لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ...». عن ابن عَبَّاس: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبا لا يعرفون.

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ تفسير للنبأ، أو كأنَّه قيل: ما شأنهم؟ فقال: ﴿جَآءَتْهُمْ...﴾، أو خبر ثان للذين الأخير، وقوله: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ﴾ من كلام الله تعالى لأهل مَكَّة، وقيل: من كلام موسى، والأوَّل أولى لأنَّه اعتيد تهديد أهل مَكَّة بالأمم قبلهم، لا تهديد موسى لقومه بمن قبلهم، ولأنَّ الكثرة تزيد بأن يكون الخطاب لهم، وتنقص بأن يكون من موسى لقومه. والبَيِّنَات: البراهين.

﴿فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ إلى أفواههم، أو كما يقال ردَّ الشيء في موضعه، بمعنى أثبته فيه، والضمائر في قوله: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَفْوَاهِهِمْ﴾ عائدة إلى ﴿الذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وإِلَى ﴿وَالذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

ومعنى ردِّ الأيدي: إمالتها إلى ما لم تكن فيه، لا ردُّها إلى موضع كانت فيه فنزعت عنه، بأن عضُّوا عليها بعد إمالتها إلى الفم غيظا من رؤية الرسل، وَمِمَّا جاءت به الرسل لتسفيه دينهم، من عبادة الأصنام وسائر معاصيهم، كقوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الاَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ (سورة آل عمران: ١١٩) وَلَمَّا كان لازما للعضِّ عبَّر به عن العضِّ وذلك لفرط حمقهم، والأيدي على ظاهره، أو الأنامل كالآية المذكورة.

أو الردُّ: وضعها على أفواههم تعجُّبا عظيما، كأنَّهم أرادوا أن يفحشوا بالكلام، فمنعوا أنفسهم، أو استهزاء، أو الردُّ غير حقيق بل هو مجاز عن التعجُّب أو الاستهزاء.

أو الردُّ: في الأفواه منعهم أنفسهم عن الضحك بوضع الأيدي على الأفواه، كما يفعل ذلك من خاف الضحك من نفسه.

أو الردُّ: وضعها على أفواههم إشارة إلى الرسل أن اسكتوا، أو إشارة إلى ألسنتهم بأنَّ جوابكم بها هو قولنا: «إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا...» أو قالوا هذا وأشاروا إليها بعد القول.

أو الردُّ في أفواه الأنبياء على أنَّ الهاء للأنبياء أمسكوا أفواههم لِئَلاَّ يتكلَّموا وذلك حقيقة، أو استعارة تمثيليَّة بأن يشبّه قصد الأنبياء الكلام وعدم قبول الكُفَّار له وزجرهم للأنبياء عن الكلام بقصد أحد الكلام وكراهة غيره للكلام، ومنعه عنه بإمساك فمه.

أو الأيدي: النعم وهي نعم الأنبياء، وهي ما جاءوا به من الوحي، فالهاء أيضا للأنبياء، ومعنى ردِّها عدم قبولها، وكأنَّهم ردُّوها حيث جاءت، وهذا أيضا تمثيلية. ويقال: هاء «أَيْدِيَهُمْ» لِلكُفَّارِ، ويقال: هاء «أَفْوَاهِهِمْ» للرسل. والأيدي: النعم، ويقال: الأوَّل للرسل والثاني لِلكُفَّارِ، ويقال: الهاءان لِلكُفَّارِ.

﴿وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ﴾ على زعمكم أنَّكم أرسلتم به، أو ذكروا الإرسال استهزاء، أو أرادوا بما أرسلتم به من غير الله، ولا يجوز أن تكون «إِنَّا» أن المخفَّفة من الثقيلة مثل: ﴿أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ (سورة المائدة: ١١٣) بل التقت ثلاث نونات فحذفت ثانية إن أو نون «نا»، ويدلُّ لذلك ورود إنَّنا بلا حذف.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، من أرابك فلان بمعنى أوقعك في الريبة، أو مريب ذو ريبة من أراب بمعنى صار ذا ريبة، والشكُّ هنا غير الريبة، والريبة هي قلق النفس بعد الشكِّ، وقد يسمَّى بها الشكُّ لأنَّه سببها وملزومها. والجملة تأكيد لِمَا قبلها بوجه بليغ، إذ جعلوا أنفسهم محاطة بالشكِّ المريب إحاطة الظرف بالمظروف.

وصحَّ إطلاق الشكِّ عليهم بعد إطلاق الجزم بالكفر، لأنَّ الشاكَّ كافر لأنَّه إنَّما يخرج عن الشرك بالجزم بالتوحيد، فلا إيمان للشاكِّ فهو كالمنكر، أو الواو بمعنى أو، أي إمَّا أن نكفر جزما أو نشكَّ، أو الواو بمعنى أو التنويعيَّة، بعضٌ يجزم بالكفر وبعض يشكُّ، أو كفرنا بالمعجزات والبيِّنات وشككنا في التوحيد.

وقرئ ﴿تدْعُونَا﴾ و﴿تصُدُّونا﴾ بالإدغام، فالتقاء الساكنين إذا كان الأوَّل حرف مدٍّ جائز واردٌ، ولو كان حرف المدِّ والساكن بعده ليسا من كلمة واحدة، وقد جمعتُ قراءات من ذلك في شرح جامع حرف ورش[١].

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ خبر مبتدإٍ متعلّق به، أي أثابت في الله شكٌّ، توبيخ على شكّهم، وإنكار للياقته، إذ وقع منهم مع كثرة أَدِلَّة الوَحدَانِيَّة ووضوحها، ومنها خلق السماوات والأرض كما قال:

﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ نعت للمعرفة، ولو كان وصفا لأنّه للماضي لا يصحُّ تنوينه ونصب السماوات، فضلا عن أن يكون في نية الانفصال عن الإضافة، ومن كلامهم أنَّ البدل في المشتقّ ضعيف، وذلك جواب لقولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ﴾. قيل: فبم أجابهم المرسلون به؟ فقال: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ وما فيهما.

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى توحيده وطاعته هو لا نحن، ندعوكم من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولهم: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَا﴾ ومع ذلك يدعوكم لمصلحتكم كما قال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعض ثمَّ بعض، حتّى تغفر كلُّها كلَّما أذنبتم ذنبا وتبتم بعد إسلامكم غفره لكم، بعد أن يغفر ذنوبكم التي قبل الشرك بالتوحيد، فـ«مِنْ» للتبعيض مع حصول العموم، والمضارع للتجدُّد الاستمراري، أو «من» للتبعيض.

(فقه) والبعض: حقوق الله، وأمَّا حقوق العباد فلا تغفر إلاَّ بقضائها، كانت قبل التوحيد أو بعده، وقيل: تغفر كلُّها أيضا إن كانت قبله، أو «مِنْ» للتبعيض والبعض ما قبل التوحيد، قيل: أو البعض الكبائر لأنَّ الصغائر مغفورة، قيل: أو البعض الصغائر لأنَّ الكبائر تحتاج إلى الإصلاح فتغفر الصغائر لمن تاب من الكبائر.

١- مؤلَّف للشيخ رحمه الله شرح به شرحا مستفيضا قصيدة له في قراءة ورش عن نافع لا يزال مخطوطا.

(نحو) أو «مِنْ» صلة، والذنوب: ما قبله على جواز كون «مِنْ» صلة في الإثبات والمعرفة، وجعلها بعضٌ للبدل، أي بدل ذنوبكم، أو للابتداء على تضمين «يَغْفِر» معنى يخلص. واللام للتعدية، أو للتعليل، قيل: أو بمعنى إلى.

والغالب في القرآن ﴿مِن ذُنُوبِكُمْ﴾ مع الكُفَّار و﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ مع المؤمنين، ومن غير الغالب: ﴿قُل لِّلذِينَ كَفَرُوا...﴾ (سورة الأنفال: ٣٨) إلاَّ إن اعتبرنا ما ذكر فيه يغفر ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا هَلَ اَدُلُّكُمْ...﴾ (سورة الصف: ١٠) ووجه ذلك أنَّ المغفرة للكفار مرتَّبة على الإيمان، وللمؤمنين مرتَّبة على تجنُّب المعاصي وعلى الطاعة، فـ«مِن» مَعَ الكفَّارِ لإِخرَاجِ المظالم، وأمَّا المؤمنون فلا تبعيض، بل تعمُّ للتوبة المتناولة للخروج من المظالم.

﴿وَيُوَخِّرَكُمُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ متمتِّعين باللذات إلى أجل الموت، وإن لم تؤمنوا تنغَّصت حياتكم بالنقم، ولكن قد علم الله أنَّكم لا تؤمنون فتصابوا بالنقم، أو تؤمنون فلا تصابوا.

(أصول الدين) أو لكلٍّ أحد أجلان علمهما الله، إن عمل كذا كالإيمان أخِّر إلى الأجل الطويل وإلاَّ عوجل بالقصير، وقد علم الله كلَّ من يعمل موجب القصير أو الطويل، وهذا كما أوجد للشقيٍّ أزواجا وقصورا في الجنَّة لو عمل عمل السعيد لصار إليها، وقد علم أنَّه لا يعمل فلا يصير إليها، وكما جعل للسعيد مكانا في النار لو عمل عمل الشقيٍّ لصار إليه، قد علم أنَّه لا يعمله فلا يصير إليه، وكما قضى في الأزل أنَّ عمر فلان كذا وكذا، منه كذا وكذا لصلة رحمه، وأنَّ أجل فلان كذا لو لم يقطعها وإذا قطعها أو طغى فأجله دون ذلك، وهو وقت كذا وكذا، وكذا ما أشبه ذلك فالأجل واحد لا يتقدَّم ولا يتأخَّر.

والفرق بين ذلك ومذهب المعتزلة أنَّهم قالوا لا يتعيَّن له أحدهما حتَّى يعمل موجبه، ومن ذلك ﴿ادْخُلُوا الاَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ التِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ (سورة

المائدة: ٢١) فقد كتبها لهم و لم يدخلوها، بل حرَّمها عليهم أربعين سنة، لأنَّ كتبها مقيَّد بالطاعة وهم عصوا، وأوضح من ذلك أن يقال: المراد ليجمع لكم بين مغفرة الذنوب والتأخير إلى الأجل المسمَّى، وإن لم تؤمنوا لم يكن لكم إلاَّ التأخير إليه.

وكأنَّه قيل: فبم أجابوا؟ فقال: ﴿قَالُواْ إِنَ اَنتُمُ, إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أكلا وشربا ونكاحا ولحما ودما وصورة وغير ذلك، فما وجه اختصاصكم بالنبوءة؟ لو شاء الله رسولا لكان ملكا أو غيره كشيء يجعله أفضل من البشر لا بشرا، ولو لم يكن الإنسان مخصوصا بخواصَّ شريفة لم يَصِحَّ في العقل أن يكون نبيئا.

﴿تُرِيدُونَ﴾ بدعوى الرسالة ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ من تلقاء أنفسكم، و لم تريدوا تبليغ شيء محقَّق من الله، لعدم إرساله لكم ﴿فَاتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ برهان ظاهر، مِن "أبانَ" اللازم، أو مزيل للخفاء على أنَّه مِن "أبانَ" المتعدِّي، يدلُّ على صدقكم في دعوى إرسال الله لكم، وأمَّا ما آتيتمونا به فليس بحجَّة ولا يقنعنا.

وكأنَّه قيل: فبم أجيبوا ؟ فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمُ, إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كما قلتم ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ بالرسالة دون أن يختصَّ عن البشر بشرف لا يوجد لهم نفسيٍّ أو قدسيٍّ، وله أن يرجِّح بعض الجائزات على بعض، ولو استوت لحكمته، ولا مؤثِّر لشيء سواه.

[قلت:] والنبوءة ليست اكتسابيَّة بقصد ولا اتِّفاق لمزيد عمل واعتقاد، ولا مانع من أن يقال: يخصُّها الله ﷻ بمن جعل فيه خواصَّ شريفة قدسيَّة، وليسوا يتأثَّرون بها بالقصد إلى النبوءة، ولا علموا أنَّهم يكونون أنبياء حتَّى يوحى إليهم، وإن شاء أخبر بعضا أَنَّكَ ستكون نبيئا، وعليه فيكون المعنى: فأتونا بسلطان مبين على أنَّ لكم مزيَّة تستحقُّون بها الرسالة، فإن شاءوا أخبروهم بها، ولكن لم يخبروا

اتِّضاعا لله ﷻ، ولأنَّ الله لم يأمرهم بالإخبار بها كما قال:

﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّاتِيَكُم بِسُلْطَانٍ﴾ برهان على نبوءتنا أو على مزيَّتنا ﴿اِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ وقد أتيناكم بما أذن الله أن نأتيكم به من الحجج، ولا طاقة لنا أن نأتيكم بما تقترحونه ولم يأذن به الله، ولكلٍّ نبيء نصيبه منها لا يتجاوزه.

﴿وَعَلَى اللهِ﴾ لا على غيره ثقةً به ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾ في الصبر على معاداتكم لنا وأذاكم. والفاء صلة، و«عَلَى» متعلّق بما بعدها، أو عاطفة على محذوف هكذا: وعلى الله نعتمد، ولم يقولوا: وعلى الله فلنتوكّل بل عمُّوا بالمؤمنين فيدخلوا فيهم أوَّلاً وبالذات، كما رجعوا إلى أنفسهم على الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم بقوله:

﴿وَمَا لَنَآ﴾ لا عذر لنا، أو أيُّ شيء لنا؟ على الاستفهام الإنكاريِّ معشر الرسل، لكن لا مانع من أن يريدوا معشر المؤمنين عموما، فإنَّ سائر المؤمنين يؤذيهم المشركون، كما يؤذون الرسل ﴿أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ﴾ في أن لا نتوكَّل، لا عذر لنا في انتفاء التوكُّل مع قيام الحجَّة على وجوب إثباته، ولا داعي إلى جعل «أَنْ» صلة ناصبة لا مَصدَريَّة وأنَّ الجملة حال.

﴿وَقَدْ هَدَٰينَا سُبُلَنَا﴾ حال، والهداية من الحجَّة في وجوب إثبات التوكُّل، فعرَّفنا الطرق الله التي نعرفه بها، ونعرف أنَّ الأمر كلّه بيده ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ معشر الرسل ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ معشر الكُفَّار على إيذائكم إيَّانا بالعناد، واقتراح الآيات والشتم وسائر المضارِّ. وليس كلُّ نبيء يقول ذلك بالجمع بل كلُّ واحد يقول على نفسه بالإفراد: إن أنا إلاَّ بشر لا أتجاوز البَشَرِيَّة إلى المَلَكيَّة، وما كان لي أن آتيكم ومالي أن لا أتوكَّل على الله وقد هداني سبيلي، ولأصبرنَّ على ما آذيتموني، فجمعهم الله في كلٍّ، أي قالوا ذلك وكلُّهم بصيغة نفسه، وقد يقول الواحد عن نفسه وعن أتباعه من أمَّته فيما يمكن.

(نحو) ومن العجيب أن تجعل «مَا» اسما ويقدَّر الرابط منصوبا على نـزع الجارِّ، فيكون حذفه كحذف الضمير المفعول به هكذا: آذيتمونـاه، أي بـه، مع أنَّ نزع الجارِّ خلاف الظاهر ومع أنَّ الحذف خـلاف الأصـل مع عـدم الاحتيـاج إلى ذلك، وأقرب من ذلك مع المخالفة للأصل تقدير على الإيذاء الذي آذيتموناه.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ مثل ما مرَّ، والقصـر قصـر إفـادة وقصر قلب بالنظر إلى من يتوكَّل على غير الله خاصة، وقصر إفراد على من يتوكَّـل عليـه وعلى غـيره، والمراد: فليـدم المتوكّلـون على توكُّلهـم، أو يزيـدوا منـه، والتوكُّـل مستحدث من إيمانهم، أو يتوكَّل مريدو التوكُّل.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾

العاقبة للأنبياء رغم تهديد الكفار لهم

﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ﴾ هـم الكفـرة المتمـرِّدون المـؤذون للرسـل، القائلون: ﴿إِنَ اَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا...﴾ (سورة إبراهيـم: ١٠) أو الكفّـار مطلقـا، فـإنَّ ضعفاءهم راضون بالقول فكأنَّهم قالوا لرسـلهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ لمخـالفتكم ملَّتنـا

﴿مِّنَ اَرْضِنَآ﴾ لكثرة الكفرة ومعاضدتهم وقبحهم، ينسبون الأرض لأنفسهم مع أنَّها مشتركة بينهم وبين المسلمين، والمسلمون أحقُّ بها كما قال كفَّار قريش يوم الحديبيَّة: «ارجع العام لا يتحدَّث الناس أنَّك دخلت مدينتنا وأرضنا بغير إذننا».

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لتصيرنَّ في ملَّتنا أو لتدخلنَّ في ملَّتنا، وإلاَّ فليسوا فيها قبل، فعبَّر بالمطلق على المقيَّد الذي هو الكون في الشيء بعد الانصراف عنه، أو هو على ظاهره توهَّموا أنَّ الرسل أشركوا قبل لأنَّهم نشأوا معهم في أرض الشرك، إذ ربَّما لم ينهوا المتمرِّدين قبل الإرسال لعدم قدرتهم، ولو نهوا غيرهم.

أو الخطاب لمجموع الرسل ومن آمن بعد إشراكه من أتباع، فغلَّبوا على الرسل لأنَّهم أكثر، وقد كانوا في الشرك وغلَّبوا الرسل عليهم في الخطاب ، على أنَّ أتباعهم غير حاضرين في حال الخطاب، حصروا أمرهم في أحد أمرين: مقدور لهم وهو الإخراج، وغير مقدور، فروعي المقدور عليه، فكفى عن غيره، وهو الكون في ملَّتهم، أو ادَّعوا القدرة على إجبارهم إلى الملَّة، والمراد على الأوَّل إن لم تدخلوها أخرجناكم، ويدلُّ على أنَّ الخطاب للرسل خطابهم شعيبا بقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾.

﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ بعد هذه المحاورة بسببها ﴿إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ هؤلاء الكفرة المتمرِّدين، وأهلك بعضا بالغرق، وبعضا بالريح وبعضا بالصيحة وبعضا بالبعوض وهكذا، و لم يقل: لنهلكنَّهم، ليحضر في اللفظ موجب الإهلاك، وهو الظلم بالإشراك وظلم غيرهم.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الاَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ بعد إهلاكهم، وهي شاملة للديار والأصول، والأرض هي المذكورة التي قالوا فيها: «لَنُخرِجَنَّكُم». وجملة القسم وجوابه مفعول لـ«أَوْحَى» لتضمُّنه معنى قلنا، أو يقدَّر القول والذي لا محلَّ له أبدا هو الجواب لا مع القسم، وهذا الخطاب للرسل وأتباعهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا

الْقَوْمَ...﴾ الآيَة (سورة الأعراف: ١٣٧).

قال ﷺ : «**من آذى جاره أورثه الله داره**»[1]. قال في الكشاف: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها، ويؤذيني فيه، فمات فملَّكني الله ضيعته، فنظرت يوما إلى أبناء خالي يتردَّدون فيها ويدخلون في دورها، ويأمرون وينهون، فذكرت لهم حديث رسول الله ﷺ، وسجدنا شكرا لله تعالى.

﴿**ذَلِكَ**﴾ أي ما ذكر من الإهلاك والإسكان، أو ذلك الإسكان ﴿**لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ**﴾ نهلك له الظالمين ونسكنه كما فعلنا بمن ذكر قبل هذه الأمَّة، أو المراد من ذكر على معنى التقابل، أي لأنَّهم خافوا مقامنا ووعيدنا.

و﴿مَقَامِي﴾: موقفي، وهو الموقف الذي يقف فيه المكلَّف، وأضافه لنفسه لا لكونه يقف فيه حاشاه بل لأنَّه ملكه، خلقه ليحكم فيه للعبد أو عليه، أو زمان قيامي على كلِّ نفس بما كسبت للجزاء لا أنسى، ولا يفوتني شيء، أو خاف قيامي بذلك، ويبعد أن يكون من إقحام الاسم أي لمن خافني فزاد لفظ مقام كقوله:

.... ثُمَّ اسم السلام عليكما

ودمشق الشام، وبغداد العراق، بزيادة الشام والعراق، وإلى حضرتكم، وسلام على مجلسكم، لأنَّ ذلك ضعيف مع احتمال بعض هذه الأمثلة.

والوعيد: الإخبار بالشرِّ على أهله، أو بمعنى موعودي السيِّء على الكفر، وكرَّر الخوف لمبالغتهم في الخوف، أو لأنَّ الأوَّل خوف إجلال والثاني خوف عقاب.

﴿**وَاسْتَفْتَحُواْ**﴾ طلب الكفَّار من الله الحكم بينهم وبين المسلمين، طامعين

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٥، ص٢٠٠.

في أن ينصروا على المسلمين كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا...﴾ (سورة الأعراف: ٨٩) وقوله: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ...﴾ الآيَةَ (سورة الشعراء: ١١٨) ، أو طلب المسلمون الحكم بينهم وبين الكفار طامعين في النصر، أو طلبوا النصر لَمَّا أيسوا من إيمانهم، كقول نوح: ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ...﴾ (سورة نوح: ٢٨) ، وموسى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ...﴾ (سورة يونس: ٨٨) ، ولوط: ﴿انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة العنكبوت: ٣٠).

أو طلب الكُفَّار العذاب لأنفسهم إن كان المسلمون على الحقِّ، كما قالت قريش: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً...﴾ (سورة الأنفال: ٣٢) ، وكما قال غير قريش: ﴿ايتِنَا بِعَذَابِ الله...﴾ (سورة العنكبوت: ٢٧) أو طلب المؤمنون النصر على الكُفَّار والكفَّار النصر عليهم، أو طلب كلٌّ منهم الحكم، فالواو للفريقين، والعطف على «أَوْحَى» أو «قَالَ»، أو الواو لقريش طلبوا الإمطار في سني القحط وخابوا.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ مقتضى الظاهر على أنَّ الواو للكفَّار [أن يقول:] «وخابوا»، فوضع الظاهر ليصفهم بالتكبُّر وعناد الحقِّ، والمعنى: ففتح لهم فأفلح المؤمنون وخاب الكُفَّار، أي خسروا ولم ينالوا مطلوبهم.

﴿مِّنْ وَّرَآئِهِ جَهَنَّمُ﴾ نعت ثان لـ«جبَّار»، أو حال من «كُلُّ»، ووراء: خلف، وذلك أنَّهم أعرضوا عن جهنَّم ولم يؤمنوا بها وأقبلوا على أمرهم وهي طالبتهم، أو بمعنى قدَّام، وقال ابن الأنباري: بمعنى بعدُ، أي بعد حياتهم، قال ثعلب: أصله لِمَا توارى عنك خلفك أو قدَّامك.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ عطف فِعلِيَّة على اسمِيَّة، أو يقدَّر: يلقى فيها ويسقى، أو يدخلها ويسقى، و«صَدِيدٍ» عطف بيان في النكرة، ومن منعه فيها جعله بدلا، وهو ما يسيل من جلود أهل النار من القيح والدم، وقيل: من جلود الزناة. و«ماء» استعارة مجرَّدة بصديد.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يعالج أن يلعه لحرصه على الشراب ولا ينفعه، أو يجبر على بلعه مرَّة بعد أخرى، أو يطاوع التجريع، أو يتمهَّل في الجرع شيئا فشيئا. و«يَتَجَرَّعُ» حال من ضمير «يُسْقَى» أو نعت لـ«مَاءٍ» أو حاله، أو نعت لـ«صَدِيدٍ»، أو مستأنف للبيان، كأنَّه قيل: ما حاله مع مرارته وحرارته ونتنه وخبثه؟ فقال: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾.

﴿وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ يجيزه في حلقه بالبلع، فهو يشربه بالقهر مع بعد ذلك في الطبع يغصُّه في حلقه، ثمَّ يصل بطنه، ويذيب أمعاءه، كما قيل: يعرض عليه ولا يشربه، وقد قيل: المعنى يكاد لا يسيغه، قال رسول الله ﷺ في الآية: «**يقرَّب إلى فيه فيكرهه، فإذا أوتي منه شوى وجهه، ووقعت جلدة رأسه، فإذا شربه قطَّع أمعاءه حتَّى تخرج من دبره**»[1]. ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ (سورة القتال: ١٦) ﴿وَإِنْ يَّسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ...﴾ (سورة الكهف: ٢٩) ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ (سورة الحج: ١٩) فذلك دليل على وصوله أو وصول بعضه جوفه بالإساغة قهرا.

أو يؤوَّلُ ﴿لاَ يُسِيغُهُۥ﴾ بـ«لا يسْتَطِيبُهُ» كما قيل، لأنَّ انتفاء الاستطابة متعيِّنٌ، وانتفاء قربها متعيِّنٌ، أو الإساغة: البلع مع استطابة.

﴿وَيَاتِيهِ الْمَوْتُ﴾ أسباب الموت من الغصِّ في حلقه وإذابة أمعائه، فيطول عذابه بلا انقطاع ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من كلِّ نوع من أنواع العذاب التي لو كانت في الدنيا لمات، أو تحيط به من جميع الجهات الستِّ، أو من كلِّ مكان من جسده من كلِّ شعرة ومن إبهام رجليه إلى شعر رأسه، والتعميم أولى، ومنه أن يَعْلِقَ نفسه

١- أورده **الألوسي** في الدر، ج٤، ص٨٣. وقال: أخرجه أحمد والترمذي وابن أبي الدنيا في صفة النار، وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية وصححه، وابن مردويه والبيهقي في البعث والنشور عن أبي أمامة.

في حلقومه فلا تخرج من فيه فيستريح ولا ترجع لموضعها فيتهنأ بها ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ مع وجود أسباب الموت كلّها فلا استراحة لهم.

﴿وَمِن وَرَآئِهِ﴾ خلفه أو قدّامه، أو بعد حاله. ويجوز ردُّ الضمير للماء ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ من ضرب بمقامع من نار، والإحراق بالنار، والزمهرير، والجوع، ووجع الأسنان، وعذاب بعد عذاب بلا نهاية، وازدياد العذاب أبدا، والخلود، وقيل: حبس النفس في الحلق.

وقيل: قوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ﴾ إلى هنا في قريش، طلبوا السقي في سني المجاعة كما مرَّ فخابوا وعوَّضهم صديد النار وأنواع عذابها.

﴿مَّثَلُ الذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي صفتهم، استعير لها لفظ مثل الموضوع للذي شبِّه مضربه بمورده لجامع الغرابة، وخبره محذوف، أي فيما يتلى عليكم: بيان مثل الذِينَ كَفَرُوا، كقول سيبويه: فيما يتلى عليكم حكم ﴿الزَّانِيةُ وَالزَّانِي﴾ (سورة النور: ٢) وحكم ﴿السَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ (سورة المائدة: ٤٠) . وكأنّه قيل: كيف مثلهم؟ فقال: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾.

(نحو) أو «أَعْمَالُهُمْ» بدل اشتمال من «مَثَلُ»، و«مَثَلُ» مبتدأ خبره «كَرَمَادٍ»، أو خبره «فيما يتلى عليكم»، و«أَعْمَالُ» بدله، أو مبتدأ خبره «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ»، والرابط كونه نفس المبتدإ في المعنى، وقال الكسائي: «مَثَلُ» زائد، فكأنَّه جعل «أَعْمَالُهُمْ» مبتدأ خبره «كَرَمَادٍ» والأصل عدم الزيادة، ولا سيما زيادة الاسم.

ومعنى ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيَاحُ﴾: أسرعت به، واليوم العاصف: شديد الريح، وإسناد العصف إلى اليوم مجاز عقليٌّ، لأنَّ العصف بمعنى الهبوب الشديد، وأسند إلى زمانه، أو يقدَّر مضاف أي عاصف ريحه، والمراد أعمالهم الحسنة كالصدقة وإغاثة

الملهوف والعتق وصلة الرحم، فإنَّهم لا يثابون عليها لشركهم، فهي ذاهبة كذهاب الرماد بالريح الشديدة، أو أعمالهم: عبادة الأصنام وما أنفقوا لها، أو ذلك كلُّه.

﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ﴾ سوى الحسرة والعذاب لا يستفيدون بها شيئا، ولا يدفعون بها عقابا، أو تخفيفا فيه، وهذا زيادة إيضاح وفذلكة للتشبيه بالرماد اشتدَّت به الرياح، ويذهب كلُّه وإن بقي بعضه، فكما أثيبوا في الدنيا بعملهم، سواء عملوا لله أو للأصنام، إلاَّ أنَّ ما عملوا للأصنام لا يثابون عليه في الدنيا ولا في الآخرة، بل يعاقبون عليه. و«مِمَّا كَسَبُوا» حال من «شَيْءٍ» ولتوسُّعهم في الظروف قدِّم على صاحبه المجرور، وقدّم «مِمَّا كَسَبُوا» هنا لأنَّ المقام مقام لأن يذكر أنَّ أعمالهم كلَّها كرماد، وأخّر في آية أخرى مراعاة لبيان أنَّ شيئا ما منها لا ينفعهم، والله الموفّق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من أعمالهم، أو اعتقاد نفعها ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ومعلوم أنَّها ضلال، فيجوز أن يقدَّر ذلك الضلال هو الضلال البعيد، إذ أخطأوا وظنُّوا أنَّهم على الطريق الموصلة، فيبعد أن يتركوه بل يدعون إليه ويخطِّئون من خالفهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾

دليل وحدانيَّة الله ووجوده وقدرته

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمَّد، وخطاب المتبوع خطاب التابع، أو يا من يصلح للخطاب ولو مؤمنا، أو يا كافر، فيصلح للكفَّار المذكورين كلِّهم، على طريق البدليَّة، وفي هذا التفات من الغيبة إلى الخطاب.

﴿أَنَّ ا للهَ خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِـالْحَقِّ إِنْ يَّشَـأْ يُذْهِبْكُـمْ وَيَـاتِ بِخَلْـقٍ جَدِيدٍ﴾ يطيعه بدلكم بعد إعدامكم، كما خلق أصولكم وما يترتّب عليه خلقكـم، وهو السماوات والأرض، وكما قدر على خلقهم أطوارا قدر على إذهابهم، وإيجاد غيرهم. والحقُّ: هو كونهم بوجه حسن مع الحكمة، و«بِالْحَقِّ» متعلّـق بـ«خَلَـقَ» أي مع الحقِّ أو بسببه، أو حال من «السَّـمَاوَاتِ وَالأرْضَ» أو مـن ضمـير «خَلَـقَ» والخطاب لأهل مكّة أو للكفّار مطلقا.

﴿وَمَا ذَلِكَ﴾ المذكور من إذهابكم والإتيان بخلق جديد مـن جنـس البشـر أو غيره ﴿عَلَى ا للهِ بِعَزِيزٍ﴾ صعب أو محـال، لأنَّ قدرتـه ذَاتِيـَّة لا تعجـز عـن شـيء، فهو[1] الذي يؤمن به ويعبد رجاء ثوابه وخوف عقابه، يوم يـبرزهم ا لله من قبورهم كما قال:

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ

١- الضمير يعود إلى الخلق الجديد، تأمَّل!

﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾

الحوار بين الأشقياء والشيطان يوم العذاب وظفر السعداء بالجنَّة

﴿وَبَرَزُواْ﴾ من قبورهم ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يبرزون ولا بدَّ، ولذلك كان اللفظ ماضيا وكأنَّهم برزوا الآن للحساب، أو لله إذ كانوا يخفون المعصية ويتوهَّمون أنَّه لا يراهم عليها، ولا يعلمها، والمراد برزوا لخلق الله، أو لأجل الله، أو ﴿بَرَزُوا﴾: صاروا في الأرض البراز، وهي المتَّسعة التي لا حاجب فيها.

(أصول الدين) والله ﷻ يبعث الأجسام والأعراضَ المتَّصلةَ كالبياض والحمرة والصفرة والسواد، والطول والقصر والغلظة والرِّقَّة، والمنفصلةَ كالحركة والسكون والصوت والضرب، وما في قدرة العبد وما ليس في قدرته، كحركة الأنباض والأنفاس، والعلم والجهل، كما قدر على إعادة الذات قدر على إعادة العرض، وقيل: لا تعاد الأعراض للزوم قيامها لو ردَّت بالأعراض التي بعد البعث، أو معها وذلك محال.

وعبارة بعض: إنَّ المعاد يعاد بمعنى هو الإعادة فيلزم قيام المعنى الذي هو الإعادة بالمعنى الذي هو العرض، وهو محال، **وهو الصحيح عندنا**، وقال جمهور قومنا بالإعادة للعرض، واختلف هل يعاد الزمان؟ قيل: يعاد تبعا للأجسام، لقوله تعالى: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ (سورة النساء: ٥٦) لأنَّ المراد الغيريَّة بحسب الزمان، وإلاَّ فالجلود هي الأولى بأعيانها، لأنَّها هي التي عصت، قلنا: لا يعاد الزمان، وإلاَّ دخل زمان في زمان، وتبعث الجلود الأولى وتفنى في جهنَّم، ويبدَّل جلود أخرى غير الدُّنيَويَّة، وليست الجلود معذَّبة بل الروح.

وحقيقة إدراك الروح وكيف يجتمع الزمان الماضي والحاضر والمستقبل الدُّنيَوِيَّة

في وقت واحد؟ وكيف تجتمع مع أزمنة يوم القيامة؟ وإن أجيب بأنَّ ذلك تدريج لا دفعة كما كانت في الدنيا تدريجا، بقي أنَّها كيف تجتمع مع زمان الآخرة؟.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَآؤُاْ﴾ هم المرءوسون سمُّوا لضعف رأيهم وضعف عزِّهم، وقد يكون رأيهم غير ضعيف، فيبقى ضعف عزِّهم ومالهم وبدنهم ﴿لِلذِينَ اسْتَكْبَرُواْ﴾ هم الرئيسون الذين استغووا الضعفاء، وقد يكون الضعيف أشدَّ كفرا أو مساويا للرئيس لكنَّه ضعيف من حيث لو ردَّه الرئيس إلى ما دون كفره أو كفرٍ آخر لتبعه.

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ﴾ لا لرأينا ﴿تَبَعًا﴾ في عبادة غير الله وفي تكذيب الرسل والكتب، أو إنكار الله عَجَّلَ. [تَبَعًا] جمع تابع، كخادم وخدم بفتح الخاء والدال، وغائب وغيب، أو مصدر بمعنى اسم الفاعل أي تابعين، أو ذوي تبع، أو نفس التبع مبالغة في الاتِّباع ﴿فَهَلَ اَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾؟ دافعون عَنَّا شيئا من عذاب الله، أو دافعون عنَّا دفعا فـ«شَيْئًا» مفعول به، أو مفعول مطلق، والدفع: الإزالة البتَّة، أو المراد أن تعذَّبوا مكاننا.

(نحو) و«مِنْ» الثانية صلة في المفعول به، أو في المفعول المطلق، و«مِنْ عَذَابِ اللهِ» تبعيض للعذاب حال من «شيء» ولو جرَّ، لأنَّ جارَّه صلة؛ ويجوز أن تكون للبيان أي دافعون شيئا عنَّا هو عذاب الله عَجَّلَ، فيجوز أن يكون المعنى: مغنون عنَّا بعض شيء هو عذاب الله؛ أو كلاهما للتبعيض، أي بعض شيء هو بعض عذاب الله، فطلبوا دفع بعض البعض، والوجه ما ذكرته أوَّلاً.

﴿قَالُواْ﴾ أي الذين استكبروا للضعفاء جوابا واعتذارا ﴿لَوْ هَدَايٰنَا اللهُ﴾ للإيمان هداية توفيق، أو تأثير ولو مع شقوة ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ هداية بيان إليه، فيمكن أن تؤمنوا وأن لا تؤمنوا، لكن خذلنا فاخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا من الضلال المترتِّب على خذلاننا.

أو ذلك جواب لقولهم: «فَهَلَ اَنتُمْ...» فيكون المعنى: لو هدانا الله إلى طريق نتخلّص به من العذاب إلى الجنّة اليوم مع البقاء على الشرك أو دونه لخلّصناكم كما أغويناكم قبل، أو لو رددنا إلى الدنيا لهديناكم فيها. ثمّ إنّ أهل النار يصدر منهم الكذب فيها وفي الموقف. والاستفهام توبيخ وتحسّر، كيف يطمعون أن يدفعوا عنهم العذاب أو بعضه وهم في النار مقهورون، وذلك الاستفهام جزع فأيسوهم من الدفع وأعلموهم أنّ الجزع لا ينفع.

وإنّا وإيّاكم مخلّدون كما قال: **﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾** موضع حيص، أي ميل إليه للنجاة، أو ما لنا حيص إلى ملجأ، لا ملجأ أو لا زمان حيص لأنّا خالدون، وقيل: ليس هذا من كلام المتكبّرين بل من كلامهم وكلام الضعفاء، فهو محكيٌّ بقول محذوف، أي قالوا جميعا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ يقولون: تعالوا نصبر فقد كان الصبر في الدنيا نافعا، فيصبرون خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: ﴿سَوَآءٌ...﴾، وعدُّوا عدم ويلهم صبرا، ويقال: يقولون: تعالوا نجزع، فيجزعون أي يصيحون بالويل خمسمائة عام فلا ينفعهم، ويقولون: تعالوا نصبر، فيصبرون عن الويل والبكاء خمسمائة عام فلا ينفعهم، فيقولون: ﴿سَوَآءٌ...﴾، أو يبدأون بالصبر وبعده بالجزع **وبهذا جاء الحديث**[1].

والضمائر لهم جميعا، قدّرنا القول أو لم نقدّر، وإذا لم نقدّر فقد غلب التكلّم على الخطاب، أو يقدّر: سواء علينا وعليكم أجزعنا وجزعتم أم صبرنا وصبرتم ما لنا وما لكم من محيص. ويعلم جزع الضعفاء من أحوالهم وقولهم: ﴿فَهَلَ...﴾.

١- الحديث رواه ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن كعب بن مالك مرفوعا. راجع السيوطي في الدر، ج٤، ص٨٤. وأورده ابن كثير أثرا عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير الآية.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ إبليس لأهل النار فيها ﴿لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ﴾ حوسب المكلَّفون من الثقلين، وأدخل أهل الجنَّة الجنَّة، وأهل النار النار، واجتمعوا عليه فيها، وقد وضع له منبر من النار فيها ليخطبهم فعاتبوه على إغوائه إيَّاهُم، وسألوه أن يشفع لهم بإزالة عذابهم البتَّة، أو يعذَّب مكانهم لأنَّه هو الذي أضلَّهم.

﴿إِنَّ ا للهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ بالبعث للجزاء وبالثواب على العمل الصالح والتقوى، و لم يخلفكم، وحذف لعلمهم به معاينة، وبقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾. والحقُّ: ضدُّ الباطل، لأنَّه وعد أنجز، ومن شأنه الإنجاز ضدّ وعد الشيطان، أو الوعد: الحقُّ فأضيف الموصوف للصفة، أو وعد ا لله، فوضع الظاهر موضع المضمر، أو الوعد: البعث والجزاء.

﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعد الباطل بتحليل المحرَّمات وتحريم المحلَّلات، وبأنَّه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب، وإن كان ذلك شفعت لكم الأصنام ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ وعدي تبيَّن لكم إخلافي بمشاهدة البعث وما بعده، شبَّه ظهور الإخلاف بالإخلاف، ووجه الشبه انتفاء ترتُّب الموعود به. ولا استعارة في «وَعَدتُّكُمْ» لأنَّه لا يشترط في لفظ الوعد الصدق، والداعي إلى الاستعارة أنَّ الإخلاف إنَّما هو فيما يسعه مقدرة الواعد. أو ذكر الإخلاف بدل مسبّبه وهو ظهوره.

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ ما كان لي عليكم قُوَّة أقهركم بها على المعاصي والشرك ﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ إليها بالكذب والتزيين. والمصدر بدل من «سُلْطَانٍ» والاستثناء متَّصل على أنَّه عدَّ الوسوسة قاهرة، وإن لم يعدَّها إذ لم تكن شنقا أو خنقا أو نحوه فهو منقطع، وأولى من ذلك أن تعدَّ الوسوسة سلطانا على طريق تأكيد الشيء بضدِّه، فإنَّه لا يشرط المدح والذمُّ، وقد مرَّ هذا في قوله عَجَلَّ: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَآءِ﴾ (سورة الرعد: ١٥) وقد يكون مع ذلك تهكُّم من إبليس عليهم، ولو كان الحال لا يرتضيه، ولكن لفرط غفلتهم تهكَّم عليهم بأنَّ الوسوسة

قهر، وذلك كلُّه جائز أيضا إذا فسَّرنا السُّلْطَان بالحجَّة والبيِّنة.

﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بَالَغتم في إجابتي بالسرعة، فإنَّ الاستجابة أبلغ من الإجابة، لأنّه على صيغة الطلب والإسراع في الشيء إنّما يكون لكونه مطلوبا، والإسراع من لوازم الطلب، ولو كان طلب الإنسان من نفسه. والفاء للاتِّصال، وهو مبالغة أيضا.

﴿فَلاَ تَلُومُونِي﴾ على إضلالي إيَّاكم، لأنّها ما كانت إلاَّ بالكذب والتزيين ﴿وَلُومُواْ أَنفُسَكُم﴾ على إهمال عقولكم الصحيحة عن التدبُّر، وعن النظر فيما جعل ا لله لكم من الدلائل، قيل: وعلى وثوقكم بي مع تصريحي لكم بالعداوة، وفيه أنَّه لم يصرِّح لهم.

وإن أريد قوله ﷻ: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٥) و﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الاَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُم...﴾ الآيات (سورة الحجر: ٣٩) لم يَتِمَّ، لأنَّهم لم يسمعوه حين قال، و لم يؤمنوا بالقرآن الذاكر ذلك عنه، والعياذ با لله منه، نعم لم يؤمنوا بالقرآن فيتدبَّروها.

﴿مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمجيب صريخكم أي صياحكم إليَّ مستغيثين، وهو اسم فاعل "أَصْرَخَ" بهمزة السلب، أي لا أزيل صراخكم بالإجابة والاستغاثة، ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ مثل ما ذكر، والحاصل: لا أغيثكم ولا تغيثونني، وذلك إقناط كلِّيٌّ من معاونة أهل النار بعضٍ بعضًا، وهو جمع، حذفت نونه للإضافة، فأدغمت ياؤه في ياء المتكلِّم.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾ الآن ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ بإشراككم إيَّاي مع ا لله في الدنيا بالعبادة لي، بترك ما أمر ا لله به، وفعل ما نهى عنه، وبعبادة الأصنام فإنّها للشيطان، إذ أمر بها، وا لله نهى عنها؛ أو شبَّه انقيادهم إلى عبادتها إذ أمرهم بها بالإشراك في العبادة، فاستعار له لفظ الإشراك. تركت ذلك كلَّه الآن وقلت: لا إله إلاَّ ا لله، وما جاءت به الرسل حقٌّ من ا لله. وهنا انتهت خطبته في جهنَّم على منبر فيها من نار.

وفي هذا المنبر وخطبته لهم بما ذكر زيادةُ تغييظ وإقناط، والمشهور ما ذكر القرطبي أنَّهم يقولون: اشفع لنا فإنَّك أضللتنا، فيقوم خطيبا ويقول: ﴿إِنَّ اللّٰهَ وَعَدَكُمْ...﴾. وقيل: انتهت خطبته في قوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرينَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ اليوم في النار، وهو داخل في الظالمين، وعلى أنَّه من كلام الله يكون المعنى: لهم عذاب أليم إذا جاء يوم القيامة.

وأجاز بعض أن تكون «مَا» بمعنى الله، نحو: «سبحان ما سخَّر كنَّ لنا»، أي كفرت قبلكم بالله الذي أشركتمونيه إذ لم أسجد لآدم، ويجوز جعلها مَصدَرِيَّة في المثال على حذف مضاف، أي سبحان تسخير كنَّ لنا، أي ذي تسخير كنَّ لنا، وكأنَّه قال: كيف تطمئنُّون إليَّ وأنا أَوَّل عاصٍ. ومعنى «أشركتمونيه» جعلتموني شريكه، ونكتة التعبير بذكر الإشراك التلويح إلى وصف، أي بالمعبود الذي لا معبود بحقٍّ سواه.

﴿وَأُدْخِلَ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ أي وأَدخل الله الذين آمنوا، كما قال: ﴿يُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أو أدخل الملائكة الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم كالبوَّاب يقول: أدخل بإذن مالك البيت، فسمَّى الإذن إدخالا لأنَّه سبب للدخول. عقَّب شأن أهل النار بشأن أهل الجنَّة. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ناوين الخلود لأنَّ الإدخال سابق على الخلود ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ متعلّق بـ«أُدْخِلَ»، ولو قيل: التقدير «أدخل الله الذين» لأنَّ لفظ الجلالة غير مذكور، بل لو ذكر لكان من وضع الظاهر موضع المضمر تلويحا بالتعرُّض لوصف الرُّبُوبيَّة إلى مزيد اللطف والرحمة لهم، وفي ذلك أنَّ الجنَّة بفضل الله لا بالإيمان والعمل الصالح ولو كانا سببا عاديا.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ الجملة حال ثانية، أو من ضمير «خَالِدِينَ»، أو مستأنفة، ووجه اتِّصالها بما قبل هذا أنَّ من شأن المتخالطين السلام بينهم، وهاء

الجمع لداخلي الجنَّة، أي تحيَّتهم الـتي تـأتيهم، أو يوقعهـا الملائكـة عليهـم، أو بعـض على بعـض، قـال الله ﷻ عـن الملائكـة: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ (سـورة الرعد: ٢٥).

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾

مثال الكلمة الطيِّبة ومثال الكلمة الخبيثة

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَـةً طَيِّـبَةً﴾ الخطـاب لرسـول الله ﷺ، أولى أن يكون لكلٍّ من يصلح، لأَنَّ الأصل فيه التعيـين، ولأَنَّ مـا للنبيء في الجملـة للكلِّ، والرؤية عِلميَّة، بدليل تعليقها بالاستفهام، لكن تعلق البصريَّـة أيضـا، تقـول: انظر إلى موضع كذا هل فيه كذا، فيجوز أن تكون هنا بصريَّة مجـازا، تـنزيلا للعلم منزل المحسوس مبالغة. و«مَثَلاً» مفعول ثان، و«كَلِمَـةً» [مفعـول] أَوَّل، أي كيـف صيَّر كلمة طيِّبة مثلا، أو متعدٍّ لواحد بمعنى وضع، و«كَلِمَـةً» بـدل أو بـيان على جوازه في النكرة من «مَثَلاً»، والمراد: كالمثل في الغرابة.

والكلمة الطَّيِّبَـة: «لا إله إلاَّ الله»، أو كلُّ كلمة حسنة كالتسبيح والتحميـد، والاستغفار والتوبة، والقرآن، ودعوة الإسلام، **وكلٍّ ما أعرب عن حقٍّ أو دعـا إلى صلاح**، وقيل: المؤمن، كما أطلق على عيسى أنَّه كلمـة، والأولى مـا تقـدَّم، ووجـه

الشبه أنَّ كلمة الشهادة رسخت في القلب كرسوخ الشجرة، ويتفرَّع عليها الأعمال الصالحة كتفرُّع ثمار الشجرة.

﴿كَشَجَرَةٍ﴾ نعت لـ«كَلِمَةً»، أو حال، أو هي كشجرة، أو جعلها كشجرة، وعليهما تكون تفسيرا لضرب المثل، وَيَدُلُّ على أنَّ «كَلِمَةً» بدل أو بيان لـ«مَثَلاً» و«كَشَجَرَةٍ» مفعول ثان قوله: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ لأنَّ «مَثَلُ» مبتدأ و«كَشَجَرَةٍ» خبر. ﴿طَيِّبَةٍ﴾ هي النخلة كما فسَّرها بها ﷺ بعد ما سألهم عنها، وفهمها عبد الله بن عمر، فلم ينطق بها حياء، وَلَعَلَّهُم لم يسارعوا إليها لتبادر اسم الشجرة إلى غيرها، أو لأنَّها لو أريدت لم يختبر أفهامهم بها لمشاهدتها في البلد وكثرتها، ولولا ذلك لفسِّر بمطلق الشجر الطيِّب المثمر، كالنخلة وشجر الرمَّان والعنب والتين، وقيل: شجرة جوز الهند أو شجرة طوبى، كما قيل بهما.

﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ راسخ في الأرض بالعروق ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أعلاها، كما يقال لأعلى الجبل: إنَّه فرعه، وإن أريد فروعها وهو الغصون التي هي هنا الجرائد فالإضافة للحقيقة، أو للاستغراق فصلح لِمَا فوق الواحد. ﴿فِي السَّمَآءِ﴾ في جهة السماء، أو جهة العلوِّ. أنزل الله الآية على ما علم مِنَّا ـ وهو خلق له ـ أنَّا ننزع الجرائد اليابسة وننزع الخضرة أيضا للحاجة، فيكون أعلاها جرثومة في الجوِّ، ولو تركت بلا نزع لم يختص أعلاها بذلك فتكون كشجر السرو.

﴿تُوتِي أُكْلَهَا﴾ مأكولها أي المأكول المتولِّد منها بإذن الله، وفاعل الإيتاء الله ﷻ، وأسند للمحلِّ أو للسبب أو الآلة، والله منزَّه في الحقيقة عن العمل بشيء ولو كان ذلك صورة وخلقا ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ كلَّ وقت وقَّته الله ﷻ لإثمارها، وهو مرَّة في العام تدوم مدَّة، وقد تكرّر، وقد لا تلد، بحسب ما قدَّره الله ﷻ، وكأنَّه قيل: كلَّ سنة.

أو المراد: ستّة أشهر من حين طلعها إلى صرامها، وعن عليٍّ: ثمانية أشهر من حملها باطنا وظاهرا، وقيل: من ظهور حملها إلى إدراكها، وهو أربعة أشهر، وقال سعيد بن المسيِّب: شهران، من وقت الأكل منها إلى صرامها، وذلك كلُّه غير متناف لأنّها في ذلك كلّه في سنة، والكمون والظهور في سِتّة، وكمنت قبل الستّة الأشهر بشهرين، وقبل الأربعة بأربعة، وتؤكل في شهرين تقريبا، ويختلف باختلاف البلاد بشدّة الحرِّ.

وقيل: غير ذلك بأنّها تُؤكَلُ في كلِّ حين من السنة وأكثر، صباحا ومساء لأنّها تدخّر، يؤكل منها الجمار والطلع والبلح والبسر والمنصف والرطب والتمر ويدّخر، والعسل، وماؤها القاطر بقطع جرائدها، والخلُّ المعمول منها ويدّخر ذلك، إلاَّ أنَّ ماءها سريع الإسكار[1].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ بأمره أو بخلقه لها، **كذلك كلمة الإيمان راسخة في قلب المؤمن تتولّد منها الأعمال الصالحة والتقوى،** ويصعدان إلى السماء، وله بركتهما وثوابهما كلَّ وقت، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (سورة فاطر: ١٠) والشجرة بأصل راسخ وأصل قائم وفرع عال، كذلك الإيمان بثلاثة: تصديق بالجَنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان.

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ بزيادة الإفهام، لأنّه صوَّر المعقول بالمحسوس، وفي علوِّ فرع الشجرة مباعدة عن عفونة الأرض، ودلالة على قُوَّة الأصل، فتكون ثمارها في غاية الشرف.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة كائنة ما كانت من الكفر، وكلُّ ما كان

١- أي إن ترك حتّى دخلته الحموضة، وللشيخ مصنّف خاصٌّ في النخلة وغرسها عنوانه: "النحلة في غرس النخلة".

على خلاف الطيِّبة، إلاَّ أنَّ الواضح عدم التعرُّض للمباح في الطيِّبة، والمكروه في الخبيثة، وُمقتضى الظاهر: «وضرب الله مثلا كلمة خبيثة...»، ولم يقل ذلك لأنَّ ضربها مثلا غير مقصود بالضرب بل المراد به مجرَّد الإخبار.

﴿**كَشَجَرَةٍ**﴾ يقدَّر مضاف، أي كمثل شجرة، أو الكاف بمعنى مِثل، أي مَثل كلمة خبيثة مِثْل شجرة خبيثة ﴿**خَبِيثَةٍ**﴾ مخصوصة هي شجرة الحنظل، ولو كان من الشجر ما هو مرٌّ مثلها وضعيف العروق، قريب من وجه الأرض، أو قويها.

ويقال: الكثوث، نبت يتعلَّق بأغصان الشجر بغير أن يضرب بعروقه فيها أو في الأرض، قال شاعر:

هو الكثوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظلٌّ ولا ثمر

وقد شاهدته.

ولعلَّ المراد بالشجرة مطلق ما خبث منها. وهو بمثلَّثتين، وقيل: الأولى شين، وهو بفتح الكاف وضمِّها. وإطلاق الشجر على الحنظل مجاز لأنَّه لا ساق له، فهو نجم لا شجر، فالأولى تفسيرها بالدفل، لكن روي تفسيرها بالحنظل مرفوعا، وعن الضحاك: إنَّها الكثوث، وعن الزجاج وغيره: إنَّها شجرة الثوم، وقيل: شجرة الشوك، وقيل: الطحلب، وقيل: الكمأة، ويردُّه أنَّه لا خبث في الكمأة وكذا الطحلب، وقيل: كلُّ شجر لا يطيب له ثمر، وعن ابن عبَّاس: شجرة لم توجد مثَّل الله تعالى بها.

﴿**اجْتُثَّتْ**﴾ أصيبت جثَّتها بالقطع ﴿**مِن فَوْقِ الاَرْضِ**﴾ ولو كانت لها عروق لضعفها وقربها من فوق الأرض، فكأنَّ أخذ عروقها معها أخذ من فوق الأرض، ووجه دخول ذلك في التشبيه التنقيص بضعفها، أو المراد بـ«فَوْقِ الاَرْضِ» اتِّصَال أغصانها بالأرض، وليس لها شرف علوِّ الشجرة الطيِّبة،

لانبساطها على الأرض، ولا ثمر طيِّب بل ثمرها رديء، أو لا ثمر لها، ويضعف تفسير الشجرة بشجرة الزقُّوم في النار أعاذنا الله منها ﴿**مَا لَهَا مِن قَرَارٍ**﴾ رسوخ، ويجوز أن يراد بـ﴿اجْتُثَّتْ﴾ أنَّها لانبساطها وضعف عروقها كأنَّها مقطوعة، وتسمية ما لا ساق له شجرةً مجازٌ.

﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الذِينَ ءَامَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾ الذي ثبت من الله عندهم في قلوبهم راسخا، فكانوا يعملون ويتركون بمقتضاه، وهو الاعتقادات الدِّينِيَّة، من كلمة الشهادة وما بعدها ﴿**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ وماتوا عليها ولا يتركونها ولو يقتلون لأجلها، كزكرياء ويحيى وشمسون ومن قتلوا في الأخدود.

(قصص) كان جرجيس من الحواريِّين يدعو باسم الله الأعظم ويحيي به الموتى، فدعا جبَّارا بالموصل يعبد صنما إلى تركه وعبادة الله، فشدَّ رجليه ويديه فشرح صدره ويديه بأمشاط من حديد، وصبَّ عليه المالح وسمر بمسامير حديد عينيه وأذنيه، وأوقد على حوض من نحاس حتَّى ابيضَّ وألقاه فيه، وطبق عليه، فخرج أحسن مِمَّا كان وأجمل، وقطَّعه أعضاء فأحياه الله ﷻ ودعاهم إلى الله، وأحيى الموتى، ولم يؤمن فأهلكه الله وقومه، وقلب المدينة عليهم. وكان شمسون يقاتل عبدة الأصنام من الروم ويهزم جنودهم وحده، ووعد ملكهم امرأته أن تسأله بم يغلب؟ فقال: بشدِّ شعري في غير حال الطهارة، ففعلت به ذلك فقبضوه وألقوه في قصر الملك فمات.

﴿**وَفِي الاَخِرَةِ**﴾ في المحشر إذا سئلوا عن دينهم فيه وفي القبر: من ربُّك ومن نبيئك وما دينك؟ فيقول: ربِّي الله وديني الإسلام ونبيئي محمَّد ﷺ، ومن قبله ﷺ يُسألون عن أنبيائهم في المحشر، **فينادي ملك** عن الله من السماء: صدق عبدي، قال ﷺ : «**فذلك القول الثابت**»، **ويروى**: **ما** تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو محمَّد رسول الله ﷺ .

﴿وَيُضِلُّ ا للهُ﴾ عن الجواب الحقِّ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الكفَّار والفسَّاق فلا يهتدون إلى أن يجيبوا بذلك، ولو عرفوه في الدنيا وعاندوا، وأحاديث المقام مشهورة[1]. هذا عائد إلى المثل الخبيث وما قبله للطيِّب ﴿وَيَفْعَلُ ا للهُ مَا يَشَآءُ﴾ من تثبيت وإضلال عدلا منه.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾

تصرُّف الكفَّا ر إزاء نعم الله وحثُّ المؤمنين على العمل الصالح

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ا للهِ كُفْرًا﴾ تعجيب لرسول ا لله ﷺ ، أو لكلِّ من يصلح للتعجُّب من أباطيل الكُفَّار البعيدة عمَّن له أدنى فهم، وهم كفَّار قريش، وفي ذلك حذف مضاف أي بدَّلوا شكر نعمة ا لله كفرَ إشراكٍ وما دونه، والنعمة باقية و لم يشكروها حتَّى انتقم ا لله ﷻ منهم، أو لا يقدَّر مضاف فتكون النعمة زائلة عنهم بسبب كفرهم، فذلك معنى التبديل، فإنَّ الكفر سبب زوالها وقد اختاروه عنها.

ونعمة ا لله هي رسول ا لله ودين الإسلام، وسكنى الحرم الآمن، والقيام بأمر الكعبة وخدمتها، وتوسيع الرزق بدعاء الخليل عليه السلام. قحطوا سبع سنين وقتل منهم سبعون يوم بدر، وأسر سبعون فذلُّوا. ولا مانع من عموم الآية لغير قريش ولو قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ألا ترى إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ خَرَجُواْ﴾ (سورة البقرة: ٢٤١) وهو لم يشاهد الخارجين. وعن عمر وعليٍّ: هم الأفجران من قريش بنو المغيرة

---

١ - راجع ابن كثير إن شئت ففيه الكثير في الموضوع، وكذلك الدر المنثور للسيوطي.

كفيتموهم يوم بدر، وبنو أميَّة متّعوا إلى حين، أي وقت أجلهم.

﴿وَأَحَلُّواْ﴾ أنزلوا بسبب الإضلال ﴿قَوْمَهُمْ﴾ أتباعهم ولو من غير نسبهم، قلت: قُطِعُوا عن قريب وما كانت لهم دولة بعد، إلاَّ في طرف الأرض في أندلس ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ الهلاك، وأصله الكساد استعير له لجامع عدم الانتفاع، وضمائر «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» و«بَدَّلُوا» للرؤساء، وإن رددنا ضمير «بَدَّلُوا» للعموم وضمير «أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ» للرؤساء جاز، ولكن فيه تفكيك الضمائر.

﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل أو بيان لـ«دَارَ»، فإدخال جهنّم هو الإحلال، ويجوز أن يكون إحلالهم هو تعريضهم للأسر والقتل والذلِّ والمضارِّ الدُّنيَوِيَّة، وأمَّا عذاب الآخرة ففي جهنّم ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ على الاشتغال، أي يصلون جهنّم يصلونها، والجملة حال من «قَوْمَهُمْ»، أو من واو «أَحَلُّوا»، وإذا جعلنا «جَهَنَّمَ» بدلا أو بيانا فـ«يَصْلَوْنَ» كذلك، أو حال من «جَهَنَّمَ».

﴿وَبِيسَ الْقَرَارُ﴾ هي، أو بيس القرار قرارهم، ومعناه: موضع الاستقرار إذ لا تحوُّل عنها فهي دائمة، كما أنَّ الجنَّة دار عدن أي إقامة لا تحوُّل عنها، وجملة «يَصْلَوْنَهَا» وجملة «بِيسَ القَرَارُ» زيادة بيان لـ«وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ» لأنَّ دار البوار لا يختصُّ بجهنَّم، ذلك إذا قلنا بالاشتغال، وأمَّا إذا قلنا بالإبدال والبيان فقد حصل المراد ظاهرا، لكن يحصل بهما دخول مخصوص بمقاساة الحرِّ والبرد، وإنَّها مدخل بئس[1].

﴿وَجَعَلُواْ لِلهِ أَندَادًا﴾ شركاء في دعواهم وزعمهم الباطل ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ﴾ لم يتّخذوها ليضلُّوا عن سبيل الله وهو التوحيد وشريعته، بل ضلالهم سابق على اتّخاذها، لكن لَمَّا كان اتّخاذها نتيجة لضلالهم جعل كأنّه غرض لضلالهم، وأيضا يزداد ضلالهم بها فاللام لعاقبة الازدياد، وجملتا «أَحَلُّوا»

١- في الطبعة العمانية: «بئس مدخل».

و«جَعَلُوا» معطوفتان على «بَدَّلُواْ» فالتعجيب منسحب عليها.

﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ﴾ في الدنيا قليلا، والدنيا كلُّها قليل، وهذا يقوِّي أنَّ الذين بدَّلوا هم قريش مثلا لا عموم كفَّار الأمم. قل يا محمَّد لقومك الذين بدَّلوا، مع أنَّه لا مانع من العموم كأنَّه قال: قل يا محمَّد لقومك الذين من جملة من بدَّلوا.

هدَّدهم بالأمر بالتمتُّع بالشهوات ومنها عبادة الأوثان إشعارا بأنَّ تمتُّعهم لا بدَّ منه، كما أنَّ الأمر للوجوب وقد صدر من قاهر فلا بدَّ من المأمور به، شبَّه انهماكهم في التمتُّع بذلك بالتمتُّع الذي أمر به من لا يخالفه المأمور، بجامع تحتُّم الوقوع، وكلٌّ من التمتُّع المهدَّد عليه والمصير إلى النار المهدَّد به واقع، بحيث يترتَّب الثاني على الأوَّل.

كما علَّله بقوله: ﴿فَإِنَّ﴾ لأنَّ ﴿مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ فذلك استعارة تمثيليَّة، أو نزِّل التقابل منزلة التناسب على الاستعارة التهكُّميَّة، فإنَّ اللفظَ الأمرُ بالتمتُّع والمراد النهي عنه، والمصير مصدر.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ الجزم في جواب «قُلْ»، والمحذوف مفعول للقول، أي قل للذين آمنوا: أقيموا الصلاة وأنفقوا ممَّا رزقناكم سرًّا وعلانية، يقيموا الصلاة وينفقوا مِمَّا رزقناهم سرًّا وعلانية، فالجزم في جواب الأمر، وذلك مدح للمؤمنين بالمطاوعة في الحقِّ، كما مدحهم بإضافتهم إليه.

ويجوز أن يكون ذلك من أمر الغائب بلام محذوف أي قل لهم ليقيموا الصلاة ولينفقوا...، وكأنَّه قيل: قل لهم أقيموا وأنفقوا.

والمراد: الصلاة الواجبة بإقامة أركانها بعد شروطها، والإنفاق الواجب وهو الزكاة، وصدقة التطوُّع لقوله: ﴿سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ لأنَّ الزكاة من شأنها العلانية، وكذا سائر الفرائض.

(فقه) وإن خاف الرياء بالفرض لأنَّ الصحيح إمكان الرياء به أعلن به وجاهد نفسه في نفي الرياء، وقيل: يسرُّ، وقيل: إسرار الفرض أولى كالنفل، والصحيح الأوَّل فيزيد [الثواب] على الإسرار به سبعين، وقد قيل: المراد السرُّ في التطوُّع والعلانية في الفرض ، فيكون في الآية إغراء بإسرار النفل وإغراء بجهر الفرض، ويجوز أنَّ المعنى الأمر بإكثار الصدقة هكذا على أيِّ حال كانوا.

(نحو) والنصب على الظرفية كجئت طلوعَ الشمس، أي وقت سرٍّ وعلانية، أو يقدَّر في، أو على المفعوليَّة المطلقة أي إنفاق سرٍّ وجهرٍ، أو الحالية أي سارين ومعلنين، أو ذوي سرٍّ وعلانية، أو نفس السرِّ والعلانية مبالغة.

﴿**مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ**﴾ لا يباع الشيء فيشتري به المذنب نفسه، أو لا يبيع شيئا فيفتدي بثمنه، أو لا يشترى ما يفدي به، فالبيع على هذا شراء، أو لا فداء فإنَّ البيع يطلق أيضا على الفداء ﴿**وَلا خِلاَلٌ**﴾ مصدر خالَّه يخالُّه بشدِّهما: اتَّخَذَه خليلا، أو جمع خُـلَّة أي صحبة بضمِّ الخاء كقلَّة وقلال، لا اصطحاب ينتفع به في ذلك اليوم بالشفعة، فإنَّه يوم لا نفع فيه إلاَّ بما قدَّم في الدنيا من نحو صلاة وإنفاق لوجه الله ﷻ ، وكما نفيت الخلَّة هنا وفي سورة البقرة [آية ٢٥٢] نفيت في قوله تعالى: ﴿الاَخِلآَّءُ يَوْمَئِذٍ...﴾ (سورة الزخرف: ٦٧) لأنَّ المراد الأخلاَّء في الدنيا تنتفي خلَّتهم في الآخرة وتستحيل عداوة.

﴿اِ۬للَّهُ اُ۬لذِے خَلَقَ اَ۬لسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضَ وَأَنزَلَ مِنَ اَ۬لسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ اَ۬لثَّمَرَٰتِ رِزْقاٗ لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اُ۬لْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِے اِ۬لْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اُ۬لَانْهَٰرَۖ ۝٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ اُ۬لشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اُ۬ليْلَ وَالنَّهَارَۖ ۝٣٣ وَءَاتِيٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۖ وَإِن تَعُدُّواْ

نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾

أدلّة وجود الله وتوحيده في الكون والأنفس

﴿ا لله الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ﴾ ا لله هو الخالق لذلك وما بعده، فكيف يعبد غيره؟ ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب ما علاك فهو سماء، أو من السماء المقابلة للأرض وهو بعيد، أو تارة من هذه وتارة من السحاب، تكون على جبل وفي أسفل منك سحاب ماطر، ويقال: ينزل من السماء إلى السحاب كما ينزل جبريل في لحظة أو ينزل الماء بتدريج فيظهر لنا حين أراد ا لله.

﴿فَأَخْرَجَ﴾ الفاء للترتيب دون اتِّصَال هنا، وهي سَبَبيَّة أو مضت مدَّة فأخرج، أو الاتِّصَال في كلِّ شيء بحسبه، فمقدار المعتاد في الإخراج بعد الإنزال اتِّصَال ﴿بِهِ مِنَ الثَّمَرَٰتِ﴾ حال من قوله: ﴿رِزْقًا﴾ رزقا هو الثمرات أو بعض الثمرات ﴿لَّكُمْ﴾ متعلّق بـ«أَخْرَجَ» أو نعت «رِزْقًا»، والرزق: ما ينتفع به مطعوما أو مشروبا أو ملبوسا أو غير ذلك، والثمرات يشمل ثمرات الشجر، وثمرات ما يحرث، وثمرات القطن والكتان.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ﴾ سهَّل لكم صنعتها والعمل بها فلا تغرق، وهو هنا مفرد لأنَّ المفرد الأصل، ولقوله: ﴿لِتجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ و لم يقل ليجرين كما قال في الجمع: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ (سورة يونس: ٢٢) ولو احتمل الجمع وإفراد الضمير لتأويل الجماعة، لأنَّ هذا خلاف الأصل، و«ال» للحقيقة، فصدق بالجماعة كما فسَّروه بالسفن لا بالسفينة، والفلك المفرد يذكَّر ويؤنَّث، وأُنِّث هنا، ووجهه أنَّه في معنى السفينة، وقد يترجَّح الجمع هنا ويتقوَّى بالتاء، لأنَّ المفرد في القرآن ورد

مذكَّرا وهو قوله تعالى: ﴿فِي الفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ (سورة يس: ٤٠) كما أنَّث ضميره في قوله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ (سورة هود: ٤٠).

وأمره مشيئته تجري بإذن الله، وتسخيره في البحر لمصالحكم من حمل الثمار ومتاع التجر، وحمل الحيوان من بلد لآخر، وماء البحر لذلك، وما شاء الله من المنافع كاللؤلؤ.

وذكر الشراب بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ للشرب والحرث، وقد تكون فيه السفن للحمل أيضا، وتسخير إنباعها، ولولاه لم تنبع، ولو شاء لجعلها أسفل، وقد تشمل عيون الأبيار، ومن تسخيرها: تعليمه الناس استخراجها، وإجراؤها سواقي وقنوات.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ﴾ في السماء الرابعة ﴿وَالْقَمَرَ﴾ في السماء الدنيا ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ يجريان في فلكيهما على استمرار، وقيل: في أيدي ملائكة بسلاسل من نور.

والفلاسفة يثبتون لهما حركتين: الحركة الأولى اليومية من المشرق إلى المغرب الحاصلة لهما بقسر محدِّد لفلكيهما، والأخرى: الحركة الثانية وهي الحركة من توالي البروج من المغرب إلى المشرق، الحاصلة بحركة فلكيهما حركة ذَاتِيَّة، ولا يثبتون لهما حركة في الفلك كحركة الحوت في الماء. وقال ابن العربي: لهما حركة في فلكيهما، والفلك عنده مثل الماء والهواء[1].

والدأب: العادة والدوام، لا ينقطع جريهما لإزالة الظلمة، وإصلاح النبات والحيوان وإنضاج الثمار بهما، قيل: الشمس تنضجها والقمر يلوِّنها، ومعرفة الفصول

١- مراد الشيخ بالفلاسفة علماء الهيئة، وما ذكره الشيخ هو من تخمينات الأقدمين يخالف ما وصل إليه العلم حديثا، راجع كتاب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم (مع آيات الله في السماء) الفصل الخامس ص٢٠١ وما بعدها، للدكتور حسن أبو العينين.

بالشمس نهارا، والشهور بالقمر للتوقيت للديون والأشياء المؤجَّلة والحجِّ والصوم وغير ذلك. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ﴾ للسكون والراحة ﴿وَالنَّهَارَ﴾ للكسب، هذه سبع جمل صلات لـ«الذِي» متعاطفة، والجامع بينهنَّ بيان كمال قدرته وسعة نعمه على خلقه. واستدلَّ على وحدانيَّته تعالى علما وقدرة، بعشرة أَدِلَّة وزاد خلق السماوات وإنزال الماء بِأَنَّ بينهما جامعا خياليًّا وأمَّا المسند إليه **فمتَّحد سبحانه وتعالى.**

﴿وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ قدَّر بعض: وما لم تسألوه، وذلك زيادة على السبع المتقدِّمة مِمَّا لا يحصره إلاَّ الله عَجَّلَ مِمَّا سألتموهن بالفعل أو بالإمكان، فالسؤال بلسان الحال أو بلسان القال، ومنه ما بالقلب فإنَّه أعطانا ما سألناه بألسنتنا وقلوبنا أو بقلوبنا، وما لم نسأله مِمَّا احتجنا إليه، أو زيادة على حاجتنا.

و«مِنْ» للابتداء والمفعول محذوف، أي ما يليق بكم، أو للتبعيض أي شيئا هو بعض الجنس الذي سألتموه، لا من كلِّ فرد بل من كلِّ صنف، ولا إشكال، وَلَمَّا كان هذا البعض هو الأصلح بحسب الحكمة كان كَأَنَّهُ أعطانا كلَّ ما سألناه، أو أعطى هذا بعض ما سأله غيره، مثل أن تسأل شيئا قد سأله غيرك في جملة أشياء، فلم يعطه بل أعطيته أنت بحسب الحكمة وبالعكس، فقد أعطي المجموع كما سأل المجموع.

(نحو) وقد أجيز زيادة «مِن» فـ«كلّ» مفعول لـ«ءَاتَاكُمْ»، والجارُّ والمجرور محذوفان، أي آتاكم من كلِّ ما سألتموه من الله ، أو سألتموه الله، أو الهاء لله فيكون الرابط محذوفا هو ضمير الشيء المطلوب، أي سألتموه إيَّاهُ.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَآ﴾ إن تعاطيتم أو أردتم عدَّها لم تقدروا عليه، وإن ابتدأتم عدَّها لم تتمُّوه، وسواء عدُّ أنواعها أو عدُّ أفرادها كلٌّ من ذلك لا يطاق، ومن النعم منع موانعها. وإضافة النعمة إلى الله للاستغراق، ومنها الشكر يحتاج إلى شكر لأنَّه نعمة وُفِّق الشاكر إليها.

﴿إِنَّ الإِنسَانَ﴾ الحقيقة في ضمن الأفراد لا الكل الاستغراقي، لأنَّ من الناس من لم يكفر و لم يظلم كالأنبياء ومن لم يكلَّف كالأطفال، ومن عادة الناس الكفر والظلم إلاَّ أنَّ منهم من يتوب ﴿لَظَلُومٌ﴾ للنعمة بإهمال استعمالها في العبادة، وما يوصل إليها، ولنفسه بحرمانها من منافعها الدِّينيَّة وَالأُخرَوِيَّة، وبالتعرُّض لزوالها بإهمالها، ولعذاب الآخرة، والمراد: كثير الظلم وعظيمه ﴿كَفَّارٌ﴾ عظيم الكفر وكثيره، بعبادة غير الله ووصفه بصفات خلقه.

أو ﴿ظَلُومٌ﴾: في الشدَّة يشكو ويجزع، ﴿كَفَّارٌ﴾: في النعمة يجمع ويمنع، أو ﴿ظَلُومٌ﴾: لنفسه ﴿كَفَّارٌ﴾: بنعمة ربِّه، وقيل: الظلوم: الشاكر لغير من أنعم عليه، والكفَّار: الجاحد لنعم ربِّه.

وختم هنا بـ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ لتقدُّم ذكر تبديل نعمة الله تعالى، وفي النحل بقوله: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النحل: ١٨) لتقدُّم ذكر تفضُّلات، فذلك تحريض للرجوع إليه تعالى لكثرة نعمه، وعن ابن عبَّاس: الإنسان أبو جهل. وقدِّم ظلوم للفاصلة.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝٤١﴾

دعاء إبراهيم عليه السلام بعد بناء الكعبة

وذكَر بعضَ هذه النعم بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ واذكر يا محمَّد وقت قول إبراهيم لله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا﴾...الخ فإنَّ ذلك دعاء إبراهيم أبيهم لأهل هذا البلد ــ وهو مَكَّة ــ بالرزق والأمن، ونهاهم عن عبادة الأصنام، وهذا في ضمن قوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الاَصْنَامَ﴾ وقريش بنوه، ودعا لهم بإقامة الصلاة، وذكر البلد هنا بالتعريف لعهده، ونكرة في سورة البقرة عن إبراهيم [في آية ١٢٥]، وهو فيها باعتبار أنَّه قبل جعله قرية، وهنا باعتبار أنه قرية يأمن أهلها، وفيها سأل أن يكون بلدا لا يخاف أهله، وهنا أن يزال خوفهم.

فأجاب الله دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم، ولا يظلم أحد، ولا يصاد صيد، ولا يختلى خلاء فيه، أي لا يقطع حشيشه الرطب.

ما في سورة البقرة كقولك: اجعل هذا خاتما حسنا تشير إلى المادَّة، وسألت أن يسبك منها خاتما حسنا، وما هنا كقولك: اجعل هذا الخاتم حسنا فقد تعمَّدت نحو الحسن دون الخاتميَّة بإحداث حسن فيه، كصقل وجعل فصٍّ فيه، وإنَّما ذكرت الخاتم توطئة.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الاَصْنَامَ﴾ اجعلنا في جنب غير جنب عبادة الأصنام لا نتناول عبادتها، وهذا دعاء بالمجموع لا بالجميع، لأنَّ الأنبياء لا يخافون عبادة الأصنام، لعلمهم بالعصمة منها بخلاف بنيه، قبل أن يعلم بنبوءة من تنبَّأ منهم، أو اجمعنا في أن لا نعبدها، أي اجعل بني مثلي في ذلك، أو دعاء بالجميع قبل أن يعلم أنَّ الأنبياء معصومون، أو بعد علمه، لكن صدر ذلك منه دهشا لشدَّة خوف

الأنبياء، وهضما وتملّقا له، وذكرا للفضل.

وأمَّا أن يجاب بأنَّ المراد أدمنا فلا يفكُّ عن ذلك، لأنَّ الأنبياء لا يعبدونها ولا يدومون في عبادتها، وبنيهم قد يعبدونها فلم تتّحد الجهتان، ويجاب بأنّه لا مانع من قوله أدمني في مجانبتها، وأدم أولادي فيها سواء تقدَّم منهم إشراك أو لم يتقدَّم.

وقيل: المراد بنوه من صلبه وغيره الموجودون من ذريته في حياته، والمؤمنون، وتقدَّر «عن» أي أجنبنا عن أن نعبد، وإن جعلناه بدل اشتمال قدِّر «عنّا» هكذا: اجنب عبادتنا الأصنام عنّا، ومعنى عبادتنا الأصنام العبادة الممكنة، والمراد: بنوه من صلبه ومن غيره.

وليس كلُّ دعاء النبيء مستجابا وقد أخربت الكعبة بعده، وعبد بعض ذرِّيَّته الأصنام كقريش، وقد قال الله ﷻ له: ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِيَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٢٣) وأمَّا إخراب الكعبة آخر الزمان فلا يرد علينا، لأنَّ المراد ما قبل ذلك، وقد قيل: إنَّ إخرابها قبل هذا الدعاء، وإنَّما دعاؤه بعد البناء، وأيضا المراد عن أهلها لا أن لا تخرَّب.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ سألتك العصمة منهنَّ لأنهنَّ، فهذا تعليل جملي لقوله: أجنبني ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أسند الإضلال إلى السبب وحقيقته أضلَّ الشيطان بهنَّ كثيرا، أو أضلَّ الله بهنَّ كثيرا، كما ورد: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَّشَآءُ﴾ (سورة النحل: ٩٣) ﴿وَمَنْ يُّضْلِلْ فَلَن تَجِدَ...﴾ (سورة الكهف: ١٧) أو شبههنَّ بالعاقل المغوي، وأشار إلى التشبيه بإثبات الإضلال، وكان بضمير الإناث لأنهنَّ إناث كاللات والعزّى ومناة، وجمع الضمير لأنَّ الأصنام جمع قلّة لغير العقلاء، وإذا جمعت بلفظ الذكور العقلاء فباعتبار اعتقادهم عظمتها.

﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على التوحيد والعمل بمقتضاه ﴿فَإِنَّهُ, مِنِّي﴾ من أهل ديني أي

يثاب بالخير كما أثاب، ويمنع من السوء أو من أهل ولايتي أو من أهل حبِّي كأنَّه بعضي لا ينفكُّ عنِّي، في أمر الدين وأمر الآخرة.

﴿وَمنْ عَصَانِي﴾ خالفني في دينك بالشرك، التقدير: «فتاب» بدليل قوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ﴾ له ﴿رَّحِيمٌ﴾ أو غفور له رحيم بهدايته إلى دينك، وإمهاله إلى أن يتوب، وليس من حكمة الله أن يغفر الشرك أو الكبيرة مع الإصرار، أو هذا الدعاء قبل أن يعلم أنَّ الدعاء بالغفران للمشرك لا يجوز كما استغفر لأبيه.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيَ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ قال هنا: «رَبَّنَا» ولم يقل: «ربِّ» لأنَّ المدعو له هنا أكثر، كذا المدعو به هنا التوحيد وإقامة الصلاة والرزق، لأنَّه إنَّما يقيم الصلاة الموحِّد لا المشرك، والمدعو له هنالك خصوص بنيه وبني بنيه الحاضرين أو المؤمنين، والمدعو به هناك مجانبة الأصنام.

ويقدَّر مفعول، أي أسكنت ذرِّيَّة من ذرِّيَّتي، أو بعضا من ذرِّيَّتي مع سرِّيَّتي هاجر، وذلك البعض إسماعيل وذرِّيَّته، لا أولاد إسحاق وأولاد مدين، ولا إسحاق ومدين فإنَّ محلَّهما الشام ومدين، وإسكان إسماعيل إسكان لذرِّيَّته بعدُ لأنَّهم في ضمن إسماعيل وفي صلبه، ولو حدثوا بعد، ويمكن أن يكون هذا الدعاء بعد وجود بعض أولاد إسماعيل، وهو قيدار، ولم يلد إلاَّ إيَّاهُ فصحَّ التعبير بالماضي.

لم يدع إبراهيم بالتنجية من نار نمروذ حين رآهم مشتغلين بها، ولا حين ألقي إليها، وسأله جبريل: هل لك حاجة؟ أو قال له: ادع الله، فقال: قد علم حالي مع شدَّة، ودعا للإسلام لقوَّة رغبته في الدين، فمازال مترقِّيا في أطوار الكمال.

﴿بِوَادٍ﴾ في واد ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ هو وادي مكَّة، لأنَّه لا ينبت لكثرة حجارة أرضه ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ المعظَّم الممنوع من الخراب، الذي لا تحلُّ إهانته، ولم يستول عليه الطوفان بل أعتقه الله منه ومن كلِّ جبار، وكان من آدم

أو من الملائكة فكان يسمَّى عتيقا لقدمه، أو لنجاته من التلف ولو اندرس، وبعد اندراسه سمَّاه بيتا باعتبار ما كان عليه، أو باعتبار ما سيكون لأنَّه بناه بعد هذا الدعاء لأنَّه أسكن ابنه إسماعيل مع أمِّه هاجر قبل بناء الكعبة.

ويجوز أن يكون هذا الدعاء بعد ما شبَّ إسماعيل وبعد بنائهما الكعبة بل ذلك قولان مرويان، ولا بدَّ أنَّ الله أبان أرسام البيت، وكذا الكلام في كونه محرَّما مع أنَّه اندرس.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ عند بيتك المحرَّم، هذا دعاء كما مرَّ، وهو من أمر الغائب، أمرهم ودعا الله أن يوفِّقهم لإقامة الصلاة، ويجوز أن تكون اللام تعليليَّة متعلِّقة بـ«أَسْكَنتُ» أي أسكنتهم في واد لا ماء فيه ولا ثمار ولا نبات لإقامة الصلاة عند البيت، وكرَّر النداء ووسطه في دعائه، لأنَّ مقصوده بالذات إقامة الصلاة عند البيت، والحرم كلُّه عند البيت.

ذكر أنَّ الوادي غير ذي زرع فعلم أنَّه لم يسكنه للزرع بل للعبادة المدلول عليها بذكر البيت المحرَّم، التي هي أفضل العبادات، وهي إقامة الصلاة، فكأنَّه قال: ما أسكنته إلاَّ لها، ولا يلزم التفسير بهذا الحصر، اللهمَّ إلاَّ إضافيًّا إلى الزرع، فإنَّه قصد أيضا مناسك الحجِّ وغيرها فلا حاجة أيضا إلى تعليق اللام بـ«أَسْكَنتُ»، مؤخَّرا للحصر.

﴿فَاجْعَلَ اَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ﴾ قلوبا، جمع قلَّة أريد به الكثرة إلاَّ أنَّها قليلة بالنسبة، وسواء جعلنا «مِنَ» للتبعيض أو للابتداء، كأنَّه قال: أفئدة ناس، أو أفئدة من أفئدة الناس، بخلاف ما لو قال: أفئدة الناس فإنَّه يعمُّ، فيزدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والمجوس كما قال سعيد بن جبير عن ابن عبَّاس: لأنَّ دعاءه مستجاب.

﴿تَهْوِي﴾ تميل بسرعة **﴿إِلَيْهِمْ﴾** لا لذاتهم بل لزيارة البيت، وذلك دعاء من إبراهيم للمؤمنين بأن يرزقهم الله الحجَّ، ولسكَّان مكَّة من ذرِّيَّته بالرزق مِمَّن

يأتيهم من الناس ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أجاب الله دعاءه فنقل إليها الطائف من الشام، وجعله حرما آمنا تجبى إليه ثمرات كلِّ شيء، حتَّى قيل: إنَّه تجتمع فيه فواكه الفصول في يوم واحد.

(قصص) ويروى أنَّ جبريل قلع أرضا من فلسطين ذات ثمار فطاف بها سبعا على البيت، ووضعها قريبا من مكَّة، فسمِّيت طائفا، وذلك لدعوة إبراهيم بقوله: ﴿وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ عموما في دعائه ولا قصد له في الطائفة ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ نعمك.

(قصص) جاء بابنه إسماعيل وهو يرضع وسريَّته هاجر من الشام، وأنزلهما أرض مكَّة مع جراب تمر وسقاء ماء، ولا بناء بها ولا أنيس ولا ماء ولا شجر، وأدبر عنهما ومضى، وقالت رضي الله عنها مرارا: كيف تتركني هنا؟ ولم يلتفت إليها فقالت: آلله أمرك؟ فقال: نعم، فقالت: إذا لا يُضيِّعني، وذلك بعد نار نمروذ، وقبل ولادة سارة إسحاق، ولَمَّا علا الثنيَّة بحيث لا تراه رفع يديه إلى السماء مستقبلا فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيَ أَسْكَنتُ...يَشْكُرُونَ﴾ وعطشا بعد نفاد السقاء، فسارت إلى الصفا وعلته لعلَّها ترى أحدا، وذهبت إلى المروة كذلك، وتردَّدَت بينهما سبعا، فكان الطواف بينهما سبعا، وسمعت صوتا فتبعته فإذا ملك عند ابنها في محلِّ زمزم، وهو جبريل فضرب جبريل بعقبه أو جناحه موضع زمزم فنبع، وشربا، وكانت تحوط عليه، فقال الملك لا تخافي عليه فإنَّ هذا المقام يعمره ابنك ويبني هو وأبوه هنا بيتا لله ﷻ.

ومرَّ بهم قبيلة من جرهم ذاهبين إلى الشام، وعطشوا أو نزلوا ورأوا طيورا ترفرف، فقالوا: لا تفعل ذلك إلاَّ على الماء، ولا ماء هنا! فأرسلوا رجلا فوجد الماء فأخبرهم وطلبوا النزول معها على الماء على أن يشركوها في ألبانهم، فقالت: نعم، وقد احتاجت إلى أنيس وشرطت أن لا حقَّ لهم في الماء إلاَّ الانتفاع، فأنعموا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا، ولَمَّا شبَّ إسماعيل تعلَّم منهم العَرَبيَّة ففاقهم وأعجبهم

وتزوَّج منهم ثمَّ ماتت أمُّه.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ من حزن القلب وبكاء العين، وأحوالنا ومصالحنا، وأرحم بنا منّا لأنفسنا:

وأرحم بي منّي لنفسي وأرف فما جزعي مِمَّا أصاب وما عذري؟

لكن ندعوك توحيدا لك إذ لا قاضي حاجة سواك ولا أرحم منك، واستعجالا لنيل ما عندك، فمن شأن الإنسان العجلة ولو كان الأولى تركها، وجبرا لِمَا نالني من مفارقتي لولدي الرضيع وأمِّه السريَّة الموافقة لي دينا ودنيا المطيعة لك، وإظهارا للتضرُّع والتوكُّل فإنَّك المرجو ظاهرا وباطنا ورجاء لأن تحييهما في واد غير ذي زرع، وتخفيفا للحزن المتمكِّن في قلبي على ذلك، واستنجازا لقولها: «إذًا لا نخشى، تركتنا إلى كافٍ» حين قلت لها ا لله أمرني بذلك[1]، وكرَّر النداء للمبالغة في التضرُّع.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ا للهِ مِن شَيْءٍ فِي الاَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ﴾ لأنَّ علمه لنفسه لا بتعلُّم وحدوث، وما بذلك لا يتغيَّر. و«مِنْ» للاستغراق تصريحا، ولو كان بدون «مِنْ» لكان ظاهرا لا تصريحا إلاَّ بعلمنا من خارج أنَّه لا يخفى عليه شيء مَّا، وقيل: النكرة في سياق السلب تَعُمُّ تصريحا لا ظهورا فقط، ولو لم تدخل عليها «مِنْ» الزائدة.

وذلك من كلام إبراهيم على الصحيح لأنَّ ما قبله وما بعده من كلامه، وقيل: من كلام ا لله ﷻ معترض، ولا سيما أنَّ بين الكلامين مدَّة، وعلى الأوَّل الأصل: «وما يخفى عليك»، ووضع الظاهر موضع المضمر قصدا إلى ذكره تعالى باسمه الأعظم، الذي يستجاب به، التفاتا من الخطاب إلى الغيبة، وعلى الثاني الأصل:

١- لا يخفى عليك أنَّ هذا الكلام أورده الشيخ رحمه ا لله على لسان إبراهيم عليه السلام مناجاة ودعاء لله تعالى.

«وما يخفى عليَّ من شيء في الأرض ولا في السماء»، على الالتفات السكّاكي، من التكلُّم إلى الغيبة، اعترض به تصديقا لكلامه قبل تمامه.

وقدَّم «الأرض» للفاصلة، ولأنَّ الداعي والمدعو له في الأرض، وليكون علمه بما في الأرض كالبرهان لعلمه بما في السماء، والأمكنة عنده سواء، فإذا علم ما في الأرض فعلمه بما في السماء أولى بحسب بادئ الرأي، لأنَّها في جهة محلِّ اللوح والوحي، وهو متنزِّه عن الحلول.

﴿**الْحَمْدُ للهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ**﴾ «عَلَى» للاستعلاء مجازا، أو بمعنى "مع". ﴿**إِسْمَاعِيلَ**﴾ لتسع وتسعين سنة من عمري ﴿**وَإِسْحَاقَ**﴾ لمائة واثنتي عشرة، وقيل: إسماعيل لأربعة وستّين، وإسحاق لتسعين، وعن سعيد بن جبير: ما ولد إبراهيم إلاَّ بعد سبع عشرة سنة [من دعائه].

وهذا حمد لله عَجَلَّ على نعمة التوليد في غير أوانه، وليس هذا من الدعاء فضلا عن أن يعترض بأنَّه لا يصحُّ، لأنَّ إسحاق حين الدعاء غير موجود، لأنَّه عند وضع هاجر وإسماعيل عند البيت، وإسحاق ولد بعد ذلك، فكيف يقول: الحمد لله الذي وهب لي إسحاق؟. وقد يكون الدعاء والحمد بعد ولادة إسحاق، وروي أنَّه لَمَّا وضعها وابنها استقبل الكعبة ودعا، أي استقبل موضعها.

﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَآءِ**﴾ عالم به أو قابل له، أو دعاؤه قابل أو عالم، كحسن الوجه بالإضافة، لكن على الإسناد المجازي، بأن نقل إلى فعل بالضمِّ فهو لازم، أو نزِّل بمنزلة اللازم فساغت منه الصفة المشبِّهة.

(نحو) بل أجاز الفارسيُّ صوغها من المتعدِّي لكن شرط في إضافتها إلى الفاعل عدم اللبس بإضافتها إلى المفعول، وهنا لبس، وأجيب بأنَّ عدم اللبس يشترط في إضافته إلى الفاعل على القطع، وهنا ليس كذلك لاحتمال المفعول والفاعل، فإذا أريد المبالغة يختار الحمل على إضافته إلى الفاعل بالتأويل

المذكور، وإلاَّ فإلى المفعول.

دعا الله في الولد فوهبه، وذلك من أجلِّ النعم، لأنَّه في غير أوانه كما أشار إليه بذكر: «سَمِيعُ الدُّعاء» كأنَّه قال: سألته فأعطاني لأنَّه سميع الدعاء، وقد قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة الصافات: ١٠٠).

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ﴾ بشروطها وشطورها والدوام عليها، [قلت:] **وترك الدوام عليها غير إقامة لها**، فالدوام عليها إقامة لها حقيقة كشطورها وشروطها لا مجاز، فليس في ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز، أعني أنَّها حقيقة عرفيَّة شَرعِيَّة، كما أنَّ إطلاق الإقامة في شطورها وشروطها حقيقة كذلك، والإقامة في اللغة: تقويم الجسم كالعود ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ «مِنْ» للابتداء ولا استغراق فيه، فيصدق بما إذا جعل بعض ذرِّيَّته، كما إذا جعلت للتبعيض.

والتقدير: واجعل قوما من ذرِّيَّتي مقيمي الصلاة، ولو عطف على الياء لقيل: مقيمي الصلاة، بالجمع إلاَّ على طريق العطف على معمولي عامل، أي اجعلني مقيم الصلاة وقوما من ذرِّيَّتي مقيمها، والتبعيض لعلمه بالوحي أنَّ من ذرِّيَّته كفَّارا، أو باستقرائه أنَّ الأمم لم تخل من كفَّار.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ ما زال يكرِّر ذكر الله مبالغة في التضرُّع، والمراد: الدعاء المذكور، أو المقصود بالدعاء هنا العبادة فلا تكرير، أو قوله: «رَبَّنَا» متعلِّق بقوله: «وَمِن ذُرِّيَّتِي» فلا تكرير أيضا، وكذلك إن أريد الدعاء الماضي والآتي فلا تكرير.

ومن الآتي قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ هذا قبل أن يعلم بالعصمة فخاف صدور الذنوب منه بعدُ، أو خاف أن يكون قد أذنب ولم يعلم، أو اغفر لي ما فعلته أو أفعله من مكروه، أو ما لا ينبغي، أو ما لا يعدُّ في حقِّ الأنبياء، ويعدُّ في حقِّ غيرهم، أو **تضرُّعا وتعظيما لله** ﷻ **وهضما لنفسه** ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ قاله

قبل أن يعلم أنَّ أباه شقيٌّ، أجاز الله الدعاء بالمغفرة لاحتمال أنَّه يتوب، وقد علم الله أنَّه لا يتوب، ثمَّ بيَّن الله له أنَّه لا يتوب، ونهاه عن الاستغفار له، وأمَّا أمُّه فقيل: آمنت وقيل: لم تؤمن، وقالت الشيعة: أبواه مؤمنان وأبوه الكافر جدُّه لأمِّه أو عمُّه، وقيل: إنَّ أمَّه مؤمنة وإنَّ أباه نوح، ويبعد ما قيل: إنَّه أراد بوالديه آدم وحوَّاء، وقيل: أراد أباه وأمَّه على شرط التوبة، أو أراد بالمغفرة سببها وهو الإسلام، كأنَّه قال: اللهمَّ أهدهما للإسلام، كما تقول الأنبياء: اللهمَّ اهد قومي، ويبحث بأنَّه لو كان كذلك لزم نسخ جواز «اللهمَّ اهدِ قَوْمِي» لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ...﴾ (سورة التوبة: ١٤٤) يجاب بأنَّ الاستغفار على هذا لا يجوز، ولو أريد به طلب الهداية فيجوز: «اللهمَّ اهده»، ولا يجوز «اللهمَّ اغفر له»، ولو أريد به الهداية، وفي ذلك جمع بين الحقيقة والمجاز، أو يقدَّر: واغفر لوالديَّ، أو من عموم المجاز.

﴿وَلِلْمُومِنِينَ﴾ عمَّم بعد تخصيص نفسه وذرِّيَّته، وقدَّم نفسه لأنَّ ذلك هو الأحقُّ، وأمَّا ذرِّيَّته ففي دعاء آخر، وخصَّها لأنَّها أحقُّ كنفس الإنسان، ولأنَّ إيمان ذرِّيَّته سبب لإيمان الأتباع، قال الشعبيُّ: ما يسرُّني من دعوة نوح وإبراهيم عليهما السلام للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم.

(بلاغة) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ يثبت، شبَّه ثبوته بالقيام على القدمين، وجعله من جنسه تأكيدا للمعقول بالمحسوس، فاشتقَّ منه على الاستعارة التبعيَّة «يَقُومُ» بمعنى يثبت، أو شبَّه الحساب بالإنسان ورمز إليه بلازم الإنسان وهو القيام على القدمين، الذي إثباته تخييليَّة لهذه المكنية المرموز إليها، ووجه الشبه الظهور والتشدُّد إلى شيء، أو يقدَّر مضاف أي يوم يقوم أهل الحساب إلى الحساب، أو أهل الحساب إليه، فحذف وأسند القيام إلى الحساب مجازا عقليًّا.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾

عاقبة الكفّار وأحوال يوم القيامة

﴿وَلاَ تَحْسِبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ كفّار مكّة فيدخل غيرهم بالقياس وبالنصوص الأخر، أو الكُفّار مطلقا، فيدخل كُفّار مكّة بالأولى وبالذات، شبَّه ترك العقاب عاجلا بغفلة الإنسان لجامع عدم العمل في شيء، وذلك أنَّ الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور، أو سهو يعتريه من قلّة التحفّظ والله ﷻ متنزِّه عنهما.

فالمعنى: إنَّ الله ﷻ لا يترك الانتقام من الظالم للمظلوم، فالآية تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، ولا يجوز أن يكون المعنى: لا تحسبنَّ الله يعاملهم معاملة الغافل، لأنَّ الله قد عاملهم بها فلا ينهى عن حسبانها، إلاَّ أن يراد الغافل الذي لا ينتبه بعد، وعلى كلِّ حال لا يصدر ذلك منه ﷺ فكيف يُنهى عنه؟ مع أنَّه أعلم الناس بما يحال في حقِّ الله ﷻ وبما يجب، الجواب: أنَّ المراد التهييج على قُوَّة الثبات على ترك الحساب.

أو الإخبار بأنَّه لا يغفل وأنَّه رقيب يعاسرهم في الحساب، أو الخطاب لغيره ﷺ مِمَّن يمكن توهُّم الغفلة منه، أو لمن جرى الظلم بينهما، فهو نهي للمظلوم ليتسلَّى، وللظالم ليرتدع ﴿إِنَّمَا يُوَخِّرُهُمْ﴾ يؤخِّر عقابهم، وأسند التأخير إليهم مع أنَّه للعقاب تهويلا عليهم، هم مؤخَّرون لأمر مهول ﴿لِيَوْمٍ﴾ لأجل يوم يستحقُّ أن يكون العقاب فيه أو إلى يوم.

﴿تَشْخَصُ فِيهِ الاَبْصَارُ﴾ ترتفع عن قدَّامها إلى فوق وجوانب، فهي تتحرَّك أيضا في داخلها، أو تفتح وتلزم النظر في موضع واحد، والجملة نعت «يَوْمٍ»، و﴿الاَبْصَارُ﴾: أبصار الظالمين، فـ«ال» للعهد أو للحقيقة يراد بها، لا للاستغراق، لأنَّ المقام ليس له، إلاَّ أن يقال: المراد يشخص فيه كلُّ بصر للهول فكيف ينجو هؤلاء من الشخوص مع ظلمهم؟، ولا نسلِّم أنَّ أبصار المؤمنين لا تشخص فإنَّه يوم شديد على كلِّ أحد.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى جهة الداعي في صخرة بيت المقدس إلى المحشر، وهو إسرافيل [يقول:] «أيَّتها العظام البالية والأوصال المتقطِّعة، واللحوم المتمزِّقة، والشعور المتفرِّقة، إنَّ الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء». أو المراد: مقبلين بأبصارهم لا يطرفون بها خوفا وإجلالا، وهذا مجاز، والأصل الإقبال بالذات.

وقيل: أصل الإهطاع الإقبال على الشيء، فإطلاقه على الإسراع أيضا مجاز أو حقيقة عرفيَّة. والنصب على الحال من هاء محذوفة عوِّض عنها «ال»، أو مجرورة بحرف، أي بأبصارهم، أو الأبصار لهم أو منهم، أو يقدَّر: «يبعثون مهطعين».

﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ حال ثان ممَّا مرَّ، أو من ضمير «مُهْطِعِينَ»، أو من «الأَبْصَارُ» مبالغة بأنَّها كعاقل حتَّى جمعت جمعه، ووصفت بارتفاع الرأس نفسه، كما مَرَّت المبالغة بأنَّ الدعاء قابل أو عالم، وإضافته لَفظِيَّة، لأنَّه وصف للحال أو للاستقبال فصحَّ حاليَّته، ولو أضيف لمعرفة. والإقناع: رفع الرأس بجملته فلا يتكرَّر مع رفع العين إذا فسَّرنا به ﴿تَشْخَصُ﴾، وقيل: الإقناع خفض الرأس، فهو من الأضداد.

﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ حال ممَّا مرَّ، أو من ضمير «مُقْنِعِي» أو من الهاء لا بدل من «مُقْنِعِي» لأنَّه لا تبدَّل جملة من مفرد، أو هو مستأنف. و«يرتدُّ» مطاوع ردَّ، أي لا يردُّون أبصارهم فلا ترتدُّ، أي لا ترجع. والطرف: العين، والمراد الجمع، وسوَّغ ذلك الإضافة إلى ضمير الجمع، أو أفرد لأنَّه مصدر في الأصل، أو المراد المصدر، أي لا يرجع إليهم نظرهم من الموضع الذي تنظر فيه العين إلى أجسادهم.

﴿وَأَفْـئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ اسمِيَّة موجبة عطفت على فِعلِيَّة سالبة، أو حال ممَّا مرَّ، أو من إحدى الهاءين، ومعنى هواء خلاء، وكلُّ خال هواء، أي خالية عن الفهم والتفكُّر، وعن جريان التكليف للأمور لشدَّة الدهش، أو خالية عن الخير، أو عن العقل، أو تهوي في أجوافهم ليس لها مكان تستقرُّ فيه، **أو [كأنَّ] القلوب يومئذ زائلة عن أماكنها، والأبصار شاخصة والرؤوس مرفوعة إلى السماء لشدَّة الهول.**

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ﴾ أنذر يا محمَّد الناس: قومك وغيرهم، أي أخبرهم بما يخافون، وهو متعدٍّ لاثنين: الثاني هو قوله: ﴿يَوْمَ﴾ على حذف مضاف، أي أنذر الناس

هول يوم ﴿يَاتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي عرِّفهم هوله الآن ليعملوا له، وهو يوم القيامة، أو يوم الموت فإنَّه أوَّل وقت عذابهم ﴿فَيَقُولُ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من أهل مَكَّة وغيرهم.

﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ عن العذاب، أو أخِّر عذابنا لننجو منه أبدا، بأن تردَّ الدنيا وأموالها وبناءها وتكليفنا فيها، وتمهلنا فيها ولو مدَّة قليلة، أو تحضر لنا ذلك في مقامنا هذا فنستدرك ما فات ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ مدَّة من الزمان قصيرة، مقدار ما نقضي ما ضيَّعنا، أو مقدار آجالنا السابقة في الدنيا، فإنَّها قليلة ولو طالت، أو هذا يوم الموت لا يوم القيامة إذ أيقنوا بالعذاب حين الموت ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ دعاءك السابق لنا في الدنيا إلى التوحيد، والعمل الصالح والتقوى ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ هذا كالنعت الكاشف، لأنَّ من أجاب الدعوة فقد اتَّبَعَ الرسول، وإجابة الدعاء اتِّبَاع للرسل، أو ﴿نَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فيما توحي إليهم أيضا زيادة على ما مضى.

﴿أَوَ لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ أي في الدنيا ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ يقول لهم الملائكة أو الملك الواحد كجبريل، أو يخلق ا لله الكلام في آذانهم أو قلوبهم، أو قول حال.

ويتبادر هنا أن لا يقدر كلام بين الواو والهمزة لأنَّا إذا قدرنا: أتمنَّيتم التأخير؟ أو أطلبتم التأخير؟ يبقى «لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم» نفيا وإخبارا مع أنَّ المراد به الإثبات بالاستفهام التوبيخي، أو التقريري، فإنَّهم مقسمون ما لهم من زوال، وساكنون في مساكن الذين ظلموا لا غير ساكنين، وهكذا...

وإن قيل: انسحب على ذلك تمنِّيهم التأخير على معنى: تمنَّيتم التأخير، أو طلبتموه وتمنَّيتم أنَّكم «لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم...» فبأيٍّ لفظ يفاد هذا أبمذكور أو بمحذوف؟ نعم ينسحب التوبيخ بتقدير: «ألم تؤخَّروا في الدنيا و لم تكونوا أقسمتم».

والمراد: الزوال عن الموت، أو عن قبورهم بالبعث، كما قال ا لله ﷻ عنهم ﴿وَأَقْسَمُواْ بِا للهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ ا للهُ مَن يَّمُوتُ﴾ (سورة النحل: ٣٨) وهذا أنسب بأنَّ اليوم يوم القيامة، أو الزوال عن الدنيا بالموت، علموا أنَّهم يموتون لكن يقولون بطرا: لا نموت، أو حالهم حال من يعتقد أنَّه لا يموت، إذ أملوا بعيدا وبنوا مشيدا ﴿يَحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ, أَخْلَدَهُ﴾ (سورة الهمزة: ٣).

يقول أهل النار: ﴿رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ...﴾ (سورة غافر: ١١) فيجيبهم ا لله ﷻ : ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ, إِذَا دُعِيَ ا للهُ وَحْدَهُ...﴾ (سورة غافر: ١٢)، ثُمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا...﴾ (سورة السجدة: ١٢)، فيجيبهم ﷻ : ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ...﴾ (سورة السجدة: ١٤) ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰ أَجَلٍ...﴾، فيجيبهم: ﴿أَوَ لَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ...﴾، ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا...﴾، فيجيبهم: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ...﴾ (سورة فاطر: ٣٧)، ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا...﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٧)، فيجيبهم تبارك وتعالى: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ...﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٨)، فهذه خمسة أدعية وخمسة أجوبة لا جواب لهم بعدها، ولا يَتكَلَّمُون بعدها إلاَّ نباحا وزفيرا، [قلت:] وذلك الترتيب عندي والعدد لا يتعيَّنان، ولو تمَّ الأخير. أعاذنا ا لله الرحمن الرحيم ببركة ما هو الاسم الأعظم الذي لا يردُّ الداعي به من ذلك.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي، كعاد وثمود، وهذا يقوِّي أنَّ الناس عامٌّ لا قريش خاصَّة، لأنَّ قريشا لم يسكنوا منازل عاد وثمود، فهذه السكنى لغيرهم، والكلام على المجموع فيها لا على الجميع، اللهمَّ إلاَّ أن يقال: سكنها أوائل قريش، أو أريد بالسكنى ما يشمل مبيتهم فيها، أو نزولهم مطلقا فيها حين السفر.

والجملة معطوفة على «أَقْسَمْتُمْ»، فالاستفهام منسحب عليها، وكذا ما بعدها كأنه قيل: «ألم تكونوا سكنتم؟ ألم تكونوا تبيَّن لكم؟... ألم تكونوا ضربنا لكم الأمثال؟».

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ فاعل «تَبَيَّنَ» ضمير مستتر عائد إلى الحال، أو الفعل المدلول عليه بـ«فَعَلْنَا»، فعل الله الهلاك والعذاب، وإخراب المنازل كما تشاهدونها في أسفاركم، وتسمعون في الأخبار، وقال الكوفيُّون: كيف فعلنا بهم فاعلُ «تَبَيَّنَ».

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ﴾ بيَّنا لكم في القرآن أخبارا عن الأمم السابقة شبيهة بالأمثال في الحسن والغرابة، من الجزاء على أفعال، وفي الغرابة من أفعالهم والجزاء عليها بأنواع الهلاك.

فـ«الأمثال» استعارة تصريحيَّة، شبَّه الأفعال والجزاء عليها بالأمثال المضروبة، أو بيَّنَّا لكم أمثالكم في الكفر والعقاب، وهم الأمم السابقة والأوَّل أولى.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ استخرجوا مكرهم من أنفسهم، ولم يبقوا منه شيئا في مضرَّة رسول الله ﷺ، بالقتل أو التقييد أو الإخراج ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٠) لإبطال الحقِّ، وإظهار الباطل، ودلَّ على استفراغ مكرهم التأكيد بالمصدر المضاف إليهم إضافة استغراق.

﴿وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ بالنبيء والدين معلوم، أي عند الله جزاء مكرهم، أو مكرهم عنده ومكتوب، فيجازيهم عليه، فإضافة «مكر» للهاء إضافة للفاعل كالسابق واللاحق، أو عند الله جزاء بمكره لهم، فالإضافة للمفعول، أو يمكر بهم بإبطال مكرهم.

والمكر في هذا متعدٍّ لتضمُّنه معنى الضرِّ أو الجزاء، أو تقدَّر الباء، أي مكر بهم،

وتسمية الجزاء مكرا استعارة ومشاكلة، وقيل: المكر في ذلك كلّه بمعنى الكفر كقوله ﷻ : ﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الاَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا اَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ (سورة مريم: ٩٠-٩١).

﴿**وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ**﴾ «إن» مخففة، واللام للتعليل في قوله: ﴿**لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ**﴾ لعظمه وشدّته، ولكن لم تزل، أي معدًّا لإزالة الجبال المستعار لفظها للمعجزات والآيات لجامع الثبات، أي أعدُّوا مكرا عظيما لدفع الحقِّ الذي هو كالجبال، ويجوز أن يكون شرطا وَصْلِيًّا أغنى عن جوابه قوله: ﴿وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي عند الله مكرهم يجازيهم، ولو كان مكرهم عظيما معدًّا لإزالة ما هو عظيم، واللام للتعليل.

أو المراد: المقاربة لزوال الجبال الحقيقيَّة مبالغة بالتشبيه البليغ، بحذف أداة التشبيه، فيكون كقوله: ﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الاَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ (سورة مريم: ٩٠) ؛ وقيل: نافية، واللام لام الجحود، أي وما مكرهم تزول منه الجبال، بل هو هيِّن كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ (سورة الأنفال: ٣٣) والجبال في هذا على حقيقتها، أو مراد بها الحقُّ العظيم، وهو المعجزات والآيات.

﴿**فَلاَ تَحْسِبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ**﴾ إذا تقرَّر أنَّ مكرهم مكتوب عند الله، وأنَّه مجازيهم عليه، وأنَّ مكرهم لا يزول به ما هو كالجبال، وهو دين الله ﴿فَلاَ تَحْسِبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ وأنت من رسله فلا يخلف وعدك بالنصر ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ (سورة غافر: ٥١) ، ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيَ﴾ (سورة المجادلة: ٢١) . و«وَعْدِهِ» مفعول ثان قدِّم الوعد وأضيف إليه «مُخْلِفَ» تخفيفا، وإنَّما قدِّم على طريق الاعتناء به، وأنَّه المقصود بالإفادة، كما قدَّم «شركاء» على «الجن» في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ للهِ شُرَكَآءَ الْجِنَّ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٠) لأنَّ الاعتناء بذمِّ الإشراك أقوى من ذمِّ من يجعلونه شريكا، وأَدْخَلُ في القصد بالإفادة، كذلك نفي

خلف الوعد أدْخلُ في القصد من كون المخلف رسله، لأنَّ عدم خلفه نفي لصفة الذمِّ عنه فهو أحقُّ مطلقا، فيتفرَّع أنَّه في حقِّ الرسل أولى من غيرهم، والمفعول الأوَّل في غير باب ظنَّ هو الذي هو فاعل في المعنى، والرسل يأخذون الوعد فهم المفعول الأوَّل، وأولى من هذا أنَّ الأوَّل هو الوعد لأنَّه الفاعل لأنَّه المتخلِّف.

﴿**إنَّ ا للهَ عَزِيزٌ**﴾ غالب لا يغلبه مكر ماكر، ولا يدفع عمَّا أراد ﴿**ذُو انتِقَامٍ**﴾ من أعدائه الظالمين لأوليائه المظلومين.

﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الاَرْضُ غَيْرَ الاَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**﴾ اذكر يوم، أو هو ظرف متعلِّق بـ«انتِقَامٍ» أو بدل من «يَوْمَ» المتقدِّم، أو متعلِّقٌ بـ«مُخْلِفَ»، و«تُبَدَّلُ» متعدٍّ لاثنين، أي تصير هذه الأرض غيرها، تزال وتجعل مكانها أرضا من فضَّة فيكون التبديل من تحت الأرجل، فلا يقال: أين يكون الناس؟.

والسماوات غير السماوات فحذف تذهب، ويجعل في موضعهنَّ سماوات من ذهب كما روي ذلك عن عليٍّ، وروي عن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يعص ا لله عليها، كما تقول: بدِّلت الدنانير بالدراهم، فذلك تبديل ذات، ومنه: ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ (سورة النساء: ٥٦) ، ويجوز أن يراد تبديل الصفة كما قال ﷺ : «**تبدَّل الأرض غير الأرض، تمدُّ مدَّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا**»[1]، وذلك أن تندكَّ الجبال، وتزال الأشجار وتسوَّى، وأما السماوات فتكوَّر شمسها وقمرها، وتتناثر نجومها، وكونها تارة ﴿كَالْمُهْلِ﴾ (سورة المعارج: ٨)، وتارة ﴿كَالدِّهَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٣٦) .

﴿**وَبَرَزُواْ**﴾ ظهروا من قبورهم، أي ويبرزون للجزاء على أعمالهم، والعطف على «تُبَدَّلُ» ولتحقُّقه قال: ﴿بَرَزُوا﴾ بالفعل الماضي. ﴿ **للهِ**﴾ لأجل جزاء ا للهِ، لا

١- أورده **القرطبي** في تفسيره، ج٩، ص٣٨٣. وابن كثير في تفسيره، ج٢، ص٢٩٦. من حديث ابن عبَّاس.

لله، لأنَّه لم يخفوا عنه في قبورهم ﴿الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ فالأمر أشدُّ ما يكون لأنَّه إذا كان الأمر لواحد غالب قهَّار ولا سيما من لا تبدو له البدوات لا يطمع أحد في خلاف ذلك الأمر، ولا يستغيث بغيره، وهو لا يخلف الوعيد.

ولو كان له شريك فيه لاختلفا فيضعف فيطمع، وكذا لو كان غير غالب، ولو كان تبدو له لرجع عنه لخوف أو لعاقبة أمر أو لرقَّة، **تعالى الله عن ذلك، ولا مغيث سواه** ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (سورة غافر: ١٦) . ﴿**وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الاَصْفَادِ**﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح لأن يَرى، وهو للاستقبال، وهو أولى من أن يقال للحال استحضارا لحال المجرمين، كأنَّه يشاهدها الآن، لعدم تبادر ذلك، مع أنَّ الأصل في القصَّة الاستقبال لأنَّها مستقبلة. والعطف على «تُبَدَّلُ».

ومقتضى الظاهر: «وتراهم»، على أنَّ واو «بَرَزُواْ» لِلكُفَّارِ فوضع الظاهر موضع الواو تصريحا بموجب التقرين في الأصفاد وما بعده، وهو الإجرام.

وإن رددنا واو «بَرَزُواْ» للناس كلِّهم فالظاهر في محلِّه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بمعنى إذ برزوا كأنَّه واقع لتحقُّقه، أو إذ يبرزون استعمالا لـ«إذ» في الاستقبال مجازا.

والصَّفَدُ بفتحتين: ما يربط به اليدان، أو مع الرجلين، أو مع العنق، يقرن كلُّ كافر مع شيطانه أو مع من شاركه في الاعتقاد الزائغ، أو العمل، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ (سورة التكوير: ٧) أو مع ما اكتسب من العقائد الزائغة والعمل، أو قرنت أيديهم وأرجلهم وأيديهم وأعناقهم، أو ذلك كلُّه.

والإسناد على هذا وعلى الأوَّل مجاز، لأنَّ الأصل أن يقرن مع غيره لا في نفسه، وشدِّد للمبالغة كمًّا لكثرة المقرونين، وكيفًا للتضييق في القرن، و«فِي الاَصْفَادِ» متعلِّق بـ«مُقَرَّنِينَ»، لأنَّهم أدخلوا في القيود والأغلال بربطهم بها، أو حال من ضمير «مُقَرَّنِين»، أو حال ثان لـ«الْمُجْرِمِينَ» ويدلُّ للأوَّل قوله تعالى:

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (سورة الحاقَّة: ٣٢).

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ جمع سربال وهو اللباس ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ الجملة مستأنفة، أو حال مِمَّا ذكر، أو من المستكن في «فِي الاَصْفَادِ» إذا جعل حالا. يطلون بالقطران حتَّى كأنَّه لباس لهم لسواده، ونتنه ولدغه، وإسراع النار فيه، وهو أشدُّ ريحا من قطران الدنيا ولدغا ولونا واشتعالا.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ وقلوبهم، ولا سيما غيرها، وخصَّ الوجه بالذكر لأنَّه أعزُّ عضو يظهر، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ (سورة القمر: ٤٨)، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ (سورة الزمر: ٢٤)، ولأنَّه لم يسجد به لله ﷻ، ولم يستعمل ما فيه من العينين والأنف والأذن واللسان في الحقِّ، ولا تدبَّروا بها في دين الله ودلائله وفيم خلقت، كما تطَّلع على الأفئدة لتضمُّنها العقائد الزائغة، ونية الشرِّ، وجهلها.

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ مجرمة ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ متعلِّق بـ«بَرَزُوا»، أو بمحذوف، أي فعل الله بهم ذلك ليجزي الله كلَّ نفس ما كسبت من السوء، على حذف مضاف، أي عقاب ما كسبت، أو ما كسبت هو العقاب، سمَّاه باسم سببه وملزومه، وإن فسَّرنا ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾ بالمجرمة والمطيعة اعتبرنا أنَّ تعذيب المجرمين لاعتقادهم وعملهم يستلزم إثابة المطيعين لاعتقادهم وعملهم، وكذا إذا رددنا واو «بَرَزُوا» للمجرمين، وأمَّا إذا رددناها للناس كلِّهم وعلَّقنا «لِيَجْزِيَ» به فلا إشكال في عموم كلِّ نفس للمؤمنة والكافرة، والجزاء للثواب والعقاب.

﴿اِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قريب الحساب، كأنَّه حاضر، أو لا يصعب عليه لأنَّه لا يشغله حساب عن حساب، يحاسب الخلق في أقلِّ من لحظة، وورد حديث: في قدر حلب شاة، وورد حديث: في نصف يوم من أيَّام الدنيا، تمثيل أو حقيقة

أراد الله ذلك ولو شاء لكان في أقلّ.

﴿هَذَا﴾ مضمون ما ذكره من قوله: ﴿وَلاَ تَحْسِبَنَّ...﴾ إلى هنا، أو القرآن هكذا، أو القرآن الذي هو هذه السورة، فإنَّ بعض القرآن قرآن، أو ما فيه أو فيها من العظة والتذكير ﴿بَلاَغٌ لِلنَّاسِ﴾ هو ما فيه كفاية في الترهيب والترغيب، أو كأنَّه هذا مبلغ لهم إلى الخير إن عملوا به، فيكون بمعنى الوصف ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ عطف على محذوف، أي أنزلناه ليبشَّروا به ولينذروا به، أو لينصحوا ولينذروا ﴿وَلِيَعْلَمُواْ﴾ بالتدبُّر فيه، وفي سائر الدلائل ﴿أَنَّمَا هُوَ﴾ أي الله ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فلا يعبد سواه ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ يتذكَّر ﴿أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ فيجعلوا لأنفسهم عن النار درعا بالإيمان والتقوى، والعمل الصالح.

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم

تفسير سورة الحجر وآياتها ٩٩

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ① رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ④ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ⑤﴾

وصف القرآن وتهديد الكافرين والعصاة

﴿أَلَر﴾ لا يعلم معناها إلاَّ الله، أو حرف من أوائل أسماء الله: الله لطيف رحيم، أو تنبيه للوحي بذكر **أسماء الحروف الهمزة واللام والراء، بمعنى تنبيه إلى كلام موحى به مركَّب من نوع هذه الحروف**، ومع ذلك هو معجز ليس كسائر الحروف، [قلت:] وفي ذلك معجزة إذ علم ﷺ أسماء الحروف، مع أنه لم يتعلَّم، فإنَّ من لم يتعلَّم أ ب ت ث لا يعرف أسماء الحروف، لو قلت له ألف أو باء أو تاء أو ثاء فقد يثبت أنَّه قال: بين السين ولا تغور الميم ومدُّ الرحمان[1]، أو اسم للسورة، أي اقرأ هذه الأحرف، أي استعد لنوعها، أو هذه سورة، أو اقرأها، أو استعد لقراءة ذلك.

﴿تِلْكَ﴾ الإشارة إلى السورة أو إلى آياتها، فإنَّه تجوز الإشارة إلى ما يوجد بعد، كما تجوز إلى ما وجد لاستحضاره بكونه معلوما، وبعض القرآن قرآن، فلا يعارض بقوله: ﴿وَقُرْءَانٍ﴾، أو إلى ما في اللوح المحفوظ، وإلى جميع آيات القرآن.

١- كذا في النسخ المخطوطة والمطبوعة و لم يَتَّضِح لنا وجه المعنى. تأمل.

﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ المعهود، أو الكامل، أو الكتب كلّها كأنّه هي، فخّم بتعريف الكتاب ثمَّ بتنكير «قُرْءَان» في قوله: ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ عكس ما في النمل إذ فخّم فيه بتعريف «قرآن» ثمَّ بتنكير «كتاب» [﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾]، تفنُّنا في العبارة البليغة. والعطف تنزيل لتغاير الصفات منزلة تغاير الذات، أي آيات السورة، أو المؤلَّف الجامع للكمال حتَّى كَأَنَّ غيره ناقص، ولا نقص، أو لكونه كالكتب كلّها، ولكونه مقرونا بعضه ببعض، كآية إيمان بآية كفر، أو متلوًّا ظاهر المعنى والإعجاز والبلاغة من "أبان" اللازم، أو مظهرًا للصواب من الخطأ والفرائض، وما يحتاج إليه، من "أبان" المتعدِّي.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ الأصل في «رُبَّ» التقليل، و﴿يَوَدُّ﴾: يحبُّ أو يتمنّى، والكفر إشراك، أو شامل للفسق، و«لَوْ» مَصدَرِيَّة، والمصدر مفعول «يَوَدُّ»، وما كَافَّة مهيِّئة للفعل بعد «رُبَّ»، والأصل أن يكون ماضيا ولا يكون مضارعا إلاَّ إن نزِّل منزلة الماضي لتحقُّق وقوعه، وهو باق على الاستقبال، أو بمعنى الماضي مجازا.

ولا حاجة إلى جعل «مَا» نكرة موصوفة حذف عائدها، أي رُبَّ شيء يودُّه الذين، وهو الإسلام، أو رُبَّ إسلام يودُّه الذين، ولا إلى جعل «لَوْ» إقناعيَّة محذوفة الجواب، أي لسرَّهم ذلك، أو تخلَّصوا مِمَّا فيه، لأنَّ الأصل عدم الحذف.

والتقليل نسبيٌّ، فإنَّ أكثر أوقات الأشقياء الذهول عن ودِّ الإسلام بما هم فيه من السوء، ولو كان الودُّ كثيرا بكثرة الواردين، وتكرُّرِ تلك المرَّة وذلك أنَّهم يودُّون الإسلام في الدنيا حين رأوا المسلمين غالبين، أو حين عاينوا الموت على غضب الله، أو حين دخلوا النار، **بل في كلِّ ذلك** وحين عذاب القبر، وحين البعث.

واعتبر أنَّ الودَّ لو كان قليلا لوجبت المسارعة إليه فكيف وهو كثير متكرِّر؟ لظهور الفوز بالإسلام.

(قصص) قال أبو علي القالي في الأمالي: حدَّثنا عبد الرحمن بن خلف، قال حدَّثنا أحمد بن زهير: قال حدَّثنا أبو عبد الله القرشي قال: حدَّثنا عبد الله بن عبد العزيز قال: أخبرنا ابن العلاء أحسبه أبا عمرو أو أخاه، عن جويرية بن أسماء عن إسماعيل بن أبي حكيم بعثني عمر بن عبد العزيز في الفداء حين ولّي، فبينما أنا أجول في القسطنطينية إذ سمعت صوتا يتغنَّى: أرقت وبان عنّي من يلوم، أبيات شعر ساقها القالي، قال أبو عبد الله القشيري: والشعر لنقيلة الأشجعي، قال: سمعت العتبي يقول: صحَّف في اسمه فقال: نفيلة، قال إسماعيل بن حكيم: فسألته حين دخلت عليه فقلت له: من أنت؟ قال: أنا الوابصي الذي أخذت فعذّبت فجزعت، فدخلت في دينهم، فقلت: إنَّ أمير المؤمنين بعثني في الفداء، وأنت والله أُحبُّ أن أفديه إليَّ إن لم تكن بطَّنت في الكفر، قال: والله لقد بطَّنت في الكفر، فقلت: أنشدك الله، قال: أأسلم وهذان ابناي، وإذا دخلت المدينة قال أحدهم: يا نصراني، وقيل لولدي وأمهما كذلك، لا والله لا أفعل، فقلت له: لقد كنت قارئا للقرآن؟ قال: والله لقد كنت من أقرأ الناس، فقلت: ما بقي معك من القرآن؟ قال: لا شيء إلاّ هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾.

واعلم أنَّ قولهم: «حدَّثنا» وقولهم: «أخبرنا» وقولهم: «أنبأنا» بمعنى واحد.

ويجوز جعلها للكثرة لكثرة ودِّهم.

وتعيَّنت «مَا» للوصفيَّة في قوله:

ربَّما تكره النفوس من الأمـــر لـه فَرْجَـة كحَـلِّ العِقـــال[1]

قد يُصاب الجبان في آخر الصفِّ ويـنــجو مقــارع الأبطـــال

١- الفرجة مصدر فرج يفرج أي تَفَرُّج وانكشاف. اللسان مادة فرج.

لرجوع هاء "له" إليه، أي رُبَّ شيء تكرهه النفوس.

كان لأبي عمرو بن العلاء غلام جيِّد أراده الحجَّاج فهرب به إلى اليمن وقرأ ﴿غَرْفَةً بِيَدِهِ﴾ (سورة البقرة: ٢٤٧) بفتح الغين وقال له: إن لم تأت بحجَّة عليه أقتلك، فهرب إلى اليمن فبينما هو مهموم إذ جاء أعرابيٌّ ينشد الأبيات، فقال له: ما وراءك يا أعرابي؟ قال: مات الحجَّاج، فقال: لا أدري بأيِّهما أنا أشدُّ فرحا بموته؟ أو بفتح فاء فرجة؟ وقيل: بضمِّ أوَّل فرجة وغرفة.

ولا داعي إلى دعوى أنَّ الأصل: «لو كنَّا مسلمين»، وإنَّما ذلك لو قيل: ربَّما يودُّ الذين كفروا قائلين. ﴿ذَرْهُمْ﴾ اتركهم لا تأمرهم ولا تنههم، ولا تخبرهم بشيء من الدين، فإنَّه لا يؤثِّر فيهم كلام، وذلك إقناط منهم، وما عليك فقد أبلغت. ولا نسخ في مثل هذا بآية القتال، فإنَّه مِمَّا يقال فيهم ولو أذن بالقتال لا يستعمل له ماض إلاَّ قليلا، كما قيل عنه ﷺ : «**ذروا الحبشة ما وَذَرَتْكُم، فإنَّه لا يستخرج كنز الكعبة إلاَّ ذو السويقتين**»[1] وهذا تهديد لهم على لسانه ﷺ ، كما هدَّدهم الله سبحانه بردِّ الضمير إليه معهم في قوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (سورة المدثر: ١١) والمراد: ذرهم وقل لهم: كلوا وتمتَّعوا وليلهكم الأمل فسوف تعلمون.

﴿**يَاكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ**﴾ قدَّم الأكل لأنَّه في البهائم أشدُّ، وهم أخسُّ منها، وأمرهم بما هو غاية مطلوبهم وأشدُّ لندمهم أمر تهديد ﴿**وَيُلْهِهِمُ الاَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ فيكون تهديدا خوطبوا به، إذ قال لهم: كلوا وتمتَّعوا وليلهكم الأمل فسوف تعلمون، فذكر الله أنَّهم وافقوا هذا الخطاب بقوله: ﴿يَاكُلُواْ...﴾ يأكلوا من اللذائذ الحلال والحرام، ويتمتَّعون بالمحرَّمات من

١- لم نقف على تخريجه.

اللباس والزنى، وغيره من شؤون الدنيا الحلال والحرام، ومنها المراكب الجيِّدة، والمساكن الحسنة، ويلههم أملهم الطويل عن التذكُّر والاستعداد للبعث الذي أنكره منكرهم، وشكَّ فيه شاكُّهم.

وساعدهم على ذلك استقامة الدنيا لهم، وقد طمعوا في طول العمر مع ظنّهم أنَّ أموالهم هي التي أخلدتهم، أي أبقتهم أحياء، وسوف يعلمون عاقبة ذلك وهو النار الدائمة، وما قبلها من عذاب الموت والقبر والبعث والمحشر والخزي والإهانة، وذلك بمشاهدتهم المدلول عليها بالعلم.

قال ﷺ: «**صلاح أوَّل هذه الأمَّة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**»[1] وعن عليٍّ: «إنَّما أخشى عليكم اثنين: طول الأمل واتِّباع الهوى، فإنَّ طول الأمل ينسي الآخرة، واتِّباع الهوى يصدُّ عن الحقِّ».

﴿**وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ**﴾ ما أهلكنا قرية من القرى أردنا إهلاكها، والمراد القوم، عبَّر عنهم بقرية مجازا لحلولهم فيها، أو حقيقة أو بتقدير مضاف: أي قوم قرية أو أهل قرية، وهذا بيان لوجه تأخير العذاب في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بأنَّ تأخيره ليس إهمالا بل ليبلغوا أجله كما قال: ﴿**إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ**﴾ أجل مؤقَّت مكتوب في اللوح المحفوظ يهلكون فيه ﴿**مَّعْلُومٌ**﴾ بالحدِّ، الجملة قيل نعت لـ«قَرْيَةٍ» مقرون بالواو لتأكيد اللصوق بالمنعوت، لشبهه بالحال الذي يقرن بالواو المؤكَّد للصوقه بصاحبه، و لم يتغيَّر المعنى بالواو، وهو ضعيف، لأنَّ أصل الحال المقيس عليه أن لا يقرن بها لأنَّه كخبر المبتدأ، والخبر لا يقرن بهما إلاَّ في العطف عليه، وأيضا لا يعهد معنى اللصوق للواو و لم تكن في قوله: ﴿إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ (سورة الشعراء: ٢٠٨) لأنَّ الوصف فيه لازم عادي.

١- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج١٤، ص١٠، وقال: أخرجه أحمد في كتاب الزهد. **والطبراني** في الأوسط، ج٨، ص٣١٦. والبيهقي في الشعب عن أبيه عن جدِّه مرفوعا.

[كتاب معلوم] جرت عليه سنَّة الله أن لا إهلاك إلاَّ بعد الإنذار، وفي آية السورة لازم عقلي أنَّ أمور الحكيم لأوقاتها.

والأصل أيضا أن لا يفصل النعت بـ«إلاَّ»، وجعل الجملة نعت البدل محذوف هكذا: إلاَّ قرية لها كتاب معلوم، لا يرفع الإشكال لوجود الواو، فالأولى أنَّ الواو للحال، والجملة حال من النكرة لوجود النفي المفيد للعموم.

﴿**مَّا تَسْبِقُ مِنُ امَّةٍ اَجَلَهَا**﴾ في الإهلاك، قرن الفعل بالتاء مراعاة للفظ «أُمـَّة» الذي هو فاعل، وذكَّر وجمع مراعاة لمعناه في قوله: ﴿**وَمَا يَسْتَاخِرُونَ**﴾ أي عنه، وحذف للفاصلة ودلالة ما قبله.

﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

بعض مقالات المشركين في النبيء ﷺ والرد عليها

﴿**وَقَالُواْ يَآ أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ**﴾ تهكُّم به لأنَّهم لا يعتقدون تنزيل الذكر عليه وهو القرآن، ألاَ ترى إلى قولهم: ﴿**إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ**﴾ كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ (سورة الشعراء: ٢٦) والمراد شبه الجنون

من الغشي الذي يصيبه حين نزول الوحي، تقول به مثل ما يقول المجنون، و لم يريدوا أنّه مجنون حقيقة، وهكذا في غير هـذه الآية، أو رموه بالجنون لقوله ما لم يألفوه، أو أريد نزّل عليه الذكر في زعمه، أو يا أَيُّهَا الذي يقول نـزّل عليه الذكر، فحذف القول.

أو يا أَيُّهَا الذي نزّل عليه الذكر من كلام ا لله أي قالوا فيك: ﴿يَآ أَيُّهَا الـذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ كما يقال: قيل: يا زيد إنّك مجنون، كأنّه قيل: يا أيُّها الذي نزّل عليه الذكر قالوا فيك إنّك لمجنون.

﴿لَّوْ مَا﴾ لو وما ركّبتا للتحضيض، وقيل: الميم عن اللام فهي لو، ولا كذلك أي هلاّ ﴿تاتِينا بِالْمَلآئِكَـةِ﴾ يشهدون بأنّك رسول من ا لله، وبأنّه نزّل عليك القرآن، وبالعذاب على من كفر بك، أو بإحضار عذابنا لكفرنا بك كالأمم قَبْلُ كقولهم: ﴿لَوْلآَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٧) . ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تدّعي من ذلك.

وردّ ا لله عليهم بقوله: ﴿مَا تَنَزَّلُ الْمَلآئِكَةُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ ما تنزل إلاّ بالحكمة، وهي ضدُّ السفه والباطل، فإنّ إهلاكهم قبل أجلهم غير حقٍّ، لأنّ فيه خلف الوعد، وهو نقص، ولأنّ فيهم من سيؤمن، وفيهم من يلد من يؤمن، وفيهم من يلد من يكفر، ولا يقطع ولادة قضاها، فإنّ قضاءه لا ينتقض.

وإرسال الملائكة ليشهدوا له ﷺ لا يجدي، لأنّه لو أرسلهم بضورة البشر قالوا: غير ملائكة، أو على صورهم هلكوا بمشاهدتهم، إذ لا يقوون عليها، أو على صورهم والإقدار على المشاهدة وكان إيمانهم اضطرارا لا يقبل، كما لا يقبل عند المشاهدة بالموت ويوم القيامة، وأيضا لو أنزلهم و لم يؤمنوا أهلكهم ا لله على عادته في إهلاك من اقترح آية وأجيب إليها و لم يؤمن، وقد

قضى الله أن لا يموتوا إلاَّ لأجلهم.

وأيضا لا تنزل الملائكة بإذن رسول الله ﷺ وإتيانه بهم، بل إنّما تنزل بوحي من الله إليها بالنزول، ونزولها بدونه باطل لا يكون، ونزولها لغير ما ذكر كلّه غير حقّ، أو إنّما تنزّل الملائكة بوحي الشرائع وما شاء الله، لا بتصديق الرسل، أو إنّما تنزل بالعذاب لمن كفر مثلكم لا لتقوية الأنبياء بالخطاب وتأخير العذاب.

﴿وَمَا كَانُواْ إِذًا﴾ إذ حرف، تدلُّ على أنَّ النزول يترتّب عليه الإهلاك، أو ظرف أي إذ نزلوا أو إذا نزلوا ﴿مُّنظَرِينَ﴾ مؤخّرين في الإهلاك والعذاب على عادتهم فيمن اقترح، وقدَّر بعض: «ما تنزَّل الملائكة عليهم إلاَّ بصور الرجال، فيحصل اللّبس فلا ينتفعون وَمَا كَانُواْ إِذًا...»، وقدَّر بعض: «فلا يؤمنون وَمَا كَانُواْ إِذًا...».

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ القرآن من عندنا، وليس كلاما لمحمَّد مخترعا ولا لغيره ﴿وَإِنَّا لَهُ, لَحَافِظُونَ﴾ عن أن يزيد فيه أحد حرفا أو ينقصه، كما فعل اليهود والنصارى بالتوراة والإنجيل، وعن زوال شرعه قبل قرب الساعة جدًّا وعن القدح فيه والمعارضة عليه، إذ جعله في فصاحة وبلاغة لا يقدر أحد أن يأتي بمثله، ولو ادَّعَى مدَّع مثله أو أدخل فيه لافتضح بالنقص، كالنحاس الأحمر بحضرة الذهب الإبريز، مع أنَّه على لسان أمّيٍّ حفظه الله فلم يتغيَّر، ووكّل حفظ غيره إلى أهل الكتاب فتغيَّر، كما قال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ﴾ (سورة المائدة: ٤٤).

ويضعف رجع الهاء إلى رسول الله ﷺ ولو دلَّ عليه ذكر الإنزال والمنزَّل كرجوعها إلى القرآن لذلك في: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ﴾ (سورة يوسف: ٢) لأنَّ عودها إلى مذكور قريب بلا تكلُّف وهو «الذِّكْرُ» أَوْلَى، ولأنَّ ردَّ إنكارهم إنَّما يظهر بإقامة البرهان على كونه منزَّلا من عند الله، وإذا رجعت إليه ﷺ اختلَّ إقامة البرهان

لأنَّهم ينكرون أيضا قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ, لَحَافِظُونَ﴾.

وسلاَّه ا لله ﷻ عن إنكارهم بقوله: **﴿وَلَقَدَ ارْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الاَوَّلِينَ﴾** أرسلنا رسلا من قبلك في فرق الأوَّلين **﴿وَمَا يَاتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾** يأتي الأوَّلين أو شيع الأوَّلين **﴿اِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾** كما استهزأ به قومك، فاصبر كما صبر هؤلاء الرسل على الاستهزاء. والشِّيَعُ: جمع شيعة وهي الفرقة المتَّفقة المتتابعة على أمر، شاعه بمعنى تبعه وأعانه، وكان بعض يشايع بعضا. والمضارعان بمعنى الماضي، صوِّر بصورة المضارع المستعمل للحال ليكونا كأنَّه شوهد وقوع معنييهما، والمشاهد أقوى من المخبر عنه.

﴿كَذَالِكَ﴾ مثل ذلك الاستهزاء أو ذلك السلك الذي سلكنا كلام الرسل أو كتبهم، أو ذلك التكذيب المذكور على الأوَّلين **﴿نَسْلُكُهُ,﴾** ندخل الذكر أو الاستهزاء، والأوَّل أولى، لأنَّ أصل الكلام للذكر، ولأنَّ الضمير في «بِهِ» للذكر لا للاستهزاء، ولأنَّ لفظ الاستهزاء غير مذكور بل ذكر فعله، ولفظ الذكر مذكور، و«يستهزئ» ولو كان أقرب لكنَّه ليس اسما بل يؤخذ منه الاسم، ورجوع هاء «بِهِ» للرسول كرجوعها للذكر.

﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ كفَّار مكَّة **﴿لاَ يُومِنُونَ بِهِ﴾** تفسير للسلك، كأنَّه قيل: نمرُّ به في قلوبهم بلا بقاء أثر منه فيها، سواء جعلنا الجملة حالا من هاء «نَسْلُكُهُ»، أو من «الْمُجْرِمِينَ»، أو مستأنفة **﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾** مضت **﴿سُنَّةُ الاَوَّلِينَ﴾** سنَّة ا لله فيهم، بإهلاكهم لاستهزائهم وعدم إيمانهم، أو بسلك الوحي في قلوبهم بلا بقاء أثر فيها، وإهلاكهم على ذلك، وهذا تهديد لأهل مكَّة أن يقع بهم ذلك الإهلاك بكفرهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ على كفَّار مكَّة، و«عَلَى» لعلوِّ السماء، أو بمعنى اللام **﴿بَابًا مِنَ السَّمَآءِ فَظَلُّواْ﴾** أي صار كفَّار مكَّة، أو كانوا في النهار كلِّه **﴿فِيهِ﴾** في

الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون حتَّى رأوا ملكوت السماء وما فيها من الملائكة، أو فظلَّ الملائكة يعرجون فيه وكفَّار مكَّة ـ كما اقترحوا ـ يشاهدون عروج الملائكة ودخولهم من ذلك الباب، والأوَّل أولى، لأنَّ محطَّ الملائكة الأعظم ـ ولا سيما في التصرُّف بالوحي ـ الهبوط من السماء لا الصعود، ولا سيما أنَّهم لا يؤمنون أنَّ الملائكة في الأرض أو في الجوِّ.

﴿لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتَ ابْصَارُنَا﴾ المحصور فيه بأنَّما هو آخر الكلام، و«نا» كالجزء من «أَبْصَارِ» فالمحصور فيه الأبصار، أي ما سكرت إلاَّ أبصارنا أي سدَّت بسحر محمَّد، حتَّى رأت بابا مفتوحا وملائكة تدخله ولا باب ولا ملائكة، أو بابا وإيَّانا ندخله ولا باب ولا دخول مِنَّا، وأمَّا عقولنا فهي على حالها غير مسدودة، وهي عارفة بأنَّ لا باب ولا دخول ملك.

(لغة) وسُكِر بالتخفيف يتعدَّى فتشديده للمبالغة، وقيل: لازم فشدَّ للتعدية، والأمران واردان، وقيل: الغالب اللزوم. والمراد بالسدِّ الصرف عن طبعها لا الإطباق، وإن جعلنا ﴿سُكِّرَتْ﴾ بمعنى حيِّرت فالشدُّ للتعدية، وإنَّما فسَّرت السدَّ بالصرف لأنَّها إذا أغلقت لا إبصار لها.

والسحر أخصُّ من الصرف فلا يتكرَّر مع قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ في أبصارنا تخيَّلت ما لم يكن، أو أضربوا عن سحر الأبصار إلى إثباته لعقولهم أيضا، والمراد أنَّهم يقصدون الكذب فيه والتمويه ما أمكن.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اِسْتَرَقَ اَلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا

فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

بعض مظاهر قدرة الله تعالى: من خلق السماوات والأرض وإرسال الرياح لواقح والإحياء والإماتة والعلم الشامل والحشر

(فلك) ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ محال تسير فيه الدراري: الحمل والعقرب للمِرِّيخ بكسر الميم، والثور والميزان للزُّهَرة بضمٍّ ففتح، والجوزاء والسنبلة لعَطارد بفتح أوَّله، ومنع الصرف لشبهه بمفاعل، ويصرَّف أيضا، والسرطان للقمر، والأسد للشمس، والقوس والحوت للمشتري، والجدي والدلو لزحل. والدراري يشملها على التدلي قول بعض:

زُحَلٌ شَرَى مِرِّيخَهُ من شَمسِنَا فَتزاهَرتْ لِعُطَاردِ الأَقمَارِ

وعن ابن عَبَّاس: البروج منازل الشمس والقمر كلَّ ليلة، وقيل: النجوم الكبار، قيل ونحتمل مطالع الشمس والقمر، وقيل: البروج قصور بناها الله للملائكة يحرسون.

قال ابن العربي: قسَّم الله ﷻ الفلك الأطلس اثني عشر قسما سمَّاها بروجا، وأسكن كلَّ برج منها ملكا، وهؤلاء الملائكة أَئِمَّة العالم، وجعل لكلٍّ منهم ثلاثين خزانة، تحتوي كلٌّ منها على علوم شتَّى، يهبون للنازل منها بهم قدر ما تعطيه

رتبته، وهي الخزائن في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ﴾.

(أصول الدين) [قلت:] ولا بأس بذلك، لمن اعتقد أنَّهم يفعلون بأمر الله تعالى وخلقه، وكلُّ شيء من أفعالهم مستأنف من الله، ومن أثبت ذلك لهم على استقلال أشرك[1].

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ بالكواكب الثوابت ليتفكَّروا فيها، ويعلموا أنَّها صنعة الحكيم، موصلا منافع السماء بمنافع الأرض ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ بالشهب، أجرام محرقة تشبه الكواكب، أو حفظناها بالكواكب، فترجع إلى محالها على أنَّها صغار، أو يشعل منها ولو كانت في الفلك الثامن، والله قادر مقدِّر كما قال:

﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ واستراق السمع اختطافه بالعلم من أوضاع الكواكب وحركاتها، أو بالسمع تحقيقا من الملائكة، والأوَّل على أنَّ الكواكب تحت السماء، والاستثناء منقطع إذ لا معنى لأن تحفظ من كلِّ شيطان دخولا إلاَّ [من] استراق السمع، فإنَّ الحفظ يكون من دخولها.

لَمَّا بعث عيسى عليه السلام منعوا من الثلاثة العلا، ولَمَّا بعث سيِّدنا محمَّد ﷺ منعوا من الأربعة السفلى، ومن استرق السمع لا يشمله كلُّ شيطان رجيم، واستراق السمع لا يُخرج السماء من كونها محفوظة من دخولهم.

ويجوز أن يكون متَّصلا على معنى حفظناها من قرب كلِّ شيطان رجيم إلاَّ قرب من استرق، ويجوز أن يكون «مَنْ» بدلا من كلِّ لأنَّ الحفظ نفي، كأنَّه قيل: لا يقربنَّهما شيطان إلاَّ من استرق.

ومعنى «أَتْبَعَهُ» تبعه أو لحقه، والشهاب جسم شبيه بالكوكب، فيسمَّى

١- وبإثبات ذلك للكواكب على استقلال وَقُوَّة منها نشأ كثير من أعمال السحر وأفعال الشعوذة والمشعوذين والشياطين. فاحذر الزلل.

كوكبا، وقيل: غير ذلك كما مرَّ قريبا، ومعنى ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر للمبصرين.

وكانت الشياطين تُرمى بالنجوم قبل مبعث رسول الله ﷺ، ولَمَّا بعث كثرت وعظم أمرها، وأجاز بعض أن تكون قبله غير رجم، قيل: تتراكب فيرجم أعلاها ويلقي ما سمع للذي تحته، فيبلغه ويزيد فيه، وَأَمَّا هو فإمَّا أن يموت وإمَّا أن يحترق ويبقى كالمجنون، ويضلُّ الناس في الصحاري والأودية، وهو محترق كلُّه أو بعضه أو مثقوب.

وإنَّما تسمع الشياطين من ملائكة تحت السماء يذكرون ما قضى الله، وقيل: من فوقهم وينفذ صوتهم من تحتها بقدرة الله ﷻ، وهم ليسوا نارا محضة فأمكن إحراقهم بالنار ويجترئون على السمع مع مشاهدة الإحراق طمعا في النجاة[1].

﴿وَالاَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها على الماء، [قلت:] وترى بسيطة ولو كانت كروية لوسعها، والنصب على الاشتغال، وعطف مددنا المقدَّر على «جَعَلْنَا» عطف فِعلِيَّة على فِعلِيَّة ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أنزلنا فيها جبالا رواسي، أي ثوابت إنزالا فيه بعض شدَّة، وتلك الجبال كالأوتاد للأرض، فلا تتحرَّك بالماء تحتها.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ أي في الأرض لأنَّ الكلام سيق لها بالذات، وأنواع النبات المنتفع به المختارة إنَّما هي من الأرض، أو في الأرض والجبال، لأنَّ في الجبال أيضا أنواعا نافعة، ولو كانت دون ما في الأرض، وقد يعود الضمير بمعنى يشمل الجبال بمعنى ما يقابل السماء، وقد يقال: الضمير للجبال لقربها

١- للشيخ الفاضل الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» بحث جيِّد في قضية احتراق الشياطين للأجواء واستراق السمع المذكور هنا وفي سورة الشعراء وفي سورة الجن، راجعه ان شئت في ج١٤ ص٣٢. وانظر القصة في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن رقم ١٩٢ باب قوله ﴿إلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ رقم ٤٤٢٤.

ولأنَّ المعادن إنَّما تتولَّد في الجبال غالبا.

والأشياء الموزونة في العرف والعادة هي المعادن لا النبات، كما قال الكلبي: إنَّ الضمير للجبال وإنَّ كلَّ شيء موزون بمعنى الذهب والفِضَّة والنحاس والرصاص والحديد والكحل والزرنيخ والملح والزاج ونحوها من الأجساد ﴿**مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ**﴾ بالميزان ذي الكفَّتين ونحوه من أنواع الموازين وذلك في المعادن، وعلى أنَّ المراد النبات أو مع المعادن فالوزن: **التقدير المعيَّن الذي اقتضته حكمته**، أو الوزن: الاستحسان، يقال في الشيء المجوَّد: إنَّه موزون كما يقال في الكلام المنثور المجوَّد: إنَّه موزون، أو الوزن: تقدير المرتبة، أي ما له مقدار من الشأن في أبواب النعمة. و«مِنْ» صلة في الإثبات في قول الأخفش والكوفيِّين، فكلٌّ مفعول لـ«أنبت»، أو غير صلة فيقدَّر: «وأنبتنا فيها أنواعا أو أفرادا ثابتة من كلِّ ما من شأنه أن يوزن»، بمعاني الوزن السابقة.

﴿**وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا**﴾ في الأرض أو فيها وفي الجبال، فيضعف جعل «ها» في «أَنبَتْنَا فِيهَا» للجبال لأنَّ جلَّ المعايش المذكورة بعدُ ليست في الجبال، ولو كانت الأثمان ذهبا وفضَّة إلاَّ أنَّها لا تتبادر هنا. ﴿**مَعَايِشَ**﴾ جمع معيشة بمعنى حياة، أو ما يعاش به، والمتبادر الثمار والحبوب ﴿**وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ, بِرَازِقِينَ**﴾ وتوهَّمتم أنَّكم رازقوه أو لم تتوهَّموا، وهي العيال والعبيد والدوابُّ والأنعام والطير والوحش. و«مَنْ» للعاقل وغيره، أو لغير العاقل فقط كالدوابِّ، وهو ضعيف، لأنَّه ليس أصلا في «مَنْ»، ولأنَّ العبد والدابَّة في توهُّم أنَّ مولاهما هو رازقهما سواء.

(نحو) والعطف على محلِّ الكاف بلا إعادة للجارِّ لورود ذلك، أو للفصل كما ذكره البرادي[1]، شبه العطف على ضمير الرفع المتَّصل للفصل، أو

١- البرادي هو أبو الفضل أبو القاسم بن إبراهيم البرادي عاش في النصف الثاني من المائة الثامنة، نشأ =

على «مَعَايِشَ»، فإنَّ الله ﷻ جعل لنا دوابَّ ننتفع بها كما جعل لنا معايش، أو يقدَّر: «وأغنينا من لستم له برازقين»، أو مبتدأ محذوف الخبر، أي ومن لستم له برازقين جعلنا له فيها معايش، حذف لدلالة ما قبله، نقول: زيد أكرمته وأخوك، أي وأخوك أكرمته.

قيل: أو عطف محلِّ بمجموع «لَكُمْ»، وهو مشكل، لأنَّه ليس في محلِّ جرٍّ بل الذي في محلِّ جرٍّ الكافُ وحدها، لا مع اللام، ولا في محلِّ نصب لأنَّ الذي في محلِّ نصب من حيث إنَّه مفعول به توصّل إليه بحرف الجرِّ الكاف وحدها، كما أنَّ المفعول في مررت بزيد، زيد وحده لا مع الباء.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ نوع ما **﴿إِلاَّ عِندَنَا خَزَآئِنُهُ,﴾** أفراده المخزونة، أو مقدَّراته، شبِّه بالمواضع التي تخزن فيها الأشياء، والجمع باعتبار المتعلّقات، وهي ما تتأثَّر فيه القدرة، وإلاَّ فقدرته واحدة، بمعنى أنَّ وجوده ناف للعجز عن الشيء. والخزائن استعارة للقدرة، ووجه الشبه مطلق الاشتمال، اشتمال الخزانة محسوس واشتمال القدرة معقول.

يوجد الله كلَّ ما شاء لوقته بلا كلفة كما لا كلفة لنا فيما خزنّا، أو شبَّه مقدَّراته بالأشياء المخزونة، أو الخزائن: المفاتيح، سمِّيت باسم الآلة التي يتوصَّل بها إلى ما فيها ثمَّ أطلقها على ما تتسبَّب عنه المقدَّرات كالماء والريح والشمس للثمار، ويجوز أن يراد بالشيء الافراد، لا موجود عندكم إلاَّ قدرْنا على أضعافه التي لا تتناهى، ودخل في النوع والفرد المذكورين المطر.

=

بجبل دمر ـ بالجنوب التونسي ـ وتعلّم بجبل نفوسة على الشيخ عامر الشمَّاخِي صاحب الإيضاح وبجربة بمدرسة وادي الزبيب، وتولّى التدريس والتأليف، وله عدَّة مؤلّفات قيّمة حقّق البعض منها بعض الأكاديميِّين في أيَّامنا. راجع البعد الحضاري للعقيدة عند الإباضية، ص١٢٤.

[قلت:] وتخصيص الآية به سهو [من قِبل بعض المفسِّرين]، وسببه قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ,﴾ ما نخرجه من العدم إلى الوجود ﴿إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ اقتضته الحكمة، وقوله: ﴿وَأَنبَتْنَا﴾ وقوله: ﴿مَعَايِشَ﴾ وليس ذلك دليلا، ولا يصحُّ دعوى تخصيص بلا دليل.

وعن جعفر بن محمَّد بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب[1] عن أبيه محمَّد عن عليٍّ أنَّ الخزائن تمثال جميع ما خلق الله في البرِّ والبحر، مرسوم في العرش، والقدر المعلوم ما عيَّنه الله واختاره من الجائزات القادر هو عليها كلّها على حسب المصالح. والتنزيل بمعنى الإخراج يلائم الخزائن فهو ترشيح للاستعارة أو للتشبيه.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ لاقحات أي حاملات للماء إلى السحاب تصبُّه فيها، ويمرُّ فيها كمرور اللبن في الضرع، ثمَّ تمطره كما قال ابن مسعود، ولا تقطر من السماء إلاَّ بعد ريح الصبا تثير السحاب فيكون ركاما، والشمال تجمعه وتسمَّى المؤلِّفة، والجنوب تدره وتسمَّى اللاقحة، فيمتلئ بها ماء، والدبور تفرِّقه بإنزال.

(صرف) يقال: لقحت الريح: حملت الماء، والناقةُ: حملت الجنين، فهو ثلاثيٌّ أصالة، ويتعدَّى بالهمزة، فيقال: ألقح الريح السحاب والشجر والجمل الناقة وقيل: ألقح بالهمزة لازم، وملقّح اسم فاعل حذف الهمزة فقيل: لقحت فهي لاقح، أو اللاقح كتامر ولابن فلاقح على الأصل، أو مختصر من ملقِّح اختصار لقح من ألقح، أو للنسب، ومن الاختصار قولهم: أطاحته الملمات وطوَّحته، فهنَّ طوائح،

١- جعفر بن محمَّد بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب أبو عبد الله الملقب بجعفر الصادق المدني، أمُّه فروة بنت القاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصديق، روى عن أبيه والقاسم بن محمَّد جدِّه من أمِّه ونافع وعطاء، وروى عنه محمَّد بن إسحاق ويحيى الأنصاري ومالك والسفيانان وغيرهم، ذكره ابن حبَّان في الثقات، وقال: كان من سادات أهل البيت فقها وعلما وفضلا. ولد سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٤٨هـ. الموسوعة الفقهيَّة، ج٣، ص٣٥٤.

بدل مطيحات أو مطوحات، أي مهلكات وأصل طائح هالك، والريح جسم أشدُّ لطافة من الماء، سريع المرور في الهواء، والهواء أشدُّ لطافة منه كالروح.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ من السحاب التي جمعتها الريح ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ جعلناه لكم سقيا لأنفسكم ودوابِّكم وحروثكم وأشجاركم، فالإسقاء إعطاء مَادَّة من ماء كقربة يشرب منها في أوقاتها، وماجل وبركة وعين، أو جزء منها، والسقي إشرابك أحدا.

وقيل: هما بالمعنى الآخر كأطعمه: صيَّره آكلا مَرَّة، وأطعمه أعطاه ما يكفيه مدَّة، كما يقال: أطعمه وسقاه، ويناسب التفسير بالمادَّة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَازِنِينَ﴾ إنَّا أعددناه لكم مَادَّة في الأرض، ضاءات وعيونا، وفوق الجبال السفليَّة وتحتها وداخلها، ولا قدرة لكم على ذلك، فإنَّ ذلك أولى من معنى: أنزلناه فأشربناكم بعضه وخزنَّا بعضه.

ومن شأن الماء الغور والله يبقيه على الأرض مدَّة، وفي الطين أو حيث شاء الله في الأبيار، أو ﴿مَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَازِنِينَ﴾ بمعنى ما أنتم قادرين على إخراجه، وهذا المعنى راجع إلى تشبيه القدرة بالخزانة، تقدرون على إخراج ما في خزائنكم، ولا تقدرون على إخراج الماء لولا الله، على أنَّ الخزائن من ضرب مثل.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ «نَحْنُ» غير ضمير فصل، لأنَّه إنَّما يكون بين اسمين معرفتين، أو الثاني نكرة بمنزلة المعرَّف بـ«ال»، وهو اسم التفضيل المنكر الذي بعده «مِنْ» التفضيلية لنيابتها عن «ال».

ولا حصر في الآية إلاَّ بمعنى الاختصاص في نحو قولك: أنا قمت على اعتبار التقديم الحكمي بمعنى أن يؤخَّر "أنا" على أنَّه تأكيد للتاء الفاعلية، فكأنَّ أنا فاعل قدِّم للحصر والمقام له. والمراد: نحيي ما لا حياة فيه أصلا، وما كانت فيه وزالت، ونميت ما هي فيه، وذلك شامل للحيوان والنبات والأرض، وذلك جمع بين الحقيقة

والمجاز، أو من عمومه، وقيل: المراد الحيوان.

﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ الباقون بعد فناء الخلق، فالإرث مجاز مستعار من أرث الميِّت بمعنى القيام في تركته، أو الوارثون ما لهم بعد أن ملكوه، وهذا مجاز أيضا لأنَّه لا مالك للعالم سواه، ومن الأوَّل قوله ﷺ: «**اللهمَّ أمتعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوَّتنا ما أحييتنا واجعلها الوارث منَّا**»[1] أي اجعل ما ذكر، أو الإمتاع باقيا إلى الموت، أو اجعلها كأنَّها تبقى بعدنا، روي أنَّه لا يقوم من مجلس إلاَّ قال ذلك.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ في الولادة أو في البطن أو فيهما ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَاخِرِينَ﴾ في أحدهما، أو فيهما، ومن تقدَّم وفني من لدن آدم أو بقي ومن يأتي.

ومَن تقدَّم في التوحيد، قيل: والجهاد وأنواع العبادة، ومن تأخَّر في ذلك، وفيه أنَّ الجهاد لَمَّا يفرض عند نزول الآية.

ومَن تقدَّم لفضل الصفِّ الأوَّل إذ رغَّبهم ﷺ في الصفِّ الأوَّل فازدحموا حتَّى أراد بنو عذرة بيع دورهم، وكانت بعيدة وشراء دور قريبة، فنزلت تقول: إنَّ الله عالم بنياتكم وأحوالكم لا يخفى عنه شيء.

ومن تقدَّم لِئَلاَّ يرى امرأة ومن تأخَّر ليراها، ولو من تحت إبطه في الصلاة، كما روي أنَّه تصلِّي امرأة حسناء خلفه ﷺ، فتأخَّر قوم ليروها، وتقدَّم آخرون لِئَلاَّ يروها، فنزلت. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبَّان والحاكم، وقال: صحيح عن ابن عبَّاس، فالآية تهديد وترجية كما إذا فسِّرت بالتقدُّم في الطاعة والتأخُّر فيها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ للجزاء، وفي الآية والتي قبلها دلالة على باهر حكمته، والتأكيد بتقديم الضمير فيكون ضميران والقسم ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في قوله وفعله ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلِّ شيء فكلُّ ما في هذه السورة وغيرها بحكمته وعلمه.

١- تقدم تخريجه، انظر: ج٢، ص٨٥.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

بدء خلق الإنسان وأمر الملائكة بالسجود له وإباء إبليس وعداوه للبشر

﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ**﴾ آدم المعهود وهو أبو البشر، وليس المراد ذريَّته معه كما أنَّه ﷻ ذكر أبا الجنِّ إذ قال: ﴿وَالْجَآنَّ﴾ ولم يقل: والجنَّ، ولا يخلو الكلام مع ذلك من إفادة أنَّ الذريَّة مِمَّا خلق أبوها، وصرَّح بهذه الفائدة في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَزِبٍ﴾ (سورة الصافات: ١١) وقوله تعالى: ﴿فإنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ (سورة الحج: ٥) .

وأجمعوا أنَّ المراد بالإنسان هنا آدم كما هو المراد في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ, وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ, سَاجِدِينَ﴾ ولا ينافيه التنكير لأنَّه أوَّل الأمر غير معهود، فقال: ﴿بَشَرًا﴾، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللهِ...﴾ (سورة آل عمران: ٥٨) وأجاز بعض أن يكون الإنسان آدم وذرِّيَّته.

﴿مِن صَلْصَالٍ﴾ طين يَبسٍ يصلصل، أي يصوِّت إذا نقر، وأيضا تصوِّت الريح في جسد آدمٍ إذا هبَّت عليه، وفسَّر بعضهم الصلصال بالصوت المترتِّب على النفخ فيه، وقيل: الصلصال الطين اليابس، وأمَّا التصويت فخارج عمَّا وضع له، بل يترتَّب عليه ورجَّحه بعض، وهو صفة وأصله مصدر، وقيل: بمعنى منتن، والأوَّل أولى لأنَّ النتن مذكور في قوله: ﴿مَسْنُونٍ﴾.

(صرف) والرباعي المركَّب من حرفين متفاصلين، فعله ومصدره ووصفه عند الفرَّاء ليس له لام الكلمة، بل له الفاء والعين فقط، وكذا: «فَعْفَعَ» وذلك كصلصل وصلصال ووسوس ووسواس، ويردُّه أنَّه لا فعل ولا اسم معربا إلاَّ له لام الكلمة، وقيل: تكرَّرت فاؤه فقط والرابع لام الكلمة، الفعل فَعْفَلَ والاسم فَعْفَال، ويردُّه عدم ورود نظيره، إذ لم تقل العرب في ضرب ضرضاب ونحوه، وقيل: تكرَّر عينه وقلب الثاني من المكرَّرين من جنس الفاء، فالأصل مثلا صلَّلَ بشدِّ اللام الأولى، قلبت ثانيته صادا، ووسَّسَ بشدِّ السين الأولى قلبت ثانيته واوا، وذلك كراهة لثلاث أحرف من نوع واحد، ويردُّه أنَّه لو كان كذلك لكان المصدر تفعيلا كتصليل وتوسيس، كقدَّس تقديسا، وأنَّ الأوَّلين في حكم الواحد للإدغام، وقد ورد كثيرا كقلَّل وعلَّل، وقيل: **فعلل وهو الصحيح** لورود مصدره كمصدر دحرج، وكلُّها أصول كصلصلة ووسوسة، وقيل: الخلاف فيما يبقى أصل المعنى لو سقط الثالث نحو لملم، وإلاَّ فلا خلاف في أنَّ حروفه كلَّها أصول، وبسطت ذلك في شرح لامية ابن مالك[1].

---

١ - طبع في عُمان في أربعة أجزاء سنة ١٩٩٢.

﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ نعت لصلصال أو بدل من قوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾.

(لغة) والحمأ: الطين المسودُّ من طول مجاورة الماء، ﴿مَّسْنُونٍ﴾ متغيِّر الرائحة بالنتن لطول مجاورة الماء، كما يسنُّ الحجر على الحجر أي يحكُّ به، ويتولَّد منه النتن. ويسمَّى السَنين بفتح السين، أو مصور كسنَّة الوجه لصورته وسنَّة الشيء صورته، أو مصبوب يقال: سنَّه أي صبَّه ليتيبَّس، ويتصوَّر على صورة كما يصبُّ في القالب، وذلك تشبيه إذ لم يصب طين آدم في القالب، وهو نعت لـ«حَمَإٍ» لا لصلصال كما قيل، لأنَّه بعد كونه صلصالا لا يمكن صبُّه ولا تصويره بحسب المعتاد، ولا تغيير رائحة فيه، اللهمَّ إلاَّ بحسب ما قبل الصلصلة.

(نحو) وأمَّا تقديم الصفة التي هي ظرف أو جملة على الصفة التي هي اسم صريح فجائز، إذا كانت فيه نكتة، مع أنَّه يجوز أن يكون «مِنْ حَمَإٍ» بدلا من قوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ﴾.

﴿وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ هو أبو الجنِّ، وإبليس من ذرِّيته، قاتلتهم الملائكة وأسروه فتعبَّد معهم، وقيل: هو إبليس، والجنُّ أعمُّ من الشياطين لعمومه الكافر والمسلم، وخصوص الشياطين بالكافر.

ويجوز أن يراد بالجانِّ الجنس سواء قلنا: إنَّ إبليس أبو الجنِّ أو ذرِّيَّة أبيهم، على كلِّ حال يتفرَّع الجنس من أصله، ويقال: الجانُّ أبو الجنِّ، وهم مؤمنون وكافرون، وإبليس أبو الكافرين فقط وهم الشياطين، مشركين ومنافقين، وهم أيضا جنٌّ لأنَّهم مستورون لا نراهم في الجملة، وقيل: الشياطين خَاصَّةً أولاد إبليس كما مرَّ، إلاَّ أنَّهم لا يموتون إلاَّ إذا مات إبليس.

ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل آدم، ونَارُ السَّمُومِ: نار لا دخان لها تدخل في ثقب البدن لشدَّة حرارتها ولطفها، والحيوان كلُّه كالغربال، والسموم: الحرُّ الشديد

كأنَّه قيل من نار الحرِّ الشديد، وقيل: السموم صفة أضيف إليها موصوفها، أي من النار السموم أي الداخلة المسام، أو الإضافة للبيان أي هي السموم، وقيل: السموم جهنَّم فهو مخلوق من نار جهنَّم، وعن ابن مسعود ﷺ نار الريح الحارَّة القاتلة التي هي جزء من سبعين جزء من السموم التي خلق منها الجان.

وعلى كلِّ حال ا لله قادر على بعثهم كما خلقهم أوَّلا، وا لله قادر على خلق الروح في الريح، وما شاء.

(نحو) و«مِنْ» الداخلة على «قَبْلُ» زائدة عند بعض للتأكيد، وكذا بعدُ، أو للابتداء، والثانية للتبعيض، فجاز اتِّحاد المتعلَّق، ولا تعلّق للزائد، بل لا يضرُّ اتِّحاد التعلُّق ومعنى الحرفين، مع أنَّ أحدهما في الزمان والآخر في المكان.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَآئِكَةِ﴾ كلِّهم أو لبعض، فيعلم الباقين[1]. ﴿إِنِّي خَالِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ سمِّي بشرا لظهور بشرته لعدم الشعر، لا كحيوانات كسيت شعرا وصوفا ووبرا وريشا، ويطلق الشعر على الكلِّ، أو لكونه كثيفا يباشر لا لطيفا لا يباشر كالملائكة، ونوع من الجنِّ، ومنهم من يباشر.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ صوَّرته بالصورة الإنسانيَّة وقد كان قبل بدون أعضاء، كما أنَّ الجنين في البطن بلا أعضاء ثمَّ تكون.

أو تسويته: تعديل طبائعه، عن ابن عبَّاس ﷺ : خلق ا لله آدم من أديم الأرض فألقاه على الأرض، حتَّى صار طينا لازبا، ثمَّ ترك حتَّى صار حمأ مسنونا، وصوَّره وبقي أربعين يوما مصوَّرا، حتَّى يبس فصار صلصالا كالفخَّار، ثمَّ صوَّره أعضاء لحما ودما، فكذا أولاده أطوارا نطفة بعد طينة ثمَّ علقة ثمَّ مضغة ثمَّ عظاما ولحما.

١- في الطبعة العمانية: «الباقي».

ويقال: تركه في الشمس أربعين عاما على صورته، وهو صلصال لا يدري أحد ما يراد به، ولم ير أحد مثل صورته، ثمَّ نفخ فيه من روحه.

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أجريت فيه بعض روحي، أي بعض الروح التي هي ملكي في تجاويف بدنه، فصار حيًّا، استعار النفخ للإجراء بجامع الإيصال، وأضاف الروح لنفسه تشريفا لآدم، كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله، أي بعضا ثابتا أو شيئا ثابتا من جنس الروح الذي هو ملكي. و«مِنْ» في مثل ذلك للابتداء، أو للتبعيض.

﴿فَقَعُواْ﴾ كلُّكم، أمر من الوقوع، حذفت واوه قبل القاف لأنَّ أصلَ فتحِ قافِه الكسر، فكأنَّها وقعت الواو من مضارعه بين ياء مفتوحة وكسرة، والأمر تبع للمضارع، وغير الياء من حروف المضارع تبع للياء.

﴿لَهُ, سَاجِدِينَ﴾ أي خاضعين له بالتحيَّة، أو منحنين له تعظيما، أو سجود صلاة تعظيما له، بجعله كالقبلة، وهو لله ﷻ، أو المراد بقوله: ﴿لَهُ﴾ لجهته، أو كان السجود لغير الله جائزا إذ ذاك ثمَّ نسخ إلاَّ لله ﷻ. وقدَّم «لَهُ» للفاصلة.

﴿فَسَجَدَ﴾ له ﴿الْمَلآَئِكَةُ كُلُّهُمُ, أَجْمَعُونَ﴾ أكَّد تأكيدين تشريفا للملائكة بالامتثال، وذمًّا لإبليس، ولا يصحُّ أن يقال أفاد بـ«أَجْمَعُونَ» وقوع السجود في وقت واحد، لأنَّه لو أريد ذلك لقيل: «كلُّهم معا» بالنصب على الحال.

قال المبرّد: أو قال: "جميعا" على الحالية، وفيه أنَّ "جميعا" لا يفيد اتِّحاد الوقت، اللهمَّ إلاَّ إن أُوِّل "جميعا" بمجتمعين، ولا يتبادر ولو توهِّم، لكن الواقع في نفس الأمر السجود في وقت واحد لمسارعتهم في طاعة الله، ولو أمكن سبق بعض بعضا لأشدِّية سرعته، أو صغر جسمه، والمنحني للسجود ساجد في حينه إذا أَتَمَّه بعدُ، وواصل الأرض بجبهته ساجد.

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى﴾ استثناء متّصل إذ هو من الملائكة حكما لنشأته فيهم، وكونه مغمورا فيهم حتّى شمله الأمر بالسجود، قيل: أو لأنّ من الملائكة جنسا يتوالدون يسمّون جنًّا، ويجوز أن يقال: منقطع. فـ«أَبَى» حال مطلقا، أو مستأنف زيادة لبيان عدم سجوده، أو استئناف بياني، لإمكان أن يكون استثناؤه من السجود لذهوله، أو تردّده أو عدم شمول الأمر له، فكأنّه قيل: ما شانه؟ فقال: أبى.

﴿أَنْ يَّكُونَ﴾ من أن يكون، أو أبى كونه ﴿مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ الملائكة في السجود لآدم.

﴿قَالَ﴾ الله ﷻ : ﴿يَآ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ لآدم في سجودهم، "لا" نافية أي ما شأنك في انتفاء سجودك، وما الداعي لك إلى انتفائه، أو صلة كما سقطت في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ خلق الله له هذا الخطاب في الهواء، أو في موضع أو مع ملك، وخطابه تعالى لإبليس غاية تضييق عليه كما أنّ خطابه لوليّه غاية إكرام.

﴿قَالَ لَمَ اَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ, مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أكّد نفي السجود بلام الجحود معرضا عن حكم الله وحكمته، إلى ترجيح نفسه على آدم، لأنّه من صلصال من حمإ مسنون، وكيف وأنا مخلوق من نار وهي أشرف من التراب، وأنّها منيرة دون التراب، وأنا كملك لست كثيفا، وغفل لعنه الله عن أنّ آدم بلا واسطة، وأنّ صورته أفضل، وأنّ الله حكم بفضله، وأنّ منه الأنبياء، وأنّه مطيع لله ﷻ، وأنّ له خواصّ وفيه فوائد، وأنّ التراب مسجد وطهور ومصلّى.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنّة وكان فيها حال الخطاب، وفيها وسوس لآدم، فدلّ الحال على مرجع الضمير، وقيل: من السماوات، وكان فيها كذلك، وكونه فيهنّ دليل الضمير، وإنّما يخرج الشيء مِمّا هو فيه وكونه في

سماء ككونه في الأخرى، أو من السماء بإرادة الجنس، والخروج من السماوات تحريم للجنّة بالأولى.

أو من زمر الملائكة لأنّه فيهم، فالخروج منهم، أو أخرج من رحمتي أي محلّها وهو الجنّةُ، والسماوات عارض، نصّ الله بالقياس فاستحقّ الإخراج من الرحمة والرجم واللعنة، كما قال الله ﷻ: **﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾** ومعنى مرجوم مطرود من الرحمة والهدى.

وعبّر بالرجم عن الطرد لأنَّ المطرود يرمى بالحجارة في الجملة، أو يرجم بالشهب إذا جاء للاستماع، كسائر من يسمع من أولاده، أو رجمهم رجمه إذ كان أباهم وأمرهم بالاستماع. واللعنة: الطرد والإبعاد في الدنيا، ومن لعن في الدنيا لم يكن له يوم القيامة إلاَّ الخزي والعذاب، فلا إيهام أنَّ له السوء في الدنيا فقط.

أو معنى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أبدا، لأنَّ يوم الدين مِمَّا يضرب به الناس المثل في البعد، وقد علم الله أنَّ الناس سيكونون بخلقه لهم، وفهم إبليس ذلك، وأنّهم يضربون به المثل إذا كانوا، وأيضا الدين: الجزاء فكأنّه قيل: تبعد عن الخير إلى يوم تجازى فيه على عصيانك، وأيضا يلعن لعنة يوم القيامة تنسيه هذه اللعنة، كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُم...﴾ (سورة الأعراف: ٤٣) وأيضا يعذّب فيه عذابا ينسيه اللعن في الدنيا.

وكان يلعنه أهل السماوات والأرضين، لأنّه أوّل عاص على المشهور، وكلُّ عصيان من غيره عصيان منه لأنّه آمر به، ففي الدنيا اللعنة وينضمُّ إليها في الآخرة العذاب واللعنُ الدائمان.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ أخّرني عن الموت والجزاء والتعطيل عن الإغواء، والفاء عطفت «أَنظِرْنِي» على كلام الله أو على محذوف، أي فعلت ذلك أو قضيت

ذلك فأنظرني، عطف طلب على خبر، ولا يقدَّر: إذا جعلتني رجيما ملعونا فأنظرني، لأنَّ الجعل واقع متحقّق لا مستقبل، ولا إن جعلتني رجيما، لأنَّه لم يشكَّ في الجعل، وكذا تقول في مثل ذلك.

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يبعث الناس، فإذا أخّر إلى يوم البعث لم يمت بعد، فلم يصبه الموت كما أصاب الناس، فلا يعذَّب أو يستمرُّ على الإغواء بعد بعثهم أيضا، وهذا لجهله أنَّه لا تكليف بعد البعث، ولا معصية بعده، وأنَّه لا بدَّ له من الموت، أو علم ذلك ودعا بخلافه هذا لطمعه فأجابه الله عز وجل بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ وهو وقت نفخة الموت فيموت كغيره، ويبعثون بعد أربعين سنة بنفخة.

ويجوز أن يكون «يوم يبعثون» هو الوقت المعلوم بأن سمَّى وقت النفخ بالموت يوم بعث، وأنَّه وما بعده وقت واحد، وعلى هذا فلم يرد أنَّه يحيى أبدا، ولا أنَّه يغوي الناس بعد البعث، فعبَّر عنه بيوم الجزاء وبيوم البعث وبالمعلوم، لوقوعه في الكلامين.

يقول الله تعالى لملك الموت: جعلت فيك قُوَّة أهل الأرضين والسماوات السبع، وألبستك أثواب السخط، فاذهب بغضبي وسطوتي مع سبعين ألف ملك امتلئوا غيظا وغضبا مع كلٍّ واحد سلسلة من جهنَّم وغلٌّ إلى إبليس وانزعوا روحه الخبيثة بسبعين ألف كلاَّب، وناد مالكا ليفتح أبواب جهنَّم ويبرز له بصورة لو أبصرها أهل السماوات والأرض لماتوا، فيفعل، ويقول: قف يا خبيث لأذيقك موتة الأوَّلين والآخرين، فيهرب إلى المشرق وإلى المغرب وإلى جهة السماء، ويغوص في البحر وفي الأرض، ويجد في ذلك كلّه ملك الموت سابقا له، فيجيء موضع آدم وحوَّاء فيقول: من أجلك صرت هكذا، ويحييهما الله عز وجل ليشاهدا عذابه، ويقال له: اسجد لآدم فيقول: لم أسجد له حيًّا فكيف أسجد له ميِّتا؟ وقد جعلت له الأرض جمرة وطعنته الملائكة بالكلاليب.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ «مَا» مَصدَرِيـَّة، والباء للقسم، أي فبإغوائك إيَّاي، وجوابه قوله تعالى: ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الاَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ, أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ ومفعول «أزيِّن» محذوف للعموم تقديره لأزيِّنَنَّ لهم في الأرض المعاصي وما يوصل إليها، أو ينقصها أو يقلِّلها.

(فقه) وفي الآية القسم بفعل الله وهو الإغواء، والخلف في ذلك فقيل: جائز، وهو الصحيح عندي، وقيل: غير جائز، فقيل: ينعقد فتلزم الكفَّارة بالحنث وهو الصحيح عندي، وقيل: لا ينعقد فلا تلزم.

وفي سورة "ص" القسم بالصفة وهي العـزَّة إذ قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ (سورة ص: ٨١)، وفي الأعراف [آية ١٥] بالفعل وهو الإغواء، والقصَّة واحدة، فإمَّا أن يكون أقسم مرَّتين: مَرَّة بفعل الله وهو ما هنا وفي الأعراف، وتارة بصفته وهو ما في «ص»، وإمَّا أن تجعل «مَا» اسما واقعا على العزَّة، وحذف الرابط المجرور ولو بلا وجود لشروط حذفه، فإنَّ من النحاة من أجاز الحذف بدليل مطلقا، وأجاز حمل الكلام عليه، والتقدير فبما أغويتني بها مراعاة للمعنى أو به مراعاة للفظ، كأنَّه قيل فبعزَّتك التي أغويتني بها، وإمَّا أن تجعل الباء سببيَّة متعلِّقة بمحذوف، أي أجتهدُ في كيدهم لإغوائك إيَّاي.

والمعتزلة منعوا أن يحدث الله الضلال، فأوَّلوا الإغواء بالنسبة إلى الغيِّ، مثل تأويل ﴿أَنْ يُّغَلَّ﴾ (سورة آل عمران: ١٦١) ، بأن ينسب إلى الغلول، أو بكونه سببا لغيِّه، وذلك بأمره بالسجود المترتِّب عليه الامتناع منه.

(أصول الدين) ذهب بعض معتزلة البصرة إلى وجوب الأصلح في الدين، أي الأنفع لعبده على الله، وذلك مذهب الجبَّائي، وقال بعض معتزلة البصرة كذلك، إلاَّ أنَّ الأوَّلين اعتبروا الأنفع في جانب علم الله ﷻ، والآخرين لم يعتبروا ذلك،

وزعموا أنَّ من علم الله منه الكفر على تقدير التكليف يجب عليه تعريضه للثواب، بأن لا يموت صغيرا أو كبيرا مجنونا من صغره إلى موته، وقالت معتزلة بغداد: إنَّه يجب على الله الأصلح في الدين والدنيا معا، بمعنى الأوفق في الحكمة والتدبير.

وأمهل إبليس ليزداد عذابا ويلتحق به متّبعوه، ويعظم الثواب لمن خالفهم، ولا واجب على الله وقد علم إبليس أنَّ فعل العبد منسوب إلى الله ومخلوق له، وذلك كالإغواء هنا وجهلته المعتزلة.

والأرض أرض الدنيا، يريد إنّي أغويهم في الأرض كما أغويت أباهم في الجنَّة، وأنَّ له قُوَّة، أو أراد بالأرض الحياة الدنيا، والهاء في «لَهُمْ» للناس، ومعنى ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: خذلتني، ومعنى ﴿أُغْوِيَنَّهُم﴾ أحملهم على الغواية بالوسوسة، و﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: من اختارهم الله بالهدى والسعادة فيؤمنون ولا يؤثّر فيهم كيد إبليس، ولو لم يقل: ﴿إلاَّ عِبَادَكَ﴾ لكان كاذبا، فقاله تحرُّزا عن قبح الكذب لخبثه في ذاته لا لتقوى ولا لخوف.

﴿قَالَ هَذَا﴾ أي الإخلاص، أو اختياري عبادا لطاعتي، ولا يؤثّر فيهم كيدك، أو هذا الاستثناء ﴿صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ أي طريق أراعيه ولا يتخلّف، كأنّه واجب ولا واجب على الله، أو ﴿عَلَيَّ﴾ بمعنى إليَّ، وأبقى المعتزلة ﴿عَلَيَّ﴾ على ظاهرها من الوجوب، لأنّهم أوجبوا على الله الأصلح ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ لا انحراف فيه ولا عنه، ويجوز أن يكون اسم الإشارة عائدا إلى ما ذكر بعد، وهو معنى قوله: **﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ اِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾** العباد على العموم، فالاستثناء متّصل.

ويجوز أن يراد بالعباد العباد المخلصين، فالاستثناء منقطع، أي لكن من اتّبعك من الغاوين لك عليهم تسلّط بالوسوسة المتأثرة فيهم فقط لا في المخلصين، ولا

إجبار لك عليهم بنحو خنق أو شنق، بل غوايتهم باختيارهم، والسلطان : التسلُّط، ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ اِلاَّ أَن دَعَوْتُكُم فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ (سورة إبراهيم: ٢٥) .

وفي جعلِ الاستثناء متّصلا استثناءُ الأكثر، وفيه خلاف، وذلك أنَّ الغاوين أكثر من المخلصين، وأجاز قوم استثناء النصف وأقلّ، وأجاز قوم استثناء الأكثر، ومنع آخرون استثناء النصف وأكثر، وأجاز ما دون النصف وهو الأصل.

والآية تصديق لإبليس في قوله: ﴿إلاَّ عِبَادَكَ مِنهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فالمخلصون في قول إبليس: ﴿إلاَّ عِبَادَكَ مِنهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ هم العباد في قوله ﷻ : ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ على أنَّ الاستثناء منقطع، والآية أيضا تكذيب لِمَا أوهم كلام إبليس من أنّه يجبرهم على الغواية، وإذا أريد بـ«عِبَادِي» العباد المخلصون فالإضافة للتشريف.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ دار العذاب لا خصوص الطبقة المسمَّاة جهنّم ﴿لَمَوْعِدُهُمُ أَجْمَعِينَ﴾ موعد من اتَّبَعَك من الغاوين كلّهم وأنت أسفلهم فيها، فالضمير لـ«مَنِ اتَّبَعَكَ»، ويرجّحه أنَّ اعتبار الاتّباع أدخل في الزجر عن اتّباعه، مع أنَّ «الْغَاوِينَ» جيء به لبيانه، أو موعد الغاوين كلّهم، فالضمير للغاوين، ويرجّحه القرب وظهور الملاءمة، والمعنى واحد، لأنَّ «مِنْ» للبيان فمن اتّبعه هم الغاوون. والموعد: مصدر ميميٌّ على حذف مضاف، أي ذات موعدهم، أي وعدهم فـ«أَجْمَعِينَ» توكيد، أو حال للهاء، أو اسم مكان، وعليه فـ«أَجْمَعِينَ» توكيد للهاء.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أطباق على وفق الأعضاء السبعة: العينين والأذنين واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، وهي مصادر السيِّئات المستوجبة لجهنّم، كما هي مصادر الحسنات المستوجبة للجنّة لمن استعملها لها، [قلت:] وقد ينال الخير بالنية وحدها، فكانت أبواب الجنّة ثمانية.

والسبعة: جهنَّم لفسَّاق الموحِّدين هي فوق، ولظى للنصارى، والحطمة لليهود، وقيل: بالعكس فيهما، والسعير للصابين، وسقر للمجوس، والجحيم لسائر المشركين، والهاوية لمن أضمر الشرك وأظهر الإسلام، ولا تهم أنَّ الفسَّاق من أهل التوحيد يكونون تحت المشركين كما هو قول مشهور ولو جاء أنَّه يبدأ بهم.

﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ طبق ﴿مِّنْهُمْ جُزْءٌ﴾ من جهنَّم ﴿مَّقْسُومٌ﴾ مجعول لهم قِسْم منها، أو الباب في الموضعين على ظاهره، يدخلون النار من سبعة أبواب لكثرتهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)﴾

مجازاة الله للمتَّقين يوم القيامة

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لجميع المعاصي أو صغائر لم يصرُّوا عليها.

(أصول الدين) وذكر الفخر في سورة لقمان أنَّ اسم الفاعل يعتاد لمن رسخ فيه، فيحمل عليه الشرع، ولو كان ربَّما أطلق على من لم يرسخ، ويدلُّ لهذا ما ورد من أحاديث إبطال الأعمال بالكبائر والآيات، فليس المراد كلُّ من اتَّقى الشرك، وإلاَّ كان قائل ذلك مرجئة أو نقض قوله بدخول بعض النار.

﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ لكلِّ واحد مع من تحته من ولدان وحور جنَّة وعين، أو لكلِّ واحد منهم مع من تحته عدد من عيون، وعدد من جنَّات، ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٤٥) وكثيرا ما يطلق لفظ الجمع على الاثنين فصاعدا، وأيضا قال ا لله ﷻ: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ (سورة الرحمن: ٦١) فيحتمل

الضمُّ إلى الأولَيَيْنِ فَتِلْكَ أربع لكلٍّ واحـد، وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَارٌ...﴾ (سورة القتال: ١٦) يدلُّ على تعدُّد الأنهار.

وليس فيه تعدُّد العيون، لكن لا مانع من أن يقال: لا فرق بين العين والنهر في دار الخلد، ويجوز أن يقال: العيون مقادير لتلك الأنهار، بل تنبع من تلك الأنهار، والنهر أعظم من العين، ويجوز أن تجري العيون بعضها إلى بعض، إذ لا حقد ولا حسد، ومعنى كونهم في جنّات وعيون أنَّهم في تملُّك جَنَّات وعيون، أو في شأن جَنَّات وعيون، أو في نفع جَنَّات وعيون.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ﴾ يقول الله لهم قبل دخولها بخلق الصوت في آذانهم، أو في موضع أو بملك: ادخلوها، أي ادخلوا الجنّة، أو الجنّة والعيون، لأنَّ لهم دخول العين، ولا ينجس الماء بهم ولا يتّسخ، أو المراد بالدخول الملابسة فتشمل العيون والجنَّات.

ويجوز أن يقدَّر حالا محكية، أي اثبتوا في جنّات وعيون مقولا لهم قبل ذلك: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ﴾ أو كلَّما أرادوا دخول جنّة من جنّاتهم قيل لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ءَامِنِينَ﴾ بعد أن كانوا فيها، والباء للمصاحبة أي مع سلامة من كلِّ مكروه ما دمتم فيها، وأنتم لا تخرجون منها، أو مع قولهم سلام عليكم كمن يسلِّم عند دخول دار، فيكونون يسلِّمون على من في الجنّة من الحور والولدان والملائكة، وأيضا كلُّ مسلم يسلِّم على من سبقه فيها من المسلمين، أو المراد مسلَّما عليكم لأنَّ الملائكة تسلِّم عليهم ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ (سورة الرعد: ٢٥).

﴿ءَامِنِينَ﴾ مقدِّرين الأمن من كلِّ ما يكره، فيكون توكيدا في المعنى لقوله: ﴿بِسَلاَمٍ﴾ إذا فسِّر بالسلامة من مكروه، أو يقدَّر بسلام مِمَّا يضرُّ كالمرض، وزوال النعم والفزع، آمنين مِمَّا يكره دون ذلك، أو بالعكس.

ولا توكيد إذا فسَّرنا السلام بتسليمهم، أو بالتسليم عليهم بقصد التحية والدعاء،

وكذا لا توكيد إذا فسَّرنا ﴿ءَامِنِينَ﴾ بمصدِّقين لقول ادخلوها بسلام، ولا يفسَّر بعدم الخروج منها، وإلاَّ تكرَّر مع قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ فيكون ﴿وَماهُم...﴾ مؤكِّدا له لأنَّ الأمن من الخروج إذ جاءهم من الله تعالى لا يُتوهَّم تخلُّفه.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ حِقد أو عداوة أو بغضاء، أو حسد سابقات في الدنيا، أو المراد أنَّه لا تتولَّد لهم فيها، وأنَّهم يوقفون على باب الجنَّة وقفة يغتسلون بماء هناك، ويشربون، فيزول كلُّ ما في قلوبهم من قبل، والدنيا سجن المؤمن، وروي أنَّهم يقفون وقفة فيسامح بعض بعضا، ثمَّ يؤمر بهم إلى الجنَّة، وقد نقَّى الله قلوبهم من الغلِّ والحقد والغشِّ والحسد، كأنَّها قلب رجل واحد، فلا يتغيَّر قلب واحد منهم بعلوِّ درجة غيره عليه، **وهذا أولى** من أن يقال: إذا كانوا فيها زال ذلك عنهم، ومن أن يقال: إذا كانوا على سرر متقابلين زال ذلك.

﴿إِخْوَانًا﴾ حال من الهاء في «صُدُورِهِم» المضاف إليها ما معناه بعضُ معناها، أو من ضمير الاستقرار في قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أو من واو «ادْخُلُوهَا» أو من المستتر في «ءَامِنِينَ» أو في «سَلَامٍ» إذا جعل حالا، ومعنى ﴿إِخْوَانًا﴾: متصافِين بتخفيف الفاء، أي كلٌّ صفيٌّ للآخر.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ حال أخرى كذلك، أو نعت لـ«إِخْوَانًا»، أو متعلِّق بقوله: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾، أو حال من المستتر فيه، و«مُتَقَابِلِينَ» نعت «إِخْوَانًا»، أو حال أخرى كذلك، أو من المستتر في «عَلَى سُرُرٍ» إذا جعلناه حالا ممَّا قبله، أو حال من المستتر في «إِخْوَانًا» لتضمُّنه معنى المشتقِّ، وهو متصافين.

ويجوز تعليق «عَلَى سُرُرٍ» بـ«إِخْوَانًا» على التضمين، إلاَّ أنَّ عدم التضمين أولى عند عدم الاحتياج إليه، ويجوز تعليقه بمتصافِّين بالشدِّ، أي جاعلين صفوفًا، وتقابلهم بمعنى أنه لا يكون بعض قفا بعض لدوران الأسرَّة بهم حيثما أرادوا.

﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب بعمل إذ لا عمل فيها، ولا بمعاشرة، لأنهم يزدادون حُبًّا وأُنسًا بها، وبالنعم والخدم والأزواج ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدا لا يسلَّط عليهم مُخرِجٌ فضلا عن أن يخرجوا بأنفسهم واختيارهم، وتمام النعمة بدوامها وإلاَّ كانت مكدَّرة بتوقُّع الزوال، والموت خروج منها لأنَّ المَيِّت لا يكون في ملاذّها فلا يموتون.

﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الاَلِيمُ﴾ تقرير بإجمال لِمَا تقدَّم تفصيلا من الوعد والوعيد، كما تقول: لك ألفان وثلاثة آلاف فذلك خمسة آلاف، إلاَّ أنَّه قدَّم في هذا الإجمال ما أخرَّ من التفصيل، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ...﴾ وأخّر ما قُدِّم وهو ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ...﴾.

(أصول الدين) وليس في ذكر المغفرة ما يدلُّ على أنَّ المراد بالمتَّقين متَّقو الشرك فإنَّ الكبائر التي دون الشرك مهلكة إن لم تغفر، والصغائر أيضا تغفر باجتناب الكبائر، والعقاب على الصغائر مع اجتناب الكبائر جائز عقلا لا وقوعا، لأنَّ الله ﷻ أخبرنا بغفرانها لو شاء لعذَّب عليها لكن لم يشأ.

وفي الآية توكيد الرحمة والمغفرة وتوسيعهما، لأنه أخبر بهما عن نفسه، وزاد ﴿أَنَا﴾ واخبر عن عذابه بأنَّه مؤلم لا عن نفسه بأنَّه معذِّب العذاب الأليم، قال الله تعالى [في حديث قدسي]: «**رحمتي سبقت غضبي**»[1].

وذكر مثل ذلك الوعد والوعيد في قوله:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٤، ص٢٢٣.

فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

قصّة ضيف إبراهيم وإخباره بإهلاك قوم لوط

﴿**وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ**﴾ لأنَّ إبراهيم وأهله ولوطا ومن آمن به متّقون، وقوم لوط مجرمون.

والمراد بالعباد في الآية قبلُ وبضميره في الآية هذه مطلق العباد، ويجوز أن يراد بهما عباده المخلصون، فالإضافة للتشريف وقدَّم الرحمة تأكيدا وإطماعا، ولسبقها غضبه، وأكّدها بوصفي المبالغة، قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين، وأرسل في**

خلقه رحمة واحدة، حتَّى إنَّه لترفع الدَّابَّة بها رجلها عن ولدها، وبها يتراحم الناس، ولو علم الكافر بكلِّ ما عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنَّة، ولو علم المؤمن بكلِّ الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[1] أي لتغلَّب عليه الخوف، قال عبادة بن الصامت: لو يعلم العبد قدر عفو الله ما تورَّع عن حرام، ولو علم قدر عذاب الله لجمع نفسه إلى قتلها.

وروي أنَّه ﷺ مرَّ بنفر من أصحابه وهم يضحكون، فقال: «**أتضحكون وبين أيديكم النار؟**» وَلَمَّا وصل الحجر رجع إليهم فقال: «**إنَّ الله تعالى أوحى إليَّ: لم تقنط عبادي؟**» ونزل: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾.

وذكر قصص الأنبياء وأممهم ترغيبا وترهيبا، وضيف إبراهيم لإهلاك قوم لوط وتبشير إبراهيم، فناسب ذكر الرحمة والعذاب في الآية قبل، وكذلك ناسب التفصيل السابق. وضيف إبراهيم اثنا عشر ملكا أو عشرة أو ثلاثة، على صفة غلمان حسان، أقوال، منهم جبريل، وأصل الضيف مصدر يصلح للقليل والكثير ولذلك قال:

(نحو) ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ بواو الجماعة، و«إِذْ» بدل اشتمال من «ضَيْفِ»، كأنَّه قيل: عن وقت دخولهم ولو كانت "عن" لا تدخل على "إذ"، بناء على أنَّه لا يلزم صلوح عمل عامل المبدَل منه في المبدَل، أو مفعول لمحذوف مبدَل من «نَبِّئْ»، أي اذكر إذ، أو متعلِّق بـ«ضَيْفِ»، بمعنى إضافة أو ضيافة، ولا يتعلَّق بلفظ خبر مقدَّر أي عن خبر «ضَيْفِ»، لأنَّ الإخبار لم يقع في زمان إبراهيم،

١- رواه **البخاري** في كتاب الرقاق (١٩) باب الرجاء مع الخوف، رقم ٦٤٦٩. **والسيوطي** في الدر، ج٤، ص١١٤، وقال: أخرجه البخاري ومسلم والبيهقي في الأسماء والصفات مرفوعا.

ويجوز تقدير: عن قصَّة ضيف إبراهيم الواقعة إذ دخلوا عليه.

﴿فَقَالُواْ سَلاَمًا﴾ أي ذكروا لفظ سلام بأن ذكروه بالنصب في كلامهم، على معنى سلَّمنا سلاما، أو نسلِّم سلاما، أو بالرفع في كلامهم مع عليكم في كلامهم، أو مع حذفه وسلَّمنا أو نسلِّم المقدَّر للإنشاء لا للإخبار. والمضارع للحال هنا لا للاستمرار كما قيل، كما تقول: بعتُ، قاصدا لعقد البيع في الحال، وتقول: أبيع، قاصدا لعقده كذلك، و لم يذكر ردَّ السلام هنا ولا بَقِيَّة القصَّة لتقدُّم ذكرهما في سورة هود وللاختصاص.

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ خائفون لأنَّهم دخلوا بلا إذن وفي غير وقت دخول، كما بعد العتمة وفي وسط الليل أو السحر، ولامتناعهم من الأكل من العجل الحنيذ، وهذا القول بلسان حال لأنَّ في الآية الأخرى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ (سورة الذاريات: ٢٨) إلاَّ أن يقال: قال بلسانه بعد الإيجاس.

﴿قَالُواْ لاَ تَوْجَلِ اِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾ ولا يخاف أحد مِمَّن جاء للتبشير، لا توجل مِنَّا لأنَّا ملائكة، أرسلنا ربُّك لنبشِّرك بغلام كثير العلم إذا بلغ، أو إذا أوحي إليه، وهو إسحاق، وفسِّر ﴿عَلِيم﴾ بنبيء. ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالولد ﴿عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ على مسِّ الكبر إيَّاي، ومسَّ زوجي كما في غير هذه السورة. الاستفهام للتعجُّب من أن يولد له وهو على مائة سنة، أو مائة وعشرين، من ذات تسعين أو مائة على ما في ذلك من أقوال.

و«عَلَى» للاستعلاء المجازي متعلِّق بـ«بشَّر» وكذا إن جعل للمصاحبة، ولا حاجة إلى تعليقه بمحذوف حال، وأجيز أن يكون للإنكار وفيه أنَّ الإنكار تكذيب للرسل وهم الملائكة حاشاه عن تكذيبهم، إلاَّ أن يقال: لم يعلم أنَّهم ملائكة حين قالوا ذلك، بل بعد، لكن لا مانع على هذا أن يجعل الاستفهام حقيقيًّا، كأنَّه قال:

أحقٌّ تبشيركم؟ ثمَّ إنَّه قد يصحُّ الإنكار مع علمه بأنَّهم ملائكة على طريق شدَّة الحيرة في ذلك، والولَهِ وضُعف البشر، أو على طريق أن لا ولادة عادة في مثل كبري، أو على طريق أنَّ مثلي في السنِّ يكره الولادة، فلا تكون بشارة له، ولا ينقض ذلك أنَّهم جعلوه تبشيرا لأنَّه يرجع ﷺ إلى أنَّه بشارة، ويفرح بالولد.

وهذه الأوجه كلُّها أيضا في قوله: ﴿**فَبِمَ تُبَشِّرُونِ**﴾ وزاد وجها آخر وهو أن يكون استفهاما حقيقيًّا مع علمه بأنَّهم ملائكة بمعنى: فعلى أيِّ وجه يكون التبشير؟ ويجوز إن يكون الإنكار في الموضعين بمعنى أنَّ نفسي نافية لذلك، ولو كان حقًّا، وإذا كان هذا استفهاما عن طريق أو كَيفِيَّة فالملائكة لم يجيبوه عليها، لأنَّ الأحسن له أن لا يسأل عنها بل يصدِّق ويفرح.

﴿**قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ بأمر غير باطل بل واقع ولا بدَّ، أو بأمر أيقنَّاه لا نتردَّد فيه، والباء متعلِّق بـ«بَشَّر»، أو بَشَّرْنَاكَ ونحن على الحقِّ في تبشيرنا، فتعلَّق بحال محذوف، أي ملتبسين بطريق هو قول الله وأمره، وإبراهيم ﷺ مؤمن بقدرة الله ﷻ لكن صورة كلامه كصورة القانط، فقالوا عليها: ﴿**فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ**﴾ كما قال: كيف تحيي الموتى؟ فقال ﷻ: أو لم تؤمن؟ [في سورة البقرة آية: ٢٥٩] والقانط: الآيس، وضرب عن صورة القنوط إلى التصريح بما رسخ في قلبه بقوله: ﴿**قَالَ وَمَن يَّقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ**﴾ أي لا يقنط منها إلاَّ الضالُّون، والله قادر على أن تلد لي عجوز عاقر وأنا كبير، وقد خلق أبي آدم بلا أب ولا أم.

وقد يقال: في الآية نوع تعريض منه ﷺ بأنَّهم لم يصيبوا في نهيهم إيَّاهُ عن القنوط، مع أنَّه غير صادر منه على أنَّه لم يعلمهم ملائكة إلاَّ بعد، وعلى علمه بهم أشار إلى أنَّ في كلامهم غلطة، والملك لا يخطَّأ لكن توجَّع ﷺ بقولهم. والضالُّون: المخطئون عن معرفة سعة رحمة الله، وقدرته.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ عطف على محذوف، أي هذا تبشيركم فما خطبكم أَيُّهَا الملائكة الذين أرسلهم الله في خطب بالذات؟. وفي التبشير بالغرض عطف إنشاء على إخبار، أو قد بشَّرتموني فما خطبكم؟ عطف إنشاء واسميَّة على إخبار وفعليَّة ، أو على «فَبِمَ تُبَشِّرُونِ» عطف اسميَّة إنشائيَّة على فعليَّة إنشائيَّة، وعلم أنَّهم أرسلوا أصالة لغير التبشير من أنَّهم جماعة، ولا يعهد أنَّ التبشير يكون بها بل بفرد، كما بشَّر بعده بواحد: زكرياء ومريم، على أنَّ المراد بالملائكة جبريل تعظيما له، وبشَّر مريم عند النفخ، لكن عاجلته بالإنكار والردِّ إذ رأته على صورة شابٍّ جميل، أو علم إبراهيم أنَّ مجيئهم أصالة لغير التبشير من كونهم لم يبتدئوا بها، بل ذكروها في أثناء مطلق الكلام لإزالة الوجل، أو علم أنَّهم جاءوا أصالة لغيره من قِلَّة كلامهم بالبشارة مع مكثهم معه بعدها.

والعذاب يحتاج فيه إلى العدد عادة ولهذا ولتعظيم لوط أرسل إليه ملائكة مع أنَّ الواحد يكفي في إهلاك قومه، وقلب قراهم ورجمها كما قلبها جبريل بجناح واحد أو بريشة، وكما قال الله: ﴿بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ (سورة آل عمران: ١٢٥) مع أنَّ الله كاف والملك الواحد بإذنه تعالى كاف، والخَطْبُ والشأن والأمرُ ـ واحد الأمور ـ بمعنًى، إلاَّ أنَّ الخطب فيما يعظم.

﴿قَالُواْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ مشركين فاسقين هم قوم لوط الكافرون خَاصَّةً لنهلكهم، ولم يدخل فيهم قومه المؤمنون، فالاستثناء منقطع في قوله: ﴿إِلاَّ ءَالَ لُوطٍ﴾ أتباعه في الدين، أي لكن آل لوط ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ويجوز أن يكون الاستثناء من المستتر في «مُجْرِمِينَ»، فيكون متَّصلا، أي إلى قوم أجرموا كلُّهم إلاَّ آل لوط فإنَّهم لم يجرموا، وإلاَّ آل لوط دليل على أنَّ القوم المجرمين قوم لوط، ولو كان الاستثناء منقطعا لأنَّ المنقطع تشترط فيه المناسبة، إذ لا يقال: قام القوم إلاَّ ثعبانا، والجملة بعد الاستثناء المنقطع كأنَّها خبر عنه،

وكأنَّه مبتدأ إذا كان له تعلُّق به.

﴿إلاَّ امْرَأَتَهُ,﴾ استثناء من آل لوط متَّصل إن أريد بآل لوط آله بالإسلام وآله بالعشرة، منقطع إن أريد الآل بالإسلام، أو من الهاء كذلك، وإذا استثنينا آل لوط من المستتر في «مُجْرِمِينَ» تعيَّن أنَّ امرأته مستثناة من الهاء كذا قيل، ولا مانع من استثنائها من آل لوط المستثنين من المستتر في «مُجْرِمِينَ» أي أجرموا إلاَّ آل لوط لم يجرموا إلاَّ امرأته منهم أجرمت.

﴿قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين مع سائر الكفرة فتهلك معهم، أو المراد إنَّها بقيت في العذاب ولو خرجت لأنَّها لحقها حجر، علّق «قَدَّرْنَا» باللام لتضمُّنه معنى فعل القلب، كأنَّه قيل: علمنا أنَّها لمن الغابرين، أو معنى القول، والقول يعلّق بلا تضمين لأنَّه يتسلَّط على الجملة على أيِّ حال كانت. و«نَا» للملائكة، والمقدِّر هو الله لا هم، لكن لَمَّا جرى قضاء الله على أيديهم أسند التقدير إليه، وأصل التقدير: جعل الشيء على قدر غيره، ثمَّ أطلق على مطلق إجراء الشيء على غيره. والقضاء: يطلق على العلم الأزليِّ فهو وصف، وعلى كتابة شيء في اللوح المحفوظ، وعلى إيقاعه خارجا، وعلى الحكم به فهو فعل.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ وصلوهم بعدما خرجوا عن إبراهيم وقريته، والمراد بآل لوط نفسه، أو لفظ «آل» زائد، أو هو وأهل بيته، أو هو وقومه مطلقا، وعلى كلِّ حال أجابهم وحده وذلك أنَّهم جاءوه وقومه ليهلكوا قومه ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لم أعرفكم من قبل بعين ولا بوصف، وإنّي متوقّع لشرِّكم من قتلي أو ضرِّي، وإنَّما حملت الإنكار على ذلك لا على معنى أنَّه لا يعرفهم، ولا يعرف من أيِّ قوم هم، ولا لم جاءوا لأنَّ قولهم في الآية: ﴿قَالُواْ بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ لا يلائمه فيحمل على لازمه، لأنَّ من أنكر شيئا

ولم يعرفه ينفر منه ويخاف، فالمعنى: ما جئناك بما يضرُّك فتخاف، بل بما يسرُّك وهو عذاب يشكُّ فيه قومك إذا أنذرتهم به.

﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الباء للتعدية، أي صيَّرنا الحقَّ آتيك، وهو عذاب قومك، وإنَّما قالوا ذلك مع أنَّه أتى قومه لأنَّه يسرُّ به، أو الحقُّ: الإخبار بأنَّهم يهلكون عن قريب، وإنَّما أسند إحضار العذاب إلى الملائكة مع أنَّ محضره هو الله عَزَّ وَجَلَّ لأنَّه على أيديهم، وقالوا: «أَتَيْنَاكَ» بصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع، أو الإتيان بمعنى الشروع في التنقُّل إليهم، أو الباء للمصاحبة أي جئناك مع الإخبار الحقِّ أو مع العذاب. وَأَمَّا «كَانُوا» فعلى ظاهره من المضيِّ، لكنَّه استمراريٌّ كما دلَّ عليه المضارع بعده، فهم يمترون إلى الآن ما لم يقع، وقد يحمل على تحقُّق الوقوع كأنَّه وقع العذاب، فهم يخبرونه بأنَّه كان يمترون فيه فوقع فانقطع الامتراء ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في إخبارنا بمجيء العذاب وفي صحبتنا له.

﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ وهم من أسلم، أو هم وعياله، واختلف في زوجه هل بقيت أو سرت ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ﴾ في بعض من الليل، ولا دليل على تخصيصه بآخر الليل، ولو فسِّر به قول شاعر:

افتحي الباب وانظري في النجوم ... كم علينا من قطع ليل بهيم

مع أنَّه لا يلزم تفسير [هذا] الشعر بالأخير، والشاعر رغب في المكث مع حبيبته فيستريح بما بقي، أو رهب فيستريح بقلَّة ما بقي.

﴿وَاتَّبِعَ أَدْبَارَهُمْ﴾ كن خلفهم لتنشِّط الضعيف وتؤمِّن الخائف، وتدلَّ على الطريق من حاد عنه وتسرع بهم قبل الصبح، إنقاذا لهم من العذاب، ولِئَلاَّ يشتغل قلبك عن الذكر بمن خلفك، ولِئَلاَّ تغفل عمَّن خلفك.

﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ﴾ مطلقا، أو إذا وقعت الصيحة ﴿مِّنكُمْ أَحَدٌ﴾ وراءه لينظر ما ينزل، فإنَّه يموت بالنظر إليه إذ لا يقوى قلبه على مشاهدته مطلقا، أو إذا وقعت الصيحة، أو لأنَّ الله أمر الملائكة برمي من التفت وقضى الله عَجَلْ أن لا يلتفت أحد منهم إلاَّ امرأته، فقضى أن تلتفت فترمى، لأنَّها كافرة التفتت، وقالت: واقوماه، فرميت بحجر، أو يرمى من التفت لعدم امتثال النهي، وفي هذا بعد، أو نهوا عن الالتفات قطعا لهم عن أن يتمنَّوا الرجوع فلا تخلص هجرتهم، أو تتعلَّق أنفسهم بمواطنهم فتنقص هجرتهم ولا تخلص.

لَمَّا ترك الخليل ﷺ هاجر مع ابنها إسماعيل لم يلتفت إليهما. أو لِئَلاَّ يرقُّوا على قومهم، أو لِئَلاَّ يقضوا أوطارهم بكثرة النظر فتسهل الفرقة فينقص الأجر، أو لا يتخلَّف لغرض عن الهجرة، والتخلُّف لازم للالتفات فعبَّر عنه بالالتفات. وفي ذلك خطاب قومه معه بعد خطابه وحده، والتفات من غيبة القوم إلى خطابهم.

﴿وَامْضُواْ حَيْثُ تُومَرُونَ﴾ أي إلى حيث تؤمرون، كما قال الشاعر:

.... لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم[1]

ولا يقال: إلى حيث أمركم الله بالمضيِّ إليه، لأنَّ حيث لا يرجع إليها الضمير من الجملة بعدها إلاَّ نادرا، وليست منعوتة بالجملة بعدها بل مضافة إليها، وأخطأ من قال إنَّ هذا ممنوع مع بقائها على الظرفيَّة لا مع خروجها عنها، كما أخرجت هنا عن الظرفيَّة بدخول «إلى»، وإن فسَّرنا ﴿امْضُواْ﴾ بسيروا، أو ﴿حَيْثُ﴾

١- البيت لزهير:

فشدَّ ولم يفزِع بيوتا كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

وأم قشعم: الحرب أو المنية أو الذل. (لسان العرب، مَادَّة: «قشعم»).

بالزمان لم تقدَّر «إلى»، لكن لو كان للزمان لقيل: حيث أمرتم، ولو قيل هذا لم يشتمل على الموضع الذي يؤمرون بالذهاب إليه.

وعلى أنَّه مكان ــ وهو الأصل فيه ــ تكون مشتملة على التعرُّض له إجمالا، وهو الشام أو مصر أو الأردن أو موضع النجاة مطلقا، كأنَّه قيل: سيروا في موضع الأمر بالسير، وأضيف الموضع للأمر بالسير في هذه للعناية، لأنَّه المراد في نفس الأمر ولالتباس الأمرِ بشيء بذلك الشَّيْء.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الاَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ عدِّي "قضى" بـ"إلى" لتضمُّنه معنى أنهينا، أو أوحينا، وذلك الأمر إشارة إلى مبهم لم يعرف إلاَّ بما عطف عليه عطف بيان، أو أبدل منه، وهو أنَّ دابر هؤلاء مقطوع، أي أوحينا قطع دابر هؤلاء، وهذا مغن عن تقدير: هو أنَّ دابر، أو بأنَّ دابر؛ أو الإشارة إلى الهلاك المعلوم من الإرسال إلى القوم المجرمين، ومن ذكر تنجية من نجى المعبر عنه أيضا بـ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾، وهو أقرب محلاًّ وأصرح بالاسم وأنَّ «دَابِرَ» بدل. وفي الإشارة تفخيم للأمر.

وقطع الدابر عبارة عن إهلاكهم كلِّهم حتَّى يصل آخرهم، و«مُصْبِحِينَ» حال من «هَٰؤُلَآءِ» لأنَّ ما أضيف إليه جزؤه، ولأنَّ هؤلاء كلُّهم هلكوا، فهو مشتمل على الدابر، فكأنَّهما اسم واحد ولو كان الدابر وهؤلاء اسمين لا اسما واحدا، وليس المقطوع الدابر فقط، أو حال من «دَابِرَ» ولو مفردا لأنَّه أريد به الكلُّ.

﴿وَجَآءَ اهْلُ الْمَدِينَةِ﴾ مدينة تسمَّى سذوم أكبر قرى قوم لوط، وبقاضيها يضرب المثل في الجُورِ، بفتح السين وضمِّ الذال المعجمة، قيل: أخطأ من أهملها وليس كذلك، فقد روي إهمالها، وفي الصحاح أنَّها مهملة وهو معرب فبذا قيل: إنَّه معجم بعد التعريب ومهمل قبله.

وأصل سذوم اسم ملك من بقايا اليونان سمّيت به المدينة وكان ظلوما، وكان بمدينة سرمين من أرض قنسرين، كذا قال الطبري، وهذا المجيء قبل قول الملائكة ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ كما في هود ليستقلّ الكلام ببيان كَيفيَّة نصر الصابرين، وأخّره هنا ليصل ذكر أمَّة بأخرى في الكفر، إذ قال: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ (سورة الحجر: ٧٨) وقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ﴾ (سورة الحجر: ٨٠) وقال: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩٠) وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩٥) .

﴿**يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ يفرح بعض إلى بعض بأضياف لوط في بيته، وهم ملائكة على صور فتيان حسان الوجوه طمعا في فعل الفاحشة بهم، ولا يعرف لوط ولا هم أنّهم ملائكة ﴿**قَالَ**﴾ لوط عليه السلام حين قصدوهم إلى بيته: ﴿**إِنَّ هَؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ**﴾ بتغلّبكم عليهم، وإذلالي إذ لم أقدر على دفعكم عنهم، أو بفضيحتهم فإنَّ فضيحة الضيف فضيحة مضيِّفه، وكلٌّ من يزنون به فإذا غلبوه كان ذُلاًّ له.

﴿**وَاتَّقُواْ اللهَ**﴾ عذابه في فعل الفاحشة وهي أيضا ظلم ﴿**وَلاَ تُخْزُونِ**﴾ في ضيفي، لا تجعلوني ذليلا بتغلّبكم عليهم في الفاحشة، من الخزي وهو الهوان، أو لا تجعلوني ذا خزاية أي حياء بهم ﴿**قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾ عن منع الناس عَنَّا وحجبهم بالإضافة، وكانوا يتعرّضون لكلّ غريب ولو كانت له لحية، ولا يخصُّون ذوي الجمال، وكان عليه السلام يمنعهم طاقته ومبلغ احتياله، أي ولو امتثلت نهينا لم يصبك خزي ولا خزاية.

﴿**قَالَ هَؤُلآَءِ**﴾ النساء نساء البلد، أو نساء أمَّته مطلقا ﴿**بَنَاتِي**﴾ كبناتي، والنبيء كالأب لأمَّته وأب حقيق لأولاده، أي تزوَّجوا هؤلاء، و«بَنَاتِي» بيان، أو هؤلاء بناتي فتزوَّجوهنَّ، أو هؤلاء البنات أطهر لكم إن أسلمتم، أو حلَّ في شريعته نكاح المشرك الموحِّدة، وقد زوَّج سيِّدنا محمَّد ﷺ بنته لابن أبي لهب وهو مشرك،

ثمَّ نسخ، أو بناتي من صلبي على أنَّ عدد اللائطين عدد بناته، وهلك الباقون لرضاهم أو لإعانتهم أو لعدم النهي ﴿إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ مريدين لقضاء الوطر، أو مريدين لقولي: تزوَّجوهنَّ.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ حياتك قسمي، أو قسمي حياتك، والأوَّل أولى لأنَّ الحذف بالآخر أولى، والمراد: بقسمي ما أقسم به، قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «**ما حلف الله بحياة أحد إلاَّ بحياة محمَّد ﷺ**»[1] قال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾. ﴿**إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ وقيل: الخطاب للوط من الملائكة، أي قالوا: لعمرك يا لوط...الخ، أو متَّصل بقولهم: «مُصْبِحِينَ» وما بينهما معترض، ويردُّه هذا الحديث، وقول ابن عبَّاس رضي الله عنه يريد: وعيشك يا محمَّد، وقوله أيضا: ما خلق الله نفسا أكرم عليه من محمَّد ﷺ، وما سمعت أنَّ الله تعالى أقسم بحياة أحد إلاَّ بحياته، قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

والسكرة: غوايتهم الشبيهة بزوال العقل، أو شدَّة اشتهائهم الشبيهة بزواله، حتَّى إنَّهم لا يميِّزون الصواب من الخطإ، فإنَّ الزنى حرام والدبر حرام، والصواب موضع الحرث بالنكاح لا موضع الفرث بالسفاح، و﴿يَعْمَهُونَ﴾: يتحيَّرون، لكن المقصود ضلالهم لا التردُّد والشكُّ، فإنَّهم اعتقدوا أنَّ فعلهم صواب، ومرَّ كلام في ذلك، **فالمراد مطلق التخبُّط فيما لا يجوز.**

وهذا تسلية لرسول الله ﷺ عن ضلال قريش أو إيذائهم له بضلال قوم لوط وإيذائهم له، وتهديد لهم لعلَّهم يصيبهم عذاب كما أصاب قوم لوط، وقيل: الهاء لقريش والكلام أيضا تهديد، والجملة على هذا معترضة، **وما تقدَّم أولى ومتبادر،**

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٤، ص١٠٣. **والألوسي** في تفسيره، ج٥، ص٧٢. وقال: أخرجه البيهقي في الدلائل وأبو نعيم وابن مردويه وغيرهم عن ابن عبَّاس.

و«فِي سَكْرَتِهِمْ» و«يَعْمَهُونَ» خبران؛ أو الخبر الأوَّل، و«يَعْمَهُونَ» حال من ضمير الاستقرار، أو هو الخبر و«فِي» متعلّق به. يقول الله ﷻ: كيف يسمعون نصحك وهم في سكرتهم يعمهون.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ صيحة هائلة مهلكة، وذكر بعض أنّها من جبريل ويحتاج لدليل، ويتقوّى بما عرف من أنَّ جبريل للزلزال والخسف ونحوها، عذّبوا بثلاثة: بالصيحة وبجعل عاليها سافلها وبالرجم بالحجارة. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ داخلين في وقت شروق الشمس، ابتدأهم العذاب حين أصبحوا وتمَّ حين الإشراق، فذلك قوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾، وقوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ فلا تناقض، ولا يتعرَّض بأنَّ الإهلاك غير ممتدٌّ لجواز أن يراد بامتداده توجُّعهم، أو موت جماعة بعد جماعة، أو لَمَّا كثر إهلاك الأمم العاصية في وقت الصباح قيل: مصبحين ولو وقع العذاب في الشروق، أو الصبح عامٌّ إلى الزوال في الجملة.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ الضميران للمدينة، لتقدُّم ذكرها لا لقرى قوم لوط، كما قيل، لأنّه لم يجر لهم ذكر، إلاّ أن يراد بالمدينة جنس قراهم المهلكة، وهنَّ أربع فيهنَّ أربعمائة ألف مقاتل، وهذه الفاء للترتيب دون سببيَّة، وقد تُكلّف في جعلها سَبَبيَّة بأنّه لو لم يصح عليهم لم تقلب وفيه بعدٌ لجواز أن تقلب بهم أحياء أو موتى بلا صيحة.

(أصول الدين) ومَن مُسِخ برئ منه وعرفنا أنّه شقيٌّ عند الله كالمنصوص عليه، فمن تولاه أشرك[1]، ولا يبرأ من طفل أو غير عاقل إن مسخ، ويبرأ من مجنون بلغ وكلّف ثمَّ جُنَّ ومسخ، ولا يبرأ ممَّن خسف به الأرض خلافا لبعض، لأنَّ الله

١- الأولى أن يقتصر في البراءة على المنصوص عليهم فقط دون غيرهم، فقد تقع كوارث طبيعية أو مرضية من مسخ وخسف يذهب فيها الصالح والطالح.

وَجَلَّ قد يسلّط الحرارة في باطن الأرض فيحرّكها أو يفتّقها بمن عليها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ قبل موتهم وقبل القلب، ولا مانع بعد القلب بأن تخرق الأرض المقلوبة حتّى تصلهم، ولا مانع من ذلك بعد الموت كما يعذّب الكافر في القبر، أو إهانة لهم، أو الإمطار على من خرج من القرية أو القرى ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ طين أحرق فصار كالحجر، أو من سجيل كتب عليها أسماء أصحابها من السجل بمعنى الكتابة، ومرَّ كلام في ذلك[1].

(قصص) قيل: قلعها من أسفل الأرض، ولا يتبادر هذا لأنّهم يقعون في الأرض الثانية، لكن لا مانع من ذلك، وقيل: من الأرض السابعة فيقعون تحت السابعة، وهو غير متبادر ولا مانع، وهو أشدُّ بعدا لفصل ما بين الأرضين بالهواء وعدم اتصالهنَّ، ولا ندري ما الحكمة في ضمِّ أرض إلى أرضين، ولا ننسب إلى الله ما لا دليل له، والمتبادر أنّها قلعت من وسط هذه الأرض، فقلبت فهي في داخل هذه الأرض، ويدلُّ لهذا أنَّ موضع قراهم من جنس هذه الأرض تراب، والأرض السابعة غير تراب، لكن فيما قيل، وظاهر فتق السماء سماوات والأرض أرضين: أن يكون السماوات من جنس واحد والأرضون من جنس واحد تراب، والله قادر أن يختلفن بعد الفتق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من قصّة إبراهيم وقصّة لوط عليهما السلام ﴿لَآيَاتٍ﴾ دلالات على وجود الله ووحدانيّته وقدرته ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الكاسبين معرفة الأشياء بإعمالهم النظر في سماتها، أي علامتها العَقلِيَّة وَالنَّقلِيَّة، وقيل: المتوسِّم الناظر من فوق الشيء لأسفل تثبُّتا، وقيل: مستقصي التعرُّف، وكلُّ ذلك من السمة أي العلامة.

﴿وَإِنَّهَا﴾ أي القرية أو القرى على ما مرَّ ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ثابت لقريش في ذهابهم إلى الشام من الحجاز، أفلا يعتبرون بها؟ وقد تواترت لهم الأخبار بها وصدّقوا

١- في سورة هود آية ٨١.

بها، وأمَّا نفس القرى فلا ترى لأنها قلبت ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ عبرة لهم يستدلُّون بها على الانتقام من العاصي لعصيانه شركا أو فسقا، والمراد مطلق المؤمنين، وإن أريد به مؤمنو هذه الأمَّة فهم يستدلُّون بذلك على رسالة سيِّدنا محمَّد ﷺ، بقصَّة إبراهيم ولوط كما هما مع أنَّه لم يدركهما، ولا يقرأ كتابة ولا يجالس عارفا لها. وأمَّا من لم يؤمن فيحمل الإهلاك على اقترانات النجوم واتّصالات الأفلاك باستقلال، ونحن معشر المؤمنين ننسب ذلك [بدون استقلال] إلى الله ﷻ.

(نحو) واللام في الموضعين متعلِّقة بمحذوف نعت لـ«آية» و«آيات»، أو متعلِّق بما تعلَّق به «في»، أو بـ«في» ومدخولها لنيابتهما عمَّا يصحُّ التعلُّق به، ويبعد التعليق بـ«آية» أو «آيات» متضمِّنة معنى دلالة أو دلالات، ولا يترجَّح كما قيل بترجُّحه.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ۝٧٩ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨٦﴾

قصَّة أصحاب الأيكة (قوم شعيب) وأصحاب الحِجر (ثمود)

﴿**وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ**﴾ وإنَّه أي الشأن، والأيكة: الشجر الملتفُّ، ولكن المراد هي وبقعتها، كأنَّه قيل: بقعة ملتفٌّ أشجارها، أو جنَّة ملتفَّة الأشجار، ويعبَّر عن ذلك بالغيضة سكنوا الغيضة وأكثر أشجارها الدوم، وقيل: الأيكة السدر، وقيل: قرية وأصحابها بعض قوم شعيب سكنوا فيها فبعثه الله سبحانه إليهم

فكذَّبوه، فأهلكهم بالظلَّة، بأن شدَّد عليهم الحرَّ سبعة أيَّام فأنشأها الله فالتهبت عليهم نارا ﴿لَظَالِمِينَ﴾ بالإشراك والمعاصي والتكذيب.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالظلَّة المذكورة ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ قرية قوم لوط وقرية قوم شعيب، أو قرى قوم لوط وقرية قوم شعيب، أو لوطا وشعيبا المدلول عليه بذكر قومه، أو خبر قوم لوط وخبر قوم شعيب[1]، أو أصحاب الأيكة وأصحاب مدين لأنَّ شعيبا مرسل إليهما فذكر الأيكة مشعر بمدين، وعن ابن عمر عنه ﷺ: «**مدين وأصحاب الأيكة أمَّتان بعث الله تعالى إليهما شعيبا** عليه السلام»[2].

﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ سمِّي الطريق إماما لأنه يؤمُّه السائر فيه حتَّى يصل.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ واد بين المدينة والشام وأصحابه ثمود ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كذَّبوا صالحا.

(أصول الدين) ومن كذَّب نبيئا واحدا فقد كذَّب جميع أنبياء الله وجميع كتبه، ومن كذَّب حرفا واحدا أو حركة أو سكونا فقد كذَّب الأنبياء كلَّهم والكتب كلَّها، وذلك لاتِّحاد الدعوة في التوحيد وما لا يُبدَّل، وكلُّ نبيء جاء بتقرير الأمَّة قبله على أنَّها على الحقِّ إن كانت متَّبعة لنبيئها.

ويجوز ـ على ضعف ـ أن يفسَّر ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ بصالح وأتباعه تغليبا، أو بمعنى الإرسال اللغوي، فإنَّ أتباع الرسل مأمورون بالتبليغ، كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَهَا الْمُرْسَلُونَ إِذَ اَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ (سورة يس: ١٤).

(سيرة) ويروى أنَّهم استقوا من آبار ثمود وعجنوا ونصبوا القدور في غزوة

١- في الطبعة العمانية سقط قدر خمسة أسطر، من قوله: «سكنوا فيها...» إلى قوله: «...وخبر قوم شعيب»، وقد وقع فيها انتقال النظر لتكرار عبارة: «قوم شعيب».

٢- أورده **الألوسي** في تفسيره، ج٥، ص٧٥. وقال: أخرجه ابن عساكر عن ابن عمر.

تبوك، فأمرهم ﷺ بإهراق ذلك وأن يعلفوا الإبل العجين وأن يستقوا من البئر التي ترد الناقة، وأمرهم أن لا يدخلوا تلك الأرض لئلاّ يصيبهم مثل ما أصاب أهلها.

﴿وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا﴾ الكتاب المنزَّل على صالح أو نبيء قبله يتبعه، وهو صحف آدم وشيت وهو الظاهر، أو المعجزات وهو أولى، إذ لا يعرف كتاب لصالح، ولصالح معجزات غير ما في القرآن.

(قصص) أو المراد ما فيه من ولادة الناقة من الصخرة عشراء وبراء، أو معها ولدها من الصخرة، أو نتجته بعد خروجها وتمخُّض الصخرة بها، وورودها الماء يوما، وكثرة لبنها حتّى كفاهم، وحلب العسل منها أيضا، وعظم خلقها حتّى إنَّها إذا شربت رجعت من غير طريقها الذي وردت منه لزيادة عظمها.

وأيضا آيات كلِّ رسول آيات للآخر، كما أنَّ تكذيب واحد تكذيب للآخرين، أو ما نصب لهم من الأدلَّة الآفاقيَّة والنفسيَّة، ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الاَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (سورة فصِّلت: ٥٣) . وأضاف الإيتاء إليهم مع أنَّه لصالح لأنَّه أرسل إليهم بالآيات، وكلِّفوا بها، كإطلاق إنزال صحف إبراهيم على الأسباط، قال الله تعالى: ﴿قُولُواْ ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا...﴾ (سورة البقرة: ١٣٦) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٩) لله تعالى.

﴿فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يتفكَّرون، والإعراض عن الآيات المنزَّلة وتكذيبها أقبح وأشدُّ من الإعراض عن الآيات الآفاقيَّة والنفسيَّة، فالتفسير بها أولى، ولا سيما أنَّها أنسب بالإيتاء، وتليها المعجزة، وجمع الآية هنا اعتبارا لتعدُّد أفرادها، وكذا في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ اعتبارا لتعدُّد ما قصَّ من حديث ضيف إبراهيم وحديث لوط، وتعرُّض قوم لوط للملائكة وإهلاكهم،

وقلب المدائن وإمطار الحجارة، وأفرد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤمِنِينَ﴾ باعتبار وحدة قرية لوط أو جعل قراهم كواحدة.

﴿وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ﴾ يقطعون ﴿مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ صخرا تصير بعد بيوتا، فهو من مجاز الأوْل، أو يتّخذون من الجبال بيوتا بقطع الصخر وبنائه بيوتا، أو ينقبون في الجبال نقبا يكون بيوتا لهم، ويتّخذون من سهولها قصورا يسكنونها في الصيف، وينحتون من الجبال بيوتا يسكنونها في الشتاء.

﴿ءَامِنِينَ﴾ من الانهدام بالمطر أو القدم، ومن نقب السارق وهدم الأعداء لأنّهنّ من صخر غلاظ محكمة بصنعة، قال تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ (سورة الشعراء: ١٤٩) قيل أي حاذقين، ولا سيما إذا كان النحت بالنقب في الجبل، أو آمنين من العذاب الذي توعّدهم به صالح، حتّى قالوا: إيتنا بما تعدنا، أو آمنين من أن يصلهم إن جاء لظنّهم أنّ بيوتهم تحصّنهم عنه، ويضعف أن يفسّر بآمنين من عذاب الآخرة لعدم اعتقادهم الآخرة، ولعدم تصوُّر العاقل أن يمنعه بناء الدنيا من عذاب الآخرة، نعم يجوز بلا ضعف أن يقال: آمنين من عذاب الآخرة لإنكارهم البعث، وقيل: آمنين من الموت لطول أعمارهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح باعتبار الابتداء لِمَا قيل: إنّهم هلكوا ضحوة اليوم الرابع، وأيضا الزمان من الفجر صبح إلى الزوال، والصيحة هنا من السماء أو ممّا شاء الله، والرجفة من الأرض، و لم يذكرا معا لأنّ الصيحة تفضي إلى الرجفة، أو المراد بالصيحة الرجفة مجازا عنها، لأنّها سبب الرجفة، فلا تناقض بين الآيتين.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ من المساكن الموثقة والأموال الكثيرة، والجيوش والعبيد والحشم، وهذا أنسب بأن يفسَّر الأمن بالأمن من عذاب الدنيا، لا من عذاب الآخرة ولا منهما ولا من الانهدام والسرَّاق.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ إلاَّ مع الحقِّ، أو ملتبسين بالحقِّ، أو بسبب الحقِّ الذي اقتضاه الدليل من الإيمان، أو البعث والجزاء، والحَقُّ: الحكمة والعدل المقتضي لإهلاكهم وإزاحة فسادهم، وإلاَّ كان الهرج والمرج ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ ءَلاَتِيَةٌ﴾ فيجازى كلٌّ بعمله، فينتقم الله لك منهم، ولا تنتقم منهم في الدنيا.

﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ يا محمَّد، وهو الإعراض عن أذاهم بلا جزع ولا انتقام، وأخطأ من قال في مثل هذا إنَّه منسوخ بآية السيف، لأنَّ هذا مأمور به أبدا قبل نزول القتال وبعده ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ﴾ الكثير الخلق، فإنَّه خلق كلَّ شيء من أجسام وأفعال وسائر الأعراض، وذلك لعظم قدرته فلا يهولك شيء، مع أنَّه سبحانه وتعالى مولاك، أو فعَّال للنسب أي ذو الخلق، فبيده أمرهم فكلُّهم إليه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالأشياء كلِّها، ومنها حالك وحالهم، وقد علم أنَّ الصفح دائم هو الأصلح في محاله، وليس القتال مخرجا عنه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝٩٨ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝٩٩﴾

نعم الله تعالى على نبيّه المصطفى ﷺ ومننه

﴿**وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ**﴾ أي سبعا من الأشياء التي هي موضع ثني وهو التكرير، أو موضع ثناء، أو الأشياء المثنية، فقال الجمهور: ذلك فاتحة الكتاب كما قرأها ﷺ وقال: «**هي السبع المثاني**»[1]، وروى ذلك أبيٌّ وأبو هريرة، وذلك أنَّها سبع آيات تثنى في كلِّ صلاة، أي تكرَّر، أو أنَّها تثنَّى في الصلاة بالسورة بعدها، أو إنَّها نصفان نصف ثناء ونصف دعاء، كما في حديث الربيع وغيره عن الله: «**قسمت الصلاة...**»[2] أي سورة الصلاة وهي الفاتحة أو سمَّاها صلاة لأنَّها معظمها، ولا تصحُّ بدونها من السور، «**بيني وبين عبدي نصفين**» أو أنَّها مكرِّرة: الرحمن الرحيم، وإيَّاك وإيَّاك، والصراط وصراط، وغير وغير، وعليهم وعليهم، وكان عمر ﷺ يقرأ: «وغير الضالين»، أو إنَّها نزلت بمكَّة ونزلت بالمدينة.

قال الزجَّاج: سمِّيت مثاني لأنَّها في الثناء على الله ﷻ، وهي من أجلِّ السور

١- رواه **البخاري** في كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم ٤٢٠٤. **والترمذي** في كتاب تفسير القرآن، رقم ٣٠٥٠. **والنسائي** في كتاب الافتتاح، رقم ٩٠٤. من حديث سعيد بن المعلّى.

٢- يشير إلى الحديث الذي رواه **الربيع** في مسنده، باب (٥٨) في القراءة في الصلاة، رقم ٢٢٤، **ومالك** في كتاب الصلاة باب القراءة خلف الإمام، رقم ١٩٢، **وأحمد ومسلم** عن أبي هريرة. ورقم ٧٢٣ عند **البخاري** عن عبادة بن الصامت.

لنزولها مرَّتين كما قيل في الأنعام، ولإفرادها بالذكر عن القرآن، ولأنَّه لا صلاة إلاَّ بها كما قال في الحديث[1]، أو السبع الطوال والأنفال والتوبة كواحدة، أو هما واحدة كما لا بسملة بينهما، وورد في هذا حديث.

وجاء عن ابن مسعود وابن عمر وابن عَبَّاس ﭬ وجماعة من التابعين: لأنَّه يثنى فيهنَّ حدود القرآن وفرائضه، وأمثاله وعبره، وعامة أحكامه، وفيهنَّ عَامَّة الأحكام، واعترض بأنَّ السورة مكّية، أو هذه الآية وأكثر السبع مَدَنِيَّة، ويجاب بأنَّ إنزالهنَّ إلى السماء مرَّة مع باقي القرآن إيتاء، وأنَّه قضى أن ينزلن عليه، أو سورة التوبة لأنَّه يثنى فيها الخ، وكذا فيما بعد من الأقوال، أو يونس أو الحواميم.

أو سبع صحائف وهي الأسباع، والقرآن سبعة أجزاء، كلُّ سبع صحيفة وكتاب ومثناة ومثنية، فالسبع هو القرآن كلُّه، قسِّم سبعة أجزاء، أو سمِّي سبعا لأنَّه تضمَّن معنى صحف سبع نزلت على من قبله وزاد عليها، ويناسبه قوله تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ (سورة الزمر: ٢٣)، أو ﴿الْمَثَانِي﴾: كتب الله كلُّها.

(نحو) فـ«مِنْ» للتبعيض، وحذفت تاء سبع لتأنيث المعدود وهو آيات أو سور، و«مِنَ الْمَثَانِي» نعت «سَبْعًا» و«مِنْ» للبيان، وإذا أريد بالمثاني أكثر من السبع فـ«مِنْ» للتبعيض، والمفرد مثنى بالإسكان من التثنية وهو التكرير أو الثناء، وفي ذلك كلِّه تقرير القراءة والألفاظ والقصص والمواعظ والأحكام، ويثنى عليه

١- انظر الحديث في الجامع الصحيح مسند الإمام **الربيع** بن حبيب، كتاب الصلاة رقم٢٢٢. **والبخاري** في كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم ٤٤٧٤، ورقم ٤٦٤٧ بنحوه. **ومالك** في كتاب الصلاة (٨) باب ما جاء في أمِّ القرآن، رقم ١٩٠. من حديث أبي سعيد مولى عامر بن كريز.

بالبلاغة والإعجاز، وثناء على الله بما هو أهله.

وعطف «الْقُرْءَانَ» عليه عطف عامٍّ على خاصٍّ إن أريد بالسبع بعضه، وإن أريد به القرآن أو الأسباع فعطف شيء على نفسه باعتبار تعدُّد صفته، بمعنى سبعا توصف بأنَّها من المثاني، أو نفس المثاني، وبأنَّها قرآن عظيم كقوله:

أنا الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

وقولك: جاء زيد العاقل والشجاع والعالم، أي الجامع بين عظم الملك والبنوَّة للهمام والشجاعة وزيد الجامع بين العقل والشجاعة والعلم.

(سيرة) روي أنَّه ﷺ وافى بأدرعات سبع قوافل لقريظة والنضير فيها أنواع البزِّ والطيب والجواهر وسائر الأمتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقوَّينا بها، ولأنفقناها في سبيل الله، فقال لهم: «**لقد أوتيتم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع**» ولعلَّه وافاها في بعض أسفاره، وفي نسخة: أقبلت من بصرى وأدرعات سبع قوافل.

ولا يكون هذا سببا لنزول قوله تعالى: ﴿**لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ**﴾ لأنَّ هذه السورة مكِّية، ومصادفة القوافل بعد الهجرة في آخر عمره في ذهابه إلى الشام للقتال، ومنه تبوك، ولعلَّ المسلمين طمعوا في القوافل لأنَّها أموال المحاربين، كذا قيل، وفيه أنَّه لا قُوَّة للنضير وقريظة في آخر عمره ﷺ، قيل يحتمل أن تكون هذه الواقعة قبل نزول الآية فنزلت فيها، أو الآية مَدَنِيَّة جعلت في سورة مكِّيَّة، وهذا الحديث نصٌّ في تفسير السبع بسبع آيات.

وعن أبي بكر ﵁: «من أوتي القرآن فرأى أنَّ أحدا أوتي من الدنيا أفضل مِمَّا أوتي فقد صغَّر عظيما وعظَّم حقيرا»، ولم أقف له على سند، وعنه ﷺ:

«**ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن**»[1] أي لم يعده غنًى أو كشفا للهموم بقراءته، أو لم يفصح به ويجهر به، أو يقرأه على خشية، أو يزيِّن به صوته، وقد جاء: «**زيِّنوا القرآن بأصواتكم**»[2] قيل لراوي الحديث: فإن لم يكن حسن الصوت؟ قال: يحسِّنه ما استطاع.

و﴿أَزْوَاجًا﴾: أصنافا، قال ﷺ: «**لا تغبطنَّ فاجرا بنعمة، فإنّك لا تدري ما لاقى بعد موته، إنَّ له عند الله قاتلا لا يموت**»[3] يعني النار، ومدُّ العين: طموحها رغبة فيما متّع به الكُفّار، فهو ﷺ بعد لا ينظر إلى ذلك بعينه ولا بقلبه.

﴿**وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ**﴾ بعدم إيمانهم شفقة عليهم، فإنّهم أشقياء خلقوا لعذاب الله ﷻ، والضمير لِلكُفَّارِ عموما، قيل للممتّعين، وفيه أنَّ الحزن على ممتع الكُفّار بالدنيا المبغوضة عنده تعالى لا يليق بالأبرار، فضلا عن سيِّد الأخيار، والأولى أنَّ المعنى: لا تحزن على تكذيبهم وإعراضهم ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُومِنِينَ**﴾ ألن لهم وارفق وتواضع، وأصل جناح الإنسان يده، ﴿وَاضْمُمِ اِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ (سورة القصص: ٣٢) أي يدك، أو جناح الطائر كنّي به عن حسن التدبير والشفقة، كما يرخي الطائر جناحه لفروخه وكما يخفّضه إذا أراد الانحطاط فذلك استعارة تمثيليّة أولى من أن يكون استعارة عن التواضع.

١- رواه **البخاري** في كتاب التوحيد (٤٤) باب قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِ...﴾ رقم ٧٥٢٧. ورواه **أبوداود** في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم ١٤٧١. من حديث ابن أبي مليكة.

٢- رواه **أبوداود** في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة رقم ١٤٦٨. **والحاكم** في كتاب فضائل القرآن: ج١ ص٧٦٣ رقم ٢١٠٠. من حديث البراء بن عازب.

٣- أورده **الهيثمي** في المجمع، ج١٠، ص٣٥٥ بلفظ «لا تغبطوا...».

﴿وَقُلْ إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ﴾ بعذاب الله تثبيتا للمؤمنين وزجرا للكفرة بأنَّه ينزل إن لم يؤمنوا، وفي المؤمنين أيضا ما ينذر عنه ﴿الْمُبِينُ﴾ الظاهر الإنذار، أو مبين لطريق النجاة، وطرق الهلاك، وفي ضمن ذلك تبشير بالجنَّة للمؤمنين، ووصفه بالمبين لأنَّ إنذاره أبين من إنذار غيره من الأنبياء، لأنَّه بلسان القال ولسان الحال، لأنَّه من أشراط الساعة، ولعلَّه لهذا لم يصرِّح بالتبشير. و«ال» للعهد، فالحصر باعتبار العهد وإن جعل للجنس فالحصر إضافي، قصر قلب أي نذير لا ساحر أو شاعر أو كاذب.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ الضمير للنبيء ﷺ لأنَّه نزل على لسانه، أو لله، أي ذلك كما أنزلنا، أو آتيناكَ سَبعًا كما أنزلنا ﴿عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ أي إنذارا ثابتا كما أنزلنا العذاب على المقتسمين، ويكفي هذا، وأوضح منه أن يقدَّر: إِنِّي أَنا النذير المبين بإنزال العذاب كما أنزلناه على المقتسمين اليهود والنصارى، المقتسمين للكتب بأن آمنوا ببعض وكفروا ببعض.

و﴿أَنزَلْنَا﴾ بمعنى ننزل لأنَّ عذاب النضير وقريظة إنَّما وقع بعد الهجرة بإخراجهم، والسورة مكِّيَّة، فالماضي لتحقُّق الوقوع بعد.

(سيرة) وكذا إن فسَّرنا المقتسمين بقريش الذين قسَّموا طرق مَكَّة باثني عشر رجلا أو سِتَّة عشر أو أربعين في مواسم الحجِّ والأسواق، وجعلوا في كلِّ طريق من يصدُّ الناس عنه ﷺ بكلام يقوله: كساحر ومجنون، وكاهن وشاعر، وأساطير الأوَّلين، وتعليم بشر ونحو ذلك إنَّما هو بعد الهجرة، وقتلوا يوم بدر، وقيل: ماتوا بالحرب، قيل: ومنهم الوليد بن المغيرة، والمشهور أنَّه مات بخدشة السهم المسموم، فالإنذار بعذاب يشبه عذابا سيقع، أو الاقتسام افتعال من القسم وهو الحلف، فهم الرهط التسعة الذين تقاسموا أن يقتلوا صالحا فرجموا بالحجارة.

وهذا لا يناسبه قوله تعالى: ﴿الذِينَ جَعَلُواْ الْقُرءَانَ عِضِينَ﴾ إلاَّ إن جعلنا

القرآن ما على عهد صالح من كتب الله، أو قلنا لما خالفوا ما فيه صاروا كأنَّهم جعلوه عضِين، ولو كان يجيء بعدهم، أو نجعل «الذِينَ» مبتدأً خبره «فَوَرَبِّكَ...». ويجوز أن يعود التشبيه إلى «ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا» لأنَّ الإيتاء إنزال كأنَّه قيل: ولقد أنزلنا إليك سبعا من المثاني كما أنزلنا على المقتسمين...الخ، إلاَّ أنَّه لا يتبادر تشبيه إنزال الآيات أو السور مثلا بإنزال العذاب إلاَّ على التهكُّم بهم، أو على الامتنان عليه ﷺ، بأنَّا عوَّضنا أعداءك العذاب في مقابلة إنزال السبع عليك.

و﴿عِضِينَ﴾: جمع عضو، أي أجزاء حذفت لامه فجمع جمع المذكَّر السالم، ولو كان غير عاقل إلاَّ أنَّه لم يعوَّض التاء، ثمَّ أطلعت أنه ورد في كلام العرب عضة بمعنى عضه، فيكون قد عوَّض كسنة، وذلك أنَّ أهل مَكَّة جعلوا القرآن أجزاء بعض يقول: سحر، وبعض يقول: كهانة، وبعض يقول: شعر، وهكذا... أو أهل الكتاب جعلوه قسمين: بعضه حقٌّ موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما؛ أو قال بعض منهم استهزاء: سورة كذا من كتاب محمَّد لي، وقال آخر: سورة كذا لي، وهكذا... أو قالوا: هذه لك وهذه لي؛ أو كفر أهل الكتاب ببعض كتبهم وآمن ببعض؛ أو قول النصارى في التوراة واليهود في الإنجيل، وقد أمر النصارى بالإيمان بالتوراة واليهود بالإيمان بالإنجيل وكأنَّهم قوم واحد، وعلى هذا فالقرآن: التوراة والإنجيل، فيكون تسلية له ﷺ بأنَّهم كفروا بكتبهم كما كفر قومك بكتابهم.

وكذا إذا فسَّرنا الاقتسام إلى إقرار ما وافق هواهم وتبديل ما لم يوافقه أو إخفائه كما قال الله ﷻ: ﴿تجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ...﴾ (سورة الأنعام: ٩١) أو المفرد عِضَةٌ بالهاء حذفت وعوِّضت التاء فجمع بمعنى أسحار، أو كذب أو بهتان.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنسْأَلَنَّهُمُ, أَجْمَعِينَ﴾ نسأل المستقسمين بالمعاني السابقة، أو المراد جميع المكلَّفين المدلول عليهم بقوله: ﴿إِنِّيَ أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ والأوَّل أولى لقربه

والتصريح به، والسؤال سؤال تقريع أو تقرير ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ...﴾ (سورة يس: ٦٥) وذلك في موقف ولا يسألون في موقف آخر، كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ...﴾ (سورة الرحمن: ٣٩) أي لا يسألُ عن ذلك في موقف ويسألون عنه في موقف آخر، وكذا قال: ﴿وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (سورة القصص: ٧٨) أو لا يُسْأَلُونَ اسْتِفْهَامًا حَقِيقِيًّا ويسألون تقريعا أو تقريرا، ولا إشكال، فإنَّ السؤال يكون يومئذ لا في الدنيا وهو فيه غير حقيق، أو السؤال حيث أثبت كناية عن الجزاء وحيث نفي بمعنى التكلُّم.

﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ من الاقتسام وجعل القرآن عضِين بأوجههما، أو عن كفرهم ومعاصيهم كلِّها، فيدخل فيها الاقتسام والجعل.

﴿فَاصْدَعْ﴾ اجهر ﴿بِمَا تُومَرُ﴾ به، فحذف "به" ولو لم يتّحد المتعلّقان لظهور المعنى، أو بأمرك، أو افرق بما تؤمر بين الحقِّ والباطل، أو بأمرك، والأمر بمعنى المأمور به، إذ لا خلاف في جواز التأويل بالمصدر بمعنى المفعول، وإنَّما الخلاف في المصدر الصريح ومع هذا فالصحيح الجواز.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا تبال بما يقولون، ولا يهمَّنَّك قولهم.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ الذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اَخَرَ﴾ نعت أو مبتدأ خبره قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ والأوَّل أولى، قال عبد الله بن عبيدة[1]: «ما زال النبيء ﷺ مستخفيا حتَّى نزل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُومَرُ...﴾» يعني أنَّه يبلِّغ الوحي من حين بُدِئَ به، ولَمَّا نزلت اشتدَّ به جدًّا.

١-عبد الله بن عبيدة الربذي مولى بني عامر بن لؤي، اختلف فيه فبعض وثَّقه كالدراقطني وبعض ضعَّفه، وقال النسائي: ليس به بأس. مات سنة ١٣٠. تهذيب التهذيب، ج٥.

﴿الْمُسْتَهْزِءِينَ﴾: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحرث بن قيس، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطَّلب، ويروى: عديٌّ بن قيس بدل الحرث بن قيس، وهم من أشراف قريش، يبالغون في إيذاء رسول الله ﷺ والاستهزاء به، قال له جبريل: أمرت أن أُكْفِيكَهم، فأومأ إلى ساق الوليد، فمرَّ بنبال فتعلَّق بثوبه سهم، فتكبَّر أن ينحني لنزعه، فقطع عرقا في عقبه فمات، ويروى: جعل السهم يضربه، فخدشه في ساقه فمرض به فمات، وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة، فانتفخت رجله حتَّى صارت كالرحى، وقيل: مثل عنق البعير، فمات مكانه في شعب خرج يتنزَّه فنزل فيه فدخلته الشوكة، وأشار إلى أنف عديٍّ بن قيس أو الحرث بن قيس، فامتخط قيحا وما زال كذلك حتَّى مات، وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتَّى مات، وقيل: أصابه مرض الاستسقاء[1] فمات، وإلى الأسود بن المطَّلب فعمي، وروي أنَّه رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره ووجعته عيناه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتَّى مات.

وحذف مفعولي «يعلم» أو مفعوله على أنَّه بمعنى يعرف للعموم والتهويل، أي يعلمونهم مغرورين، بعود الهاء والواو إليهم، أو يعرفون عاقبة أمرهم في الدنيا والآخرة. ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ**﴾ على مقتضى الطبيعة البَشَرِيَّة ﴿**بِمَا يَقُولُونَ**﴾ بما يقول المشركون أو المستهزئون، من الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء بك وبه ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ مع حمد ربِّك، أو ملتبسا بحمد ربِّك، قل: «سبحان الله وبحمده» يزل همُّك

١- علَّة تصيب البطن في صفاقه، قال في اللسان: ماء أصفر يصيب بطنه.

بهما مع الصلاة وإدامة العبادة.

قال ﷺ : «**ما أمرت أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحي إليَّ أن ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ الْيَقِينُ﴾**» أي: وإذا ضاق صدرك فسبِّح...الخ كلَّما ضقت فالتجئ إلى الله ﷻ بذلك.

﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ المصلِّين، سمَّى الصلاة باسم ما هو أظهر في الخضوع، وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1]. **﴿وَاعْبُدْ﴾** عطف عامٍّ على خاصٍّ **﴿رَبَّكَ حَتَّىٰ يَاتِيَكَ الْيَقِينُ﴾** الموت، فإنَّ البالغ العاقل لا يزول عنه التكليف بحسب طاقته ما لم يمت، أو عاين ولو عاش عمر الدنيا، أو أضعافه كالملائكة، قال أبو حيَّان: اليقين من السماء الموت لأنَّه لا يشكُّ فيه أحد، والله أعلم.

ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم
وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم

١- كما في الحديث الذي رواه **أحمد** ج٥، ص٣٨٨، **وأبوداود** في كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبيء ﷺ من الليل، رقم ١٣١٩. عن حذيفة بن اليمان: «كان ﷺ إذا حزبه أمر صلَّى».

تفسير سورة النحل وآياتها ١٢٨

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ②﴾

إثبات البعث والوحي

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ﴾ كانوا يستعجلون ما أوعدهم رسول الله ﷺ من قيام الساعة وعذاب الدنيا ﴿إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾(سورة الأنفال: ٣٢) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾(سورة الحج: ٤٧) يقولون متى هذا الوعد؟ وإن صحَّ ما تقول خلَّصتنا الأصنام، فنزلت الآية فوثب النبيء ﷺ ورفع الناس رؤوسهم فنزل قوله تعالى ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنه شرٌّ لكم لا تستنقذكم منه الأصنام.

ويضعف ردُّ الهاء إلى الله أي لا تستعجلوا الله بإتيان أمره يوم القيامة أو العذاب، كما قال ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾. و«أتى» ماض بمعنى يأتي لتحقُّق الوقوع وهو مجاز لأنَّه بمعنى حضر، أي يحضر، وقرينة المجاز حالية قبل نزول ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ وهي أنَّهم لم يروا حضوره، ولمَّا نزل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ كان قرينة قالية، ويجوز أن يكون معنى أتى: شرع في التنقُّل فالماضي حقيقة، أو أتت مقدِّماته ومبادئه كانشقاق القمر ونصر الرسول، أو قرب مجازا.

وأمر الله قيام الساعة، وقيل عقوبة المكذِّبين ونصره ﷺ وملكه بلادهم وأموالهم، كما قتل النضر بن الحرث يوم بدر صبرا وهو القائل ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ

هَذَا...﴾.

وروي أنَّه نزل قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾(سورة القمر: ٠١) قال الكفار: أمسكوا عن بعض ما تفعلونه حتَّى يتبيَّن أمره، ومضت أيام، فقالوا ما نرى ما تقول، فنزل قوله تعالى ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾(سورة الأنبياء: ٠١) فانتظروا ثمَّ قالوا ما نرى شيئا، فنزل ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ فوثب فرفع الناس رؤوسهم ولما نزل ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ اطمأنُّوا، والخطاب بـ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ للمؤمنين والكفَّار، أو للمؤمنين أو للكفَّار، قال ﷺ «**بعثت أنا والساعة كهاتين أنْ كادت لتسبقني**»[1] أشار بإصبعيه.

﴿**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**﴾ هذا إخبار أي تنزَّه الله تنزُّها بدليل عطف تعالى عليه، وليس كسبحان في قوله تعالى ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾(سورة الروم: ١٧) فإنه أمر بالصلاة فليس المراد هنا أمر، أي سبِّحوا الله تسبيحا أيُّها المؤمنون، وقولك لله سبحانه جلَّ وعزَّ أولى من قولك عَجَلَّ، لأنَّ الجلال لا تعلُّق له بغيره، وأعمُّ من العزَّة، والعزَّة لها تعلُّق لأنَّ المعنى الغلبة على غيره وأخص.

﴿**عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ في قولهم إن صحَّ ما تقول منعتنا آلهتنا منه، وفي سائر أقوالهم الملحدة وأفعالهم التي هي إشراك، كعبادة الأوثان، ولا معنى للتنزُّه عن ذات ما يشرك به إلاَّ من حيث الإشراك به، فلتجعل «ما» مصدرية أولى من جعلها اسما مرجوع فيه إلى مراعاة علَّة الإشراك بعد، وكذا في مثل ذلك.

﴿**يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ**﴾ جبريل سمَّاه ملائكة تعظيما، أو هو إسرافيل إذ قرنه ﷺ قبل جبريل، والملائكة الناقلون الوحي إلى جبريل على القول بذلك، أو هو وملائكة تنزل معه، فقد قيل ما ينزل وحده في أكثر الأحوال، كما تنزَّل معه في بدر وكثير

[1] - رواه **أحمد** في مسنده: ج٥، ص٣٤٨، **والهيثمي** في المجمع ج١٠، ص٣١١، كما أورده **ابن كثير** في تفسيره: ج٤ ص٣٤، وج٦ ص٥٣٣.

من الغزوات، وفي سائر المهمَّات والمصالح، إلاَّ أنَّ الإمام جبريل فصار يسند الوحي إليه، ومن ذلك شقُّ بطنه ﷺ، ﴿بالرُّوح﴾ أي مع الروح وهو جبريل.

[قلت] والصحيح أنَّ المراد بالروح القرآن وسائر الوحي لأنَّ ذلك على استعارة في صلاح الإنسان كالروح للبدن، والبدن بلا روح ميِّت وهو بلا قرآن ووحي كميِّت، والروح به قوام البدن وكذلك قوام الدين بالوحي.

﴿مِنَ اَمْرِهِ﴾ بسبب أمره أو لأجل أمره أي شأنه، أو من للبيان وهو أولى، ومثل الآية قوله تعالى ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾(سورة مريم: ٦٣) وقوله تعالى ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(سورة الأنبياء: ٢٧) ﴿عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي على من يشاء الله نبوءته على العباد ﴿أَنَ اَنذِرُواْ﴾ أيُّها الأنبياء الكافرين، أَنْ مفسِّرة لقوله ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنَ اَمْرِهِ﴾ لأنَّ التنزيل بالروح قول دون حروفه، لا مصدرية لأنَّ الأمر لا خارج له لا يؤوَّل منه المصدر وهكذا أقول، وهو الحقُّ إن شاء الله، أو مصدرية وعليه تقدَّر الباء أي بأن أنذروا فيكون بدلا من ﴿بالرُّوحِ﴾، وإن جعلنا بالروح بمعنى مع الروح علِّق بـ﴿يُنَزِّلُ﴾ لاختلاف معنى الباءين.

﴿أَنَّهُ,﴾ بأنه، وهو متعلِّق بأنذروا أو المعنى: أعلموا الناس أنه ﴿لآَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ﴾ احذروا عقابي بامتثال أوامري واجتناب زواجري، أو خافوا عقابي، وهذا عائد إلى قوله ﴿فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أو إلى قوله ﴿أَنذِرُواْ﴾ وعليه فـ﴿أَنذِرُواْ﴾ بمعنى قولوا أي: قولوا عن الله إنَّه، أي الشأن ﴿لآَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ﴾ أو إذا كان الأمر كذلك فاتقوني.

﴿خَلَقَ اَلسَّمَٰوَٰتِ وَالاَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ اَلاِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤ وَالاَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَاكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ

﴿فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩﴾

نعم الله الدالة على قدرته ووحدانيته

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ بالعدل والصواب والحكمة للعبادة فيهما، وللدلالة بهما، خلقهما على أوجه مخصوصة اختارها من وجوه جائزة، ومن قدر على ذلك لا يعصى، وحقيق أن يتّقى ولا يشرك في عبادته من لا يقدر على ذلك.

﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عمَّا يشركونه به، أو عن الإشراك، وكذا فيما مرَّ مع أنَّ الذي يشركونه به هو من السموات، أو الأرض المخلوقتين له، أو ممَّن فيهما ولا يقدِّر قدرته ولا يستغنى عنه فلا تكرير، كما يعلم مما قدرت بعد يشركون الأوَّل والثاني ﴿خَلَقَ الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لا يقدر على ذلك ما تعبدون ولا غيره، فكيف تسوُّونه تعالى بذلك؟ ﴿أَفَمَن يَّخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾؟(سورة النحل:١٧) وفي ذلك أيضا دلالة على وجود الله وكمال قدرته، فإنَّ النطفة -تبدو لنا- ميِّتة خلق منها ما هو أعظم الخلق فهما وتدبُّرا واحتيالا، وهو حال الولادة أضعف من أولاد الحيوان، وأقلُّ تحرُّزا عمَّا يضرُّه، ثمَّ تمضي عليه مدَّة فيفاجئه ما ذكره الله ﷻ في قوله:

﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ عظيم الخصام فيما يحاوله، أو سمَّاه خصيما مبينا حال الولادة باعتبار ما يؤول إليه كتسمية العصير خمرا وهو صفة مبالغة، وقيل: بمعنى مفاعل أي مخاصم، كالنسيب بمعنى مناسب، والعشير بمعنى معاشر، والخليط بمعنى

مخالط ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر الخصام أو مبين لحجَّته، ودخل في ذلك خصامه في شأن البعث، قال ا لله ﷻ ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(سورة يس:٧٨) جاء أبي بن خلف لعنه ا لله بعظم رميم إلى رسول ا لله ﷺ، فقال: يا محمد أترى أنَّ ا لله يحيي هذا بعدما رمَّ؟ فقال ﷺ: «**نعم يحييه الذي خلقه أوَّل مرَّة**» وقد قيل: نزلت الآية فيه، وخصوص السبب لا يمنع عموم المعنى، فهي في الاستدلال على وجود ا لله تعالى واختصاصه بالعبادة عمن لا يقدر على الخلق كما هي في إثبات البعث.

﴿**وَالأنْعَامَ خَلَقَهَا**﴾ وخلق الأنعام خلقها وهي الإبل والبقر والغنم، بدأ بذكر خلق السموات والأرض وفيهما منافع للإنسان، وذكر بعده ما ينتفع به أكلا وشربا وهو الأنعام، وهما أعظم ما يحتاج إليه، ومعهما ركوب الإبل واللباس، واختير النصب على الاشتغال لتقدُّم الفعلية، أو الأنعام معطوف على الإنسان، وذكر قوله خلقها على هذا ليبني عليه قوله:

﴿**لَكُمْ**﴾ خبر مقدَّم ﴿**فِيهَا**﴾ متعلّق به أو بما تعلّق به ﴿**دِفْءٌ**﴾ مبتدأ كما قال ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ ويجوز تعليقه بخلقها فيكون فيها خبر على الاشتغال.

أو عطف على الإنسان فيكون قوله ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ بيانا لما خلق لأجله، وقوله ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ تفصيلا، وعلى كلِّ حال يكون المراد لكم يا أهل مكة في جملة الناس، ويجوز تعميم الناس بالخطاب، والدفء التخلُّص من مضرَّة البرد بتحصيل السخونة بلباس ما نسج منها، ويصنع البيوت منها، أو الدفء ما يتحصَّل من الإبل من نتاج ولبن ومنافع.

﴿**وَمَنَافِعُ**﴾ كالحبال والحرث والنضح، وحفظ المال في البيت المتَّخذ منها، وسائر ما يعمل منها، وركوب الإبل وقد يركب على البقر، قيل ولبنها، وقد يدخل

في ﴿تَاكُلونَ﴾ لقوله تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾(سورة البقرة: ٢٤٧) قيل ونسلها وفيه أنَّه نفس الإبل والبقر والغنم، قيل وأثمانها وأثمان ما يتولَّد منها كلبن وصوف وأجرة عمل.

(فقه) ولا أجرة للضراب وله أخذ ما أعطي بلا عقد أو شرط.

وإنَّما شمل الأكل ﴿وَمِنْهَا تَاكُلُونَ﴾ اللحم ومن غيرها أيضا وخصَّها بالذكر لأنَّها معظم ما يؤكل، وقدَّم الظرف للفاصلة ومُراعاة لطريق الاهتمام.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ تردُّونها من المرعى رواحا، أي عشية إلى حيث تلبث ويقال له مراح ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ تخرجونها صبحا إلى المرعى، تكون زينة لهم ولبيوتهم، وما يليها إذ تأوي إليها، وحين يتعلَّق بمحذوف نعت جمال، أو بـ﴿فِيهَا﴾ أو بـ﴿لَكُمْ﴾ لنيابتها عمَّا يجوز التعلُّق به، أو بمتعلَّقهما، وقدَّم الإراحة على السرح مع تأخُّرها في الزمان لأنَّها أشدُّ زينة، إذا أريحت ممتلئة البطون والضروع تجري مجتمعة وتجتمع في المراح بأصوات عكس حالها حال السرح، ولا سيما حال الربيع، والمفعول محذوف في ﴿تَسْرَحُونَ﴾ للفاصلة وفي تريحون لموافقة ﴿تَسْرَحُونَ﴾ والتقدير تريحونها وتسرحونها.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ حكم على المجموع ﴿إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الاَنفُسِ﴾ الأثقال جمع ثقل وهو الشيء الثقيل وما يحتاج المسافر وغيره، فإنَّ من الأشياء ما يعجز الإنسان عن حمله ولو ميلا إلاَّ بشقِّ نفسه، والمراد الأحمال كذا قيل، وهو خطأ.

[قلت] والصواب أنَّ المعنى لا تبلغوه ماشين على أرجلكم غير حاملين لشيء إلاَّ بشق الأنفس إلاَّ بتعب عظيم، أو إلاَّ بشق قوتكم أي بنصفها، وغيره زائل بذلك المشي كما يقال: لا تنال كذا إلاَّ بقطعة من كبدك، والظاهر أنَّه يجوز إطلاق

الشقِّ على ما دون النصف أيضا، وتحتمله الآية، ويجوز أن يقدَّر غير بالغيه بها، أي مع الأثقال المحمولة على الأنعام إلاَّ بشقٍّ، ونكَّر البلد للتعظيم في البعد، قال ابن عباس هي اليمن ومصر والشام، ولعلَّه نظر إلى أنَّها متاجر أهل مكَّة ولعلَّه أراد التمثيل، كما مثَّل بعضهم بمدينة الرسول ﷺ، فالظاهر أنَّ المراد البلد البعيد مطلقا، وأنَّ ذلك في الذهاب والرجوع.

وهذه الخطابات الماضية والآتيات مخالفات للغيبة في الإنسان من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الاِنسَانَ﴾ لكن المسمَّى منها التفاتا هو الأوَّل فقط، وهو لكم في قوله ﷻ: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ وما بعده تبع له جاء على أصله حتَّى لو اغتاب بعد الأوَّل لكان التفاتا منه إلى الغيبة.

والآية جاءت على الغالب، أو على من شرع في السفر على المعتاد، فلا تنافي كرامات الأولياء ولا تبطلها في طي مسافات الأرض فيصلون المواضع البعيدة، في زمان قريب بقرينة الوجود ومشاهدته.

﴿**إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ كما لم يعاقبكم عاجلا وأنعم عليكم بالأنعام الحاملة ومنافعها، وقدِّم رؤوف مع أنَّه أخصُّ إذ هو أشدُّ الرحمة للفاصلة، لأنَّ آخر الفاصلة نون، وإنَّما يناسبها ميم لتقاربهما بخلاف الفاء فبعيدة عن النون.

﴿**وَالْخَيْلَ**﴾ اسم جنس لا واحد له من لفظه وله واحد من معناه وهو فرس، وسمِّيت خيلا لاختيالها في مشيها، والعطف على الأنعام ﴿**وَالْبِغَالَ**﴾ أبو البغل الحمار وأمُّه الفرس الأنثى ﴿**وَالْحَمِيرَ**﴾ نصب الخيل وما بعده عطفا على الإنسان، إن جعلنا الأنعام معطوفا عليه، وإن جعلناه من الاشتغال فالأولى نصب الخيل وما بعده بـ«خَلَقَ» محذوفا هكذا وخلق الخيل والبغال والحمير ﴿**لِتَرْكَبُوهَا**﴾ جرَّ المصدر المأوَّل باللام التعليلية المتعلِّقة بـ«خلقها» لاختلاف الفاعل، لأنَّ فاعل الخلق

ا لله ﷻ، وفاعل الركوب الناس، ونصب زينة من قوله ﴿وَزِينَةً﴾ على التعليل لاتحاد فاعلهما لأنَّ الخالق والزائن هو ا لله ﷻ.

(فقه) نصَّ على أنَّ الثلاثة للزينة و لم يذكر الحلَّ للأكل والآية مكّية، والحمر الأهلية حرِّمت في المدينة عام خيبر عند الجمهور، وفي الصحيحين عن جابر بن عبد ا لله أنَّ رسول ا لله ﷺ **«نهى عن لحوم الحمر الأهلية»**[١] أي في المدينة فهي قبل ذلك على الحلِّ، **والأصل في الأشياء قبل النزول الحلُّ، إلاَّ ما تبيَّن،** وأذن في لحوم الخيل يوم خيبر، وفي رواية: أكلنا زمان خيبر الخيل وحمر الوحش، ونهى النبيء ﷺ عن الحمار الأهلي، وروى أبو داود عن جابر بن عبد ا لله: ذبحنا يوم خيبر الخيل والبغال والحمير، وكنّا قد أصابتنا مخمصة فنهانا رسول ا لله ﷺ عن البغال والحمير، و لم ينهنا عن الخيل[٢].

(فقه) وفي الصحيحين عن أسماء بنت أبي بكر الصدِّيق: « نحرنا على عهد رسول ا لله ﷺ فرسا ونحن بالمدينة فأكلناه»[٣] ولهذا ونحوه أحلّها الحسن البصري وشريح وعطاء وسعيد بن جبير والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو حنيفة قبل موته بثلاثة أيّام وصاحباه، وذكرهما للزينة والركوب لا ينافي حلَّ لحمها، وحمل الأثقال عليها، كما أنَّ ذكر الأنعام للأكل لا ينافي حلَّ الركوب عليها والزينة بها، وإنّما ذكر في كلٍّ من ذلك ما هو المقصد الأعظم فيه امتنانا علينا، بحسب ما يعتاد

١ - رواه **البخاري** في كتاب المغازي (٣٨) باب غزوة خيبر رقم ٤٢١٩. من حديث جابر بن عبد ا لله، **وأحمد** في مسنده: ج٢، ص٢١، **والهيثمي** في المجمع: ج٤، ص٢٦٣.

٢ - رواه **البخاري** في كتاب المغازي (٣٨) باب غزوة خيبر رقم ٤٢٢٠، من حديث ابن أبي أوفى. **وأبو داود** في كتاب الأطعمة، باب لحوم الحمر الأهلية رقم ٣٨٠٨، من حديث جابر مع اختلاف في اللفظ.

٣ - رواه **البخاري** في كتاب الذبائح والصيد (٢٤) باب النحر والذبح رقم ٥٥١١.

فيه.

(فقه) ولا يخفى أنَّ المنفعة العظمى في الأنعام، فذكرت بالحلِّ للحمها والشعر للباس وغير ذلك من المنافع، والسنَّة بيَّنت حلَّ الخيل وتحريم الحمار والبغل، ولا يلزم من تعليل الشيء بما يقصد منه غالبا أن لا يقصد منه غيره أصلا.

وعن ابن عباس تحريم لحم الخيل كالبغل والحمار وعليه مالك وأبو حنيفة لذكرهما بالركوب والزينة، ولا يتمُّ تعليلا، وفي أفضل كتب الحديث للربيع بن حبيب عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد بلغني عن علي بن أبي طالب: «**نهى رسول الله ﷺ عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية**»[1] إلاَّ أنَّه مقطوع وهو في تلك الكتب المذكورة موصول.

وعن أبي يوسف ومحمَّد إباحة الخيل لما روي عن جابر: كنَّا جعلنا في قدورنا لحم الخيل ولحم الحمار، فنهانا الطّيلا أن نأكل لحم الحمار، وأمرنا أن نأكل لحم الخيل، يعني أنَّ بعضا جعل في قدره لحم الخيل وبعضا لحم الحمار، فلو كانا في قدر بمرَّة و لم يدخلهما النضج لغسل لحم الخيل والقدر، وطبخ لحم الخيل وحده، وعن أبي حنيفة كراهة لحم الخيل لا تحريمه لاختلاف الصحابة والسلف، وعن حسن عنه من تلاميذه أنَّه يحرِّمه، وقيل أراد أبو حنيفة بالكراهة الحرمة.

وذكر بعض أنَّ البغل إن كانت أمُّه أتانا فكالحمار، والعبرة بالأمِّ، وإن كانت فرسا فكالفرس، إن نزا الحمار على الرمكة لم يكره لحم بغلهما.

(فقه) والمذهب **تحريم الثلاثة** ورخَّص بعض فيها، وروى أبو داود

---

[1] - رواه **الربيع في** كتاب الزكاة (٦٣) باب أدب الطعام والشراب رقم ٣٨٨. **والبخاري في** كتاب المغازي (٣٨) باب غزوة خيبر رقم ٤٢١٦. من حديث علي.

والنسائي عن خالد بن الوليد: «**نهى الرسول ﷺ عن أكل كلِّ ذي ناب من السباع وعن لحوم الخيل والبغال والحمير**»[1].

﴿**وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ أنتم ولا غيركم، أو ما لا تعلمون أنتم وقد علمه غيركم، وذلك في الأرض والأرضين تحتها، وفي الهواء وفي السموات.

(قصص) روي أنَّ سمكة عظيمة اتبعت سمكة عظيمة دونها من البحر المحيط، فدخلت التي دونها زقاق «سبتة» أعني الخليج الممتد من جهتها إلى طنجة، ولم يسع العظيمة مع أنَّه فراسخ، وأنَّ ناسا في المركب من جهة الجنوب رأوا الأسود والنمور والفيلة وغيرها هربت من غابة لحية من ورائها كالصومعة تمتدُّ إلى فوق، ثمَّ تنكس في مشيها، يكون الفيل لقمة لها، ومثل هذا في الكتب كثير.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عنه ﷺ «**إنَّ ممَّا خلق ا لله تعالى لأرضا لؤلؤة بيضاء مسيرة ألف عام، عليها جبل من ياقوتة حمراء محدق بها، وفي تلك الأرض ملك ملأ شرقها وغربها له ستمائة رأس، وفي كلِّ رأس ستَّمائة وجه، وفي كلِّ وجه ستمائة ألف وستُّون ألف فم، في كلِّ فم ستُّون ألف لسان يثني على ا لله تعالى، ويقدِّسه ويهلِّله، ويكبِّره، وإذا كان يوم القيامة نظر عظمة ا لله تعالى فيقول: وعزَّتك ما عبدتك حقَّ عبادتك**» فذلك قوله تعالى ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

ويجوز أن يكون المراد ما لا تعلمون مما يحتاج إليه كذلك، وأن يكون المراد ما في الجنَّة والنار مما لا يخطر لهم ببال، كما قال ﷺ عن ا لله ﷻ «**أعددت لعبادي**

---

[1] - رواه **أبوداود** في كتاب الأطعمة، باب في أكل لحوم الخيل، رقم ٣٧٩٠. **والنسائي** في كتاب الصيد (٣٠) باب أكل لحوم الخيل رقم ٤٣٤٣.

الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[1].

وروى ابن عباس والضحاك ومقاتل وعطاء: «إنَّ عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يدخل فيه جبريل كلَّ سحر فيغتسل ويزداد جمالا وعظما، ثمَّ ينتفض، فيخلق الله تعالى من كلِّ قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك، فيدخل منهم كلَّ يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور، وسبعون ألف ملك الكعبة، لا يعودون أبدا» [قلت]: **ولا يحسن أن يفسَّر** ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ بالسوس والدود في النبات والثمار.

﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ بيان السبيل القاصد وهو المستقيم، دين الإسلام، أو السبيل المقصود، وهو دين الإسلام، أو جعله كذلك وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب فضلا منه، ولا واجب عليه، ولكن ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَة وَيَحْيَا مَنْ حَيِيَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾(سورة الأنفال:٤٢).

﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ عن الاستقامة أو عن الله ورحمته، بردِّ الضمير إلى السبيل بلا قيد أنَّها قاصدة، وذلك استخدام لأنَّ السبيل المذكور مستقيمة فلا يتصوَّر أن يكون منها جائر، وذلك إذا فسَّرنا قصد السبيل بإضافة إلى الموصوف، كما رأيت، ولو جعلناه إضافة خاص لعام، أي القاصد أو المقصود من السبيل ردَّ الضمير إليه بلا استخدام.

(صرف) والسبيل يؤنَّث كما قال ﴿مِنْهَا﴾ وكقوله تعالى ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي﴾(سورة يوسف: ١٠٨) ويذكَّر كما قال ﴿جَآئِرٌ﴾ أي سبيل جائر وأنِّث على إدارة معنى السبل المتعدِّدة.

---

[1] - رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة رقم ٣٠٧٢. ورواه **مسلم** في كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم ٥٠٥٠. من حديث أبي هريرة.

وأجيز عود الضمير إلى الخلائق كما قرأ عيسى[1] وابن مسعود ﴿وَمِنكُمْ جَائِرٌ﴾ وعلي ﴿فَمِنكُمْ جَائِرٌ﴾ ولم يقل وجائرها حتّى يوافق ما قبله لأنَّ المقصود بالذات بيان سبيله المستقيم، وأمَّا الجائر فبالعرض، وأيضا ذكر سبيل الاستقامة مع قوله ﴿عَلَى اللهِ﴾ ترجيحا لرحمته.

(أصول الدين) والحقُّ إضافة الضلال إلى الله سبحانه بمعنى خالقه، وأخطأ المعتزلة إذ قالوا لم يخلقه، وذكر بعض أنَّه عبَّر بذلك تأدبيا.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمُ, أَجْمَعِينَ﴾ والله لم يشأ هداية الشقي، ولم يردها، فهو مخذول ولكن أمره بالهدى وأحبَّ له الاهتداء، بمعنى أمره به ولو شاء لهداه باختياره، كما أنَّه لو شاء لأجبره على الاهتداء، والمراد بالهداية الهداية الموصلة إلى المطلوب، وأمَّا هدى البيان فعمَّ السعيد والشقيَّ ولولاها لم تكن السعادة والشقاوة.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

---

[1] - المقصود-بعيسى: عيسى بن عمر الثقفي البصري النحوي المقرئ وهو شيخ الخليل وسيبويه وابن العلاء، أول من هذَّب النحو ورتَّبه توفي ١٤٩هـ. معجم المفسِّرين ج١ ص٤٠٨.

أدلة أخرى لإثبات الألوهية والوحدانية

﴿هُوَ الذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ السحاب، أو من جهة السماء، أو من السماء نفسها، والله قادر، وكذا تقول في غير هذا المحلِّ، ومن السحاب ما ينعقد من ماء البحور والعيون بالبخار [وهذا هو الواقع].

﴿لَّكُم﴾ قدِّم على طريق الاهتمام والامتنان وكذا قوله ﴿مِّنْهُ﴾ من ذلك الماء، أو قدِّم منه للحصر، لأنَّ كلَّ ما في الأرض نزل من السماء سوى الماء الأوَّل[1]، قال الله تعالى ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾(سورة الزمر: ٢٧) وقال تعالى ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الاَرْضِ﴾(سورة المؤمنون: ١٨) وقال تعالى ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾(سورة الحجر:٢٢) ﴿شَرَابٌ﴾ مشروب لكم، ومن للتبعيض أو للابتداء متعلّق بلكم، أو بمتعلّقه، لأنه خبر لـ﴿شَرَابٌ﴾، أو حال من المستتر في ﴿لَّكُم﴾، و﴿شَرَابٌ﴾ مبتدأ، أو يتعلّقُ بـ﴿أَنزَلَ﴾ والخبر ﴿مِنْهُ﴾، ولا تقل ﴿مِنْهُ﴾ متعلّق بمحذوف حال من ﴿شَرَابٌ﴾ مع أنَّ ﴿شَرَابٌ﴾ مبتدأ لأنَّ رافع المبتدأ وهو الابتداء لا يتقيَّد بالحال.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ مبتدأ وخبر أو عطف ﴿مِنْهُ﴾ على ﴿مِنْهُ﴾، و﴿شَجَرٌ﴾ عَلَى ﴿شَرَابٌ﴾، وهذا على أنَّ ﴿لَكُمْ﴾ خبر، ويجوز تقدير وينبت منه شجر بالبناء للفاعل أو للمفعول، وشجر نكرة عمَّت في الإثبات لجواز ذلك مع قرينة، أَلاَ ترى أنَّه ليس المراد شجرات مخصوصات؟ والمراد بالشجر النبات الذي يرعى مما لا ساق له مجازا أو له ساق لا يسمَّى به في العرف شجرا، ففي حديث عكرمة «**لا تأكُلوا**

---

[1] - يقصد الشيخ: الماء الذي قبل خلق الموجودات المذكور في قوله تعالى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ﴾(سورة هود: ٠٧).

ثمن الشجر فإنَّه سحت»[1] ولعلَّه فيمن منع النبات في الفلاة ليختصَّ بالكلأ، قال شاعر:

نطعمها اللحم إذا عزَّ الشجر والخيل في إطعامها اللحم ضرر[2]

ويروى نعلفها اللحم، أراد بالشجر النبات واللحم ضرع الشاة أو نحوه، يشير إلى اللبن، ومعنى الضرر أنَّه لا يكفيها قال الزجاج كلُّ نبات شجر حقيقة.

﴿**فِيهِ تُسِيمُونَ**﴾ تجعلون دوابَّكم سائمة أي راعية فيه، قال الزجاج أصل السوم بمعنى الرعي السوم بمعنى العلامة، لأنَّه يحصل من الرعي آثار في الأرض والنبات.

﴿**يُنبِتُ**﴾ المضارع للتجدُّد على ممرِّ الدهور، أو لاستحضار الصورة لما فيها من الغرابة ﴿**لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالاَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾ أي وبعض كلِّ نوع من الثمرات التي قضى الله بها، أو المراد ينبت لكم بعض كلِّ الثمرات، وكلُّها لا يوجد إلاَّ في الجنَّة، وما في الأرض إلاَّ بعض، أو بعض ما في بقاع الإمكان من ثمر القدرة وذاك شبه قوله ﴿وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

قدَّم المرعى لأنَّه يستحيل لبنا ولحما وهما أفضل الأغذية، وعقَّبه بالحبوب في قوله ﴿الزَّرْعَ﴾، ولا شكَّ أنَّ البرَّ والشعير معظم ما يؤكل وأقواه، وذكر بعدهما الفواكه، وقدَّم منها الزيتون لأنَّه فاكهة من وجه وأَدَمٌ من وجه، ودهن في مصالح ودواء وأكل وطلي واستصباح وغير ذلك، وفي الحديث «**كلوا الزيت وادهنوا به فإنَّه من شجرة مباركة**»[3] وذكره الله في القرآن بأنه ﴿صِبْغٍ للآكِلِينَ﴾(سورة

---

[1] - أورده **ابن حجر** في كتابه الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص٧٣٤ (م.أ.ط.ح).

[2] - أورده صاحب اللسان في مادة لحم.

[3] - رواه **الترمذي** في كتاب الأطعمة (٤٣) باب ما جاء في أكل الزيت رقم ١٨٥١، من حديث =

المؤمنون : ٢٠) ومثَّل به نوره، وعقَّبه بالنخل ولا يخفى منافع البسر والرطب والتمر، وهو أفضل من العنب، ولا يخفى أنَّ العنب يشبه النخل في التغذِّي والتفكُّه، وفي عمل الخلِّ منها.

[قلت]: وفي الآية تلويح إلى أن يهتمَّ الإنسان بمن تحت يده، **وذلك من مكارم الأخلاق**، وفي سورة أخرى تقديم طعام الإنسان ﴿كُلُواْ وَارْعَوَاْ أَنْعَامَكُمْ﴾(سورة طه:٥٤) لأنَّه مما لا دخل للإنسان فيه، أو رجوع إلى الأصل كما قال ﷺ «**إبدأ بنفسك ثمَّ بمن تعول**»[1].

(فقه) فلو توقَّفت الحياة على [طعام] قليل لا يوجد غيره ولا يكفي إلاَّ واحدا لقدَّم صاحبه نفسه، ومات غيره إلاَّ النبيء ﷺ فإنَّه ﴿أَوْلَى بِالْمُومِنِينَ مِنَ انفُسِهِمْ﴾(سورة الأحزاب:٦)، وكما يقدِّم الإنسان في الدعاء نفسه شرعا.

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ**﴾ المذكور من إنزال الماء وما فصَّل ﴿**لأَيَةً**﴾ على وجود الله ووحدته وكمال قدرته، يخرج من نقرة النواة نخلة ومن أسفل الحبَّة وهو ما اتصل بالشجرة عروقا، ومن أعلاها أوراقا وأزهارا وأكماما، مع اختلاف الأشكال والألوان والمنافع والرائحة والطعم، واتحاد التراب والماء وحرارة الأرض والشمس، وبرودة الأرض والهواء، وكيف يشرك به أخس الأشياء في الذات والصفة!! وذلك يدرك والحمد لله بأدنى تفكُّر.

﴿**لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ جعل هذا فاصلة ليستعملوا العقول في تلك الاختلافات مع

=

عمر. ورواه **التبريزي** في كتاب الأطعمة، الفصل الثاني رقم ٤٢٢١(٦٣) من حديث أبي أسيد الأنصاري.

[1] - رواه **مسلم** في كتاب الزكاة (١٣) باب الابتداء في النفقة بالنفس ثم أهله ثمَّ قرابته رقم ٤١(٩٩٧) مع اختلاف في اللفظ. من حديث جابر.

اتحاد المادة والسبب.

(أصول الدين) وفي ذلك ردٌّ على الطبيعيين لعنهم الله، وذلك بأنَّ للعالم صانعا ﷻ، وأيضا فمن خلق الطبع ونوَّعه تنويعا؟ وعلى الفلاسفة القائلين بأنَّ الأشياء تكوَّنت من الله بلا اختيار منه، لعنهم الله، وأيضا يقال لهم: لم اختلفت مع اتحاد المؤثِّر؟

﴿وَسَخَّرَ﴾ سهَّل أو هيَّأ في مصالحكم وسمَّى ذلك تسخيرا إطلاقا للخاص على العام، أو استعارة لأنَّ حقيقة التسخير قهر الحيِّ على ما يكرهه، وذلك بجامع الصعوبة في الجملة، ولا صعب على الله ﷻ، أو لَمَّا كانت حركة القمر والشمس الطبعية من المغرب إلى المشرق، وكان الفلك الأعظم يجري بهما من المشرق إلى المغرب، مخالفا لحركتهما كانا كمقهور على ما لا يريد، وحدوث الليل والنهار ليس إلاَّ لحركة الفلك الأعظم، وأمَّا حركة الشمس فسبب لحدوث السنَّة ولذا لم يغن ذكر الليل والنهار عن ذكر الشمس.

(فلك) ﴿لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ اليوم عبارة عن دورة فلك الكواكب من النطح إلى النطح، ومن الشرطين إلى الشرطين، ومن البطين إلى البطين، وهكذا إلى آخر المنازل، ومن درجة المنزلة ودقيقتها، وأخفى من ذلك إلى أقصى ما يمكن الوقوف عليه، وما من يوم من طلوع الشمس أخفى إلى طلوعها، أو من غروبها إلى غروبها، أو من استوائها إلى استوائها، أو ما بين ذلك إلى ما بين ذلك إلاَّ وفيه نهاية ثلاثمائة وستِّين يوما، فاليوم طول ثلاثمائة وستِّين درجة لأنَّه يظهر فيه الفلك كلُّه، وتعمُّه الحركة.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ بإرادته وإيجاده وحكمه، وموافقة ما أراده بها من المنافع بلا تخلُّف، والنصب على الحال المؤكِّدة لعاملها، وهو اسم مفعول، أو على المفعولية المطلقة.

(صرف) وهو مصدر ميمي لأنَّه من كلِّ رباعي أو خماسي أو سداسي، بوزن اسم مفعوله، أي تسخيرات، والمصدر يجمع ويثنى للدلالة على الأنواع، ولو قيل تلك النباتات بالكواكب والأفلاك لقيل لم اختصَّت ببعض الجائزات؟ فبان أنَّ لها صانعا مختارا لبعض الجائزات، كمقدار من الطعم ونوع منه، ومقدار من الألوان والطول والقصر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ جعل هذا فاصلة لما قبله، لأنَّ العلويات أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة، فيكفي في الدلالة بها وجود العقل مع استعمال وتدبُّرٍ مَّا بخلاف النبات، وما معه فلا بدَّ فيه من الجدِّ في استعمال العقل، فختم بالتفكُّر، وجمع الآية هنا لأنَّ ما هنا أنواع من الدلالة ظاهرة بالمشاهدة.

﴿وَمَا﴾ عطف على ﴿النُّجُومَ﴾ أو على ﴿الَّيْلَ﴾، ولا بأس بالتكرار وشبَّهه للتأكيد أو زيادة البيان أو نحو ذلك، وذلك أنَّ لام لكم للنفع، وسخَّر لكم في معنى ينفعكم، ولاسيما أنَّ الآية سيقت كالفذلكة لما قبلها، ولذلك ختمت بالتذكُّر، كأنَّه قيل وسخَّر ما ذرأ، ويجوز نصبه بـ«خَلَقَ» محذوفا، كأنَّه قيل: وخلق، لكن فيه تكرير الخلق بقوله: ﴿ذَرَأَ﴾ خلق ﴿لَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ من الحيوانات والنبات والثمار والمعادن ﴿مُخْتَلِفًا اَلْوَانُهُ,﴾ ببياض وحمرة وصفرة وخضرة، أو ﴿أَلْوَانُهُ,﴾: أصنافه أو أحواله، وكيفياته، فإنَّها تتخالف بالنوع غالبا، ومن غير الغالب التخالف بالطعم والشكل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يدركون بنظرهم أنَّ اختلاف ذلك بفاعل مختار، اختار أحد الجائزات في الألوان والطعوم والأشكال والطبائع، وكثيرا ما يتَّحد اللون أو الشكل ويختلف الطعم كالرمان الحلو والحامض، وكالحنطة والبطيخ الأخضر.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ المالح وإنَّما يفسِّر به لعظمه وتبادره باسم البحر دون هؤلاء البحور الجارية، ولو كانت تسمَّى بحرا كبحر النيل، وأيضا البحر المالح هو المعروف باستخراج اللؤلؤ والمرجان منه والياقوت والحوت، بخلاف البحر الحلو كالنيل، فإنَّه لا يكون فيه ذلك الحلي، وقلَّ فيه السمك وهو دون سمك البحر المالح، والمراد بالبحر الجنس الشامل، ولا يدخل المحيط لأنَّه لا يطاق على الغوص إلى أرضه.

والمراد سخَّره للركوب إلى حيث شئتم من البحر أو البرَّ والغوص فيه للسمك، ونحو اللؤلؤ كما قال:

﴿لِتَاكُلُواْ مِنْهُ﴾ أي من سمكه، فحذف المضاف أو المعنى لتأخذوا منه ﴿لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً﴾ ما يتزيَّن به من لؤلؤ ومرجان ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ ذكوركم ونساؤكم، كما يثقب للصبي فيعلَّق في أذنه لؤلؤة أو مرجانة، وكما يركَّب التاج بهما.

(فقه) ومن حلف على حلي حنث بأحدهما عند أبي يوسف للآية لا عند أبي حنيفة لعدم العرف بذلك، والأكثر في لباسهما النساء، ولذلك يجوز أن يقدَّر تلبسها نساؤكم.

أو أسند اللباس إليهم حكما على المجموع، لأنَّ النساء والرجال جنس البشر، ولأنهنَّ يلبسن ذلك لأجلهم، كما قيل المراد بالبحر ما يشمل العذب فيكون نسبة استخراج الحلية بالنسبة إلى العذب حكما على المجموع، كما في قوله تعالى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾(سورة الرحمان:٢٢) ﴿وَمِن كُلٍّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً...﴾(سورة فاطر : ١٢) أو تلبسونها بمعنى تخالطونها في نسائكم ومتاجركم، أو استعار اللباس للاستلذاذ بجامع التمتُّع، أو ذلك مجاز مرسل لأنَّ التمتُّع لازم للباس.

ووصف السمك بالطراوة لأنّه أرطب اللحوم، وهو أسرع فسادا من سائر اللحوم إن لم يشرَّح ويملّح، ولذلك يسرع إلى أكله لئلا يفسد، وسمّاه لحما مع أنّه حيوان لذلك ولكونه يصلح للأكل فقط لا كالأنعام، ولدقّة عظامه كأنّها لم تكن، وفيه دلالة عظيمة على قدرته إذ خلق لحما طريا شهيا للأكل في ماء مالح تنصلّب أشياؤه.

(فقه) ومن حلف لا يأكل لحما حنث بالسمك، لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سمّاه لحما، [قلت]: والصحيح عندي القول بأنَّ اليمين على العرف فلا يحنث في عرف من لا يذكره باسم اللحم، ولو كان لحما في اللغة والقرآن، لأنَّ العمل بالنية، سمع سفيان الثوري عن أبي حنيفة أنّه لا يحنث به من حلف على اللحم فأنكر عليه لهذه الآية، فأرسل إليه أبو حنيفة من سأله عن حالف لا يصلّي على البساط إن صلّى على الأرض، فقال لا يحنث، فقال السائل: قد سمّاها الله بساطا، فعلم أنَّ ذلك السؤال من أبي حنيفة فرجع إلى قول أبي حنيفة، فلا يحنث حالف على ركوب دابة بركوبه إنسانا، مع أنّه دابة لأنّها في العرف الحمار أو ذات الأربع.

والمرجان شجر أحمر ينبت في البحر المالح على صورة شجرة التين مثلا، كما قال أبو بكر الطرطوشي[1] إنّه عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكفِّ، لا صغار اللؤلؤ كما قيل، وإنّما يزداد حمرة بالعمل [أي بمعالجته بمادة].

(فقه) والحوت كلّه حلال ولو على صورة إنسان أو خنزير أو كلب، أو طفا على الماء ميّتا، أو ذهب عنه الماء أو مات بضرب أو بأكل شيء أو غير ذلك،

---

[1] - هومحمد بن الوليد القرشي الفهري الأندلسي، ويقال له ابن أبي رندقة فقيه مالكي من حفاظ الحديث مفسِّر أديب من أهل طرطوشة بشرق الأندلس مات سنة ٥٢٠هـ. معجم المفسِّرين ص٦٤٦ ج٢.

أو وجد في بطن حيوان آخر، أو بجرٍّ أو برد أو ضيق أو مات في جبِّ ماء أو قتله طائر أو غيره، أو طال موته وأنتن، وما قطع منه وما بقي **إلاَّ أنَّ أكله بعد ذهاب طراوته أضرُّ شيء** قال ﷺ «**كلَّ ما في البحر فهو ذكي**[1]» وقال «**هو الطهور ماؤه والحلُّ ميتته**»[2] أي ميتة حيوانه ولو مات في غيره، ولا أستثني شيئا منه، ولهذا الحديث ونحوه علمنا أنَّ حديث «**ما أبين من حي فهو ميتة**»[3] إنَّما هو في حيوان البرِّ، وعنه ﷺ «**ما نضب عنه الماء فكلوا وما لفظه الماء فكلوا، وما طفا فلا تأكلوا**» روي عن جابر بن عبد ا لله، فإن صحَّ فالنهي عن الطافي كراهة لا تحريم.

﴿**وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ**﴾ جمع ماخر، والميم أصل، تمخر الماء أي تشقُّه ذاهبة وراجعة بريح، [أو غيره] وربَّما اتحدت الريح ذهابا ورجوعا، أو تصوِّت مع الماء للجري فيه أو تجري.

﴿**وَلِتَبْتَغُواْ**﴾ في عطف على ﴿لِتَاكُلُواْ﴾ أي ولتطلبوا، قيل أو الواو زائدة لسقوطها في قوله تعالى ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ وَلِتَبْتَغُواْ﴾(سورة فاطر: ١٢)، أو عطفت على محذوف أي لتعتبروا ولتبتغوا أو لتنتفعوا، وليبتغوا قيل أو وفعل ذلك لتبتغوا ﴿**مِن فَضْلِهِ**﴾ من سعة رحمته بركوبها للتجر ﴿**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ ا لله على ذلك وسائر نعمه، وذكر الشكر هنا لأنَّه جعل البحر المهلك سببا في الوصول إلى المرام، وأخرج البزار عن أبي هريرة موقوفا «**كلَّم ا لله البحر الغربي**[4] **إنِّي حامل فيك عبادا من عبادي فما أنت صانع بهم؟ قال: أغرقهم، قال: بأسك في نواحيك،**

---

[1] - من ذكا يذكو الشاة: ذبحها فذكي على وزن فعيل بمعنى مفعول، أي مذكَّى.

[2] - رواه **الربيع** في كتاب الطهارات (٢٤) باب في أحكام المياه رقم ١٦١.

[3] - أورده **الزيعلي** في (النصب) كتاب الصيد: ج٤ ص٣١٧.

[4] - المراد بالبحر الغربي المحيط الأطلسي، وقد كان في القديم مرهوب الجانب لا يغامر الناس بالإبحار فيه، حتَّى اكتشف الطريق إلى الأمركيتين.

وحرمه الحلية والصيد. وكلّم البحر الشرقي: إنّي حامل فيك عبادا من عبادي فما أنت صانع بهم؟ قال: أحملهم على يدي، وأكون لهم كالوالدة لولدها، فأثابه الحِليّ والصيد» ومثل ذلك لأبن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو بن العاصي عن كعب الأحبار، وهو كلام لم يثبت **وكأنّه موضوع**[1]، والمشاهد أيضا في الغربي الصيد والحلي.

﴿**وَأَلْقَىٰ**﴾ وضع ببعض شدّة من جهة السماء، وفسِّر بخلق من الأرض والأوّل أصحُّ ﴿**فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ**﴾ جبالا رواسي أي ثوابت ﴿**أَن تَمِيدَ بِكُمْ**﴾ على حذف مضاف كراهة أن تميد بكم، أو لا نافية، أي: لئلاّ تميد بكم، والميد: الميل من جانب لجانب بتكرُّر، والباء للتعدية.

خلق الله الأرض على الماء فجعلت تمور وذلك بخلق الله تعالى فيها، وذات الشيء لا تقتضي الحركة، وإنّما هي بإرادة الله تعالى، فقال الملائكة: لا يستقرُّ عليها أحد! فأصبحت وقد أرسيت بالجبال على جريان عادته تعالى في جعل الأشياء منوطة بالأسباب، وإذا شاء لم يعلّقها بالأسباب، وفي ذلك ردٌّ على من زعم من الكفّار أنّها تميل على استقامة إلى المشرق، فيكون الليل وإلى المغرب فيكون النهار، [وزعموا] أنَّ الشمس والقمر لا جريان لهما، وذلك إنكار لجريانهما المذكور في القرآن، وإنكار لتحرُّك جوانبها، فأرسيت عليها الجبال فسكنت.

وزعموا أنَّ في الإقليم الأوّل عشرين جبلا، وفي الثاني سبعة وعشرين، وفي الثالث ثلاثة وثلاثين، وفي الرابع خمسة وخمسين، وفي الخامس ثلاثين، وفي كلٍّ من السادس والسابع أحد عشر، وذلك مائة وسبعة وثمانون، والله أعلم ولعلّه لا يصحُّ ذلك.

---

[1] - وقد أورده ابن كثيرفي تفسير الآية وأشار إلى ضعفه.

(فلك) قال علماء الهيئة: ثلاثة أرباع كرة الأرض غائصة في البحر المحيط[١]، وفي الربع المسكون سبعة أبحر سخرها الله ﷻ للناس، وكانت تميل من جانب لجانب فألقى الله عليها الجبال فثبتت، كسفينة تتحرَّك وجعل فيها الأثقال فثبتت، وكانت لها كالأوتاد قال الله ﷻ ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾(سورة النبأ:٧)، وإنَّ الأرض كرة وإنَّ أعظم جبل في الأرض ارتفاعا فرسخان وثلث فرسخ نسبته إلى جميع الأرض نسبة خمس سبع شعيرة إلى كرة قطرها ذراع، وهذا القدر من الشعيرة لا يخرج الكرة المذكورة عن صحَّة الاستدارة، بحيث يمنعها عن سلاسة الحركة، فكذلك ينبغي أن يكون حال الجبال بالنسبة إلى كرة الأرض.

(فقه) ومن حلف لا يجلس على الأرض وأراد مقابل الفراش حنث بالجلوس على الجبل، وإن أهمل الإرادة لم يحنث به في عرفنا، إنَّه يقال سكن في الأرض أو سكن في الجبل، وإذا كان الكلام فيما يقابل السماء حنث بالجبل، وهكذا يبحث، ألا ترى أنَّها من غير الأرض جعلت في الأرض وألا ترى أنَّ الأرض تقابل بالبحر مع أنَّه فيها؟

﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً﴾ عطفه على رواسي على تأويل ألقى بخلق، أي خلق رواسي، وأمَّا على نصبه بألقى بمعنى وضع بشدَّة فلا يعطف عليه، إذ لا معنى لوضع الأنهار والسبل والعلامات بشدَّة، فيقدَّر لهنَّ خلق أو وضع بلا قيد شدَّة أو شقَّ كقوله: «علفتها تبنا وماء باردا»[٢] إلاَّ إن فسِّر ألقى بمطلق الوضع بلا شدَّة أو ضمِّن ألقى معنى جعل، والمراد بالأنهار ما يشمل الصغار والكبار، وجعل بعض منها النيل وسيحون وجيحون والفرات، وفيه نظر إن أريد بالنهر ما ينبع لأنَّهنَّ أودية جارية من الجنَّة [فيما قيل]، إلاَّ إن اعتبر منبعهنَّ منها، أو اعتبر ما يزاد إليهنَّ من عيون الجبال، فإنَّ فيهنَّ ماء عيون وأمطار، وذكر الأنهار عقب الجبال لأنَّ

---

١ - وعند الجغرافيين: اليابسة تمثِّل ٢٩٪ من سطح الأرض والبقي مياه.

٢ - البيت من شواهد ابن عقيل وعجزه: حتَّى شَفَتْ همَّالةً عيناها.. أنظر اللسان مادة علف.

معظم العيون وأصولها من الجبال، وأخّر الأنهار لأنّ غالبها من الجبال، ﴿وَسُبُلاً﴾ طرقا إلى ما تحبُّون الذهاب إليه.

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى ما تحبُّون الذهاب إليه، أو إلى ما تطلبون في الجهات أو إلى معرفة الله عَجَلَّ.

﴿وَعَلاَمَاتٍ﴾ تستدلُّون بها على المواضع التي قصدتم كالجبال، ومنها العيون ونفسها ومواضع في الأرض، والريح وشمُّ التراب فتعرف بها الأرض، والمسافة من السوف بمعنى الشمِّ، ولا يختصُّ بالنهار، ومطلع الشمس ومغربها وذلك نهارا ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ جنسه أي وبالنجوم وهي علامات ليلا كما قرئ وبالنُّجُمِ بضمِّ النون والجيم، أو بضمِّها وإسكان الجيم.

وقيل المراد الثريا والفرقدان وبنات النعش الصغرى والكبرى والجدي، وقيل الثريا لأنَّ النجم علم عليها بالغلبة، قال ﷺ «**إذا طلع النجم ارتفعت العاهات**»[1] وعنه ﷺ «**إنّه الجدي**» أي جدي الفرقد، رواه ابن عباس، **ولعلّه لم يصحَّ عنه**، وخلق الله النجوم علامة للطرق ورجوما للشياطين وزينة للسماء، ومن قال غير ذلك فقد تكلّف ما لا علم له به.

(بلاغة) ولمّا كانت الدلالة بالنجم أنفع العلامات ليلا برًّا وبحرا، قدَّم ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ على متعلّقه بطريق العرب في التقدُّم للاهتمام، وهو ﴿يَهْتَدُونَ﴾ من قوله ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ وقدَّمه أيضا للفاصلة، ولكون الدلالة بالنجم أنفع العلامات، جاء ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بالغيبة على طريق الالتفات من الخطاب ليعمَّ أهل الأرض، فالضمير لهم عموما، وقيل لقريش لكثرة سفرهم للتجارة، وشهرة اهتدائهم بالنجوم فيه، وأيضا هم أولى بالخطاب لإنكارهم من بعث فيهم ﷺ، ثمَّ العرب لفرط معرفتهم بالنجوم حتّى لوَّح للاختصاص بقوله ﴿هُمْ﴾.

---

[1] - أورده **العلجوني** في الكشف: ج١، ص١١٠. **والطحاوي** في مشكل الآثار: ج٣ ص٩١ (م.أ.ح.ن).

ويجوز كون التقديم للحصر حتّى كان غير النجوم كلا علامة في الليل، ويهتدون بالمثناة التحتية هنا، وهناك بالفوقية، وكفى ذلك مغايرة بين الفاصلتين، **والأولى** أنَّ الخطاب والضمائر في ذلك كلّه لجميع الناس، لأنَّهم يسافرون ويستدلُّون بالنجوم، وقريش منهم ولو امتازوا بذلك.

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

خواص الألوهية

الخلق وعلم السرِّ والعلن والحياة الأبدية

﴿**أَفَمَن يَّخْلُقُ**﴾ كلَّ ما يشاء كما شاهدتم ما ذكر وأقررتم به، وليس المراد ما ذكر لأنَّه مضى خلقه إلاَّ بتأويل الحال له، كأنَّهم حضروا وشاهدوا خلقه، بل المراد الإطلاق والتجدُّد والاعتياد، فيشمل الماضي والحاضر والآتي، وكلُّ ما ذكر خلق له ﴿**كَمَن لاَّ يَخْلُقُ**﴾ شيئا البتَّة، المعنى أسوَّيتم الله الخالق بمن لا يخلق في العبادة ولم تخصُّوه بها؟ ولذلك لم يكن الكلام: أفمن لا يخلق كمن يخلق، أو جعلوه كأنَّه من جنس المخلوقات العجزة شبيها بها، ولا يصحُّ أن يقال بالغوا حتَّى جعلوا الله فرعا في العبادة على أصنامهم، لأنَّ قولهم تقرِّبنا إلى الله زلفى ينافيه.

و«من» الثانية للأصنام على اعتقادهم عظمتها، حتّى كأنَّها عاقلة، أو للعقلاء

وغيرهم، فإنَّ مما يعبد من الخلق الملائكة وعيسى وغيرهم، ومن قريش من يعبد الملائكة، أو على مشاكلة ﴿مَن﴾ الأولى التي للعالم، أو ذلك على تأكيد نفي المساواة، كأنَّه قيل أيكون الله الخالق كالملائكة وعيسى الذين لا يخلقون وهم يعلمون؟ فكيف من لا يعلم كالأصنام؟ ﴿أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ فإنَّ الحقَّ في ذلك يدرك بأدنى تأمُّل بل بمجرَّد التفات في الشأن، وما ذكر تذكير تفصيلي بطائفة من النعم، عقَّبه بتذكير إجمالي بقوله:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ إن أردتم العدَّ ﴿نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَآ﴾ تنبيها على أنَّ وراء تلك النعم نعما لا تقدرون على حصرها بعدد أفرادها ولا أنواعها، فضلا عن أن تقوموا بشكرها، وحقُّ عبادته غير مقدور لكن أمرتم بالشكر على حسب الطاقة.

﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب ﴿رَّحِيمٌ﴾ قدَّم الغفران لأنَّ التخلِّي قبل التحلِّي، وهو أنسب بالفاصلة، ومن رحمته أنَّه لم يعاجلكم بالعقاب وتوسيع النعمة عليكم بعد تقصيركم، ومبالغتكم في المعاصي، ومن الجائز أن يقال: غفور يستر الذنب في الدنيا ولا يكشفه بالإظهار ولا بالعقاب عليه، رحيم بنعم الدنيا ونعم الآخرة للتائب.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ من أحوالكم كلِّها ومنها إيذاؤكم رسوله، وسائر معاصيكم، اعتقادا وعملا سيجازيكم، وليس ما تعبدون عالما بأحوالكم ولا مجازيا عليها ولا على خير تدَّعونه، فكيف تعبدونه؟ وقدَّم الأسرار تحقيقا للمساواة على أبلغ وجه، فإنَّ الجاهل يتوهَّم أنَّه تعالى لا يعلم ما أسرَّه أحد.

﴿وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ بمعنى تعبدون مجازا متعارفا ملحقا بالحقيقة، لاشتمال العبادة على الدعاء من حيث أنَّها فعل متقرَّب به إلى ما يراد تحصيله، وإنَّ فيها دعاء صريحا مثل ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾(سورة البقرة :٢٨٥) ومثل ﴿اهْدِنَا

الصِّرَاطَ﴾(سورة الفاتحة: ٦) ﴿لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يخلقهم ا لله أو يُصوَّرون من حجر وخشب ونحوها، والمضارع لحكاية حال الإيجاد من العدم، أو حال تصوير عابديها لها، أو بمعنى الماضي أو باعتبار ما يخلقه ا لله بعد منها أو يصوِّرونه بعد.

(أصول الدين) والإله قديم غير مُحدث واجب لا بموجب غير محتاج، وغير عاجز، وآلهتكم ليست كذلك.

(منطق) وليس هذا تكرارا لقوله ﴿أَفَمَنْ يَّخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ﴾ لأنَّه كلام مفرد وما هنا كلام مرتبط للاستدلال على طريق الشكل الأوَّل، هكذا: ما تعبدونه لا يخلق شيئا وما لا يخلق لا يشارك من يخلق، فلا شيء مما تعبدون شريك لمن يخلق، أو من الشكل الثالث هكذا: هم لا يخلقون شيئا ولا يشارك من يخلق من لا يخلق، فينتج: هم لا يشاركون من يخلق، ويلزمه أنَّ من يخلق لا يشاركهم، فلا تكرار مع نفي المشابهة.

﴿أَمْوَاتٌ﴾ هم جماد غير متَّصفين بالحياة الآن ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ بعدُ، فلم تلحقهم حياة قط، ولا تلحقهم إلاَّ إذا أحياهم يوم البعث للشهادة على عابديهم، فكيف يلحقون بمن لم يتَّصف بغير الحياة قطُّ؟ ولن يتَّصف به بعد، وليسوا كميِّت تلحقه حياة بعد، مثل النطفة والبيضة، ومثل الإنسان يموت ويبعث، وهم منكرون للبعث، أو هم أموات غير أحياء بالذات، وا لله عَجَلَّ حيٌّ بلا أوَّل ولا آخر، ولا محييً كما هو شأنه، والملائكة وعيسى وعزير أحياء لا بالذات بل بمحي بدليل سبق العدم، فقد بان لك وجه ذكر ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ بعد ذكر ﴿أَمْوَاتٍ﴾، أو ذكر تأكيدا.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي الآلهة ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي عابدوها لا يعلمون متى يبعث عابدوهم، أو الخلق مطلقا، ومن شأن من هو إله أن لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء، فكيف يطمعون في أن يثيبوهم على عبادتهم؟ ولا يدرون متى يبعثهم ا لله

للشهادة على عابديهم بالعبادة؟ سواء الأصنام والملائكة وعيسى وعزير، ويبعث الله الأصنام حيَّة مع شياطينها فتبرأ من عابديها، فيؤمر بالكلِّ إلى النار، كما قاله ابن عباس رضي الله عنه.

أو الواوان للآلهة ويلزم من نفي شعورهم بوقت بعثهم نفي شعورهم بوقت بعث عَبَدَتِهم، أو للأموات المذكورين بمعنى الكفَّار، أي لا يدري الكفار متى يبعثون للجزاء فيكون خارجا للوعيد، و﴿أَيَّانَ﴾ اسم استفهام متعلِّق بيبعث لا ظرف لقوله ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ بمعنى أنَّ الله مختصٌّ بالألوهية يوم يبعثون لا يدَّعيها أحد معه، كما في الدنيا، لأنَّ ذلك مخرج لـ﴿أَيَّانَ﴾ عن الاستفهام إلى الظرفية المحضة كيوم، وليس المعنى على ذلك.

بل المعنى إلهكم الذي هو أهل للعبادة هو إله واحد، وهو الله سبحانه وتعالى وعزَّ وجلَّ، وهذا نتيجة لما قبله وفَذْلَكَةٌ أعيد بعد الاحتجاج عليهم مفصَّلا موضحا وتوطئة لقوله:

﴿**فَالذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**﴾ فإنَّهم أصرُّوا على عبادة غير الله لإنكار قلوبهم وحدة الله بالألوهية، ولاستكبارهم عن أن يتبعوا محمدا ﷺ، أو قلوبهم منكرة للبعث فلم يَخَافُوا عقابا على كفرهم، ولم يرجوا ثوابا على ما يدعوهم إليه، وهم مستكبرون عن قبول كلام ناصحهم ﷺ، والفاء تفريع على ما قبل من عدم تأثُّرهم بالتذكير.

﴿**لاَ جَرَمَ**﴾ لا بدَّ ﴿**أَنَّ اللهَ**﴾ من أنَّ الله ﴿**يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾ فيجازيهم، أو أصل لا جرم لا بدَّ، ثمَّ جعل كلُّه كلمة واحدة بمعنى ثبت، فالمصدر مما بعده فاعله، أو جعل بمعنى مصدر رافع للفاعل المذكور، أي حقًّا إنَّ الله يعلم، أي حقَّ حقًّا علم الله، أو لا نافية لمحذوف أي لا يصحُّ ما قال الكفرة، وجرم معناه وجب أي وجب أنَّ الله يعلم ما يسرُّون وما يعلنون، وذلك على العموم لا كما قيل المراد ما يسرُّون في دار الندوة من قتل محمد ﷺ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي لا يرضى أفعالهم ولا أقوالهم، ولا اعتقادهم ولا استكبارهم، أو لا يأمر بحالهم، أولا يثيبهم عليها كما يثيب المؤمنين على إيمانهم بل يعاقبهم، والأصل أنَّه لا يحبُّهم وأظهر ليصرِّح بالعلَّة وهي الاستكبار، فإنَّ تعليق الحكم بمعنى المشتقِّ يؤذن بعلية معنى ما منه الاشتقاق.

و﴿ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ عام لكلِّ مستكبر فالإظهار على بابه، ويدخل كفَّار قريش فيهم دخولا أوَّليا، أو المعنى لا يحبُّ المستكبرين مطلقا فكيف من استكبر على التوحيد وإتباع الرسول ﷺ؟ أو المستكبر متعاطي الكبر بما ليس عنده فهو أقبح من المتكبِّر، أو لا يحبُّ الذين يطلبون الكبر فلم يصلوه فكيف بمن طلبه وفعله؟ **والأولى أنَّه بمعنى المتكبِّر** لقوله ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(سورة النحل:٢٩) والأولى أنَّهما سواء وأنَّ كلاًّ منهما يطلق على من ادَّعى الكبرياء من الناس بما عنده، ومن ادَّعاها بما ليس عنده.

مرَّ الحسين بن علي بمساكين يأكلون كسرا، فقالوا: الغذاء يا أبا عبد الله، فنزل وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾، وأكل معهم، فقال: أجبتكم فأجيبوني، فاتَّبعوه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم.

والذنوب يمكن إخفاؤها إلاَّ التكبُّر فإنَّه لا يخفى، وهو أصل العصيان إذ تكبَّر إبليس فلم يسجد لآدم، وعنه ﷺ «**إنَّ المتكبِّرين يحشرون يوم القيامة أمثال الذرِّ تطأهم الناس بأقدامهم**»[1] لتكبُّرهم، يعني يتضرَّرون بذلك، وبعد دخول النار تعظم أجسامهم ليشتدَّ ضررهم.

---

١ - أورده **القرطبي** في تفسيره: ج١٠، ص٩٥. **وابن كثير** ج٧، ص١٠٢. ورواه **الترمذي والنسائي** عن ابن عمر بلفظ: «يحشر المتكبيرن يوم القيامة...»

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

صفات المستكبرين

إنكار المشركين الوحي المنزَّل والنبوءة وجزاءهم

(سبب النزول) ونزل في النضر بن الحرث وكان عنده كتب التواريخ، وكان يزعم أنَّ حديثه أجمل وأتمُّ مما نزل على محمد ﷺ قوله تعالى ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُم**﴾ للنضر بن الحرث ومن معه من المقتسمين، والقائل بعضهم لبعض تهكُّما إذ لفظوا بأنَّ الإنزال على محمد ﷺ من ا لله، أو تحقيقا لا تهكُّما، لكن قالوا: ما عندنا خير أو على فرض أنَّه منزَّل لكنَّه أساطير الأوَّلين أنزلها، أو القائل المسلمون تذكيرا ويضعف أنَّه اختيار لعلمهم بكفرهم.

أو الوافدون على المسلمين والوافدون على أهل مكَّة يسئلونهم عن أحوال محمد ﷺ والقرآن، فيقول المشركون أساطير الأوَّلين، و[يقول] المسلمون أنزل خيرا وكذا غير الوفد ﴿**مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ**﴾ أي أيَّ شيء أنزل ربُّكم؟ أو ما الذي أنزله ربُّكم؟ وهو الأنسب برفع أساطير ﴿**قَالُوٓاْ**﴾ أي النضر ومن معه ﴿**أَسَٰطِيرُ**

الأَوَّلِينَ﴾ هو، أي الذي أنزل ربُّنا أساطير الأوَّلين، جمع أسطار جمع سطر، فهو جمع الجمع، أو جمع أسطورة أي شيء سطره الأوَّلون، أي كتبه سطورا لا نفع فيها أو أكاذيب، عرضوا عن لفظ الإنزال لشدَّة عنادهم ولو أرادوه، إذ لم يقولوا أساطيرَ بالنصب فيقدَّر أنزل، وإثباتهم الإنزال تهكُّم أو مشاكلة، أو على تقدير أنَّ له إنـزالا أثبتوه ليردُّوه كقوله ﴿هَذَا رَبِّي﴾(سورة الأنعام: ٧٦).

﴿لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنَ اَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ اللام لام العاقبة لا لام التعليل، لأنَّهم لم يقولوا أساطير الأوَّلين قصدا لحمل الأوزار ورغبة فيه، بل عاقبتهم عند الله ذلك الحمل، ومعنى كاملة أنَّه لا يخفى عن الله من أعمالهم شيء، ولا ينساه فيفوته العقاب عليه، ولا ينقص شيء من أوزارهم بأعمالهم الصالحة، لأنَّها لا تقبل عنهم لشركهم، ولا بالمصائب لأنَّها بعض عذابهم، فيعذَّبون في الدنيا والآخرة ﴿أنَّما يريد الله أَنْ يُّصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾(سورة المائدة:٤٩) لا كالمؤمن يثاب على المصيبة وعلى عمله الصالح، أو يكفَّر عنه ذنبه، [قلت]: والكافر يثاب في الدنيا على عمله الصالح إن شاء الله، ويردُّ عليه إن شاء، وقال بعض الصوفية البلاء للمخطئ عقاب، وللبرِّ مكفِّر، وللعارف درجة لا يصلها إلاَّ به دون عمله.

ومن للتبعيض فإنَّ الرؤساء يحملون بعض أوزار المرعوسين الذين ضلُّوا بهم، وذلك البعض هو الذنوب التي أصابوها بإتباع الرؤساء، وسائر ذنوبهم باقية عليهم، وليس المراد أنَّهم يحملون البعض وينجو المرعوسون منه، بل يعاقب الرئيس المضلُّ بمثل ما يعاقب المرعوس به، وليس ذلك حملا للوزر عن وازره، بل حمل لوزره وهو الأمر بالمعصية.

قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل**

أجور من اتَّبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه، ولا ينقص ذلك من آثامهم شيئا»[1].

(فقه) و﴿بغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من الهاء، والمعنى أنَّهم غير عالمين بأنَّ ما يأمرهم به رؤساؤهم ضلال، وفي ذلك دلالة على أنَّ المقارف لما لا يعلم غير معذور لوجوب التمييز عليه، ولوجوب طلب العلم قبل المقارفة، ودلالة على أنَّ العالم بتحريم ما يأتي أشدُّ قطعا للعذر.

أو حال من الواو، والمعنى جاهلين لما يستحقُّون من العذاب الشديد على الإضلال، وليس في هذا الوجه دلالة على أنَّ المقارف غير معذور، إلاَّ من حيث أنَّ الآية في الذمِّ وفي بيان الضلال، وليست الآية دلالة على أنَّ إضلالهم للتابعين معلوم لهم منزَّل منزلة المجهول إذ أمروا به التابعين، لأنَّهم لا يعلمون أنَّه ضلال، وأجاز ابن جني كونه حالا من الواو والهاء.

﴿**أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ**﴾ ساء وزرهم ذلك، أو ساء وزرا يزرونه ذلك، أو ساء الوزر الذي يزرونه ﴿**قَدْ مَكَرَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ دبَّروا لرسلهم مكائد و لم يؤثِّروا فيهم، بل أهلكوا به «**من حفر لأخيه جبًّا وقع فيه منكبًّا**» «**من حفر جبًّا لأخيه أوقعه ا لله فيه**» وذلك تسلية لرسول ا لله ﷺ وتهديد لقومه.

﴿**فَأَتَى ا للهُ بُنْيَانَهُم**﴾ مفرد مذكَّر وقيل هو جمع، أو اسم جمع، والمفرد بنيانة ككَلِمَة و كِلِم ﴿**مِّنَ الْقَوَاعِدِ**﴾ من جهة الدعائم، والعمد التي بنوا عليها ﴿**فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ**﴾ شبَّه حيلهم على رسلهم بأنواع المكر، وسعيهم في

---

[1] - رواه **مسلم** في كتاب العلم (٦) باب من سنَّ سنَّة حسنة أوسيِّئة... رقم١٦(٢٦٧٤). **وأبو داود** في كتاب السنة. باب من دعا إلى السنة رقم٤٦٠٩. من حديث أبي هريرة ﷺ.

إنفاذها وتأثيرها ورجوع ذلك عليهم بالهلاك ببناء بنيان محكم للنفع هدِّم من أصلـه، ووقع لضعفه على أصحابه، وهلكوا به مع رجاء الانتفاع به والنجـاة، وذلـك أشـدُّ كما أنّه هدِّم من أصله.

وأصل الهدم من فوق فذلك أشدُّ، وذلك استعارة تمثيلية، والمراد فأتى أمـر ا لله، وهذا أولى من أن يقال المعنى أهلك ا لله بنيانهم، من قولهم أتى عليه الدهـر، أو أتـاه الدهر، بمعنى أهلكه بلا تقدير مضاف.

(بلاغة) وقاعدة البناء أصله الذي أسِّس عليه، وذكر الفوق تأكيد لأنَّ الخرَّ لا يكون إلاَّ منه، وقد يكونون جانبا فخرَّ عليهـم، فهـو تـأكيد أيضـا لأنَّ الخـرَّ مـن فوق ولو جانبا، أو يحتمل هذا فأزيل بأنّهم تحت السقف فخرَّ عليهم، أو المعنى خـرَّ عنهم بمعنى فوته، أو ﴿خَرَّ عَلَيْهِمْ﴾ خرَّ لهم، أي لأجلهم أي لكفرهـم وهـم تحتـه، والوجهان ضعيفان والأخير أضعف.

﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون أنّه يأتي، بل يتوهَّمُ النفع بالبنيان، فكان عليهم هلاكا، والهلاك من حيث يرجى النفع أشدُّ كعارض عاد[1].

(قصص) وقيل الآية تحقيق لا تمثيل: بني نمروذ بن كنعان بضمِّ النون وفتحها وإعجام الـذال وإهمالها وكسـر الكـاف وفتحهـا، بنـاء في بـابل في سـواد الكوفـة، ارتفاعـه خمسـة آلاف ذراع أو فرسـخان، وعرضـه ثلاثـة آلاف ذراع ليقـاتل أهـل السماء، ويرصد أمرها، فهدمه ا لله بريح، وقيـل بجنـاح جـبريل، وأهلكهـم ا لله بـه، وبقي هو إلى أن مات بالبعوض مع من بقي معه، ويقال زلزل أسفله ووقـع عليهـم، أو على العملة، وقطع الريح أعلاه وألقاه في البحر ، وتبلبلت ألسن الناس للفزع مـن

---

[1] - يشير إلى آية الأحقاف رقم٢٤ ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾.

وقوعه على ثلاث وسبعين لغة، وكان لسانهم قبل سريانيا.

وقيل بابيل بمعنى المشتري في لغة أهل بابيل، وقيل لسانهم قبل ذلك عربي كصالح لا سرياني، وقيل الآية في قوم لوط، وتفسير الآية بهذه القصَّة لا يناسبه المكر كما ناسب قصَّة ثمود ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾(سورة النمل:٥٠) وفي قوله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ...﴾ (سورة الأنفال: ٣٠) وكذا ذكر قومه لأنَّه لا مكر لهم، كما كان لقومه ﷺ بل عامة مسخَّرونَ إلاَّ باعتبار أنَّهم لا يعذرون، فكانوا كمن قصد أو تعلَّموا منه قصد السوء.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ متعلّق بقوله ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ وقدِّم على طريق الاهتمام بيوم القيامة، وإنكار على من أنكره من قومه ﷺ، وا لله لا يهتم، والخزي: الذلُّ، والإخزاء: الإذلال، وهو أعمُّ من العذاب، أو المراد بالإخزاء التعذيب بالنار، أو هو وغيره وهو الفرد الكامل من الخزي ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾(سورة آل عمران: ١٩٢) والهاء للكفار مطلقا، وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على أنَّ العذاب المذكور قبلها في الدنيا، وإن قلت ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ يأباه لأنَّه قبل دخول النار، فالمراد أصل معناه وهو الإذلال، قلت الواو في قوله ﴿وَ يَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ لا ترتّب، وأيضا التعذيب فرد كامل في الخزي فهو مستعمل في أصل معناه، وأيضا يقال لهم في النار أين شركائي؟ جمعا عليهم للإهانة بالقول توبيخا، وبالفعل وهو التعذيب، كما يقال لهم قبل دخولها، ولا دليل على منع ذلك القول في النار، نعم يتبادر القول قبلها.

﴿وَيَقُولُ﴾ على لسان الملائكة، أو يقدَّر مضاف أي يقول ملائكته ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ﴾ أثبت الشركاء له تعالى استهزاء بهم وتبكينا، أو على زعمهم، وهذا أشدُّ في التوبيخ من أن يقال أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ ويضعف ما قيل إنَّ الإضافة هنا لأدنى ملابسة بمعنى أنَّها لمَّا كانت تذكر معه أضيفت إليه.

﴿الذِينَ كُنتُمْ تُشَاَقُّونَ فِيهِمْ﴾ تجعلونهم في مرتبة، وا لله في مرتبة من الألوهية والعبادة، كلٌّ في شقٌ غير شقِّ الآخر تعالى ا لله عن ذلك، أو المشاقة العداوة، لأنَّ عداوة المؤمنين عدواة لله، أو يقدَّر مضاف أي تشاقون عبادي المؤمنين في توحيدهم، كقوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ ا للهَ﴾(سورة المائدة:٣٣) الآية، والاستفهام توبيخ لهم على الاعتماد على من لا يحضر عند الشدَّة فما نراهم دفعوا عنكم العذاب.

﴿قَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾ الأنبياء أو العلماء أو المؤمنون أو الملائكة، أو كلُّهم والمراد الجنس لا كلَّ فرد من العلماء والمؤمنين والملائكة، يقولون للكفَّار على طريق الشماتة بهم، وزيادة إهانة ولا سيما الحفظة من الملائكة، والذين تعنَّوْا في دعاء هؤلاء الكفرة إلى الإسلام، وهذا العموم أولى ولكن المتبادر في إيتاء العلم المؤمنون والأنبياء لا الملائكة.

﴿إِنَّ الْخِزْيَ﴾ الذلَّ ﴿الْيَوْمَ﴾ يوم القيامة، بخلاف الدنيا فقد يصيبان المؤمن، وهو متعلّق بالخزي بلا إشكال ولا ضعف، وإنَّما الضعف في نصب المصدر المقرون بأل المفعول به، مثل: «ضعيف النكاية أعداؤه»[1]، ولا تعلّقه باستقرار على الكافرين، ولا بـ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ إلاَّ بضعف، كضعف: «زيد مستقرًّا في هجر» وزادت الآية الفصل بالعطف ﴿وَالسُّوءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ خاصَّة، أنزل ا لله ذلك في القرآن ليتَّعظ به الناس فيحذروا من وقوع ذلك بهم إن كفروا، **والشماتة عذاب روحي أشدُّ على النفس.**

(نحو) ﴿الذِينَ﴾ نعت، ولا حاجة إلى تقدير أعني أو هم، ولا إلى الإبدال أو البيان، وتعاطي ذلك بلا دليل عليه غفلة، وأبعد من ذلك جعله مبتدأ خبره «ألقوا» على قول الأخفش بجواز زيادة الفاء في الخبر مطلقا، ولو لم يشبه

[1] - شطر بيت تمامه: «يخال الفرار يراخي الأجل». أنظر شواهد ابن عقيل باب أعمال المصدر.

المبتدأ اسم الشرط في العموم.

﴿**تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ**﴾ عزرائيل وأعوانه ﴿**ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ**﴾ بالكفر الموجب للخزي والسوء يوم القيامة، والمعنى توفتهم بدليل قوله ﴿**فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ**﴾ بصيغة الماضي، أو يبقى «تتوفى» على الاستقبال، و«ألقوا» بمعنى يلقون، وتتوفى للاستقبال على أنَّ القول في الدنيا، وللمضي على حكاية الحال على أنَّه يوم القيامة، ويجوز عطف «ألقوا» على «قال» أو «يقول»، أو «تتوفى» على معنى توفَّت، والسلم: ضدُّ المنافرة، انقادوا إلى الإسلام حين لا ينفعهم.

﴿**مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ**﴾ تفسير لقوله ﴿فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ﴾ بلا تقدير ولا تضمين، كما أنَّ قولك: فعلت لك ما تحبُّ، نَفْسُ قولك: خضعت لك، أو يقدَّر حال هكذا: قائلين ﴿مَا كُنَّا...﴾ أو يضمَّن ﴿فَأَلْقَوُاْ السَّلَمَ﴾ معنى القول فتنصب الجملة به، كما تنصب بالقول وإلقاء السلم.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ هو عند معاينة الموت أو يوم القيامة حين عاينوا العذاب، وهو أولى فيكونون يكذبون يوم القيامة، لأنَّهم قد عملوا السوء في الدنيا، وهو الكفر بالإشراك وغيره، وقيل المراد الإشراك يكذبون عمدا، أو لفرط الخوف والدهشة، ومن منع صدور الكذب يوم القيامة قال المعنى: ما كنَّا في اعتقادنا نعمل سوء فإنَّا نظنُّ الكفر حقًّا، ويردُّه قوله تعالى ﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾(سورة الأنعام: ٢٤).

﴿**بَلَىٰ**﴾ تقول الملائكة: بلى قد عملتم السوء، أو المؤمنون أو العلماء، ويتعيَّن الأوَّل على أنَّ القول عند الموت ﴿**إِنَّ اللهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ فيجازيكم ﴿**فَادْخُلُواْ**﴾ عطف على إخبار محذوف، أي قد فعلتم فادخلوا ﴿**أَبْوَابَ جَهَنَّمَ**﴾ طبقاتها أو مداخلها من خارج، تعدَّدت لكثرة الكفَّار، وللكفَّار طبقات لأنَّ بعضا

أشدُّ عذابا من بعض، والخطاب للأصناف وإلاَّ لزم كلَّ فرد أن يدخل من جميع أبوابها، أو أن يكون في جميع طبقاتها أو أبوابها أصناف عذابها، من نار وضرب ولدغ وزمهرير وغير ذلك، كما يقال: فلان ينظر من باب من العلم، أي في صنف منه، وعليه فلا مانع من أن يراد الخطاب للأفراد على أنَّ لكلِّ فرد صنفا ليس للآخر، وفيه بعد لكثرتهم، وا لله قادر.

﴿**خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ في الأبواب بمعنى الطبقات أو الأصناف أو في جهنَّم، ويتعيَّن الأخير إذا فسِّر الأبواب بالمداخل، قوم من باب وقوم من باب، وقيل لكلِّ فرد باب، وهو قول لا يظهر أنَّه صواب ﴿**فَلَبِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**﴾ المخصوص بالذمِّ محذوف تقديره: جهنَّم، أي هو جهنَّم أو طبقاتها أي هو طبقاتها المعبَّر عنها بأبواب، والمثوى: المقام، أو المرجع، واللام في «لبيس» و«لنعم» للتأكيد الجاري مجرى القسم، وقيل لام الابتداء دخلت على الفعل لجموده كأنَّه من الأسماء، وقيل في جواب قسم محذوف، **وليس في القرآن «لبيس» و«لنعم» إلاَّ هذان.**

والعطف على محذوف أي مرجعكم طبق أعمالكم، فلبيس مثوى المتكبِّرين عن التوحيد وعن المؤمنين، وهؤلاء ضالون مضلُّون ألا ترى قوله ﴿وَمِنَ اَوْزَارِ الذِينَ﴾(سورة النحل: ٢٥) فأكَّد الكلام باللام كما أكَّد في الهادين المهتدين، فقيل ﴿وَلَدَارُ الاَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾(سورة النحل: ٣٠) ولعدم ذلك في آية الزمر [رقم٧٢] وآية المؤمن [رقم٧٦] لم يؤكِّد «لبيس» باللام فيهما.

﴿وَقِيلَ لِلذِينَ اَتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الاَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اِللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ اَلذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ اُدْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إيمان المتّـقين بالوحي المنزَّل وجزاؤهم

﴿وَقِيلَ لِلذِينَ اتَّقَوْاْ﴾ أي الشرك، ولو وصل شارحٌ لَفظَ الشرك بـ«اتَّقَوْا» بدون "أي" لوجب على القارئ الوقف على «اتَّقَوْا»، فيقطع همزة الشرك، إذ لو وصل وقطع لكان خطأً، ولو وصل وحرَّك الواو لكان تغيَّر نظم قرآن[1].

والقائلون الوفد، يلاقون أهل مكَّة ويسألون المسلمين عن محمَّد وأحواله والقرآن. ويحكى أنَّ أحياء العرب يرسلون من يسأل فيقول المسلمون: أنزل خيرا، وإن سألوا المشركين قال المشركون: الذي أنزل عليه أساطير الأوَّلين، وكذا غير الوفد مِمَّن يدخل مَكَّة.

أو قالوا بدون ذكر «أَنزَلَ»، كما قال تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾ أي أنزل خيرا، فهذه جملة فِعلِيَّة، مثل: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على أنَّ «مَاذَآ» اسم واحد بالتركيب، مفعول لـ«أَنزَلَ»، وفي هذا موافقة للسؤال رغبة في جوابه، إذ أتوا بـ«أَنزَلَ» مقدَّرا أو ملفوظا به كما هو في السؤال، والكفَّار أعرضوا عن ذكر الإنزال الذي هو في لفظ السائلين، لم يذكروه و لم يقدِّروه في العبارة، رغبة عنه وعمَّا تضمَّنه، فقالوا: «أساطير الأوَّلين».

(سيرة) وبعث قريش أرصادا في طرق مكَّة يقولون لمن يجيء من العرب للسؤال: إنَّه ساحر جاء بأساطير الأوَّلين، وإذا دخلوا مكَّة وسألوا المسلمين، قالوا: أنزل الله عليه خيرا، وإذا كان الوافد عاقلا قال الوافد للمشركين الصادِّين: بئس الوافد أنا إن رجعت لقولكم قبل أن ألقاه وأتحقَّق الأمر من عنده. ومن الجائز أن يكون المؤمن يقول لمؤمن: «ماذا أنزل ربُّكم»؟ فيقول: «خَيْرًا»، والكافر يقول

١- في الطبعة العمانية: «لكان تغيُّرًا لنظم القُرآن».

لكافر فيقول: أساطير، وذلك تلذُّذ بالسمع، وأن يقول الكافر لمسلم: «ماذا أنزل ربُّكم»؟ تهكُّما.

﴿لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ بالتوحيد والعمل الصالح وترك الكبائر ﴿فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا﴾ متعلِّق بالذين أو بمتعلَّقه، لأنَّ المعنى عليه أولى من المعنى على تعليقه بـ«أَحْسَنُواْ» للعلم بأنَّ المعتبر ما يوجد في الدنيا من الإحسان، ولو لم يذكر في الدنيا فهو جائز مرجوح، إلاَّ أن يقال: لوَّح به إلى أنَّ هذه الدنيا مكسب للآخرة فلا يكون التفسير به مرجوحا ﴿حَسَنَةٌ﴾ حياة طيِّبة بمدح الله لهم عند الملائكة، وهم أحياء وعند المؤمنين، ومدح المؤمنين بعض لبعض، وبالظفر على الأعداء والأمن من القتل والسبي، وبمنح الله لهم المعارف، أو ثواب في الآخرة لأعمالهم، أو التضعيف للحسنة بعشر إلى سبعمائة فصاعدا، وهذا أنسب بذكر خيريَّة الدار الآخرة بعد هذا.

وهذا وما بعده إلى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من كلام الله عز وجل مستأنف، ويجوز أن يكون بدلا من قولهم: «أَنزَلَ خَيْرًا»، أو عطفَ بيان على القول بجوازه في الجمل، أو تفسيرا، وفي هذه الأوجه يكون داخلا في قوله: ﴿قَالُواْ خَيْرًا﴾ فلهم خير الدنيا وخير الآخرة بقوله:

﴿وَلَدَارُ الاَخِرَةِ﴾ أي ثواب دار هي دار الآخرة، أو ثواب دار الحياة الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ لهم مِمَّا أصابوا في الدنيا من الأمور الحسنة، غير مدح الله ومعارفه، فهما خير من نعم الآخرة، أو نقول لم يُقصد هذان في قوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾، أو نقدِّر: خير من الدنيا.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ وعدٌ لهم، والمخصوص بالمدح محذوف تقديره: هي، أي دار الآخرة، أو هو قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنَّات إقامة دائمة، وإذا قدَّرنا المخصوص كان قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ خبرا لـ«جَنَّات» على أنَّه مبتدأ، وإذا جعلنا

«جَنَّاتُ» مخصوصا كان قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ حالا من «جَنَّاتُ» أو نعته، كذا قيل، والصواب أنّه نعته، وقدَّر بعض: لهم جنّات عدن، وبعض جعله مبتدأ خبره قوله: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ وعلى غيره يكون حالا من قوله: «ها» أو نعت آخر لـ«جَنَّاتُ»، قيل: أو حال منها.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ من اللذّات، [قلت:] ولا يلقي الله في قلوبهم ما لا يجوز كالجماع في الدبر، وتزوُّج ذوات المحارم، والجمع بين من لا تجتمعان كامرأة وخالتها، وقيل: لا أدبار لأهل الجنّة لأنّه لا فضلة لهم، فيلزم أن لا تجوُّف للذكر إذ قالوا: لا نطفة فيها، فيكون ذلك نقصانا، فقل: لهم أدبار لا فضلة تخرج منها بل رائحة مستلذّة، وللذكر جوف ونطفة برائحة طيِّبة، ترشفها أبدان النساء إن لم يكن حديث مانع من ذلك، ويكون للمؤمن زوجان من الآدميَّات، نصَّ عليه ابن حجر.

[قلت:] وأقول له أزواجه الآدميَّات كلُّهنَّ ولو أربعا إن كنَّ سعيدات مات عنهنَّ، ولم يتزوَّجن بعده، أو تزوَّجن شقيًّا أو متن عنه ولم يتزوَّج بعدهنَّ محرمة لهنَّ، وكذا ما فوق الأربع، مثل أن يتزوَّج أربعا بعد أربع، أو يتزوَّج بعد النقصان عن الأربع بالموت، لا ما قيل: ما له إلاَّ واحدة، وفضل الله أوسع[1]، وإطلاق الحديث يناسبه.

(بلاغة) وليس قوله: «فِيهَا» حصرا بالتقديم كما قيل، لأنَّ الحصر بالتقديم يكون إذا كان التقديم على عامل المقدَّم، وعامل فيها هو «لَهُمْ» أو متعلّقه لا «مَا يَشَآءُونَ»، أو كان التقديم على مبتدئه، نحو: في الدار زيد، وإن علّقت «لَهُمْ» بـ«تَجْرِي» و «فِيهَا» خبر مقدَّم ساغ الحصر، ومعنى الحصر أنّه لا يجد الإنسان كلَّ ما يشاء إلاَّ في الجنّة.

١- والأحسن من هذا أن نقول كما قال الشيخ أبو نصر: وأحكام تلك الدار ليست كهذه.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي ا للهُ الْمُتَّقِينَ﴾ على تقواهم، يقال: الجزاء نفس ذلك لا مثله فما معنى التشبيه؟ [قلت:] المعنى وا لله أعلم: يجزي ا لله المتَّقِينَ جزاء مثل ذلك الوصف، أي مطابقا له، أو يقدر له مبتدأ هكذا: الأمر كذلك، ويستأنف قوله: ﴿يَجْزِي ا للهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ خالين عن الكفر والمعاصي، وهو مقابل لقوله: ﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾، فهو كقولك خالين عن ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي، أو قدِّره خالين عن ذلك الظلم، أو طيِّبين بالبشارة بالجنَّة، أو بالإفضاء إلى الحبيب ﷻ بالموت، وهو نعت للمتَّقين، وإن جعل مبتدأ فخبره قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ والرابط محذوف، أي يقول الملائكة لهم عند التوفِّي: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ﴾ وعند الفراغ من الحساب والتسريح من الموقف: ﴿ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وإذا لم نجعل «الذِينَ» مبتدأ فـ«يَقُولُونَ» حال من الملائكة، ويجوز أن يكون القول في الآخرة، فتكون الحال مقدَّرة، لأنَّ يوم القيامة أو سؤال القبر لم يحضر وقت التوفِّي، والسعيد يدخل الجنَّة بروحه، أو إن مات شهيدا وإلاَّ أخرج له النعم إلى باب الجنَّة.

أو المراد: ادخلوا الجنَّة إذا بعثتم، أو الموت على السعادة يعدُّ دخولا للجنَّة بالروح والبدن، والمبدأ بالروح من حينه، والبشارة بدخول الأرواح بشارة بدخول الأبدان. روى مالك وابن جرير الطبري والبيهقي عن محمَّد بن كعب القرظي: **«إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك يا وليَّ ا لله، ا لله يقرئ عليك السلام، وبشَّره بالجنَّة»**[1].

١- أروده **السيوطي** في **الدر**، ج٤، ص١٣١. بلفظ: «إذا استفاقت نفس العبد المؤمن جاءه ملك، فقال...» من حديث محمَّد بن كعب القرظي.

والأظهر أنَّ السلام المذكور في الآخرة في المحشر، لأنَّه أنسب بقوله: ﴿ادْخُلُواْ الجنَّةَ...﴾ بلا حاجة إلى تقدير قول، ولا إلى جعل الحال مقدَّرة، بل ﴿يَقُولُونَ﴾ مستأنف مسلَّط على ما بعده إلى ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وعليه اقتصر أبو حيَّان، فيكون الحديث في السلام عند التوفِّي، والآية في السلام في الآخرة من الملائكة مطلقا، ومن خزنة الجنَّة قبل دخول المؤمنين الجنَّة، ومن السلام في التوفِّي قوله تعالى: ﴿إنَّ الذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ا للهُ... وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ التِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (سورة فصِّلت: ٣٠)، ومن سلام الآخرة قوله تعالى: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (سورة الزمر: ٧٣).

ويجوز أن يكون التوفِّي بالحشر، مِن توفيت الشيء: أخذته وافيا، فهم يحشرون من القبور ولا يبقى أحد منهم، حشر أمن وبشارة كما يؤخذ الطيِّب ويميَّز عن الخبيث، والأمر كما مرَّ، وإن أريد الحشر من الموقف إلى الجنَّة فالحال مقارنة.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٤﴾

تهديد المشركين على تماديهم في الباطل

﴿**هَلْ يَنظُرُونَ**﴾ ما ينتظر الكفَّارُ المذكورون، أو الكُفَّار مطلقا، فيدخلون بالعموم، وعلى الأوَّل غيرهم يقاس عليهم، بل ذكر في غير هذه الآية أيضا ﴿**إِلاَّ أَن تَاتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ**﴾ عزرائيل وأعوانه لقبض أرواحهم والقابض ا لله تحقيقا، لو شاء ا لله لعصروا الروح فلا تخرج.

﴿**أَوْ يَاتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ**﴾ العذاب مع الموت أو بدونه، أو القيامة وفيها الموت والعذاب، وإذا جاء ذلك آمنوا ولات وقت نفع، ﴿وَإِن مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُومِنَنَّ

بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ (سورة النساء: ١٥٩) ، ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ (سورة غافر: ٨٥)، لَمَّا كان ذلك يلحقهم لحوق المنتظر لتعاطيهم أسبابه شُبِّهوا بالمنتظرين.

(بلاغة) ففي ذلك استعارة تبعيَّة، وذلك في أنَّهم غير متوقِّعين، فأطلق عليهم لفظ المتوقِّع، وهذا مبنيٌّ على مجاز، وهو استعمال النظر بمعنى الانتظار، فالنظر بمعنى الانتظار والانتظار غير حقيق، بل مشبَّه بالتوقُّع الحقيق، وهم غير متوقِّعين للعذاب تحقيقا، والنظر بمعنى الانتظار من مجاز الأَوْلِ، وكأنَّه وقع المنتظر فصار ينظر، [قلت:] وفي ذلك لي تصاريف أخر لا أحبُّ الإطالة بها، ولا يلائم المقام التفسير بأنهم ما ينتظرون في تصديقك، إلاَّ أن تشهد الملائكة بنبوءتك، كقولهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ (سورة الأنعام: ٨). و«أَوْ» لمنع الخلوِّ لا لمنع الجمع لجواز اجتماع العذاب ثمَّ الموت بعده.

﴿**كَذَٰلِكَ فَعَلَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ كذَّب الأمم السابقة كما كذَّب قومك، وأشركوا فأهلكوا، فليحذر قوك الإهلاك بتكذيبهم وإشراكهم ﴿**وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ**﴾ بإهلاكهم لأنَّه أهلكهم بذنوبهم ﴿**وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ بفعل موجبات الهلاك ﴿**فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ**﴾ عطف على «فَعَلَ»، أي كما فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيِّئات ما عملوا. و﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾: جزاء سيِّئات ما عملوه، أو جزاء عملهم، فـ«مَا» موصول اسميٌّ أو حرفيٌّ، والمضاف مقدَّر فيهما كما رأيت، أو ﴿سَيِّئَاتُ﴾: بمعنى الجزاء تسمية للجزاء باسم سببه، أو للمشاكلة التقديريَّة، لأنَّهم عملوا سيِّئات ولم تذكر هنا، كقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ﴾ (سورة البقرة: ١٣٨) وهي الإسلام، في مقابلة ذكر النصارى صبغهم أولادهم في ماء أصفر ليتحقَّقوا في النصرانيَّة.

﴿**وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ نزل بهم العذاب الذي استهزأوا به، أو جزاء استهزائهم بالأنبياء والكتب، وأصل الحيق الإحاطة بالشيء، ولكن خصَّ بالشَّرِّ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

احتجاج الكفَّار بالقدر، وإنكار البعث والردُّ عليهم

﴿وَقَالَ الذينَ أَشْرَكُواْ﴾ بعض لبعض، وللمسلمين وغيرهم **﴿لَوْ شَآءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ﴾** متعلّق بمحذوف حال من شبه الجملة في قوله: **﴿مِن شَيْءٍ﴾** وجاز تقديم الحال على صاحبها المجرور، لأنَّ الجارَّ صلة لتأكيد، وهو تأكيد العموم، فيكون نصًّا في الاستغراق، و«مِنْ» في قوله: ﴿مِن دُونِهِ﴾ للبيان، والمعنى: من غيره، وكذا في قوله: ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ ولا وجه لجعل «مِنْ» فيه زائدا، أو للتوقُّف مع جعله في الأوَّل للبيان، بل لا تزاد «مِنْ» في حال، ومسوِّغ الحال من النكرة تقديمه عليها وتقدُّم النفي.

﴿نَّحْنُ﴾ ليس تسويغا للعطف على الضمير المتَّصل المرفوع لوجود الفصل بخمسة أشياء غير «نَحْنُ» والسادس «لاَ» في قوله: **﴿وَلآَ ءَابَآؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن**

﴿دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، وَلَمَّا صدرت مِنَّا عبادة غير الله، وتحريم ما ذكر علمنا أنَّ الله راض بذلك، ولو لم يرض لم يخلق ذلك الفعل مِنَّا، أو لم يخلقنا إليه وأجبرنا على خلافه، فلا عقاب علينا ولا قبح، ولا فائدة في إنزال الكتب وإرسال الرسل فلا كتاب من الله ولا رسول.

(أصول الدين) فقد علموا ما لم تعلمه المعتزلة إذ قالوا: خالق الفعل فاعله، لا الله ولا علم به حتَّى يقع، وطائفة تقول: علم به قبل.

ولا يلزم أن يكونوا مؤمنين بذلك، لأنَّ إِشْراكهم وتحريم الحلال وتحليل الحرام لا يثبت معها الإيمان، ولو قالوا: إنَّ أفعالنا خلق من الله.

وقيل: قالوا ذلك استهزاء بالإسلام والمسلمين، ومنعا للبعثة والتكليف متمسِّكين بأنَّه لا يكون إلاَّ ما شاء الله، واشتركوا هم والمعتزلة في أنَّ الله لا يريد القبيح.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أشرك من قبلهم وأحلُّوا ما لم يحلَّ، وحرَّموا ما لم يحرَّم، وأنكروا الرسل فأهلكوا، وعذر الله رسلهم بالتبليغ **﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾** تحصيل البلاغ، أو اسم مصدريٌّ، أي التبليغ أو الإبلاغ **﴿الْمُبِينُ﴾** الموضح أو الواضح.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً﴾ الأمَّة هنا مَن أرسل إليهم رسول إلى أن يأتي رسول آخر، وهكذا الرسول الأوَّل رسول لأمَّة الرسول الآخر، إن كان الآخر مقرِّرا غير ناسخ، والمراد بالرسول هنا ما يشمل من نُبِّئ بلا رسالة، بمعنى أرسل الله إليه جبريل، وبمعنى أنَّه لا بدَّ أن يأمر وينهى ويعلِّم، فكأنَّه نبيء رسول.

والمراد أنَّ ما أنت عليه ليس ببدع، وكذا ما عليه أُمَّتك من التكذيب، من قوم منهم، بل بعثنا بالتوحيد رسلا كما بعثناك به، وكذَّب بعض أممهم وصدَّق بعض

كما صدَّقك بعض قومك وكذَّب بعضهم، كما قال الله ﷻ: **﴿أَنُ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾** «أَنْ» تفسيريَّة، لأنَّ في البعث والرسالة معنى القول دون حروفه، ومن زعموا أنَّه يجوز دخول حرف الجرِّ على «أَنْ» قبل الطلب أجاز تقدير الباء هكذا: بأن اعبدوا الله.

والطاغوت: الشيطان أو الأوثان، أو ما يعبد من دون الله مطلقا، ومرَّ في سورة البقرة[1]، ويقدَّر مضاف هكذا: عبادة الطاغوت، ودخل فيه ما يدعو إليه عموما، وفي حذفه تأكيد كأنَّه يجتنب من كلِّ وجه، ولو غير عبادة، و﴿هَدَى اللهُ﴾ أي وفَّقه للإيمان فآمن، و﴿حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ ثبتت عليه بالخذلان.

(أصول الدين) والأشياء كلُّها ملك لله خلقها بعد العدم، ولا حقَّ لغيره فيها، ولا يقبح منه شيء إذ لا حقَّ لغيره عليه، ولا يقال له: لم فعلت؟ ولا لِمَ لَمْ تفعل؟ فخلق القبيح وإرادته غير قبيحين، وقبح القبيح على فاعله لأنَّ الله حذَّره عنه، قال الله سبحانه: «**إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه**»[2].

﴿فَسِيرُواْ فِي الاَرْضِ﴾ معشر قريش **﴿فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾** لرسلهم قبلكم، وهي الهلاك، وهم عاد وثمود وغيرهم مِمَّن ترون أثره، فخافوا أن ينزل بكم ما نزل بهم لتكذيبكم الرسول كما كذَّبوا رسلهم.

والآية تصرِّح بأنَّ عليهم السفر للاعتبار في الأرض، ولو بلا قصد الاكتساب، ويجوز أن يكون المراد: سيروا للاعتبار مع قصدكم السفر للتجر مثلا، ولا تخلصوا

١- انظر: ج٢، ص١٤٦.

٢- حديث قدسي رواه **مسلم** في كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم، رقم ٤٦٧٤. كما أورده **المناوي** في كتابه الإتحافات السنيَّة، ص٢٧، رقم٤٨. من حديث أبي ذر.

سفركم للتجر مثلا خَاصَّةً.

﴿إن تَحْرِصْ﴾ يا محمَّد ﴿عَلَى هُدٰيهُمْ﴾ هدى قومك المأمورين بالسير للاعتبار، أي هدى توفيق كما روي أنَّه يقول: «**اللهمَّ اهد قومي**»[1] ويجوز أن يريد بالحرص شدَّته فوق ما يلزمه، من هدى بيان ﴿فَإِنَّ ا للهَ لاَ يُهْدىٰ﴾ هدى توفيق، ولو شددتَّ في البيان، أو رغبت في هدى التوفيق لهم جِدًّا، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿لاَ يَهْدِي﴾ بفتح الياء بالبناء للفاعل.

﴿مَنْ يُّضِلُّ﴾ أي ا لله، لا يهدي أحدٌ من أراد أن يضلَّه، كما تقول: السلطان لا ينجي أحدٌ من أراد قتله، وجواب «إِنْ» محذوف ناب عنه علّته، تقديره: لا ينفعهم حرصك، فإنَّ ا لله أي لأنَّ ا لله، ورابط خبر «إِنَّ» باسمها الضمير في «يُّضِلُّ». ونائب فاعل «يُهْدَى» هو «مَنْ»، وهي واقعة على قريش، أو عَامَّة فيدخل قريش أوَّلاً. ﴿وَمَا لَهُم﴾ الهاء لمن روعي معناه ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ بدفع العذاب عنهم قبل مجيئه أو بعد مجيئه أو تخفيفه أو بالهداية.

﴿وَأَقْسَمُواْ بِا للهِ﴾ عطف على ﴿وَقَالَ الذِينَ أَشْرَكُواْ﴾. ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مفعول مطلق لأنَّ المعنى: غاية أيمانهم، وغاية الأيمان يمين، فالمعنى: أقسموا با لله إقساما هو غاية في القُوَّة. والجَهد بالفتح والضمِّ: الغاية، وهي الطاقة، وقيل بالفتح: الشدِّة، وهو راجع لذلك المعنى، لأنَّ الطاقة شاقَّة. وقوله: ﴿لاَ يَبْعَثُ ا للهُ مَنْ يَّمُوتُ﴾ جملة لا محلَّ لها، لأنَّها جواب القسم، وهو أقسموا.

وكانوا يحلفون بآلهتهم وآبائهم، وإذا عظم الأمر أقسموا با لله ﷻ، عابهم ا لله وذمَّهم بأنَّهم كما أنكروا التوحيد أنكروا البعث، وزادوا في إنكاره اليمين، وقد

١- أورده **السيوطي** في الدر، ج٣، ص٩٤. **والزبيدي** في الإتحاف لشرح إحياء علوم الدين، ج٨، ص٢٥٨.

قيل: إنَّ مسلما استقضَى دَيْنًا له من مشرك، وذكر البعث فقال: وإنَّك لتبعث بعد الموت، وأقسم با لله لا يبعث من يموت، ونزلت الآية فردَّ ا لله عليهم بقوله: ﴿بلى﴾ أي يبعثهم، وبقوله: ﴿وَعْدًا﴾ أي وعد البعث وعدا لا يتخلَّف، وهو مقتضى حكمته، وبقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ هو نعت «وَعْدًا»، وبقوله: ﴿حقًّا﴾ سواء جعلناه نعتا لـ«وَعْدًا» أو مفعولا مطلقا، كـ«وَعْدًا» فهما مؤكِّدان لأنفسهما، بمعنى قوله: ﴿بَلَى﴾ أو جعلناه حالا من المستتر في «عَلَيْهِ».

(أصول الدين) يبعث ا لله ﷻ من فني كلّه، وما فني من ميِّت بقي بعضه، يحيي ا لله الجميع بعينه بصورته في الدنيا، لا جسما آخر مثله، ولا يكسو العظام لحما آخر بل لحمها الأوَّل، ويدلُّ لذلك خلقه ما خلق لا من شيء، [قلت:] هذا ما عندي ولجمهور المتكلّمين، ولكن زدته إيضاحا واستدلالا، وزعم الفلاسفة والكرامية وأبو الحسن البصري من المعتزلة: أنَّ ردَّ الفاني بعينه مستحيل لكن يردُّ مثله، وما ذكره ا لله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ (سورة البقرة: ٢٦٠) مِمَّا نحتجُّ نحن به.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ البعث حقًّا لعدم علمهم بكمال قدرته تعالى، وبأنَّه حكمة لا يهملها ا لله ﷻ، ولاستبعادهم حياة ما مات، قال ا لله ﷻ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (سورة يس: ٧٩) صرَّحت الآية أنَّ أكثر الناس مشركون منكرون للبعث، فنقول: دونهم مشركون غير منكرين للبعث، ودون هؤلاء موحِّدون مقرُّون.

(نحو) ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ متعلّق بـ«بَعَثْنَا» عند البعض وهو ضعيف، أو متعلق بـ«بَلَى» ولو كان حرفا لأنَّه بمعنى يبعث، وما بينهما معترض فلا حاجة إلى تقدير يبعثهم ليبيِّن، ولا إلى تقدير: «يبعثهم» بعد «بَلَى»، وهذا وهم من النحاة وغيرهم، فإنَّ «بَلَى» هو نفس الجملة معنًى فلا تقدَّر بعدها، حتّى إنَّها لو ذكرت كانت تأكيدا لـ«بَلَى»، وكأنَّه قيل: لا يبعث ا لله من يموت بلى ليبيِّن.

﴿الذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ وإنَّما قدَّر من قدَّر: «يبعثهم ليبيِّن» لأنَّه يبعد ذكر قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ...﴾ إلى ما بعد ﴿كَاذِبِينَ﴾ مع رجوعه إلى «بَلى»، وَلَكِنَّ هذا البعد غير موجود إلاَّ تقديرا فلم يمنع ممَّا قلت من تعليقه بـ«بَلى».

والذي يختلفون فيه هو البعث، ومعنى ﴿يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾: يخالفون فيه المؤمنين به، أو الافتعال على بابه فيقدَّر: يختلفون فيه مع المؤمنين، أو اختلفوا فيما بينهم بعض يقول: لا يكون جزما، وبعض يقول: ممكن جائز، مرجِّحون عدم وقوعه.

على أنَّ الضمير في «لَهُمْ» و«يَخْتَلِفُونَ» للناس الكفَّار عموما، من يجزم بنفيه كما في قوله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ...﴾ ومن يظنُّ كما في قوله: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا﴾ (سورة الجاثية: ٣٢) الأوَّلين والآخرين، وقيل: المراد بالناس أهل مكَّة فيكون الضميران لهم خَاصَّةً.

ومعنى ﴿وَلِيَعْلَمَ...﴾: ليعلموا الحقَّ من الباطل وأنَّ الحقَّ هو ما يقول محمَّد ﷺ من أمور الدين والوحي كلِّه، البعث وغيره.

وزعم بعض أنَّ الهاء في «لَهُمْ» لمن يموت الشامل للمؤمنين والكافرين، فيكون التبيين للمؤمنين تبيين معاينة حقيقة الحال وعين اليقين، ولو حصل لهم العلم بذلك قبل البعث، ويجوز أن يراد بما اختلفوا فيه: الحقّ مطلقا، وبقوله: ﴿كَاذِبِينَ﴾ كذبهم في إنكار البعث.

(أصول الدين) وعلى كلٍّ حال البعث مقتضى الحكمة، لأنَّ به تمييز المحقِّ من المبطل، وجزاء كلٍّ بما يستحقُّه، فالبعث من توابع التكليف.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ في شأن وجود شيء، [قلت:] وإنَّما لم أجعلها للتبليغ كما جعلها بعض لأنَّ الشيء قبل وجوده لا يخاطب، وأمره بالوجود بعد وجوده

تحصيل للحاصل، ولذلك جعلها الزجَّاج للسببيَّة، وهو قريب مِمَّا قلت، ولو ضعف معنى السَّبَبيَّة هنا في أنَّها ليست للتبليغ، وهو واضح لا كما قيل: إنَّهُ غير واضح، أي لأجل شيء سيوجد، فكما كان التجوُّز في «كُنْ» على سرعة الوجود ساغت صيغة السَّبَبِيَّة، ولا وجه للتبليغ إلاَّ بطريق تشبيهه بالموجود، لقرينة أَنَّهُ غير موجود فليس موجودا تحقيقا، أو على طريق العرب وغيرهم في التخيُّل تعالى ا لله عنه.

والآية كالنصِّ في إطلاق الشيء على المعدوم الذي سيوجد، ولا يحسن الخلاف في إطلاقه على ما وجد، أو سيوجد، أو وجد وفني، فإنَّ الحقَّ إطلاقه، وإنَّما يسوغ الخلاف فيما لم يوجد ولا يوجد، والحقُّ المنع. ﴿**إِذَآ أَرَدْنَاهُ**﴾ أي أردنا وجوده ﴿**أَن نَّقُولَ لَهُ**﴾ فيه ما في قوله لشيء ﴿**كُن**﴾ فعل تامٌّ، ولا حاجة إلى تقدير كن موجودا ﴿**فَيَكُونُ**﴾ فيحصل.

ولا قول في ذلك، بل المعنى إذا تعلَّقت إرادتنا الأَزَلِيَّة لوجود شيء في وقته حصل بلا علاج، ولا آلة ولا تأخير، فكيف تنكرون البعث لمجرَّد رؤيتكم الموتى مستمرِّين على العدم؟ وا لله قادر على إيجاد العرش والكرسيِّ والسماوات والأرضين وما فيهما من أوَّل الخلق إلى آخره، وكلُّ ما تسمع من الموجودات، والجنَّة والنار وما فيهما في أقلّ من لحظة، وعلى إفناء ذلك في أقلّ منها، ولا مانع من أن يراد بالشيء وجودا وعدما كما هو شأن البعث، والمقام له.

(نحو) والفاء عاطفة على محذوف، أي نقول ذلك فيكون، برفع قول المقدَّر على الاستئناف، ولا قبله، أو في جواب شرط، أي إذا قلنا ذلك يكون، وقرن بالفاء مع أنَّه يصلح شرطا لحذف الشرط، **فاحفظ ذلك** وزد عليه أنَّه إذا تقدَّم معمول الجواب عليه قرن بالفاء ولو صلح شرطا، نحو إذا جئت فإيَّاك أكرمت.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)﴾

جزاء المهاجرين الصابرين وتهديد الكافرين والتذكير بآيات الله

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ بلادهم ﴿فِي اللَّهِ﴾ أي لأجل إقامة دين الله، وهم النبيء ﷺ وأصحابه الذين هاجروا إلى المدينة قبله، أو بعده أو معه، وإلى الحبشة في المرَّة الأولى أو الثانية، وهجرتهم بعد من الحبشة إلى المدينة غير داخلة في الهجرة المذكورة في الآية، لأنَّ السورة مكّية، إلاَّ إن جعلت الآية المدنيَّة في سورة مكّية.

(سيرة) وقيل: المراد الذين هاجروا الشرك فحبسوا بمكّة وعذّبوا، وهم بلال وصهيب وخبَّاب وعمَّار وعياش، لا عابس على التحقيق، وابن سهيل وأبو جندل، لا ابن جندل، أو المراد هؤلاء المحبوسون هاجروا إلى المدينة بعد ما حبسوا

ليرجعوا عن الإسلام، قال صهيب: أنا رجل كبير لا أنفعكم وإن كنت عليكم لم أضرَّكم، ففدى نفسه بمال وهاجر إلى المدينة، فقال له أبو بكر: ربح البيع يا صهيب، ولم يَصِحَّ أنَّ القائل له: «نعم العبد صهيب...» هو رسول الله ﷺ، ولا عمر كما قيل.

ويجوز إبقاء «فِي» على الظرفيَّة بمعنى أنَّ هجرتهم متمكِّنة في حقِّ الله تعالى تمكُّن المظروف في ظرفه، ليس فيها أدنى ميل إلى الدنيا ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بالعذاب من أهل مَكَّة أو بالشتم وسائر الأذى.

وقوله ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لا محلَّ لها لأنَّها جواب القسم أي والله لنبوِّئنَّهم، والقسم وجوابه في محلِّ رفع خبر «الذِينَ»، ومعنى «لَنُبَوِّئَنَّهُمْ»: لننزِّلنَّهم ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي دارا حسنة أو مآبة حسنة، والمآبة منزل القوم، أو المراد المدينة، أو تبوئة حسنة وهي تبوئة المدينة، وهو في هذا الوجه نعت لمفعول مطلق محذوف، وفي سائر الوجه منصوب على أنَّه مفعول ثان لـ«نُبَوِّئ» لتضمُّنه معنى نعطي، أو منصوب على التشبيه بالمفعول به، أو على الظرفيَّة شذوذا على الخلاف في منصوب دخل.

﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ﴾ هو الجنَّة، فالآخرة: ما بعد القيامة، أو ما بعد موت الناس كلِّهم، ولا بأس في أن يقال: أجره الجنة؛ أو الآخرة: الجنَّة، وأجرها: نعيمها. ﴿أَكْبَرُ﴾ من نعيم الدنيا، قيل: أو أكبر من أن يعلم أحد بعظمه قبل أن يشاهده، ولا دليل يدلُّ على هذا، [قلت:] وليس كلُّ ما يجوز في المعنى يجوز أن يفسَّر به القرآن، ولو غير ظاهر ولا له دليل.

وكان عمر رضي الله عنه إذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء من بيت المال أو من الغنيمة أو الزكاة أو غير ذلك قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا وما ادَّخر لك في الآخرة أفضل، ثمَّ يقرأ هذه الآية.

﴿لَوْ كَانُواْ﴾ أي المشركون ﴿يَعْلَمُونَ﴾ البعث حقًّا، أو الإيمان خيرا في الدارين. وجواب «لَوْ» محذوف أي لآمنوا. قيل: أو الواو للمهاجرين، أو للمؤمنين فيشمل المهاجرين، ولا دليل على إرادة ذلك بالآية، أي لو كان المهاجرون يعلمون ذلك علما بليغا أو علما بالمشاهدة ـ لأنّها أقوى ـ أو علما تفصيليا لزادوا في اجتهادهم وصبرهم، **وكونه للمشركين أولى،** أو لا يقدَّر جواب، فالمعنى أكبر عندهم لو كانوا يعلمون، أمَّا إذا لم يعلموا فليس بأكبر عندهم.

﴿الذِينَ صَبَرُواْ﴾ هم الذين صبروا، أو أعني أو أمدح الذين صبروا، أو نعت لـ«الذِينَ»، والمراد الصبر على الشدائد من أذى المشركين، ومفارقة الوطن والعشيرة ومن يعاشرون، وعلى الطاعات وعلى المصائب وعن المعاصي، ولكن المقام مقام ذكر الصبر على شدائد المشركين، فإذا أريد العموم دخل أذاهم بالأولى.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره ولا مع غيره، فيرزقون من حيث لا يحتسبون ولا يضرُّهم مفارقة الوطن، والمضارع لحكاية الحال الماضية الاستمراريَّة، التي هي الانقطاع إلى الله ﷻ، وترك الأمر كلّه إليه.

(أسباب النزول) قالت كفّار قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا بل يكون ملكا، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ إلى الأمم ﴿مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً﴾ آدميِّين، [قلت:] وما قيل من نبوءة حوَّاء ومريم وآسية وسارة وهاجر ويُوخَابَذْ أمِّ موسى **قول رديء مخالف للنصِّ** ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ ولو أنزلنا ملكا على صورة بشر لقالوا: إنّه بشر، وعلى صورته لم يطيقوا مشاهدته، ولو قوَّاهم على مشاهدتهم على صورهم لكان إيمانهم لو آمنوا غير نافع، لأنّه كإيمان من وجِّه إليه العذاب، أو شاهد أمر الآخرة، ولكان كفرهم إن بقوا عليه موجبا لتعجيل العذاب كعقاب أصحاب المائدة وقوم صالح أصحاب الناقة.

وقيل: وما أرسلنا إلى الأنبياء إلاَّ ملائكة على صور رجال، ويردُّه أنَّ المقام لذكر كون الرسل إلى الأمم رجالا، وأنَّ أهل الذكر لا يجيبون بذلك، وقد قال الله في الجواب: ﴿فَاسْأَلُواْ﴾ الخطاب لمشركي مكَّة، إذ قالوا في إنكار رسالة محمَّد ﷺ : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فهلاَّ بعث إلينا ملكا! والتقدير: إن أبيتم إلاَّ إنكار رسالة محمَّد فاسألوا ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ التوراة والإنجيل والزبور، ولا تُقدِّر: إن شككتم أو إن أنكرتم، والمراد الذين لم يسلموا لأنَّ من أسلم منهم كعبد الله بن سلام بل من أسلم مطلقا لا يأخذون بقوله كسلمان.

وقيل: المراد من أسلم لأنَّ الذِّكر القرآن، قلنا سمَّى الله التوراة أيضا ذكرا في مواضع منها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ (سورة الأنبياء: ١٠٥) وإنَّما قال ﷺ : «نحن أهل الذكر» في تفسير غير هذه الآية. وقيل: أهل الذكر من علم بأخبار الأمم السالفة.

﴿إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الرسل بشر يخبروكم بِأَنَّ أنبياءهم بشر، كموسى وعيسى، وأنَّ الرسل من البشر كُلِّهم، وأنتم تعرفون أنَّ لهم معرفة بكتب الله ورسله، وتصدِّقونهم قبل أن تصدِّقوا المؤمنين، لأنَّ بينكم مناسبة كفر بالنبيء ﷺ .

﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ كأنَّه قال قائل: بم أرسلوا ؟ فقال: أرسلوا بالبيِّنات، فحذف "أرسلوا"، أو متعلِّق بـ«لاَ تَعْلَمُونَ» لتضمُّن معنى الإلصاق، أو أرسلنا رجالا ملتبسين بالبيِّنات، أو يوحى بالبيِّنات، أو ما أرسلنا من قبلك بالبيِّنات.

والبيِّنات: الحجج الواضحة، وهي المعجزات، والزُّبُر: الكتب، أو هما شيء واحد، من حيث إِنَّهُ موضِّح يسمَّى بيِّنات، ومن حيث إِنَّهُ مكتوب أو زاجر يسمَّى زبرا، من قولك: زبرت أي كتبت، أو زبرت بمعنى زجرت، جمع زبور، بمعنى مكتوب أو زاجر. ويجوز تعليقه بـ«أَرْسَلْنَا» على حدِّ قولك: ما ضربت إلاَّ

زيدا بسوط، استثناء لشيئين بلا عطف لأنَّ الأصل: ضربت زيدا بسوط، فدخلت إلاَّ على ذلك، والمانع يقدِّر: ضربته بسوط.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ القرآن سمَّاه ذكرا لأنَّه يحصل به التذكُّر والاتِّعاظ، والإيقاظ من سِنَة الغفلة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ بالنصِّ أو بالإرشاد إلى قياس ودليل بالمشافهة، والوسائط إلى يوم القيامة ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي مجمل ما نزِّل إليهم من الحلال والحرام، [قلت:] فالسنَّة تُبَيِّنُ القرآن مقدَّمة عليه إذا تعارضا، أو تخبرهم بألفاظه مطلقا فإنَّه إذا نزل بيَّنه لهم بتلاوته.

وعطف على «لِتُبَيِّنَ» قوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتأمَّلون فيما أنزل إليهم فيذعنون للحقِّ، ويؤمنون به، وهذا مِمَّا يدلُّ على أن تبيينه ﷺ للناس لا يختصُّ بالتصريح لهم، بل يشمل كلَّ إرشاد ولو سكوته عن النهي، فنعلم الإباحة أو العبادة منه، لأنَّ ما ينصُّ عليه لا يحتاج إلى تفكُّر.

﴿أَفَأَمِنَ الذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَّخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الاَرْضَ﴾...الخ تهديد للماكرين من مشركي مَكَّة لرسول الله ﷺ بإرادة إهلاكه، وعلى أصحابه بالصدِّ عن دين الله عَجَلَّ، أو الماكرين على الأنبياء وأممهم سيِّدنا محمَّد ﷺ وأمَّته، وغيرهما، **والأوَّل أولى** لأنَّ الأصل الكلام على الحاضرين لا على الماضين في التهديد، فيكون المراد المجتمعين في دار الندوة على المكر به ﷺ بحبسه أو قتله أو إخراجه.

والفاء عاطفة على ما قبلُ، والهمزة من جملة المعطوف، أو على محذوف هكذا: أمكروا، فأمن الذين...الخ؟ أو أأنزلنا الذكر فأمن الذين مكروا؟. و«السَّيِّئات» نعت لمصدر محذوف تقديره: مكروا المكرات السَّيِّئات، أو مفعول به لـ«مَكَرُوا» لتضمُّن معنى عَمِلوا، أو مفعول به لـ«أَمِنَ» لتضمُّنه معنى لم يخف العقوبات السيِّئات، وعليه يكون «أَنْ يَّخْسِفَ...» بدلا من «السَّيِّئَاتِ» بمعنى العقوبات،

وعلى غيره يكون مفعولا به لـ«أَمِنَ»، والخسف: أن يدخلهم في الأرض كالإغراق بالماء، كما فعل بقارون.

﴿أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِن حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون أنَّه يأتيهم، كما قتلوا يوم بدر، ومن قبل الخروج إلى بدر لا يخطر ببالهم أنَّهم يقتلون، أو من السماء فجأة كما فعل بقوم لوط، وما يجيء منها لا يشعر به غالبا، أو معنى ﴿مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ أنَّه لا يجيء على يد مخلوق سواء يجيء من الأرض أو من السماء.

﴿أَوْ يَاخُذَهُمْ﴾ بعذاب ينزل من السماء، ويجوز أن يكون على العموم أو الإجمال ﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في تنقُّلاتهم في السفر للتجر أو غيره ذهابا ورجوعا، أو في تنقُّلاتهم مطلقا إقبالا وإدبارا في السفر أو الحضر، أو في قضاء مكرهم وتنفيذه.

ويضعف ما قيل: في تقلُّبهم في فرش إلاَّ إن أريد التمثيل لمطلق التقلُّب، ويناسب ما ذكرت أوَّلا قوله تعالى: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ﴾ (سورة آل عمران: ١٩٦) وهو متعلّق بـ«يأخذ»، أو يقدَّر في زمان تقلُّبهم ولا حاجة إلى جعله حالا من الهاء.

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لا يعجزون الله فيما أراد بهم من العذاب بأن يفوِّتوه. والفاء لتعليل الأخذ أو لترتيب عدم الإعجاز على الأخذ، لقوله ﷺ: «**إنَّ الله تعالى ليملي للظالم حتَّى إذا أخذه لم يفلته**»[1].

﴿أَوْ يَاخُذَهُم عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ متعلّق بـ«يَأخذ»، بمعنى: في تخوُّف أو زمانه،

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٥) باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ...﴾ رقم٤٦٨٦. **والبيهقي** في كتاب الغضب (١) باب تحريم الغضب وأخذ أموال الناس بغير حقٍّ، رقم ١١٥٠٧. من حديث أبي موسى.

ولا حاجة إلى جعله حالا من الهاء، والمعنى: خوف قوم الهلاك لهلاك قوم قبلَه، و"التفعُّل" بمعنى الفعل، أو للمبالغة، أو لتوقُّع المخوف منه، أو التخوُّف: التنقص بمعنى إهلاكهم كلّهم، لكنَ قوما بعد قوم، ومالا بعد مال حتّى يأتي على الكلِّ.

قال عمر ﷺ على المنبر: ما المراد بالتخوُّف؟ فقال شيخ من هذيل: التخوُّف التنقُّص في لغتنا، فقال: هل تعرفه الشعراء؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوَّف الرحل منها تامِكا قَرِدا كما تخوَّف عود النبعة السَّفَنُ

فقال: عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، أي في تفسير القرآن، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجَاهِلِيَّة فإنَّ فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم. وخصَّ الجَاهِلِيَّة حذرا من المولَّدين.

وقيل: هذه لغة أزد شنوءة، و«لا تضلُّوا» نهي أو مجزوم في جواب الأمر، والتَّامك: السنام، والقَرِد بفتح فكسر: ما تلبَّد من الصوف، والنبع: شجر يتَّخذ منه الأقواس، والسَّفَنَ بفتحتين: حديدة ينحت بها، ويطلق على المبرد، وما ذكر أولى من نسبة بعضهم البيت لزهير[1]، ومراد عمر ورود التخوُّف بمعنى التنقُّص لا الحصر في معنى التنقُّص، وإلاَّ لزم التفسير به.

وعذابهم في تخوُّفهم مجمل يراد به نوع، ويجوز العموم بأن يعذَّبوا بأيدي رجال مثلا ثمَّ بصاعقة، ثمَّ بخسف، أو المراد: إهلاكهم بشيء شاهدوه وخافوا منه الهلاك كالريح والصاعقة المشاهدة النزول والتزلزل.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إذ أمهلهم فيزداد عذرهم قطعا، وقد يلدون من

---

١ - وقد اختلف في نسبة البيت، راجع اللسان (ط علي شيري) مَادَّة: «سفن».

قضى الله فإنَّه لا بدَّ منه، وقد يخرج منهم مؤمن وقد يؤمن بعضهم، وهذا تعليل للأخذ على تخوُّف مِمَّا يشاهدون، إذ لم يكن بغتة، أو للأخذ على تقلُّب، فيعتبرون ويتوبون، وهو أولى من الأوَّل، لأنَّه لا ينفعهم إيمانهم حين شاهدوا.

﴿أَوَلَمْ يَرَوا۟﴾ ألم ينظر هؤلاء الماكرون ولم يروا **﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾** أبهم بـ«شَيْءٍ» بعد الإبهام بـ«مَا» ليصفه بقوله: **﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَالُهُ﴾** فهو تمهيد لِمَا بعده، كما يقال: زيد رجل عربيٌّ، وكأنَّه قيل: أولم يروا إلى المخلوق الثابت الأصل، الذي له ظلٌّ كشجر وجبل وجدار.

ولا ظلَّ للملك ولا للجنِّ الذين بصورة الريح بلا لحم ودم، وأمَّا الجنُّ الكثيفة باللحم والدم فمن كان منهم بصورة الحيَّة أو غيرها فله ظلٌّ، وهم في الأجحرة، وما يخفى، كجحر الحيَّة فإذا خرج ظهر له ظلٌّ، وأمَّا الجنُّ الكثيفة على صورة الإنسان مثلا فلا نشاهد لهم ظلاًّ، وهم في ضوء الشمس والقمر والمصباح، فنقول: الله قادر أن يجعلهم بلا ظلٍّ، كما قيل أن لا ظلَّ لرسول الله ﷺ.

أو لهم ظلٌّ لا نراه كما أنَّا لا نراهم وذلك بقدرة الله تعالى، والله على كلِّ شيء قدير، ولو شاء الله لجعل لهم ظلاًّ نراه دونهم لكن نرتاع لذلك، فلم يجعله، أو هم أجسام غير كثيفة لا ظلَّ لهم، كما أن الهواء جسم لطيف لا ظلَّ له.

ومعنى ﴿يَتَفَيَّؤُا۟﴾: يميل بالرجوع، فهو "يتفعَّل"، من فاء يفيء بمعنى رجع، والفيء: مطلق الظلِّ كما هو ظاهر الآية، وهما مترادفان، وقيل: الفيء ما بعد الزوال، لأنَّه رجع إلى موضع كان فيه قبله، والظلُّ ما قبله، وقيل: ما بعده فيء وظلٌّ، وما قبله ظلٌّ، ومن ترادفهما قوله:

فسلام الإله يغدو عليهم وفُيُوء الفردوس ذات الظلال

إذ لا شمس في الجنَّة تنسخ الظلّ.

﴿عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ﴾ قيل: يمين الواقف مستقبلا للمشرق ويسمَّى الجنوب، وشماله، وقيل: اليمين أوَّل النهار والشمال آخره، إذ يقع الظلُّ على الربع الغربيِّ قبل الزوال، وعلى الربع الشرقيِّ آخره، والربعان الآخران غالبان، قيل: إذا طلعت الشمس وأنت مستقبل القبلة فظلُّك عن يمينك، وإذا توسَّطت السماء فخلفك، وإذا غربت فيسارك.

قلت: لا يتمُّ هذا، لاختلاف مطالع الفصول والأرض، ومخالفة أوَّل الفصول وما بعده، وكذا لا يتمُّ قول قتادة والضحاك: اليمين أوَّل النهار والشمال آخره دائما، أو المراد باليمين والشمائل يمين الأجرام التي لها ظلٌّ وشمائلها، على الاستعارة التصريحيَّة، أو على التخييل للمكنية، لأنَّ اليمين والشمال حقيقة للإنسان والملائكة والجنِّ والحيوان، أو بمعنى الجانبين إطلاقا للمقيَّد على المطلق.

وقيل: يمين الفلك وهو المشرق وشمائله وهي المغرب، شبَّه الجانب الشرقي بأقوى جانبي الإنسان وهو يمينه، لأنَّ أقوى الحركات الفلكيَّة التي هي الحركة اليوميَّة أخذت من المشرق إلى المغرب، وقيل: المراد يمين مستقبل الجنوب وشماله، وقيل: يمين البلد وشماله، إذا كانت الشمس عن يمينه صيفا فتقع الظلال على يسارها، وعكس ذلك شتاء، [قلت:] ولا يحسن التعبير بما هو خاصٌّ هكذا لأنَّ الآية على العموم. وأضيف «ظِلاَل» لضمير المفرد مراعاة للفظ «ما»، وكذا أفرد اليمين، أو لأنَّ «ال» للحقيقة مثل ﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ (سورة القمر: ٤٥).

وجمع الشمال للمعنى كما جمع في قوله: ﴿سُجَّدًا لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ وقيل: جمع الشمال لأنَّ غالب المعمور شمالي، وقيل: ظلُّ الغداة يضمحلُّ حتَّى لا يبقى منه إلاَّ قليل، فَكَأَنَّهُ في جهة واحدة، وظلُّ العشيِّ يعمُّ الجهات فجمع، وأيضا

الشمال يلي «سجَّدا» فجمع لأنَّه ولي الجمع، وأفرد اليمين لأنَّه ولي الضمير المفرد وهو هاء «ظِلاَلُهُ».

وجمع «دَاخِرُونَ» جمع السلامة لأنَّ الدخور من أوصاف العقلاء، ولأنَّ في جملة ذلك من يعقل، والسجود: عدم المعاصاة طبعا أو اختيارا، يقال: سجد الغصن إذا مال لكثرة ثماره.

والأجرام منقادة لله والظلال تميل من جانب لجانب منقادة واقعة على الأرض كالساجدة، قال الحسن: **ظلُّك يسجد لربِّك وأنت لا تسجد؟ بيس ما صنعت.** وعن مجاهد: ظلُّ الكافر يصلِّي وهو لا يصلِّي، ونقول: **ظلُّ كلِّ شيء يسجد لله.**

و«سُجَّدًا» و«هُمْ دَاخِرُونَ» حالان مترادفتان أو متداخلتان، أو «سُجَّدًا» حال من الظلال و«هُمْ دَاخِرُونَ» حال من هاء «ظِلاَلُهُ»، ولو مضافا إليها، لأنَّ المضاف كجزئها، **والداخر: الذليل المنقاد.**

وإطلاق السجود على وقوع الظلِّ على الأرض استعارة، إذ هي لاَصِقة بالأرض على هيئة الساجد، وجمع ما يعود إلى ها «ظِلاَلُهُ» العائدة إلى «شَيْءٍ» مراعاة لعموم المراد بشيء.

﴿وَلِلهِ﴾ لا لغيره ولا مع غيره **﴿يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾** غير العقلاء والعقلاء كما قال: **﴿مِن دَآبَّةٍ﴾** ما يدبُّ على الأرض من غير العقلاء ومنهم، كالجنِّ والإنس. والمراد بالدبيب التنقُّل، فيشمل الحوت ونحوه في الماء، لأنَّ الماء على الأرض **﴿وَالْمَلآئِكَةُ﴾** عطف على «ما» الأولى، أو الثانية عطف خاصٍّ على عامٍّ، لأنَّ في السماوات ملائكة، وفي الأرض ملائكة كالحفظة وفي الهواء ملائكة، وباعتبار «هُمْ» يكون فيه عموم من حيث إنَّ ما في الهواء لا يصدق

عليه أنَّه في السماء ولا أنَّه في الأرض، وشمله الدبيب لأنه بمعنى التنقُّل، إلاَّ إن حكم بأنَّهم في الأرض إذ كانوا تحت السماء.

والملائكة أجسام نورانيَّة بلا لحم ودم ونحوهما، ولا يجوز أن يقال: أرواح مجرَّدة عن الدبيب والحركة الجسمانيَّة، لأنَّه يناقض الحديث. و «ما» حقيقة في غير العالَم مجاز فيه، وقيل: حقيقة فيه وفي غيره، وعليه فلا مجاز ولا تغليب، وقوله: ﴿**وَهُمْ**﴾ أي الملائكة ﴿**لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ عن العبادة. والجملة الكبرى حال أو عطف على قوله: ﴿يَسْجُدُ﴾. ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم**﴾ عذاب ربِّهم ﴿**مِّن فَوْقِهِمْ**﴾ حال من «رَبّ»، والمراد علوُّ شأن عليهم بالقهر، كما قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (سورة الأنعام: ١٨،٦١) ، أو متعلِّق بمحذوف بمعنى يخافون عذاب ربِّهم الآتي من فوقهم، أو يخافون عذابه آتيا، وليس صفة أو حالا كاشفا، بل مؤسِّسًا لأنَّ العذاب يكون من تحت كما يكون من فوق، والجملة تقرير لقوله: ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أو بيان له، **ومن خاف ا لله لم يستكبر عن عبادته.**

﴿**وَيَفْعَلُونَ مَا يُومَرُونَ**﴾ به من فعل أو ترك، إذ هم مكلَّفون بمعنى أنَّهم مأمورون منهيُّون، أو غير مكلَّفين بمعنى: أنَّهم لم يكلَّفوا ما فيه مشقَّة إذ لا تلحقهم مشقَّة في عبادتهم.

(نحو) وحذف العائد المجرور مع عدم شرطه للعلم به، وهكذا غير هذه الآية، وإن لم يُعلم لم يحذف نحو: «عجبت فيما رغبت»، إذا لم يدر رغبت فيه أو عنه، والمانع ـ وهو المشهور ـ يجعل «مَا» مَصدَرِيَّة، بمعنى: يمتثلون أمرهم، أي أمر ا لله إيَّاهُم.

(أصول الدين) استدلَّ بعضٌ بالآية على عدم عصمة الملائكة على معنى أنَّ لهم نفوسا تدعو للمعصية، وهو خطأ لأنَّ خوفهم خوف إجلال لا خوف وعيد

عند بعض، وصحَّحه بعض ونقله عن ابن عَبـَّاس رضي الله عنه، أو لَمَّا قـال [في حقِّهـم]: ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ (سورة الأنبياء: ٢٩) منعهم ذلك عن أن يكون لهم ميل للمعصية فهم معصومون عنهـا، والصحيح أنَّ خوفهـم خـوف وعيـد لقولـه تعـالى: ﴿وَهُـم مِّـن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ...﴾ (سـورة الأنبياء: ٢٩) ولا ينافي ذلك عصمتهم، وقد يجـاب بـأنَّ المـراد: أشـفقوا أن يكونـوا لم يبلغوا القدر الواجب من إجلاله عليهم، والخوف مستلزم للرجاء، فهـم راجـون ولا سيما أنـَّهم يخدمون أكرم الأكرمين.

[تـمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء السابع من تيسير التفسير، ويليه بحول الله الجزء الثامن، وأوَّله تفسير قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ... ﴾ (الآية: ٥١)]

الفهارس

الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية

فهرس بعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

تفسير سورة الرعد

تفسير سورة إبراهيم عليه السلام

تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل

التعريف بالمفسِّر*

- في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.
- في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن - بلده الأصلي - واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغا كبيراً.
- في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.
- منذ سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.
- في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها، وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.
- له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.
- تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

الكبير في بث الوعي الديـني، ونشـر الـروح العلميـة في هـذه الربـوع وفي غيرهـا بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

• في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسـجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنّة مثواه.

حقوق الطبع محفوظة
لدى وزارة التراث والثقافة
ص.ب: ٦٦٨ - الرمز البريدي: ١١٣ - مسقط - سلطنة عمان

رقم الإيداع : ٣٢٤ /٢٠٠٥ م

المطابع الذهبية ش.م.م/٢٤٦٩٩٩٧٢